– ١ –

ابن خفاجة الأندلسي

حياته و روائع أدبه

الطبعة الأولى

حلب – ٢٠١٤

شراع
للدراسات والنشر والتوزيع

حلب – هاتف: ٢٢٢١٦٩٣

أعلام أدباء الأندلس

- ١ -

ابن خفاجة الأندلسي

حياته وروائع أدبه

تأليف

الدكتور أحمد عبد القادر صلاحيّة

شراع

للدراسات والنشر والتوزيع

الموافقة على الطباعة

الرقم : ١١٣٦٩

التاريخ : ١٩/ ٢ / ٢٠١٤

الإهداء

أَطْفَــأَ اللَّيْـــلُ سِرَاجَـــهْ ... أَطْبَـــقَ الحُـــزْنُ رِتَاجَـــهْ

أَيُّهـــا المَمْلُـــوْءُ وَجْـــداً ... أَيْقَـــظَ القَلْـــبَ وَهَاجَـــهْ

أَيُّهَـــا المُشْـــتَاقُ لَيْلَـــى ... قَلْبُـــهُ أَبْـــدَى احْتِجَاجَـــهْ

أَيُّهَـــا السَّـــاهِرُ لَـــيْلاً ... عَكَّـــرَ الهَجْـــرُ مِزَاجَـــهْ

أَيُّهَـــا النَّـــاظِرُ صُـــبْحاً ... طَالِبـــاً مِنْـــهُ انْبِلاجَـــهْ

يَبْتَغِـــــي مِنِّـــــي دَوَاءً ... أَوْ يَـرَى عِنْـدِي عِلَاجَـهْ

يَشْـتَهِي شِـعْراً عَجِيْبـاً ... لَـمْ يَـدَعْ لِلسُّؤْلِ حَاجَـهْ

يَرْتَجِـــي نَثْـــراً مُعِيْـــداً ... لِجَبِـيْنِ الحُسْـنِ تَاجَـهْ

يُرْجِـــعُ الشِّـــيْبَ شَـــبَاباً ... يَجْعَـلُ الحُـزْنَ ابْتِهَاجَـهْ

مِثْـــلَ قَـــارُوْرَةِ سِـــحْرٍ ... مَـــــارِدٌ دُوْنَ زُجَاجَـــــهْ

إِنْ سَـــأَلْتُمْ ذَاكَ يَوْمـــاً ... وَتَمَـــــادَيْتُمْ لَجَاجَـــــهْ

فَخُـــذُوا عَنِّـــي كِتَابـــاً ... إِنَّـــهُ لِابْـــنِ خَفَاجَـــهْ

شَـــاعِرٌ حَقَّـــاً كَبِيْـــرٌ ... دُوْنَ كِبْـــرٍ أَوْ سَمَاجَـــهْ

امْتَطَـى شَـيْطَانَ شِـعْرٍ ... عَبْقَـــرٌ أَوْحَـــتْ نِتَاجَـــهْ

رَاكِبـــاً مَـــتْنَ خَيَـــالٍ ... خَارِقـــاً مِنْـــهُ سِيَاجَـــهْ

سَـــابِقاً كُـــلَّ جَـــوَادٍ ... لَا تَـــرَى مِنْـــهُ عَجَاجَـــهْ

غَائِصاً فِي بَحْرِ شِعْرٍ جَاعِلاً حُلْواً أُجَاجَهْ
إِنَّهُ ثَلْجٌ مَشُوْبٌ شَهْدَ نَحْلٍ أَوْ مُجَاجَهْ
مَازِجاً شِعْراً بِنَثْرٍ آَهِ مَا أَحْلَى مِزَاجَهْ
قَالَ شِعْراً مُسْتَقِيْماً قَوَّمَ الفِكْرُ اعْوِجَاجَهْ
صَاغَ شِعْراً مِنْ رِيَاضٍ ضَمِنَ الرَّوْضُ رَوَاجَهْ
عَاشَ فَرْداً كُلُّ أُنْثَى تَشْتَهِي مِنْهُ زَوَاجَهْ
وَسَرَى فِي اللَّيْلِ حَتَّى أَلِفَ اللَّيْلُ ادّلَاجَهْ
بَيْنَ سَهْلٍ وَجِبَالٍ شَقَّ كَالرِّيْحِ فِجَاجَهْ
صَاحَ " إِبْرَاهِيْمُ مَوْتاً " وَالصَّدَى يُعْلِي ارْتِجَاجَهْ
خَرَّ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ هَلْ بِهَذَا مِنْ سَذَاجَهْ
كَانَ فِي مَدْرَسَةِ الحُبْـ ـبِ كَأُسْتَاذٍ خَوَاجَهْ
كَانَ فِي أَنْدَلُسِ الخَيْـ ـرِ أَمِيْراً مِنْ خَفَاجَهْ
أَيُّ فَخْرٍ أَرْضَ شُقْرٍ حَسَدَتْهَا أَرْضُ بَاجَهْ
أَيُّ مَجْدٍ يَا لَشُقْرٍ إِنَّهُ كَانَ نِتَاجَهْ
هَلْ أَعُوْجُ الدَّهْرَ يَوْماً فِي مَكَانٍ كَانَ عَاجَهْ
وَأُنَادِيْ بِافْتِخَارٍ شَاعِرٌ يَا بْنَ خَفَاجَهْ

إلى ابن خفاجة الإنسان الأديب والشاعر العجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الرحمن الكريم المنّان الذي ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾، وصلّى الله على سيّدنا رسول الله محمّد بن عبد الله سيّد البيان؛ القائل فيه: « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً ، وَإِنَّ مِنَ البَيَان لَسِحْراً » ، ورضي الله – تبارك وتعالى– عن آله الطيّبين الطاهرين الأبرار ، وأصحابه الكرام العظام الأخيار ذوي الفصاحة والبلاغة والبيان .

الأندلس غصن كبير زاهر نضير من شجرة البيان العربيّ السامقة الباسقة المتسامية أبداً، أو هو نبت عربيّ من روضة البيان الأصيل، غرست بذرته في بيئة طبيعيّة غنيّة متميّزة ، وتنفّس في بيئة اجتماعيّة متنوّعة، فنبت نباتاً طيّباً حسناً، واستوى على سوقه؛ فأورق شعراً رائقاً، وأزهر نثراً لائقاً ، وأثمر بياناً فائقاً ، وأدباء كثيرين ، حملوا راية البيان باليمين . وسنحاول أن نعرّف في هذه السلسلة الأندلسيّة عدداً من فرسان البيان في الأندلس ، وها نحن أولاءِ نشرع في تعريف الأديب المبدع ابن خفاجة الأندلسي ، شاعر الصورة البيانيّة الفنّيّة ، وشاعر الطبيعة الأوّل ، وشاعر عصره ومصره من دون منازع ، والناثر البليغ ، وأحد أرباب البيان .

لقد كثرت الدراسات والبحوث في العصر الحديث عن الأديب الكبير والشاعر المفلق ابن خفاجة وشعره ، لشهرة هذا العلم في حياته وبعد مماته، ولذيوع شعره وجماله وعذوبته وروعته ، فلا تكاد تخلو دراسة عن الشعر الأندلسيّ أو شعر الطبيعة فيه من ذكر أو شعر له ، زيادة على عدد من الدراسات المفردة له ، والكتب المختصّة به ؛ إلّا أنّ أغلب هذه الدراسات والكتب التي تعرّضت له ضمن بحوثها أو أفردت له كلّ صفحاتها ما تزال قصيرة القامة ، ضئيلة الهامة ، بالقياس إلى طول قامة أدب ابن خفاجة واعتدالها وشموخها ، فما تزال جوانب كثيرة من حياة ابن خفاجة وأدبه غامضة ، ولاسيّما علاقته بدويلات ملوك الطوائف ، ثمّ علاقته بدولة المرابطين المغربيّة التي بسطت نفوذها على الأندلس، وعلاقته بمعاصريه من علماء وأدباء وقضاة، وما يزال نثره روضة أنفاً بحاجة إلى بحث أو بحوث موسّعة ومعمّقة في آن معاً ، بل ما يزال ديوانه شعراً ونثراً بحاجة ماسّة إلى تحقيق وجمع جديدين .

وقد حاولنا أن نضمّ ما تشتّت من نصوص نثريّة لابن خفاجة في ديوانه وذيله ، وأن نستدرك ما فات المحقّق من نصوص نثريّة ونرتّبها ترتيباً موضوعيّاً بحسب أنواعها ؛ من رسائل أدبيّة وديوانيّة وإخوانيّة، وجعلناه في ملحق في آخر الكتاب، للتنبيه على أهمّيّة هذا النثر وقيمته العالية، وكونه الوجه الآخر الغامض لأدب ابن خفاجة ؛ فيحثّ على درسه وتقويمه وتسليط الأضواء عليه .

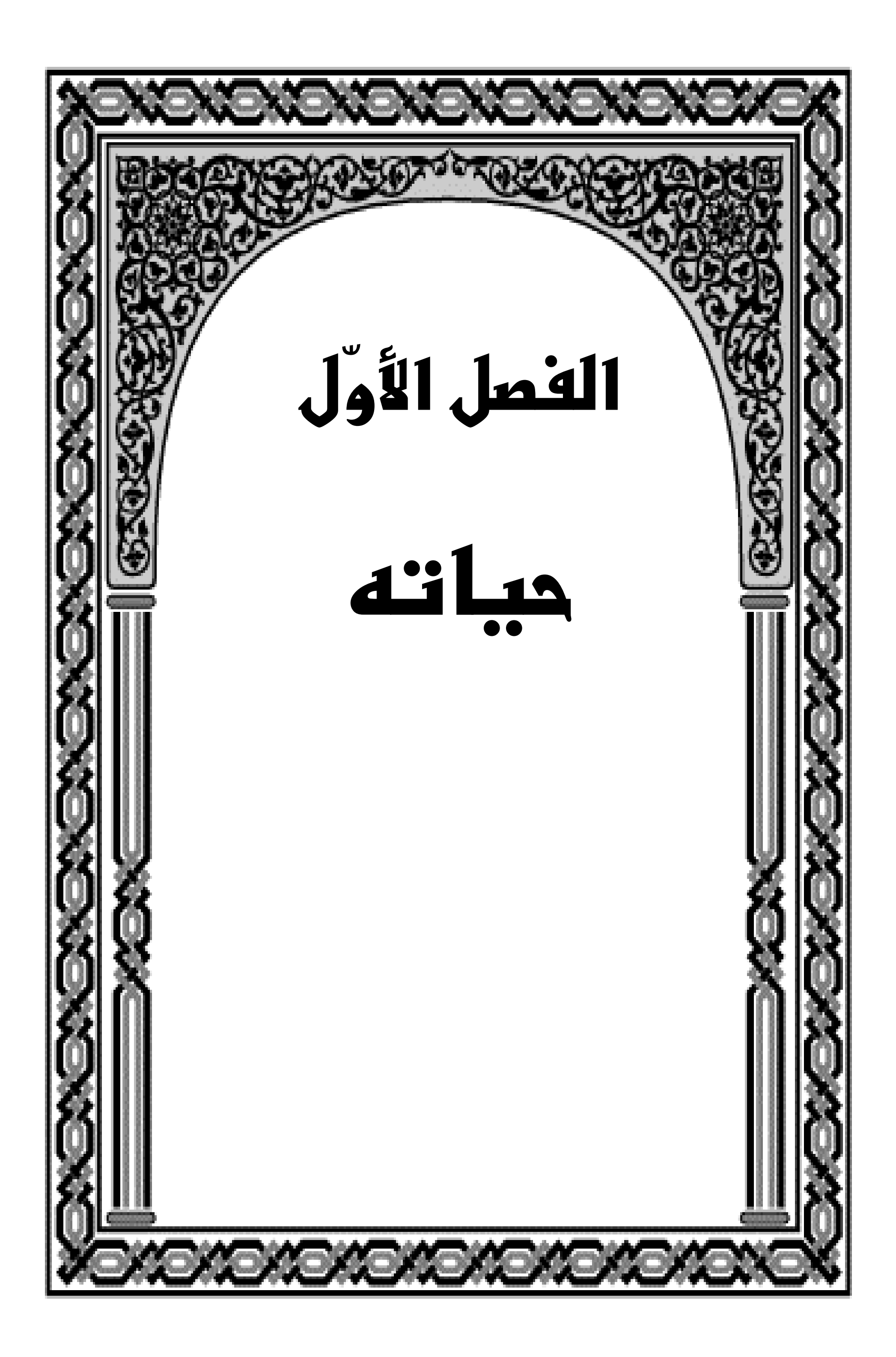
وقد جعلنا هذه الترجمة الواسعة للشاعر الناثر المبدع ابن خفاجة الأندلسي في فصلين اثنين ، خصصنا الأوّل منهما لتعريف هذا الأديب تعريفاً وافياً ؛ فأوردنا اسمه ونسبه، ثمّ عرضنا مراحل حياته، وذكرنا صفاته، وسردنا أسماء تلاميذه، وخصصنا الثاني منهما لعرض أدبه شعراً ونثراً ؛ فبدأنا بذكر الثناء على شعره، ثمّ عرضنا آثاره ، وعرّجنا على أنواع رسائله ، وتوسّعنا في سرد أغراضه الشعريّة .

ولقد قصرنا اهتمامنا في هذه السلسلة المخصصة لتعريف أعلام أدباء الأندلس على صنع سير حياتهم ، وسرد نماذج مطوّلة من أغراضهم الشعريّة، وكذلك صنعنا في سيرة حياة ابن خفاجة الأندلسي فقمنا برسم لوحتها بتفصيل وتعمّق وتحقيق اعتماداً على ديوان شعره بالدرجة الأولى ، ثمّ على مجموع نثره الذي جمعناه ، ثمّ على المصادر التي ترجمت له أو ذكرته أو أوردت أدبه وعلّقت عليه، مع سرد دقيق لآثاره ، وعرض واف لأنواع نثره ، وإيراد لنماذج موضّحة لأغراض شعره لتكون مدخلاً لدراسة أدبه دراسة فنّيّة مفصّلة .

والله وليّ التوفيق

حلب **أبو شراع**





الفصل الأوّل

حياته

الفصل الأوّل : حياته

أولاً : اسمه ونسبه

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهوّاريّ[1] الجزيريّ[2] الأندلسي.

ولد نحو منتصف القرن الخامس الهجري سنة (٤٥٠ أو ٤٥١ هـ)

وقد أغفلت المصادر التي عاصرته تحديده ، ونصّ على سنة (٤٥٠) كلّ من ابن خلّكان (ت ٦٨١ هـ) ، والبهائي الغزولي (ت ٨١٥ هـ) وشهاب الدين المقّري (ت ١٠٤١ هـ) وصدّيق القنّوجي (ت ١٣٠٧ هـ) والباباني الحلبي البغدادي (ت١٣٣٩هـ)[3] ، وأغفلت بعض المصادر سنة مولده ، وإن أشار بعضها إلى أنّ ابن خفاجة عاش (٨٣) سنة ، وأنّه توفّي سنة (٥٣٣ هـ)[4].

---

١ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٥٨ ، التكملة : ١٧٧.

٢ – معجم السفر : ١٥١ ، خريدة القصر : ١٤٧/١ ، وهي نسبة إلى بلدته جزيرة شقر .

٣ – وفيات الأعيان : ٥٦/١ ، مطالع البدور: ٨٤ ، نفح الطيب : ٤٨٨/٣ ، أبجد العلوم : ٩٢/١ ، هدية العارفين : ٩/١ .

٤ – انظر : سير أعلام النبلاء : ٥٢/٢٠ ، تاريخ الإسلام : ٣١٣/٣٦ ، الوافي بالوفيات : ٥٥/٦.

وفي قبالة ذلك ذكرت بعض المصادر أنّه عاش (٨٢) سنة ؛ ممّا ينتج عنه أنّه ولد سنة (٤٥١هـ)[١] .

وتفرّد ابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) في " التكملة " بإيراد خبر مهمّ عن ولادته، فقال بعد أن ذكر أنّه توفّي سنة (٥٣٣ هـ) : « وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .

قال أبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن المكناسي: سألته عن مولده فقال : سنة إحدى وخمسين وأربعمئة »[٢].

وهذا الخبر دليل قويّ على ترجيح (٤٥١هـ) سنة لولادة ابن خفاجة، لولا أنّ ابن الأبّار نفسه لم يكن واثقاً من ذلك تمام الوثوق ، ففي كتابه الآخر " المعجم في أصحاب القاضي الصدفي " ذكر أنّ ابن خفاجة عاش عاماً أو عامين بعد الحادية والثمانين من عمره[٣] !.

وأمّا مسقط رأس ابن خفاجة فهو في "شقر" أو جزيرة شقر ، وهي : « بليدة بين شَاطِبَة وبَلَنْسِيَة ، وإنّما قيل لها جزيرة لأنّ الماء محيط بها »[٤] ،

---

١ - بغية الملتمس : ١٩٨ ، وانظر بغية الوعاة : ٤٢٢/١ ، وذكر ابن بشكوال أنّه تجاوز الثمانين ولم يحدّد ، الصلة : ٩٩.

٢ - التكملة : ١٧٧

٣ - المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٦١ .

٤ - وفيات الأعيان : ٥٦/١ .

وهي من أعمال مدينة بلنسية ، إلى الجنوب منها ، وبينهما (١٨) ميلاً ، وقد أثنى عليها الجغرافيّون العرب ، فقال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) :

« جزيرة شقر : في شرقي الأندلس ، وهي أنزه بلاد الله ، وأكثرها روضة وشجراً وماء »[1] .

وقال ابن عبد المنعم الحميري (ق٨ هـ) عنها إنّها :

« حسنة البقعة، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار، وبها ناس وجلّة، وبها جامع ومساجد وفنادق وأسواق، وقد أحاط بها الوادي ، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب ، وفي الصيف على مخاضة »[2] .

وأمّا المؤرّخون والمؤلّفون الأندلسيّون فقد حبّروا جمال جزيرة شقر تحبيراً، وطرّزوا ثوب وصفها تطريزاً ، فوصفها ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) بأنّها :

« صحيحة الهواء قليلة الأدواء ، خضلة العشب زاهية الأزاهير ، وقد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور ، والأيك قد نشرت ذوائبها على صفيحه ، والروض قد عطّر جوانبها بريحه »[3] .

ونعتها ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) نعتاً جميلاً فقال :

---

١ – معجم البلدان : ٣/٣٥٤ .

٢ – الروض المعطار : ٣٤٩ .

٣ – مطمح الأنفس : ٣٤٨ (مع انتقاء بعض روايات النسخ الأخر) .

« وهي جزيرة قد أحدق النهر بها كما أحدق بحدقة شفر ، وحسبك من ماء سائح وطائر صادح ، وبطاح عريضة ، ورياض أريضة ، فلا ترى إلا انسجام الغَمام ، ولا تسمع إلا ترنم البلبل والحمام »[1] .

وجعلها ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) في كتابه"المغرب في حلى المغرب" في "كتاب الزهر في حُلى جزيرة شُقْر " ونقل عن الحجاري (ت ٥٨٤ هـ) في كتابه " المسهب " قوله في وصفها :

« عروس الأندلس المقلّدة من نهرها بسلك ، المتلفّعة من جنانها بسندس ، روض بسّام ، ونهر كالحسام ، وبلبل وحمام، ومنظر يحث على حسو المدام، كما قال حسنتها أبو إسحاق ابن خفاجة :

سَـــقْياً لَهَـــا مِـــن بِطَـــاحِ أُنْـــسٍ
وَدَوحِ حُسْـــــنٍ بِهَـــــا مُطِـــــلِّ
فَمَـــا تَـــرى غَـــيرَ وَجـــهِ نَهْـــرٍ
أطَـــــلَّ مِنْـــــهُ عِـــــذارُ ظِـــــلِّ[2]

لذلك كلّه لا غرو أن يفتن ابن خفاجة بجمالها ، زيادة على كونها مسقط رأسه ، وملعب صباه ، ومدرج شبابه، ومسرح أنسه ، فيسطّر أجمل الأشعار في وصفها أو في عشقها .

---

١ – المطرب من أخبار أهل المغرب : ١١١ .

٢ – المغرب في حلى المغرب : ٣٦٣/٢ ، والبيتان في ديوان ابن خفاجة : ١٤٠، مع بعض الاختلاف في الرواية .

ثانياً : مراحل حياته

١- حياته في عصر الطوائف:

إنّ ديوان ابن خفاجة – الذي صنعه الشاعر نفسه ، وقدّم لقصائده ومقطّعاته بذكر مناسباتها التي توضّحها ، وحدّد في بعضها تاريخها ومكان قولها وغرضها بدقّة – يُعَدُّ أهمّ مصدر من مصادر ترجمته قاطبة؛ لاحتوائه على كنز من المعلومات الخاصّة والعامّة لحياته ، لم يذكر أكثرها أصحاب التراجم الذين ترجم له أغلبهم ترجمات مختصرة وإن طال بعضها فبسرد المختارات الأدبيّة التي تنتقى له .

وسوف نرصد في هذا الجزء من سيرة حياته تعلّمه وتحصيله العلمي ، وأساتذته شيوخه ، وعلاقته بملوك الطوائف في عصره ، وجانباً من حياته الخاصّة .

ثمّة إشارة خاطفة يسيرة في تقديم ابن خفاجة لإحدى قصائده في رثاء صديقه الوزير ابن ربيعة تلمح إلى بعض المواد العلميّة التي كان يدرسها في صغره إذ قال :

« كان قد جمعت بينهما أذمّة الشباب ، ومحضر الكتّاب ، وقراءة الحساب والآداب »[١] ، وحضور الكتّاب يعني – بلا ريب – دراسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ولكنّ ابن خفاجة لم يحدّد مكان هذا الكتّاب،

---

١ – ديوان ابن خفاجة : ١٧٨ .

وإن غلب على الظنّ أنّه في بلدته شقر فهو « من أهل جزيرة شقر »[1] ، فقد أخذ فيها علومه الأولى ، ثمّ استكمل علومه الأدبيّة والدينيّة في المدائن الشرقيّة للأندلس المجاورة والقريبة من بلدته .

أمّا أساتذته فنعرف أربعة منهم ذكرهم ابن الأبّار في تكملته فقال : « جالس أبا عمران ابن أبي تليد ، ولقي أبا عليّ الصدفي ، وأخذ عن أبي إسحاق ابن صواب ، وروى عن أبي بكر ابن أسد »[2].

محمّد الصدفي (ت ٥١٤ هـ) ، وقد ذكر ابن الأبّار في معجمه أنّ ابن خفاجة لقيه في مُرْسِيَة، ولكنّه شكّ في سماعه عنه أي أخذه الحديث عنه ، قال :

« لقي أبا عليّ في تردّده على مرسية ، وأشكّ في سماعه منه ، وقد حدّث في ديوان شعره عن أبي بكر بن أسد عنه ، ولم يكن الحديث شأنه ، ولو عني بذلك لأمكنته الرواية عن العذري[3] وغيره من شيوخ أبي عليّ »[4]، ثمّ ذكر حديثاً رواه ابن خفاجة عن ابن أسد عن الصدفي فزعم ابن الأبّار أنّ ابن خفاجة لم يروه ، وإنّما نقله « من كتاب العقل لأبي سليمان داود بن

---

١ – التكملة : ١٧٥

٢ – التكملة : ١٧٥

٣ – هو أبو العبّاس أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي (ت ٤٧٨ هـ)

٤ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٥٨ .

المحبّر » (ت ٢٠٦ هـ) ، ويرى أنّه « يستكثر لأبي إسحاق- رحمه الله — ما أتى به ويستظهر لأدبه بتقييد العلم وكتابته »[١] .

ولا نرى مسوّغاً لشك ابن الأبّار في سماع ابن خفاجة عن القاضي أبي عليّ الصدفي فقد عاصره زمناً طويلاً نحو (٦٤) سنة ، ولا نرى دقّة في تعليل ذلك بأنّ الحديث لم يكن شأنه ، فإذا كان هذا صحيحاً في شبابه فهو ليس كذلك بعد اكتهاله وزهده ، وثمّة مقطوعة يقدّم لها ابن خفاجة بما يثبت ذلك : « وقال في الزهد عندما فرغ من نسخ كتاب السَّنَن والسُّنَن »[٢] .

وروى ابن خفاجة الحديث عن القاضي المحدّث أبي بكر عتيق بن أسد (ت ٥٣٨ هـ) وهو عالم مشارك في عدّة علوم دينيّة وأدبيّة [٣] .

وكرّر ابن الأبّار رأيه في عدم اعتناء ابن خفاجة برواية الحديث الشريف، فقال:

« وروى عن أبي بكر بن أسد ، ولو اعتنى بهذا الشأن لروى عن شيوخ شيوخه »[٤].

---

١ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٦٠ .

٢ – الديوان : ٢١٣ .

٣ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٥٨ — ٥٩ — ٦٠ ، الذيل و التكملة : ١١٨/٥

٤ – التكملة : ١٧٥، ١٧٦

ودرس ابن خفاجة كذلك على أبي عمران موسى بن أبي إسحاق بن صواب[1] (ت بعد ٥١٠ هـ) وهو من أهل المعرفة بالعربيّة واللغة والآداب، كما يقول ابن الأبّار ، ولكنّه لم يوضّح ما هي العلوم التي أخذها عنه ابن خفاجة .

وقال القاضي المكناسي(ت ١٠٢٥ هـ) :

« وعنه أخذ إبراهيم ابن خفاجة وله فيه مدح »[2] .

وقد نشأت بينهما صداقة حميمة طويلة ظلّت حتّى بعد عودة ابن صواب إلى العدوة المغربيّة ، واستمّرت زمناً مديداً حتى إن ابن خفاجة قد أرسل إليه رسالة طويلة بعد أن تجاوز الستّين من العمر ،قال:

« وكتبَ إلى الأستاذ أَبِي إسْحَاقَ ابْنِ صَوَابٍ بِالعُدْوَةِ -رحمه الله- وكانا مدّةَ كونه بِالأَنْدَلُسِ على أتمّ ما يكون الأصفياء اصطحاباً. ولما فصل إلى العُدْوَةِ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ عَائِشَةَ -رحمه الله- كتب معه إلى الأستاذ هناك يجدّد العهد بمخاطبته، ويستريح إلى مساهمته:

ما أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى شَحَطٍ ‍ ‍ ‍ مَنْ دَارُهُ الحَزنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُولُ

---

١ - التكملة : ١٧٥ .

٢ - جذوة الاقتباس : ٨٨ ، وفيه ابن صواف وهو وهم ، وأنّه توفي نحو ست وخمسمئة بمكناسة الزيتون وهو ابن إحدى وثمانين سنة ، وابن خفاجة يذكر أنّه أكمل الستّين حين إرسال الرسالة أي بعد (٥١٠ هـ) .

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ، وَيَسَّرَ لِقَاءَكَ، وَحَمَى أَرْجَاءَكَ، وَدَرَّكَكَ أَمَلَكَ وَرَجَاءَكَ. كَتَبْتُهُ عَنْ شَوْقٍ لَوْ خَامَرَ الحَجَرَ، لانْفَجَرَ، أَوْ بَاشَرَ الجُلْمُودَ، لَفَارَقَ الجُمُودَ. مَا غَضَضْتُ مِنْهُ مُتَعَلِّلاً بِحَدِيثٍ، أَوْ أَمَلٍ حَدِيثٍ، إلّا تَزَيَّدَ، وَتَأَكَّدَ، فَقَدْ بَاضَ عَلَى الدَّهْرِ وَفَرَّخَ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَاعِدُهُ فَرَسَخَ، فَهَا هُوَ يَنْبُو السِّنَانُ، وَهُوَ حَدِيدٌ، وَيَبْلَى الزَّمَانُ، وَهُوَ جَدِيدٌ...

هذِهِ – جَمَعَ اللهُ بِكَ – جُمْلَةُ حَالِي؛ فَلَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ حَالُكَ؟ وَمَا آمَالُكَ ؟ وَفِيمَ اعْتِمَالُكَ ؟ وَبِمَ اشْتِغَالُكَ ؟ وَإِلَى مَنْ تَسْتَرِيحُ مُفاوِضاً، أَوْ مَنْ تُجَادِلُ مُعَارِضاً ؟ وَالخَلِيلُ، قَلِيلٌ، بَلْ لَيْسَ بِغَرِيبٍ، أَنْ تَقُولَ مَا بِالدَّارِ مِنْ غَرِيبٍ! »[1].

ويعتذر ابن خفاجة في نهاية الرسالة لانقطاع الرسائل بينه وبين أستاذه القديم أبي إسحاق ابن صَوَابٍ ، ويعلّل ذلك مورداً معلومات ذاتيّة عنه :

«وَمِمَّا أَخَلَّ بِعَهْدِ المُطَالَعَةِ، أَنَّ الجَزِيرَةَ –حَرَسَهَا اللهُ– بِحَيْثُ لا يُسَافَرُ عَنْهَا، وَلا يُورَدُ عَلَيْهَا، هذَا إِلَى مَا أَنَا بِسَبِيلِهِ مِنْ ضَعْفٍ طَبِيعِيٍّ، وَكَسَلٍ يَتَشَبَّهُ بِعِيٍّ، وَكِلاهُمَا مُقْتَضٍ لِلْمُطَاوَلَةِ، وَالمُمَاطَلَةِ. فَانْدَرَجَتِ الأَيَّامُ، وَانْقَرَضَتِ الشُّهُورُ وَالأَعْوَامُ، وَالمُخَاطَبَةُ هَمَلٌ، وَالمُطَالَعَةُ أَمَلٌ، لا عَمَلٌ.

---

١ – الديوان : ٦٣، ٦٥ .

وَلَمَّا تَحَرَّكَ فُلانٌ – أَبْقَاهُ اللهُ – تَحَرَّكْتُ بِحَرَكَتِهِ، وَتَيَمَّنْتُ بِاسْمِهِ وَبَرَكَتِهِ، وَكَتَبْتُ مُطْلِعاً، وَمُسْتَطْلِعاً، وَحَمَّلْتُهُ شَرْحَ حُلْوِي وَمُرِّي مُسْتَوْدِعاً. وَهُوَ جَارِي بَيْتَ بَيْتَ، وَعِنْدَهُ مِنْ أَمْرِي كَيْتَ وَكَيْتَ. فَإِنْ تطَوَّلْتَ وَعَيْتَ، وَآنَسْتَهُ هُنَالِكَ وَرَعَيْتَ، آخِذاً بِالمَعْهُودِ مِنْ طَوْلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمَا تَخَيَّلْتُ أَنِّي قَادِمٌ فِي أُولئِكَ السَّفْرِ، وَطَالِعٌ مِنْ ثَنِيَّةٍ عَلَى ذلِكَ القُطْرِ، إِلَّا وَجَدْتُنِي أَنْتَفِضُ ارْتِيَاحاً، وَأَكَادُ أَخْفِقُ جَنَاحاً. وَلَوَدِدْتُ، أَنِّي كَمَا عَهِدْتُ، قُوَّةً مُرْتَاضَةً، وَنَفْساً نَهَّاضَةً، فَأَرِدَ مُجَدِّداً لِلْعَهْدِ وَلَوْ بِلَفْظَةٍ، وَمُتَزَوِّداً قَبْلَ الفَوْتِ وَلَوْ بِلَحْظَةٍ:

مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنَى
وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدا »[1]

وتضلّع ابن خفاجة من عدد من العلوم الأدبيّة واللغويّة ، ومن يقرأ شعره ونثره وخطبة الديوان النقديّة يجد أنّ ابن خفاجة على علم عميق بعلم الشعر ونقده ، ويصف في تلك الخطبة جنوحه إلى الأدب منذ أوائل شبابه ، واطلاعه على أشعار المشارقة وتقليدهم ، وتمكّنه من الشعر ، وتمكّن الشعر منه فيقول:

---

١ – الديوان : ٦٦، ٦٧ .

« فَإِنِّي كُنْتُ وَالشَّبَابُ يَرِفُّ غَضَارَةً، وَيَخِفُّ بِي غَرَارَةً، فَأَقُومُ طَوْراً وَأَقْعُدُ تَارَةً – قَدْ جَنَحْتُ إِلَى الأَدَبِ أَرْتَادُهُ مَرْتَعاً، وَأَرِدُهُ مَشْرَعاً. فَما تَصَفَّحْتُ مِثْلَ شِعْرِ الرَّضِيِّ، وَمِهيَارَ الدَّيْلَمِيِّ، وَعَبْدِ المُحْسِنِ الصُّورِيِّ، وَمَا حَذَا حَذْوهُ وَأَخَذَ مَأْخَذَهُ – حَتَّى تَمَلَّكَنِي مِنْ تِلْكَ المَحَاسِنِ الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةِ، وَالأَلفَاظِ الشَّفَّافَة الشَّائِقَةِ، مَا يُنَاسِبُ بُرْدَ الشَّبَابِ رِقَّةً، وَبَرْدَ الشَّرَابِ رَيْقَةً. فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ مِلْتُ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ، أُرَوِّقُهُ وَأُرَوِّيهِ، وَأُحَاوِلُ التَّشَبُّهَ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ فِيهِ.

أَعْتَقِدُ أَنَّ الشِّعْرَ مِنْ خِلالِ الجِلَّةِ، وَحِلْيَةِ النُّبَلاءِ العِلْيَةِ. وَاتَّفَقَ أَنِ اسْتَخْدَمْتُهُ شُؤُونِي، وَجَشَّمْتُهُ فِي بَعْضِ الأَمْكِنَةِ شُجُونِي، فأَلفَيْتُهُ خَفِيفاً، عَلَى الفُضَلاءِ لَطِيفاً، وَشَفِيعاً، عِنْدَ النُّبَلاءِ رَفِيعاً، فَتَرَقَّيْتُ فِي مَرْتَبَةِ خِدْمَتِهِ خَلاعَةً، وَتَرَقَّلْتُ فِي العِنَايَةِ بِهِ أَكْلَفُ بِهَا صِنَاعَةً:

عَرَفْتُ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبِي فَارِغاً فَتَمَكَّنَا»[1]

وكما يعتقد ابن خفاجة بأنّ الشعر من صفات الكرام والجلّة والنبلاء العلية ، فإنّه يعتقد – كذلك – بأنّ " أشعار الكرام كرام "[2].

---

١ – الديوان : ٦

٢ – الديوان : ٢٧١

وأمّا العلوم اللغويّة فقد ذكر عدد من المترجمين له أنّ له تآليف لغويّة[1] ، حتّى إنّ السيوطيّ (ت ٩١١ هـ) ترجم له في كتابه « بغية الوعاة في طبقات النحاة » على أنّه واحد منهم[2] ، بل إنّ ابن سعيد الأندلسيّ في كتابه « المغرب في حلى المغرب » ترجم لشاعرنا في باب العلماء[3] ! ، وترجم له صدّيق القنّوجي في باب « علماء الشعر » [4] .

وفي شعره مقطوعة صغيرة يحضّ فيها على طلب العلم ، قال فيها : « وقال يحمل على طلب العلم والتحلّي به :

عِـــشْ طَالِبــاً أَوْ عَلِيْمــاً فَالجَهْــلُ عَــيْنُ الــمُحَطَّهْ
وَلاَ يَصُـــــدُّكَ يَــــأْسٌ عَـنْ نَيْـلِ أَشْـرَفِ خُطَّـهْ
فَمَبْـــدَأُ النَّـــارِ سِـــقْطٌ وَأَوَّلُ الخَــــطِّ نُقْطَــــهْ [5]

بيد أنّ ابن خفاجة كان يميل منذ أن شبّ إلى المرح والعبث ، ولا يترك موقفاً يمكن أن يتندّر عليه إلّا وفعل ،كقوله في تفريق أحد الأساتذة لجمع من الطلاّب وهو منهم :

---

١ – تاريخ الإسلام : ٣١٣/٣٦ والوافي بالوفيات : ٥٥/٦ ، بغية الوعاة : ٤٢٢/١ .

٢ – بغية الوعاة : ٤٢٢/١

٣ – المغرب في حلى المغرب : ٣٦٧/٢ .

٤ – أبجد العلوم : ٩٢/١ .

٥ – الديوان : ٣٦٢ ، وثمّة مقطوعتان في طريقة تعليم الصبيان في ديوانه : ١٠١

لَقَـدْ نَثَـرَ الأُسْـتَاذُ مَنْظُـومَ عَقْـدِنَا

وَعَهْـدِي بِـهِ مِـنْ قَبْلِهَـا وَهْـوَ نَـاظِمُ

فَعُـدْنَا كَبَيْـتٍ غَيَّـرَ الكَسْـرُ نَظْمَـهُ

فَألفَاظُـــهُ كَسْـــرٌ وَمَعْنَـــاهُ قَـــائِمُ [١]

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن الجانب اللاهي من حياته الأولى ، فقد كان ابن خفاجة يجنح إلى اللهو والاستمتاع بمباهج الحياة في أحضان الطبيعة الأندلسيّة الفاتنة مع ثلّة من أصحابه ، ويصوّر لنا ذلك في صور فنّيّة متتابعة بديعة :

وَنَـــدِيٍّ أُنْـــسٍ هَـــزَّنِي ... هَـزَّ الشَّـرَابِ مِـنَ الشَّبَاب

وَاللَّيْـــلُ وَضَّـــاحُ الجَبِيـــ ... ـن قَصِـيرُ أَذْيَـالِ الثِّيَـاب

فَقَنَصْـــتُ مِنْـــهُ حَمَامَـــةً ... بَيْضَـاءَ تُنْسَـخُ مِـنْ غُـرَاب

وَالنَّـــوْرُ مُبْتَسِـــمٌ وَخَـــدْ ... دُ الـوَرْدِ مَحْطُـوط النِّقَـاب

يَنْـدَى بِـأَخْلاقِ الصِّـحَا ... بِ هُنَاكَ لا بِنَدَى السَّحَاب

وَكِلاهُمَـــا نَثْـــرٌ كَمَـــا ... نَثَـرُوا القَـوَافِيَ فِي الخِطَـاب

فَكَـــأَنَّ كَـــأْسَ سُـــلافَةٍ ... ضَحِكَتْ إِلَيْهِمْ عَنْ حَبَاب [٢]

ويلفت الانتباه استفادته من المصادر الأدبيّة كالشعر والنثر وما يتعلّق بهما في صنع بعض الصور الجديدة .

---

١ – الديوان : ٣٧١

٢ – الديوان : ٨٠

وهو يحرص على ذكر أصحابه معه وعلى الثناء عليهم في هذه المجالس والنوادي :

وَصَــــدْرِ نَــــادٍ نَظَمْنَــــا ... لَــــهُ القَــــوَافِيَ عِقْــــدَا
فِي مَنْــزِلٍ قَــدْ سَــحَبْنَا ... بِظِلِّــــهِ العِــــزَّ بُــــرْدَا
قَـدْ طَنَّـبَ الـمَجْدُ بَيْتـاً ... فِيــــهِ وَعَــــرَّسَ وَفْــــدَا
تَـذْكُو بِـهِ الشُّـهْبُ جَمْـراً ... وَيَعْبَــــقُ اللَّيْــــلُ نَــــدَّا
وَقَــــدْ تَــــأَرَّجَ نَــــوْرٌ ... غَــــضٌّ يُخَــــالِطُ وَرْدَا
كَمَــــا تَــــنَفَّسَ ثَغْــــرٌ ... عَــذْبٌ يُقَبِّــلُ خَــدَّا[1]

وساعده على ذلك سورة شباب ، وقدر من الوفر ، وحالة اجتماعيّة مضطربة في أواخر زمن دول الطوائف ، وقد قال فيه معاصره ابن خاقان : « وكان في شبيبته مخلوع الرسن ، في ميدان مجونه ، كثير الوسن ، بين صفا الانهتاك وحجونه ، لا يبالي بمن التبس ، ولا أيّ نار اقتبس »[2].

وأغلب المقطوعات الموجودة في ديوانه التي أشير في التقديم لها إلى أنّها من شعر الصبا تميل إلى اللهو والمرح والظرف ، كقوله : « وقال في الصبا يصف خالاً » ، و« قال في عصر الصبا يستهدي خمراً في يوم برد »

---

١ – الديوان : ٨٠

٢ – قلائد العقيان : ٧٤٠/٤ .

و« من قوله في الصبا يغضّ من معذّر » ، و « في النحول من قوله في الصبا » ، و « قال يداعب مغنّية في زمن الصبا »[1] .

« وقال في صباه :

إِنَّمَـــا العَـــيشُ مُـــدامٌ أَحمَـــرُ

قـــامَ يَســـقيهِ غُـــلامٌ أَحـــوَرُ[2]

ومن أهمّ ما يمثّل حياته في هذه المرحلة مقطوعة قالها في زمن الصبا تصف صباه وصبوته ولهوه مع أترابه على ملعب طبيعة جزيرة شقر :

« وممّا قاله في زمن الصبا يصف أيّام مرحه وطربه ، وعشايا لهوه ولعبه ، بباب الزخارف ؛ من أبواب جزيرة شقر:

أَلَا رُبَّ يـــومٍ لي ببـــابِ الزَّخَـــارِفِ

رَقيقِ حَواشي الحُسْنِ حُلْوِ الـمَرَاشِفِ

لَهَـوتُ بِـهِ وَالـدَّهرُ وَسْـنَانُ ذاهِـلٌ

وَغُصْـنُ الصِّبَا رَيَّـانُ لَـدْنُ الـمَعَاطِفِ

أُعَــاطِي تَحَايـا الكَـاسِ والآسِ فِتيَـةً

تَخايَـلُ سُـودَ العُـذرِ بـيضَ السَّـوَالِفِ

---

١ – الديوان : الصفحات : ١١٠ ، ١٣٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٥٢ .

٢ – الديوان : ١٣٥

وَذَيــلُ رِداءِ الغَـيمِ يَخفِـقُ وَالصَّـبَا

تَخُبُّ وَمَوجُ النَّهْرِ ضَخْمُ الرَّوادِفِ

يَطــيرُ بِنَـا فِيـهِ شِـرَاعٌ كَأَنَّـهُ

إِذا ضَـرَبَتْهُ الـرِّيحُ أَحشاءُ خَـائِفِ

وَقَـدْ بَـلَّ أَعْطَافَ الثَّرَى دَمعُ مُزنَـةٍ

تَحَيَّـرَ في جَفـنٍ مِـنَ النَّـوْرِ طـارِفِ

زَمـانٌ تَـوَلَّى بَـينَ كَـأْسٍ تَلِيْـدَةٍ

تُـدَارُ وَعَـيشٍ لِلحَداثَـةِ طـارِفِ

وَشَمـسٍ لِـلألاءِ الزُّجاجَـةِ طَلْقَـةٍ

وَظِـلٍّ لِرَيعـانِ الشَـبيبَةِ وارِفِ[١]

وتحدّث ابن خفاجة – غير مرّة – عن رؤيته في الحياة وسنّته في العشق التي لا تتبع سَنناً معيّناً، ولعلّها تشبه حياة الفروسيّة التي تجمع بين القوّة والحماسة والرقة واللين ، والعشق العفيف واللهو الظريف ، وتمزج بين ما يسمّى بالحب العذريّ والحب العمريّ ، يجمل ابن خفاجة كلّ هذه الرؤى المتناقضة في قوله الجميل :

إِنّي وَإِن كُنـتُ هَضْـبَةً جَلَـداً	أَهتَـزُّ لِلحُسـنِ لَوعَـةً غُصُـنا
قَسَـوتُ بَأسـاً وَلِنـتُ مَكرُمَـةً	لَم أَلتَـزِمْ حالَـةً وَلا سَـنَنا

---

١ – الديوان : ٢١٠، ٢١١

لَستُ أُحِبُّ الـجُمودَ في رَجُلٍ تَحسِــبُهُ مِــن جُمــودِهِ وَثنــا
لَمَ يَكحَلِ السُـهدُ جَفنَـهُ كَلَفاً وَلا طَوى جِسمَهُ الغَرامُ ضَنى
فَمَن عَصى داعِيَ الهَوى فَقَسا وَكانَ صلداً مِنَ الصَّفا خَشِنا
فَـإِنَّني وَالعَفـافُ مِـن شِـيَمي آبى الـدَّنايا وَأَعشَـقُ الحَسَـنا
طَــوراً مُنيــبٌ وَتــارَةً غَــزِلٌ أَبكـي الخَطايا وَأَنـدُبُ الـدِّمَنا
إِذا اعتَرَت خَشيَةٌ شَكا فَبَكى أَو انتَحَـت راحَـةٌ دَنـا فَجَـنى
كَـأَنَّني غُصــنُ بانَــةٍ خَضِــلٌ تَثنيـهِ ريـحُ الصَّبا هُنَـا وَهُنَـا[1]

ومع كلّ هذا السجلّ الطويل من الغزل والمغامرات العشقيّة فإنّ ابن خفاجة عاش عمره « صرورة لم يتزوّج قط »[2] كما قال ابن الأبّار ، ولم يعرف سحر الحنان الأبويّ ومعنى الدفء الأسريّ .

ولا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن أسرة ابن خفاجة سوى أنّ له أختاً أو أختين ، وذلك في رثائه لابن أخته محمّد الذي توفّي في أغمات فبكاه ابن خفاجة بكاءً مريراً [3]، ونعرف كذلك أنّ الشاعر ابن الزقّاق عليّ بن عطيّة (ت نحو ٥٢٨ هـ) هو ابن أخته أيضاً ، فقد أرجع الحجاري إبداعه في الشعر زيادة على طبعه «كونه استمدّ من خاله أبي إسحاق ابن خفاجة

---

١ – الديوان : ١٢١، ١٢٢

٢ – التكملة : ١٧٦

٣ – انظر الديوان : ٢٦٧ .

ونزع منزعه »[1] ، ولا نعلم بالتحديد أمحمّد هو أخو ابن الزقّاق أم لا ، وإن كنّا لا نجد لمحمّد أيّة مرثيّة أو أيّ ذكر في ديوان ابن الزقّاق ممّا قد يرجّح أنّه ابن خالته وليس أخاه ، ممّا يجعل لابن خفاجة أختين اثنتين .

وإنّ تأريخ ابن خفاجة لبعض مقطّعاته وقصائده ومعرفة بعضها الآخر بما يُستدلّ به من قرائن يساعد في رسم صورة تطوّريّة أقرب إلى الدقّة لحياته

وأوّل خبر مؤرَّخ في ديوان ابن خفاجة يرجع إلى سنة (٤٨٠ هـ) أي حينما كان عمره زهاء (٣٠) سنة مع أستاذه ابن أبي تليد (ت ٥١٧ هـ) ويحدّد ابن خفاجة المكان والزمان ، ويقصّ الحدث – كما يريده – بدقّة :

« وقال: "ذهبت يوماً أريد باب السَّمَّارين بِشَاطِبَةَ، ابتغاء الفرجة على جرية ذلك الماء بتلك الساقية، وذلك سنة ثمانين وأربعمئة. وإذا الفقيه أبُو عِمْرَانَ ابنُ أَبِي تَلِيد– رحمه الله– قد سبقني إلى ذلك، فألفيته جالساً على مصطبة كانت هناك مبنيّة لهذا الشأن، فسلّمت عليه، وجلست إليه متأنّساً به وبتلك الحال. فأنشد أثناء ما تناشدناه قول ابْنِ رَشِيق، رحمه الله:

يَا مَنْ يَمُرُّ وَلا تَمُرْ ... رُ بِهِ القُلُوبُ مِنَ الحُرَقْ
بِعِمَامَةٍ مِنْ خَدِّهِ ... أَوْ خَدُّهُ مِنْهَا اسْتُرِقْ
فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا ... قَمَرٌ تَعَمَّمَ بِالشَّفَقْ

[1] – المغرب في حلى المغرب : ٣٢٣/٢ .

فَـــإِذَا بَــــدَا وَإِذَا مَشَـــى ‏ ‏ ‏ ‏ وَإِذَا رَنَـــــا وَإِذَا نَطَـــــقْ

شَـــغَلَ الجَـــوَانِحَ وَالجَـــوَا ‏ ‏ ‏ ‏ رِحَ وَالخَـــــوَاطِرَ وَالحَـــــدَقْ

فقال، وقد أعجب بها جدّاً، وأثنى عليها كثيراً: أحسن ما في القطعة حسن سياقة الأعداد. فقلت له: هي حسنة، ولكنّها دون موقعها منك، وإلّا، ألست تراه قد استرسل، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فيُنزل بإزاء كلّ واحد منها ما يلائمها؟ وهل يحسن أن يُنزِل بإزاء قوله «وَإِذَا نَطَقْ»، قوله «شَغَلَ الحَدَقْ»؟ وكأنّه نازعني القول في هذا غاية الجهد، فقلت أنسج على ذلك المنوال:

وَمُهَفْهَـــــفٍ طَـــــاوِي الحَشَـــــا

خَنِـــــثِ الـــــمَعَاطِفِ وَالنَّظَـــــرْ

مَـــــــلأَ العُيُـــــــونَ بِصُــــــورَةٍ

تُلِيَـــــــتْ مَحَاسِــــــنُهَا سُــــــوَرْ

فَــــــإِذَا رَنَـــــــا وَإِذَا شَـــــــدَا

وَإِذَا سَــــــــعَى وَإِذَا سَــــــــفَرْ

فَضَــــــحَ الــــــمُدَامَةَ وَالحَمَـــــا

مَــــــةَ وَالغَمَامَـــــــةَ وَالقَمَـــــــرْ

فاستحسنها ابنُ أَبِي تَلِيد" »[١].

---

١ – الديوان : ٣٥٧، ٣٥٨

وهذا نموذج بسيط من اللقاءات الأدبيّة البسيطة العفويّة التي كانت تجري في ذلك الوقت ، وأشباه هذه القصص التي يقصّها الشعراء عن تفوّقهم كثير ، ودلالتها واضحة في إظهار المهارات والمقدرات الشعريّة ، هذا من جانب ؛ ومن جانب آخر نجد أنّ مكان الخبر هو شاطبة ، وفي السنة نفسها سنة (٤٨٠ هـ) نجد خبراً آخر مسرحه هو بليدته شُقْر؛ ممّا يدلّ على أنّه كان يتردّد بين شقر والمدائن الشرقيّة للأندلس كثيراً ، ولاسيّما شاطبة ومرسية وبلنسية بل يقيم فيها ، فهو يصف سيلاً أصاب جزيرة شقر وما أحدثه من دمار هائل في الأبنية بطريقة ساحرة في مقامة له أو مقالة ، « وقال من مقامة له في صفة سيل حدث بالجزيرة سنة ثمانين وأربعمئة :

أَلا طَـــــمَّ بَحْــــرُ أَتِيٍّ طَمـــــا
وجَـــدَّ انْكِفَـــاءُ سَمَـــاءٍ تَجُـــودْ

فَـــأَهوَت تَخُـــرُّ هُنـــاكَ البِـــنى
كَمـــا تَتَلَقّـــى الـــمُلوكَ الوُفـــودْ

وَمَالَـــتْ كَـــأَنَّ عَلَيهـــا صَـــلاةً
فَـبَعضٌ رُكـوعٌ وَبَعـضٌ سُـجودْ»[1]

وفي سنة (٤٨١ هـ) يصف ابن خفاجة عودته من إحدى أسفاره الكثيرة في يوم شاتٍ مبلول الجناح إلى منزله في جزيرة شقر الذي يبدو متواضعاً متهدّماً بسبب توالي الأمطار على سقفه ، ويطلب من أحد

---

١ – الديوان : ٣٠٨

الكبراء الأثرياء في جزيرته أن يعطيه بيتاً يسكنه ، فيجزيه بيتاً من الشعر يخلّده ، قال:

«ولحق بمنزله من سفر أصابه فيه مطر توالى، ثمّ ترادف وتكاثف حتّى تجاوز المقدار، وعاث فخرب الديار، وذلك في سنة إحدى وثمانين وأربعمئة ، فقال يصف ما كان منه في سفره، وكيفية صَدَره، وحال دار سكناه، وملقى عصاه:

أَما وَمَسيلٍ ماثِلِ الغَيثِ كَالسَّطْرِ ... يَـؤُمُّ قَـرَاراً دَائِـرَ الـمَاءِ كالعَشْـرِ

وَقَدْ غَمَرَ القِيْعَانَ مَاءٌ مُصَنْدَلٌ ... كَمـا أَتـرَعَ السَّـاقِي الزُجاجَـةَ بِـالخَمرِ

لَقَدْ أُبْتُ بَينَ الرَّعْدِ وَالقَطْرِ أَشْتَكي ... بِسَمعِيَ مِن وَقْرٍ وَظَهرِيَ مِن وِقْرِ

وَها أَنَا مَبْلُولُ الجَناحِ مِنَ الحَيَا ... بِصَـوْبٍ وَمَـذعُورُ الفِـراخِ مِـنَ الـوَكرِ

بِـدَارٍ سَـقَتْها دِيمَـةٌ إِثْـرَ دِيمَـةٍ ... فَمالَت بِها الجُدرانُ سَطراً عَلى سَطرِ

فَمِن عارِضٍ يَسقي وَمِن سَقفِ مَجلِسٍ ... يُغَنّي وَمِن بَيتٍ يَميلُ مِنَ السُّكرِ

إِذا ما وَهَى رُكنٌ فَأَهوى فَإِنَّني ... لأشجى مِنَ الخَنساءِ تَبكي عَلى صَخرِ

فَصِلْنِي بِدَارٍ مِنْ دِيَارِكَ مُجْمِلاً ... فَلِلـنَّجْمِ أَنْ يَحْتَـلَّ مَنْزِلَـةَ البَـدْرِ

يُنَافِسُ حُسْناً كُلُّ بَيْتٍ أَحُلُّهُ ... بِهَـا كُـلَّ بَيْـتٍ تَبْتَنِيْـهِ يَـدُ الشُّـكْرِ

فَلا تَعْلَمُ البَيْتَ الرَّفِيْعَ مِنَ البِنَى ... خَيَالاً مِنَ البَيْتِ البَدِيْعِ مِنَ الشِّعْرِ [1]

وذكر ابن خفاجة في تقديمه لبعض قطعه الشعريّة أنّه صدر من العدوة

---

١ - الديوان : ٣٠٧ ، ٣٠٨

المغربيّة سنة (٣٨٣ هـ) ؛ أي إنّه كان في المغرب زمناً محدّداً بين سنتي (٣٨١-٣٨٣ هـ) ، ولكنّه لم يذكر المكان ، وقد قال في أثناء غربته هذه مقطوعة ذائعة شهيرة[١] .

وثمّة خبر شديد الأهمّيّة – على وجازته – غفل عنه جلّ من عرّف ابن خفاجة من المحدثين ، يدلّ على أنّ ابن خفاجة ذهب إلى المهديّة في إفريقيّة (تونس) منتجعاً الأمير تميم بن المعزّ الصنهاجيّ (ت٥٠١ هـ) ، قال ابن الأبّار في ترجمة الأمير تميم :

« انتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس منهم أبو إسحاق ابن خفاجة في صباه »[٢] .

وهو خبر ذو دلالات عدّة يمكننا أن نستخلصها، منها أنّ ابن خفاجة كان شاعراً مكتمل الأدوات منذ ريعان شبابه ، حتّى تستقبله بلاطات الملوك والأمراء ، ومنها – أيضاً– أنّه لم يكن على درجة كبيرة من الوفر والغنى حتّى تبعده عن انتجاع الملوك ومدحهم ، بل إنّه لا يقتصر على ملوك ما تبقّى من الأندلس ، بل يعبر البحر ليجوز إلى المغرب وإلى وسط إفريقيّة ليصل إلى مدينة المهديّة ، ليمدح أميراً من أمراء الصنهاجيّين، وأمّا ضيعته التي يذكرها في التقديم لشعره مرّتين [٣] فلعلّه اقتناها بما كسبه

---

١ – انظر الديوان : ٣٦٧ .

٢ – الحلّة السيراء : ٢/٢٢ .

٣ – انظر الديوان : ٣٣ – ٤٨ .

فيما بعد ، فقد رأيناه يطلب من أحد الأثرياء أن يسكنه في بيت بعد أن تداعى بيته جرّاء المطر .

ومنها أيضاً أنّ الصورة التي يرسمها ابن خفاجة لنفسه ويصوّرها للمؤرّخين من أنفته من الطلب وعدم تعرضه للملوك في عهد الطوائف ليست دقيقة ، فقد كان بعض المؤرّخين يتلقّفون أخباره وأشعاره من بعيد كابن بسّام (ت ٥٤٢ هـ) الذي كان يراسل الأدباء والشعراء البعيدين منه ليزوّدوه بأخبارهم وأشعارهم ، قال :

« لا أعرفه تعرّض لملوك الطوائف بوقتنا على أنّه نشأ في أيّامهم ، ونظر إلى تهافتهم في الأدب وازدحامهم »[1] .

وقال ابن الأبّار عن ابن خفاجة إنّه « كان نزيه النفس لا يتكسّب بالشعر ولا يمتدح رجاء الرفد ...مقتصراً على ما ملكت يده من ضيعة »[2] .

غير أنّ قراءة دقيقة لديوانه تبيّن أنّه لم يكن عزوفاً عن السلطان وبلاطه ، بل كان « يحمل على خدمة السلطان :

حَسْـبُ الفَـتى حِلْيَـةً أَنْ يَسْـتَقِلَّ بِـهِ
مَلْـكٌ عَزيـزٌ فَـلا يَقعُـدْ بِـكَ العَطَـلُ

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٥٤٢/٢/٣ .

٢ – التكملة : ١٧٦.

فَمـا احتَمـى جانِـبٌ لَمْ يَحمِـهِ مَلِـكٌ

وَلا مَضــى صــارِمٌ لَم يُمْضِــهِ بَطَــلُ[1]

وكان في بلاط المعتصم ابن صمادح (ت ٤٨٤ هـ) في المريّة ، ويحضر مجالس أنسه ، فهل من المعقول أن يحضر ابن خفاجة مجلس أنس لابن صمادح ولا تكون له قصيدة في مدحه : « وطرأ أنّ الـمُعْتَصِمَ- رحمه الله- أحضر مجلسه في بعض ليالي أنسه صورة حسنة قد ركّبت من ريحان في هيئة جارية، ثمّ طيّبت وقلّدت، وأمر من حضر من الشعراء بوصفها. فقال في ذلك:

أَما وَاعتِزازِ الضَّيفِ وَالسَّيفِ وَالنَّدى

بِخَـيرِ مَليـكٍ هَـشَّ في صَـدْرِ مَجلِـسِ

بَــدا بَــينَ كَــفٍّ لِلسَّــماحِ مُغيمَــةٍ

تَصــوبُ وَوَجــهٍ لِلطَّلاقَــةِ مُشْــمِسِ

لَقَــد زَفَّ بِنْتــاً لِلخَميلَــةِ طِفْلَــةً

يَهُـزُّ إِلَيهـا الدَّسْـتُ أَعطـافَ مُعْـرِسِ

تُشــيرُ إِلَيهــا كُــلُّ راحَــةِ سَوْسَــنٍ

وَتَشْـخَصُ فيهـا كُـلُّ عَـيْنٍ لنَـرجِسِ

تَنـوبُ عَـنِ الحَسْـناءِ وَالـدَّارُ غُربَـةٌ

فَمــا شِـئْتَ مِـنْ لَهْـوٍ بِهـا وَتَـأَنُّسِ

---

١ - الديوان : ٢٣٩

تَحَفَّــتْ بِهــا رِيْــحٌ بَلِيْــلٌ وَرَبْــوَةٌ
بِمَسْــرى غَمــامٍ جادَهــا مُتَــبَجِّسِ
فَجاءَت تَروقُ العَينَ في ماءِ نَضرَةٍ
تَسُنُّ عَلى أَعطافِها ثَوبَ سُندُسِ
وَتَمْلأُ عَينَ الشَمسِ لألاءَ بَهْجَةٍ
وَحُسنٍ وَأَنْفَ الريْحِ طِيْبَ تَنَفُّسِ[1]

كما أنّ ابن خفاجة يذكر خبراً آخر يدلّ على نوع من الاتصال مع المعتمد بن عبّاد ،الذي أسر سنة (٤٨٤ هـ) وتوفّي سنة (٤٨٨ هـ) بدأه كالخبر السابق بـ "طرأ ": قال في التقديم له:« وطرأَ أنّ جارية لِلْمُعْتَمِدِ – رحمه الله– تسمّى جَوْهَرَةَ، خاطبته أثناء كونه محاصراً لِأليِيطَ، وأثبتت اسمها في العَنْوَنة تحت الختم لئلّا تقع عليه عين فقال في ذلك :

قالَت وَقَد حَطَّتِ العُنوانَ جَوهَرَةٌ
عَن مُرتَقى رُتبَةٍ قَد سَنَّها الأُوَلُ
لا غَرْوَ أَنْ صِرتُ تَحتَ الخَتمِ واقِعَةً
إِنَّ الجَواهِرَ تَحتَ الخَتمِ تُحتَمَلُ[2]

فهل من المنطقيّ أن يعرف ابن خفاجة أخبار جواري المعتمد ولا

١ – الديوان : ١٥٥
٢ – الديوان : ٢٧٩

يعرف المعتمد نفسه ولا يمدحه . وفي ديوانه نحو عشرين قصيدة ومقطّعة وأجزاء من قصائد لم يُترك منها إلّا أبيات معدودة ؛لا يعرف لمن وجّهت إليهم ، فلماذا اجتزئت ولم يذكر ابن خفاجة أصحابها ؟ ومنها قصيدتان مطوّلتان محبّرتان رائعتان لا يمكن أن ينسى ابن خفاجة لمن نظمهما فلماذا لم يذكره في التقديم لهما واقتصر على قوله : « وقال » و« وقال يمدح ويتشكّر »[١] .

فهل بعض هذه القصائد والمقطّعات لعدد من ملوك الطوائف ، ضرب ابن خفاجة صفحاً عن ذكر أسمائهم لأنّه لا يريد أن يفتح صفحة علاقته بدولة قد انقضت أيّامها وذهبت ريحها ، وربّما يكون له في فتحها ما لا يحمد عقباه .

نعم لقد طويت صفحة دويلات الطوائف ، ولم يكن ابن خفاجة من شعرائها البارزين لصغر سنّه إذ ولد نحو (٤٥٠ – ٤٥١هـ) ، وبدأت تتلاشى منذ (٤٨٣ هـ)، فقد شبّ ابن خفاجة في أواخرها وذروة اضطرابها ، لذلك لم يكن اتّصاله بملوكها عميقاً ولم يرثِ ملوكها وممالكها بعد زوالها كما فعل كلّ من ابن اللبّانة الداني (ت ٥٠٧ هـ) وابن عبدون اليابري (ت نحو ٥٢٩ هـ)، ولكنّنا نجد تعاطفاً خفيّاً ، وحزناً شجيّاً عليها في قطعة صغيرة :

« وقال في صفة مصنع جميل خلع سلطانه :

---

١ – انظر الديوان : ١٧٢ ، ٢٥٨.

وَمُرتَبَــعٍ حَطَطــتُ الرَّحــلَ مِنــهُ
بِحَيــثُ الظِّــلُّ وَالمــاءُ القَــراحُ
تَخَــرَّمَ حُسْــنُ مَنْظَــرِهِ مَليْــكٌ
تَخَــرَّمَ مُلْكَــهُ القَــدَرُ الــمُتاحُ
فَجِريَــةُ مــاءِ جَدْوَلِــهِ بُكــاءٌ
عَلَيــهِ وَشَــدوُ طائِــرِهِ نِيــاحُ»[1]

وعاد ابن خفاجة من العدوة المغربيّة إلى العدوة الأندلسيّة سنة (٤٨٣هـ) والتقى الشاعر ابن وهبون (ت نحو٤٨٣ هـ) بين لورقة والمريّة ، وترافقا في طريق العودة، قال :

« صاحبت في صَدَرِي من المَغْرِبِ، سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة، أبَا محمّد عبدَ الجليلِ بنَ وَهْبُونَ، شاعر المُعتمدِ. وكان أبُو جعفرِ بنُ رشيقٍ يومئذ قد تمنّع ببعض حصون مُرْسِيَةَ، وشرع في النفاق وقطع السبيل وإخافة الطريق. ولما حاذينا قلعته، وقد احتدمت جمرة الهجير، وملّ الركب رسيمه وذميله، وأخذ كلٌّ منا يرتاد مقيله، اتّفقنا على أن لا نطعم طعاماً، ولا نذوق مناماً، حتّى نقول في صورة تلك الحال، وذلك الترحال، ما حضر. وشاء الله أن

١ – الديوان : ١٣٧

أجبل ابنُ وَهْبُونَ فاعتذر. وأخذت عفو خاطري، فقلت أريض نار نزوته، وأعرّض بعظيم لحيته:

أَلَا قُــلْ لِلمَــريضِ القَلْــبِ مَهْــلاً
فَــإِنَّ السَّـيْفَ قَــدْ ضَــمِنَ الشِّــفَاءَ
وَلَمْ أَرَ كَالنِّفَــــاقِ شَــــكاةَ غِــــرٍّ
وَلا كَــــدَمِ الوَريـــــدِ لَــــهُ دَواءَ
وَقَــدْ دَحَّــى النَجيــعُ هُنَــاكَ أَرْضــاً
وَقَــدْ سَمَــكَ العَجــاجُ بِــهِ سَمَــاءَ
وَدِيــسَ بِــهِ اِنْحِطَاطــاً بَطْــنُ وَادٍ
قَــدَ اعْشَــبَ شَــعْرَ لِحِيَتِــهِ ضَــراءَ»[1]

وللخبر تتمّة ، وإن جعله ابن خفاجة في خبرين منفصلين ، فقد رأى في أثناء الطريق المخيف رأسين مقطوعين موضوعين على أكوام من الصخر فوصفهما ابن خفاجة وأنشد القطعة أمام ابن وهبون الذي تطيّر بها وتشاءم منها ، وتحقّق ما ظنّ؛ فقُتل ابن وهبون وسُلب بعض متاع ابن خفاجة بعد وقت يسير :«وقال يصف خَرْقاً مخوفاً، ورأسين قد وضعا على كدس صخر ببعض الطريق. وأنشدها أبَا محمّد عَبدَ الجَليلِ بنَ وَهْبُونَ –

١ – الديوان : ٣٦٧ ، ٣٦٨

رحمه الله– وكان رفيقه في سفره. فتطيّر بها عَبدُ الجليلِ، فأدركته الطيرة ثالث يومهما فقُتِل، وسُلِب بعض متاع قائل الشعر:

أَلا رُبَّ رَأسٍ لا تَـــزاوُرَ بَيْنَـــهُ
وَبَـــينَ أَخيـــهِ والـــمَحَلُّ قَريـــبُ

أَنـافَ بِـهِ صَـلدُ الصَّـفا وَهـوَ مِنبَـرٌ
وَقـامَ عَلـى أَعْـلاهُ وَهْـوَ خَطيـبُ

يَقُـولُ حِـذَاراً لا اغْـتِرَاراً فَطَالـمَا
أَنَـاخَ قَتِيـلٌ بِي وَمَـرَّ سَـلِيبُ

وَيُنْشِـدُنَا إِنَّـا غَرِيبـانِ هَاهُنَـا
"وَكُـلُّ غَرِيـبٍ لِلغَرِيـبِ نَسِـيبُ"

فَـإِنْ لَـمْ يَـزُرْهُ صَـاحِبٌ أَوْ خَلِيلَـةٌ
فَقَـدْ زَارَهُ نَسْـرٌ هُنَـاكَ وَذِيـبُ

فَهَـا هُـوَ أَمَّـا مَنْظَـراً فَهْـوَ ضَـاحِكٌ
إِلَيْـكَ وأَمَّـا نِصـبَةً فَكَئِيـبُ[1]

وذكر ابن خاقان هذين الخبرين في خبر واحد ؛ نقلاً عن ابن خفاجة نفسه بيد أنّه جعل الأبيات الأربعة الأخيرة من ردّ ابن وهبون وشعره قال : « وأخبرني أنّه لقي عبد الجليل الشاعر بين لورقة والمريّة ، والعدوّ يلتبط بفرع تلك الربا ، ولايزال يروّع حتّى مهبّ الصبا ، فباتا ليلتهما بلورقة يتعاطيان

---

١ – الديوان : ١٣٥، ١٣٦

أحاديث حلوة المساق ، ويواليان أناشيد بديعة الاتّساق ، إلى أن طلع لهم الصباح أو كاد ، وخوّفهم تلك الأنكاد ، فقام الناس إلى رحالهم فشدّوها ، وافتقدوا أسلحتهم وأعدّوها وساروا يطيرون وجلاً ، وإن رأوا غير شيء ظنّوه رجلاً ، فمال إليه عبد الجليل وفؤاده يطير ، وهو كالطائر في اليوم العاصف المطير ، وجعل يؤمّنه فلا يسكن فرقُه ، ويؤنسه فيتنفّس الصعداء تثيرها حرقه ، فأخذ في أساليب من القريض يسلّيه بإشغاله بها ، وإيغاله في شعبها ، فأجفل عن تذييل وإجازة ، واختبل حتّى لم يدر حقيقة النظم ولا مجازه ، إلى أن مرّا بمشهدين وعليهما رأسان باديان ، وكأنّهما بالتحذير لهما متناديان، فقال أبو إسحاق ... فقال عبد الجليل ... فما أتمّ قوله حتّى لاح لهما قتام ، كأنّه أعتام ، فانقشع عن سربة خيل ، كقطع الليل ، فما أجلت إلّا وعبد الجليل قتيل ، وابن خفاجة سليب ، وهذا من أغرب تقوّل ، وأصدق تفوّل »[1] .

وعلى خطورة السفر ــ في ذلك الوقت ــ فإنّ ابن خفاجة كثيراً ما يصف تجوّله في الليل ويفتخر بذلك بوصفه دليلاً على الشجاعة والجرأة[2] وجانباً من حياة الفروسيّة ويرى الجانب الآخر في اللهو والشراب ، ويبدو أنّ هذا الأمر ظلّ يلازمه حتّى بداية مشيبه [3].

---

١ – قلائد العقيان : ٧٤٣/٤ .

٢ – انظر مثلاً ديوانه : ١٣١ — ١٣٢ .

٣ – انظر الديوان : ١٨١

٢ – حياته في عصر المرابطين

نحاول في هذا القسم الأكثر أهمّيّة في حياته أن نبيّن حقيقة علاقة ابن خفاجة بأمراء المرابطين في الأندلس، فثمّة رأي شائع عن ابن خفاجة أنّه قد حلّ « من أمراء المرابطين ودولتهم محلّاً مرموقاً » ، وأنّهم « عرفوا قدره فوفّوه حقّه » ، وأنّه « صار له رأي في الأحداث »، وأنّ مدح ابن خفاجة للمرابطين « كان عن إعجاب حقيقيّ ومحبّة وولاء »، وأنّه ارتبط « بالدولة الجديدة : أحبّها وأخلص لها » [١] .

إلّا أنّ ما يحملنا على مناقشة هذا الرأي أنّ المشهور المؤكّد عن ابن خفاجة أنّه من جبلّة وبيئة مختلفتين عن جبلّة المرابطين وبيئتهم ، فهو شاعر الطبيعة ومجالس الأنس واللهو والمرح ، والمرابطون ذوو أرضيّة دينيّة صلبة ، وطباع مائلة إلى البداوة والتقشّف .

وتطالعنا قصائد متعدّدة في ديوان ابن خفاجة تطفح بعتب شديد من إهمال المرابطين لوعودهم له ، وتفيض بشكوى أليمة من تضييق بعض ولاتهم على الحريّات ، وإرهاقهم بالضرائب ، ممّا يجعلنا في حاجة لاستقراء دقيق لأدب ابن خفاجة شعراً ونثراً ، ودراسة أخباره لرسم صورة حقيقيّة لعلاقة ابن خفاجة بأمراء المرابطين الذين عاش في عهدهم زهاء نصف قرن من الزمن .

---

١ – ابن خفاجة : ٣٠–٣٥–٤٢ .

لم يكن ابن خفاجة قبل دخول المرابطين شاعراً رسميّاً لأحد من الملوك والأمراء داخل الأندلس وخارجها ، وإن عرفنا من أخباره أنّه انتجع الأمير تميم بن المعزّ في المهديّة بتونس[1] ، ودلّنا شعره على أنّه اتّصل باثنين من ملوك الطوائف هما المعتصم ابن صمادح ، والمعتمد بن عبّاد [2] إلّا أنّ أحداً من المترجمين لابن خفاجة لم يشر إلى أنّه قد مدح أحد ملوك الطوائف ، ولا اشتهرت له قصيدة فيهم في كتب التراث، ولا نجد في ديوان ابن خفاجة – الذي جمعه هو بنفسه في عهد قوّة دولة المرابطين واستقرارها – أيّة قصيدة في مدحهم أو رثائهم ، فلم يكن مناسباً – وهو يحاول التقرّب إلى المرابطين – أن يذكر أنّه مدح أيّاً من ملوك الطوائف أو رثاهم وتحسّر على زوال دولهم ، أو أنّ علاقته بهم كانت وثيقة .

ولعلّ نأي ابن خفاجة عن ملوك الطوائف أو بعده عنهم كان لأنّه لم يزل في أوائل حياته الشعريّة ، أو لعلّه كان لعدم رضاه عن أحوالهم من تناحر واقتتال واستعانة بالعدوّ ، أو لعلّ ذلك أيضاً كان لبعض الوفر الذي كان يحظى به ابن خفاجة ، فلم تلجئه الحاجة إلى قرع أبواب ملوك الطوائف واستجدائهم ، وإن لم يكن ذا غنى عريض ، بل كان كريم النفس قنوعاً بما لديه ، مكتفياً بما تدرُّ عليه ضيعة له ببلنسية ، وإلّا لما سافر إلى العدوة المغربيّة ووصل إلى المهديّة بتونس .

---

١ – الحلّة السيراء : ٢٢/٢ .

٢ – انظر الديوان : ١٥٥–٢٧٩ .

وقد رجع ابن خفاجة إلى الأندلس سنة (٤٨٣ هـ) كما ذكر ابن خفاجة نفسه في التقديم لبعض مقطوعاته الشعريّة [١] ، وصحب بعد عودته إلى الأندلس في طريقه إلى مدينته الشاعر ابن وهبون فوصفه بأنّه " شاعر المعتمد " ، ولم يصف نفسه بمثل ذلك الوصف ، ولكنّه ترحّم على ابن صمادح في قطعة أخرى ووصفه بأنّه "خير مليك" [٢]؛ في حين أنّه لم يذكر مؤسّس دولة المرابطين التي عاش في كنفها نحو خمسين سنة منذ بدء دولتهم في الأندلس (٤٨٣ هـ) إلى وفاة ابن خفاجة (٥٣٣ هـ) أيّ ذكر مطلقاً ، ولم يمدح أميرها الأوّل محرّر الأندلس ومنقذها ؛ يوسف بن تاشفين مع أنّه عاصره نحو عقدين من الزمن ، إذ جاز ابن تاشفين الجواز الأول له للدفاع عن الأندلس سنة (٤٧٩هـ) ، ثمّ بدأ ببسط سيطرته على الأندلس في جوازه الثالث سنة (٤٨٣هـ) ، وتردّد عليها للنظر في إصلاح شؤونها وتحرير مدائنها غير مرّة ، وتوفّي سنة (٥٠٠هـ) ، أفلا يدعو هذا للاستغراب والتساؤل عن أسباب ذلك ودلائله .

بل إنّ ابن خفاجة قد أضرب عن قرض الشعر – إلّا قليلاً – منذ بداية عهد المرابطين في الأندلس حتّى نهاية حكم يوسف بن تاشفين معلّلاً ذلك بمجيء المشيب وما يرافقه من تعقّل ورزانة وبعد عن اللهو واللغو والفحش ، قال ابن خفاجة في خطبة ديوانه :

---

١ – انظر الديوان : ٣٦٧ .

٢ – المصدر نفسه : ١٥٥ .

« وَلَمَّا انْصَدَعَ لَيْلُ الشَّبَابِ عَنْ فَجْرِهِ، وَرَغِبَ المَشِيبُ بِنَا عَنْ هَجْرِهِ، نَزَلْتُ عَنْهُ مَرْكَباً، وَتَبَدَّلْتُ بِهِ مَذْهَباً، فأَضْرَبْتُ عَنْهُ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ طَوِيلَةً، إِضْرَابَ رَاغِبٍ عَنْهُ، زَاهِدٍ فِيهِ، حَتَّى كَأَنِّي ما سَامَرْتُهُ جَلِيساً، يُشَافِهُنِي أَنِيساً، وَلا سَايَرْتُهُ أَلِيفاً، يُفَاوِهُنِي لَطِيفاً، وَرُبَّما نَشَأَ ذِكْرُهُ أَثْنَاءَ كَلامٍ، وَدَارَ بِهِ مَقَالٌ فِي مَقَامِ فِعَالٍ، نَسْتَعْطِفُ إِمَّا مِنْ خَطْرَةٍ بِبَالٍ، أَوْ زَوْرَةٍ لِمَامٍ، أَوْ كُرْهِ حَالٍ، أَوْ بَعْثَةِ سَلامٍ:

كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ إلفِي وَخِلِّي   وَلَمْ أَقْطَعْ بِكَ اللَّيْلَ الطَّوِيلا»[1]

ولنا أن نتساءل هنا عن معنى « كره الحال » في بداية عهد المرابطين ومعنى ليل الشباب وفجر المشيب ، فهل يقصد بليل الشباب حياته في عهد ملوك الطوائف وما فيها من عبث ولهو ومرح وحيويّة ، وهل يقصد بفجر المشيب حياته في عهد المرابطين وما فيه من حمل على التديّن وحجر على الحريّة لدى رجل اعتاد على اللهو والمرح ؟! ونعلم أنّ للشباب قيمة عليا لدى ابن خفاجة ، وأنّه بكى على فراقه دماً، وأنّه أغلى الأحبّة، وفراقه أصعب عنده من فراق الأحبّة . أمّا المشيب فقيمته سلبيّة معروفة ، وهو الذي كمّم فمه زماناً طويلاً عن الشعر، وجعله ينزل عن مركب الشعر ويتبدّل به مذهباً ، ويغدو عنه مضرباً إلّا في موضوعات صغيرة في الشؤون الذاتيّة، ولم يمدح ابن خفاجة كذلك أمير المسلمين التالي عليّ بن يوسف

---

١ – الديوان : ٧

ابن تاشفين (ت٥٣٧هـ) الذي عاش في أثناء حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة [١] بقصيدة مفردة، ولم يذكر اسمه بلفظه في ديوانه مطلقاً ، بل مدحه ببضعة أبيات لإعادته القاضي ابن عصام إلى منصبه ، ضمن قصيدة في تهنئة القاضي لا الأمير، هي :

وَالتَــأَمَ الشَّــعْبُ وَمــا إِن عَــدا ... رَأْيَ أَمــيرِ الــمُسْلِمِينَ الصَّــلاحْ

خَــــيرُ إِمــــامٍ رَاحَ فِي عَســـكَرَيْ ... جِـدٍّ وَجَـدٍّ مِـلْءِ صَـدْرِ البَـرَاحْ

يَعطِـسُ عَـن أَنـفٍ حَمِـيٍّ لَـهُ ... أَضـرَعَ خَـدَّيْ كُـلِّ حَـيٍّ لَقَـاحْ

أَرعَــــدَ فِي تُــــدْمِيرَ زَجْــــراً لَهَــــا ... فَمَــا لِعَنــزَينِ هُنــاكَ انتِطَــاحْ

وَغَــضَّ مِــن أَصْــواتِها صَــوتُهُ ... إِنَّ زَئِــيرَ اللَّيــثِ غَــيرُ النُّبَــاحْ

وَشَــدَّ أَزرَ ابــنِ عِصــامٍ بِمَــا ... حَبَّــرَ مِــن أَلَفــاظِ بِــرٍّ فِصَــاحْ [٢]

وذكر ابن خفاجة سلطان المرابطين في ديوانه مرّة ثانية في رسالة تشكّر له – نيابةً عن أهل مدينته لإرجاع القاضي [٣] – بلقبه أمير المسلمين وناصر الدين ، مع أنّ إتمام السجعة باسمه ، عليّ بن يوسف بن تاشفين ، سهل يسير .

---

١ – حكم علي بن يوسف بن تاشفين من سنة (٥٠٠) إلى وفاته (٥٣٧هـ) وتوفّي ابن خفاجة سنة (٥٣٣هـ) . الديوان : ١٦٦ .

٢ – الديوان : ١٦٦

٣ – انظر الديوان : ١٦٩ .

أمّا مدح ابن خفاجة للأمراء المرابطين الذين حكموا الشطر الشرقيّ من الأندلـــس حيث مدينته والمدن التي عاش فيها فبدأ بالأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين –كما يقول ابن خفاجة في مقدّمة ديوانه – :

« وَلَمَّا دَخَلَ جَزِيرَةَ أَنْدَلُسَ – وَصَلَ اللهُ حِمَايَتَهَا وَكِفَايَتَهَا – الأَمِيرُ الأَجَلُّ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ، ابْنُ أَمِيرِ الـمُسْلِمِين، وَنَاصِرِ الدِّين – أَنْهَضَهُ اللهُ بِمَا قَلَّدَهُ، وَمَكَّنَ أَمْرَهُ وَخَلَّدَهُ ، وَأَعَزَّ نَصْرَهُ وَأَيَّدَهُ ، وَبَسَطَ بِطَاعَتِهِ خُطْوَتَهُ وَيَدَهُ – تَعَيَّنَ أَنْ أَفِدَ عَلَيْهِ مُهَنِّياً بِالوِلايَةِ مُسَلِّماً، وَأَغْشَى بِسَاطَهُ الرَّفِيعَ مُوَفِّياً حَقَّ الطَّاعَةِ مُعَظِّماً، فَمَا لَبِثَ أَنْ رَفَعَ وَأَسْنَى، وَاصْطَنَعَ فَأَدْنَى، وَشَفَعَ المَبَرَّةَ فَأَثْنَى، وَأَقْبَلَ إِقْبَالَ رِعَايةٍ وَتَكْرِمَةٍ فشَرَّفَ، وَاشْتَمَلَ بِوَارِفِ ظِلِّهِ وَعَوَاطِفِ طلّه ،فاكْتَنَفَ، فَارْتَهَنَنِي بِرُّهُ وَإِجْمَالُهُ، وَارْتَبَطَنِي بِشْرُهُ وَإِقْبَالُهُ، وَمَنِ اغْتَبَطَ ارْتَبَطَ،« وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا » ، فَعَطَفْتُ هُنَالِكَ عَلَى نَظْمِ القَوَافِي عِنَانِي، وَسَنَنْتُهَا عِنْدَ ذلِكَ حُلَلاً عَلَى مَعَاطِفِ سُلْطَانِي، مُصْطَنِعاً، لا مُنْتَجِعاً، وَمُسْتَمِيلاً، لا مُسْتَنِيلاً، اكْتِفَاءً بِمَا فِي يَدِيّ مِنْ عَطَايَا مَنَّانٍ، وَعَوَارِفِ جَوَادٍ وَهَّابٍ» [1] .

ولست أرى هذا الأمر صحيحاً لأنّ الأمير جاز إلى الأندلس سنة (٥٠٨هـ) ، وأنّ أولى قصائد ابن خفاجة في الأمير إبراهيم ترجع إلى سنة

---

١ – الديوان : ٧–٨ .

(٥١٠هـ) ، في حين أنّه مدح بعض الأمراء المرابطين قبل هذا الزمن ، فهو لم يذكر القصيدة التي وفد عليه بها أوّل مرّة في المقدّمة ، ولم يبدأ ديوانه الذي رتّبه بنفسه بإحدى القصائد الخمس التي مدحه بها بل قدّم مدحة في أخيه الأكبر الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين نظمها فيه في أثناء حكمه لمدينة غرناطة بين (٥٠١ – ٥٠٤) ، وإذا بحثنا عن سبب ذلك فإنّنا واجدون أنّ ابن خفاجة قد صنع ديوانه وهو في نحو الرابعة أو الخامسة والستّين من عمره ؛ أي في عهد حكم الأمير تميم لأهمّ قواعد الأندلس أو للأندلس عامّة ، ومعنى ذلك أنّ ابن خفاجة « كان يتحرّج من ذكر الحقيقة » [١] كما يقول الدكتور إحسان عبّاس ، وأؤيّده في ذلك ، أو لنقل إنّ ابن خفاجة كان يذكر بعض الحقيقة ، أو ينتقي منها ما كان مناسباً لأوضاعه العامّة ضمن دولة المرابطين ، والخاصّة أي ما يتعلّق بأموره النفسيّة.

وعلى أيّة حال فإنّ عودة ابن خفاجة إلى القصائد المدحيّة الرسميّة كان بعد أن تجاوز عمره الخمسين أي بعد نحو عقدين من الزمن من الخمود الشعريّ لدى ابن خفاجة ، في قبالة التوهّج والتوسّع والاستقرار لدى المرابطين في الأندلس ، وبعد أن وجد ابن خفاجة أنّ وجودهم صار حقيقة واقعة لا بدّ من التأقلم معها ، كما أنّ محاولة معارضتها لا تفيد ومناصبتها العداء لا تجدي فهي أكبر وأقوى ، ونجاحها حتميّ لا يمكن

---

١ – تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين : ٢١٥ .

تجاهله بل يجب التعامل معه حتّى تبقى مكانة ابن خفاجة محفوظة بوصفه أحد كبار الأعيان والأدباء والأعلاق النفيسة .

والحقّ أنّ ثمّة شاهداً واحداً لم يورده محقّق ديوان ابن خفاجة فيما استدركه من شعره ونثره قد يدلّ على أنّه كان يخطب للدعوة المرابطيّة ويدعو بدعوتها ويلوم من عارضها وهو قوله :

« هَا أَنْتُمْ – أيَّدَكُمُ اللهُ – قَدْ أَظَلَّتْكُمُ الدَّوْلَةُ المَيْمُونَةُ ، وَوَافَتْكُمُ الإِمْرَةُ المَأْمُوْنَةُ ، وَلَطَالَمَا وَرَدَتْنَا تَسِيْرُ بِهَا الرِّفَاقُ ، فَتَطَلّعتْ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ وامْتَدَّتِ الأَعْنَاقُ ، وَهَذِهِ كَتَائِبُ النَّصْرِ قَدْ طَلَعَتْ عَلَيْكُمْ بَشَائِرُ صَبَاحِهَا ، وَأَظَلَّتْكُمْ قَادِمَةُ جَنَاحِهَا ، وَإِنَّ مَنْ نَاصَبَهَا فَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ فِيْ صَدْرِهَا وَيُقَصِّرَ مِنْ تَطَاوُلِ عِنَانِهَا عَنْ شَانِهَا :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيَفْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

هَيْهَاتَ تَوَخَّى مِنَ الفَلَكِ أَلَّا يَسْتَدِيْرَ ، وَابْتَغَى مِنَ الشَّمْسِ أَلَّا تَسْتَنِيْرَ، وَاعْتَرَضَ فِي مَطْلَعِ اللَّيْلِ يَأْمُلُ أَلَّا يُظِلَّ ، وَنَصَبَ رَاحَتَهُ تِلْقَاءَ الفَجْرِ يُحَاوِلُ أَلَّا يُطِلَّ » [١] .

الجدير ذكره عند الوقوف على هذا النصّ الذي تفرّد ابن بسّام الشنتريني بإيراده أنّه زيادة من بعض النسخ المخطوطة للذخيرة ، وأنّ النسخة المطبوعة منها في القاهرة قد خلت منه ، ولا نجد نصّاً آخر في

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٥٥٩/٢/٣ .

معناه يعضده في سائر ما رجعنا إليه من مصادر شعر ابن خفاجة ومراجعه، ويلفت الانتباه أنّه يقول " الدولة الميمونة " ولا ينسب الدولة إليه فيقول : " دولتنا " لا في هذه المرّة ولا في سائر ما تكرّرت هذه العبارة ومشابهاتها ، فالدولة المرابطيّة دولة ميمونة وسعيدة وغرّاء ، ولكنّها ليست خاصّة به ، ولا هو منتسب إليها .

ويرى الأستاذ الفاضل الدكتور محمّد رضوان الداية أنّ ابن خفاجة قد حلّ « من أمراء المرابطين ودولتهم محلّاً مرموقاً ، كما أنّ الشاعر لم يكن يشارك في الحياة العامّة مشاركة فعّالة أيّام الطوائف ، صار شاعر دولة ذا مكانة ونفوذ ، وصار له رأي في الأحداث ، يمدح أمراء الدولة ووزراءها وقضاتها وكبار شخصيّاتها ، أو يقيم علاقات ودٍّ معهم ، ويتلوّم من خالف عن رأيهم أو حطب في غير حبلهم . إنّ مدح ابن خفاجة للمرابطين ومودّته فيهم ووصل يده بيدهم كان عن إعجاب حقيقيّ ومحبّة وولاء ، لقد أنقذوا بلاده ووحّدوا كلمتها ، وأعادوا بلنسية إلى أهلها ، وقتلوا الفتنة بعد طول اشتطاط ، ومن محبّته لوطنه وإخلاصه لقضيّة ذلك الوطن ، وثقة منه بحسن صنيع المرابطين من جهاد ورباط وتنظيم ، أحبّ الدولة الجديدة وأصفاها وحدها شعره وولاءه ، وأعظم بهما قدراً » [1] .

واستشهد على ذلك فقال:« وقد ذكر لنا أنّه صنيعتهم ومعدود في شيعتهم :

---

١ – ابن خفاجة : ٣٥ .

أيجمـــل أنّـــي شيعـــــة وصنيعـــة ويبهظـــني عـــبء علـــيّ ثقيـــل»[1]

بيد أنّ الشاهد ليس مناسباً فهو من قصيدة من العتاب الشديد التي وجّهها ابن خفاجة إلى الأمير إبراهيم يشكو فيها تجاهل وعوده له ، كما أنّ الباحث الأستاذ الدكتور محمّد رضوان الداية لم يبرهن قوله المبالغ فيه ، فهل كان حقّاً ابن خفاجة « شاعر دولة المرابطين » ، وقد اعتزلها نحو عقدين من الزمن!، وهل كان له رأي في الأحداث ، وهو لا يكاد يصل إلى بعض الأمراء الذين حكموا مدينته !!، أكان مدحه عن إعجاب بالمرابطين ومحبّة وولاء أم كان لمصلحة وحاجة له ؟ ، وما أكثر ما ذكر حاجاته في قصائده وفي التقديم لها ! ، أمّا تحرير المرابطين لمدينة بلنسية فهو أمر جلل عظيم ، وقد فرح ابن خفاجة به فرحاً كبيراً ، ولكنّه لم ينسبه إلى المرابطين، ولم يشر في قصيدته من قريب أو بعيد إلى قيامهم بهذا العمل العظيم أيّ إشارة :

« وقال يصف حال بلنسيّة — حماها الله — وقد تناجت النفوس باسترجاعها من العدوّ– قصمه الله –:

ألآنَ سَـحَّ غَمـامُ النَّصْـرِ فَـانْهَمَلا وَقـامَ صَـغْوُ عَمُـوْدِ الـدِّينِ فَاعتَـدَلا

وَلاحَ لِلسَّـعدِ نَجمٌ قَد خَـوَى فَهَـوَى وَكَرَّ لِلنَّصْرِ عَصْرٌ قَدْ مَضَى فَخَلا

---

١ – ابن خفاجة: ٣٥ .

وَثَـارَ يَطلُـعُ نَقْـعُ الجَـيْشِ مُعتَكِـراً   بِحَيـثُ يَطلُـعُ وَجـهُ الفَـتْحِ مُقتَـبِلا
مِنْ عَسكَرٍ رَجَفَتْ أَرضُ العَدُوِّ بِهِ   حَـتّى كَـأَنَّ بِهـا مِـن وَطئِـهِ وَهَـلا
مـا بَـينَ ريـحِ طِـرَادٍ سُمِّيَـتْ فَرَسـاً   جَـوْراً وَلَيـثِ شَـرىً يَدعُونَـهُ بَطَـلا

...

وَأَقشَـعَ الكُفـرُ قَسْـراً عَـنْ بَلَنسِـيَةٍ   فَانْجابَ عَنْها حِجابٌ كانَ مُنسَدِلا
وَطَهَّـرَ السَّـيفُ مِنهـا بَلْـدَةً جُنُبـاً   لَمَ يَجْزِها غَيرُ ماءِ السَّيفِ مُغتَسَلا
كَــأَنَّني بِعُلــوجِ الــرُّومِ ســادِرَةً   وَقَد تَضَعضَعَ رُكْنُ الكُفْرِ فَاستَفَلا
تَظَـلُّ تَـدرَأُ بِالإِسـلامِ عَـن دَمِهـا   وَهَبَّـةُ السَّـيفِ فِيهـا تَسبِقُ العَـذَلا
في مَوقِفٍ يَذهَلُ الخِلُّ الصَفِيُّ بِهِ   عَـنِ الخَليـلِ وَيَنسَـى العاشِـقُ الغَـزَلا
تَرى بَني الأَصفَرِ البيضَ الوُجوهِ بِهِ   قَد راعَها السَّيفُ فَاصفَرَّت لَهُ وَجَلا[١]

ويتابع الأستاذ الدكتور محمّد رضوان الداية رؤيته الخاصّة لعلاقة ابن خفاجة بالمرابطين فيقول :

« وطار له صيت في زمن المرابطين الذين عرفوا قدره فوفَّوه حقّه ، وقبلوا شفاعاته في أهل بلده ممّن كان يفزع إليه في ملمّ أو مهمّ . وفي الديوان قصائد مديح وقصائد رثاء في أمراء المرابطين ووزرائهم وقضاتهم ، ومباسطات وإخوانيّات مع طبقة عالية من رجال المغـرب والأندلـس تدلّ

---

١ – الديوان : ٢٠٨ – ٢٠٩ .

على تلك المكانة وتلك العلاقات .

ولقد اتصل بثلاثة من أبناء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وهم: إبراهيم وتميم وعليّ الأمير بعد أبيه »[١]

وأحسب أنّه لو عرف ذلك أمراء المرابطين المتعاقبون على مدينته لما طالت شكواه ولا زاد عتبه ، ولا كثر تلميحه وتصريحه على أنّه من الجلّة والأعيان ، وعليهم ألّا يعاملوه معاملة الرعيّة . وأمّا مباسطاته فلم تكن مع رجالٍ من المغرب بل من الأندلس فحسب ، فإنّنا لا نجد لابن خفاجة صديقاً من المرابطين مع كثرة أصدقائه من الوزراء والعلماء والأدباء والقضاة الأندلسيّين ، وحفول ديوانه برسائل شعريّة ونثريّة معهم تدلّ على علاقته الحميمة ببعض الوزراء الأندلسيّين ومكانته السامية عندهم ومرتبته العالية لديهم .

ولعلّ في قصائد مديح ابن خفاجة لأمراء المرابطين ومقدّماتها ما يوضّح علاقته بهم ويحدّدها ، وقد مدح ابن خفاجة خمسة من أمراء المرابطين الذين حكموا بعض مدائن الأندلس أو كانوا فيها ، وهم أربعة رجال وامرأة ، وأهمّ هؤلاء لدى ابن خفاجة هو :

---

١ – ابن خفاجة : ٣٠ .

وقد سبق أن تكرّر مثل هذا الوهم في مقدّمة الطبعة الأولى في قوله : « عاد إلى الشعر – بعد إعراض عنه – ليمدح أمير المسلمين وقوّاد المرابطين بعد أن أنقذوا بلاده وجاهدوا فيها ، وليشارك في أطراف مختلفة من جوانب الحياة العامّة » ص ٧ .

أ- أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (ت ٥٢٨ هـ) ، تولّى الأمير الشابّ إبراهيم في عهد أخيه الأكبر عليّ بن يوسف أمير المسلمين الذي ولد (٤٧٦ أو ٤٧٧هـ) عدّة مدائن في شرق الأندلس وجنوبها حتّى لقّبه ابن سعيد "ملك شرق الأندلس" [١] ، فولي لأخيه مرسية (٥٠٨ هـ) وضمّ إليها بلنسية (٥٠٩ هـ) وإشبيليّة من شوّال (٥١١ هـ) إلى جمادى الأولى (٥١٦ هـ) ليعود إلى المغرب ليحارب الموحّدين ، وتولّى قرطبة سنة (٥٢٠ هـ) وقتل في المغرب في حربه مع الموحدين [٢] على طريق سجلماسة .

وقد ذكرت آنفاً أنّ ابن خفاجة زعم أنّه عاد إلى قول الشعر لأجل هذا الأمير ، ومع أنّ هذا ليس صحيحاً فإنّه أهمّ ممدوحي ابن خفاجة قاطبة ، وأكثر من وجّه إليهم ابن خفاجة مدائحه ، فثمّة خمس قصائد خصّصها له ؛ واثنتان منهما متّصلتان بقطعتين نثريّتين أيضاً .

ويرجع زمن قول القصيدة الأولى إلى عيد الفطر سنة (٥١٠ هـ) ومكان إنشادها هو مدينة شاطبة ، قال ابن خاقان في ترجمة ابن خفاجة وهو معاصره ، وحضر هذا اليوم بنفسه:

« ووصلتُ شاطبة في فطر سنة عشر وخمسمئة ، والأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين – أيّده الله – معيّد بها ، ومجدّد ذاهب

١ - المغرب في حلى المغرب : ٢/٢٥٣ .

٢ - نظم الجمان : ١٣٠ – ٢٣٤ .

رتبها، وكان عيداً ، كان عهد أهلها بمثله بعيداً بل لم يعهد بالقطر شبيهه ، ولم يحضر مثله خامله ولا نبيهه ، وكان ابن خفاجة هذا حاضراً لاستنجاز وعده ، بالتوقيع على صكّ يحاول نفاذه من غده ، فلمّا كان يوم العيد ، واحتفل جمعه واحتشد ، قام أبو إسحاق وأنشد » [1] .

في حين نجد ابن خفاجة قد ذكر في التقديم لها أنّه أرسلها إلى الأمير ولم ينشدها أمامه :

« وقالَ، وكتبَ بها إلى الأميرِ الأجلِّ، أَبِي إسْحَاقَ إبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ، أيَّدَهُ الله:

سَجَعْتُ وَقَدْ غَنَّى الحَمَامُ فَرَجَّعَا ... وَمَا كنْتُ لَوْلا أَنْ تَغَنَّى لأَسْجَعَا

وَأَنْدُبَ عَهْداً بِالـمُشَقَّرِ سَالِفاً ... وَظِلَّ غَمَامٍ لِلصِّبَا قَدْ تَقَشَّعَا

وَلَمْ أَدْرِ مَا أَبْكِي أَرَسْمَ شَبِيبَةٍ ... عَفَا أَمْ مَصِيفاً مِنْ سُلَيْمَى وَمَرْبَعَا

وَأَوْجَعُ تَوْدِيعِ الأَحِبَّةِ فُرْقَةً ... شَبَابٌ عَلَى رَغْمِ الأَحِبَّةِ وَدَّعَا

وَمَا كَانَ أَشْهَى ذَلِكَ اللَّيْلَ مَرْقَداً ... وَأَنْدَى مُحَيَّا ذَلِكَ الصُّبْحِ مَطْلَعَا

وَأَقْصَرَ ذَاكَ العَهْدَ يَوْماً وَلَيْلَةً ... وَأَطْيَبَ ذَاكَ العَيْشَ ظِلّاً وَمَكْرَعَا [2]

لم يبدأ ابن خفاجة مدحته هذه بالنسيب أو الغزل أو الوقوف على

١ – قلائد العقيان : ٧٥٧/٤ .

٢ – الديوان : ٥٦ .

الأطلال وبكاء من كان فيها من أحبّته ،بل بدأ ببكاء شبابه والتحسّر على فراقه وتتلاشى الحدود بين الشباب والأحبّة حتّى لا يكاد يعرف أهو يبكي أطلال شبابه أم أحبّته ؟ ثمّ يقرّر أنّ فراق الشباب أكثر إيلاماً من فراق الأحبّة ، فيندب عهود شبابه ويسترجع ذكريات لهوه وفتوّته وفروسيّته ، ثمّ يتابع بوصف فرسه وينتقل بوصفه إلى المديح فيزعم أنّ حصانه يحبّ ممدوحه ويحنّ إليه كما يحبّه صاحبه ، بل يتشيّع له كما يتشيّع ابن خفاجة لممدوحه :

فَسَكَّنْتُ مِنْهُ بِالتَّغَنِّي عَلَى السُّرَى أُمَسِّحُ مِنْ أَعْطَافِهِ فَتَسَمَّعَا
وَلَمّا انْتَحَى ذِكْرُ الأَمِيرِ اسْتَخَفَّهُ فَخَفَّضَ مِنْ لَحْنِ الصَّهِيلِ وَرَفَّعَا
حَنِيناً إِلَى الـمَلِكِ الأَغَرِّ مُرَدَّداً وَشَجْواً عَلَى المَسْرى القَصِيِّ مُرَجَّعَا
فَعَنْ حُبِّ إِبْرَاهِيمَ أَعْرَبَ صَاهِلاً وَفِي نَصْرِ إِبْرَاهِيمَ كَرَّ تَشَيُّعَا
مَلِيكٌ تَبَاهَى الحَمْدُ وَشْياً مُذَهَّباً بِهِ وَتَرَاءَى الـمَجْدُ تَاجاً مُرَصَّعا
غَشِيتُ بِهِ أَنْدَى مِنَ الـمُزْنِ رَاحَةً وَأَطْيَبَ أَفْيَاءً وَأَمْرَعَ مَرْتَعَا[1]

ونظنّ أنّ تقديم ابن خاقان لهذه القصيدة أدقّ من تقديم ابن خفاجة لقصيدته ، فهو ينصّ في آخر القصيدة على حاجته لتوقيع الأمير على صكّ لأمر طلبه ، ويشير إلى أنّ هذا اليوم هو يوم عيد ، ويهنّئه به كما ذكر ابن خاقان :

---

١ – الديوان : ٥٨ .

فَمَــنْ مُبْلــغُ الأَيَّــامِ عَــنِّيَ أَنَّــنِي ... تَبَــوَّأْتُ مِنْــهُ حَيْــثُ شِــئْتُ تَمَتُّعَــا

وَطِــرْتُ ثَنَــاءً وَاطَّلَعْــتُ ثَنِيَّــةً ... فَأَسْرَفْتُ إِيضَاعاً وَأَشْرَفْتُ مَوْضِعَا

وَهَــلْ بَقِيَــتْ لِلنَّفْسِ إِلَّا اطّلاَعَــةٌ ... إِلَى القَلَــمِ الأَعْلَــى يَخُــطُّ مُوَقِّعَــا

فَمَــا القَمَــرُ السَّــارِي بِأَجْمَلَ غُــرَّةً ... وَلا الوَابِــلُ الغَــادِي بِــأَكْرَمَ مَصْنَعا

وَهُنِّئْــتَ عِيــداً قَــدْ تَلَقَّــاكَ قَادِمــاً ... وَلَمْ يَــكُ لَــوْلا أَنْ طَلَعْــتَ لِيَطْلُعَــا

وَحَسْبُكَ جَدٌّ قَدْ أَظَلَّكَ خَادِماً ... فَمَــا هُــوَ إِلَّا أَنْ تَقُــولَ فَيَسْــمَعا

وَحَيَّــاكَ مِــنْ فَــرْعٍ لأَشْــرَفِ دَوْحَــةٍ ... نَسِــيمٌ كَأَنْفَــاسِ العَــذَارَى تَضَــوَّعَا

يُلاعِــبُ مِنْ خُــوطِ الأَرَاكَــةِ مَعْطِفــاً ... وَيَمْسَحُ مِنْ مَسْرَى الغَمَامَةِ مَدْمَعَا[1]

إذاً فمديح ابن خفاجة لم يكن عن محبّة وولاء خالصاً لوجه الممدوح، بل كان لأغراض وحاجات، وتوقيع على صكوك تقضى بها حوائجه، وتنال رغائبه ، وتبعده من الضرائب ، وتقرّبه من الممدوح ، وتجعله في جنابه ؛ ذلك الطلب كان يتكرّر شعراً ونثراً مراراً ، ومن ذلك قوله:

« ولَمَّا أَقبَلْتَ – أيَّدَكَ اللهُ – كَمَا ابتَسَمَ الصَّارِمُ الذَّكَرُ ، وحَلَلْتَ كَمَا وافَى المَحْلَ المَطَرُ ، نَشَأَتْ لِي هِمَّةٌ بالكَوْنِ فِي جَنَابِكَ ، وتَحْتَ مُمْطِرِ سَحَابِكَ . وأَنَا أَرْغَبُ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَزِيْدَ أَوْضَاحِيَ امْتِدَاداً ، ويَقْدَحَ مِنْ تَنْبِيْهِي زِنَاداً ، بِأَنْ يَخُصَّنِي بِصَكٍّ كَرِيْمٍ أُحْيِيْ بِهِ مَعَالِمَ شَرَفِي، وأُبَاهِي بِمَحَاسِنِهِ فَارِطَ سَلَفِي، وأَلْتَحِفُ مِنْهُ رِدَاءَ العَرُوْسِ، وأَشْتَمِلُ مِنْ تَنْوِيْهِهِ حُلَى

---

١ – الديوان : ٥٩ ، ٦٠ .

الطَّاوُوْسِ » [1].

أمّا القصيدة الثانية فكانت في سنة (٥١١ هـ) ، إذ يقدّم لها بذكر صدور قرار تولية الأمير إبراهيم على إشبيليّة بدل مرسية ، وقد تولّاها في شوّال (٥١١ هـ) ، « وقال يمدح الأمير أَبَا إسْحَاقَ، ابن أمير المسلمين، ويذكر محاصرته لحصن الـمُورِيلَّة في طروقه للثغر لظهور العدو به. وورد خلال ذلك عهد من أمير المسلمين –أيّده الله– بولاية أَبِي إسْحَاقَ كورة إِشْبِيلِيَّة عوضاً من مُرْسِيَة. فقال، وكتب بها إليه:

أَرَأْيُكَ أَمْضَى أَمْ حُسَامُكَ أَقْطَعُ   وَمَرْآكَ أَبْهَى أَمْ حَدِيثُكَ أَسْمَعُ
وَكُلٌّ لَهُ فِي جَانِبِ الـمُلْكِ مَسْلَكٌ   كَرِيمٌ وَمِنْ نَفْسِ الإِمَارَةِ مَوْقِعُ
لَكَ الخَيْرُ مَا أَهْدَاكَ وَالسَّهْمُ صَائِبٌ   يَطِيشُ وَمَا أَعْدَاكَ وَالخَيْلُ تَمْزَعُ
وَلا غَيْرَ أَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مِقْوَلٌ   يُبِينُ وَلا غَيْرَ الفَرَائِصِ مِسْمَعُ

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/٢/٥٦٠–٥٦١ .

وكثيراً ما نجد ابن خفاجة يخاطب الوزراء والقضاة لقضاء حوائجه أو مراعاته وحفظ ضيعته في التقديم لقصائده كقوله : « فقال يمدح أبا الحسين صاحب مدينة قرطبة لأمر عرض له بها » ، « وكتب إلى الفقيه أبي بكر ابن مفوّز – رحمه الله – يستنهضه في أمر عرض له بالحضرة » ، وكقوله : « وكان الوزير المشرف أبو محمّد ابن عامر مجملاً معه مراعياً له فيما كان يختصّ به بضيعته ببلنسية » ، « وقال وكتب إلى قاضي القضاة أبي أميّة – وصل الله توفيقه – مكافأة له عن برّه به وإقباله عليه » .

الديوان : ١٤٢ ، ١٧٦ ، ٤٨ ، ٤٠ .

وَمَا الوَشْيُ حُسْناً غَيْرَ بِيضِ مَحَاسِنٍ تُسَـنُّ عَلَى عِطْفَـيْ عُـلاكَ وَتُخْلَـعُ
وَلا الـنَّجْمُ نَأْيـاً غَيْـرَ ذِرْوَةِ مَعْقِـلٍ تَـذُودُ العـدا عَـنْ جَانِبَيْـهِ وَتَمْنَـعُ
يَفُـوتُ رَجَـاءَ الـمُرْتَجِين وُعُـورَةً وَيَـدْنُو بِـهِ سَعْدُ الأَمِـيرِ فَيُطمِـعُ»[1]

ويشير في أواخرها إلى صدور قرار نقل الأمير إلى إشبيليّة — التي اهتزّت فرحاً به — في حين أخذ الحزن من ابن خفاجة كلّ مأخذ لسرعة فقدانه الأمير الذي ما لبث أن مهّد لنفسه عنده :

أَمَـا وَأَيَـادٍ أَنْطَقَتْـنِي بِحَمْـدِهِ وَقَـدْ طَـوَّقَتْنِي وَالحَمَامَـةُ تَسْـجَعُ
لَئِنْ هَزَّ مِنْ أَرْجَاءِ حِمْصَ مَسَرَّةً حَـدِيثٌ بِمَلْقَاهَـا إِلَيْـهِ يُرَجَّـعُ
لَقَـدْ نَـالَ مِنَّـا وَالخُطُوبُ مُمِضَّـةٌ وَشِـيكُ نَـوَاهُ وَالحَـوَادِثُ تُوجِـعُ
وَفَـارَقَنِي صَـبْرِي لِـذِكْرَى فِرَاقِـهِ وَشَـافَهَنِي قَبْـلَ الـوَدَاعِ يُـوَدِّعُ
وَكُنْتُ جَمَادَ العَيْنِ أَجْهَلُ مَا البُكا فَعَلَّمَنِي دَاعِي النَّوَى كَيْفَ تَدْمَعُ
فَأَسْـتَوْدِعُ اللهَ الأَمِـيرَ وَمُهْجَـةً أُشَـيِّعُهَا فِـيمَنْ هُنَـاكَ أُشَـيِّعُ
وَهُنِّئْتَهَـا مِـنْ دَارِ مُلْـكٍ وهُنِّئَـتْ بِـهِ مَلِكـاً وَاللهُ يُعْطِـي وَيَمْنَـعُ[2]

وهذه القصيدة أيضاً " كتب بها إليه " ، ولا ندري لماذا لم ينشدها أمامه وهو بعدُ في مرسية لم يغادرها ، ولماذا يكرّر تلك العبارة في أغلب

---

١ – الديوان : ٨٧ .

٢ – الديوان : ٨٩ — ٩٠ .

تقديمه لقصائده المدحيّة هل كان ذلك لعجزه عن الوصول إلى الممدوح مباشرة في كلّ مرّة أم لعدم رغبته في ذلك ؟!

ويذيّل هذه القصيدة برسالة نثريّة قصيرة في تهنئته بانتقاله إلى ولاية إشبيليّة ، ويختمها بالدعاء له:

« وَالرَّبُّ – عَزَّ وَجَلَّ– يَقْرِنُ التَّوْفِيقَ بِسُكُونِهِ وَحَرَكَتِهِ، وَيُنْهِضُنَا إِلَى تَشَكُّرِ ما عَرَفْنَاهُ مِنْ يُمْنِهِ وَبَرَكَتِهِ، وَيَصِلُ مَا أَوْلاهُ مِنْ ظهُورِ جَدِّهِ، وَوُفُورِ سَعْدِهِ، فَذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ »[1] .

ولم يؤرّخ ابن خفاجة زمن القصيدة الثالثة ، ولكنّه ذكر في التقديم لها أنّها بُعيد فتح مدينة قوريّة ، وإذا بحثنا عن زمن فتح هذه المدينة فسوف نجد أنّه كان في سنة (٥١٣هـ) كما ذكر ابن عذاري المراكشي[2](ت٦٩٥ هـ)، وهي كذلك لم تنشد بين يدي ممدوحها بل أرسلت إليه كأكثر مدائحه :

« وقال يمدح الأمير أبا إسحاق – أيّده الله – ويذكر ما كان من افتتاحه لقوريّة ونكول ابن رذمير [3] عن تداركها بعقب ما شرع في ذلك ، وكتب بها إليه – أيّده الله – عندما تحوّل إلى الشرق، واتّفق أن كانت الحركة في فصل الربيع فافتتح الشعر بالإشارة إلى ذلك :

---

١ – الديوان : ٩١ .

٢ – البيان المغرب : ١/ ٣٠٧ – ٣٠٨ .

٣ – من كبار ملوك الإسبان (ت ٥٢٧ هـ) .

أَلا هَـلْ أَطَـلَّ الأَمـيرُ الأَجَـلْ   أَمِ الشَّمسُ حَلَّتْ بِرَأسِ الحَمَلْ
فَمَـا شِـئْتَ مِـنْ زَهـرَةٍ نَضْـرَةٍ   تَـرَدَّى القَضـيبُ بِهـا وَاشْـتَمَلْ
وَهَـــزَّ مَعاطِفَـــهُ وَالْتَـــوَى   بِمَسْـرَى النَّسِـيمِ التِـواءَ الجَـدَلْ
سُـرُوراً بِـهِ مِـنْ فَـتى دَوْلَـةٍ   تُبَـاهِي بِعُلْيَـاهُ خَيْـرُ الـدُّوَلْ
أَتَانَـــا الزَّمَـــانُ بِـــهِ آخِـــراً   تَهَـــشُّ إِلَيْـــهِ اللَّيَـــالي الأُوَلْ
مَليـكٌ تَبَسَّـمَ ثَغْـرُ الـمُنَى   بِمَـرْآهُ وامتَـدَّ خَطْـوُ الأَمَـلْ
يَشُـدُّ اللِّثَـامَ عَلَـى صَـفْحَةٍ   تَـرَى البَـدْرَ مِنْهَـا بِمَرْقَى زُحَـلْ
فَلَـمْ أَدْرِ وَالحُسْـنُ صِـنْوٌ لَـهُ   أَأَبْـدَأُ بِالـمَدْحِ أَمْ بِـالغَزَلْ[1]

ولا أدري أهذا مديح حقيقيّ أم هو مديح مبطّن بذمّ إذ يجعله لحسنه يُتغزّل به ، وهل تختلف الصورة في البيتين الأخيرين عن قوله في الغزل المذكّر في غلام ملثّم ؛ أي هو من المرابطين :

يـــا رُبَّ بَـــدْرٍ زارنـــِي   مـنهُ الـهلالُ وقـدْ تَلَثّـمْ[2]

بل إنّ ابن خفاجة قد وصل به الأمر إلى أن يذكر ذلك في تقديمه لبعض قصائده في الغزل المذكّر بقوله : « وقال يتغزّل في غلام متلثّم »[3] .

---

١ – الديوان : ١٠٢ .

٢ – الديوان : ٣٣٩ .

٣ – الديوان : ٩٩ .

وأرسل ابن خفاجة قصيدته الرابعة إلى الأمير إبراهيم وهو في إشبيليّة سنة (٥١٤ هـ) بناء على طلب الأمير نفسه إذ أوعز إلى وزيره ابن الرقيق أن يخبر ابن خفاجة بذلك ، وأن يبدأ القصيدة بالغزل ففعل إلّا أنّه ذكر موقعة كتندة أو قتندة التي جرت في ٢٤ ربيع الأوّل سنة (٥١٤ هـ) [١] ، وانهزم فيها المرابطون وهرب جندهم ونكص فلّهم ، قال ابن خفاجة في التقديم لها : « وكان الوزير أبو القاسم ابن الرقيق أدام الله عزّه — قد قال يوماً لابن خفاجة بعقب زيارته للأمير الأجلّ أبي إسحاق إبراهيم — أيّده الله : " السلطان يريد أن تقول فيه شعراً تفتتحه بالغزل " ، فقال في هذا العروض ، وذكر ما كان من أمر العسكر وانفضاضه عنه بالثغر ، وكتب بها إليه سنة أربع عشرة وخمسمئة :

قُل لِمَسرى الريحِ مِن إِضَمِ ... وَلَياليـنـا بِـذي سَـلَمِ [٢]

وفيها يتمادى في الغزل ويتجاوز الحدّ المقبول في قصائد المديح ويشير فيه إلى شيء من الظلم الذي يزيله عن نفسه بنفسه حتى لو كان في الغزل:

فَلَكَـم شَـكوى هُنـاكَ لَنـا ... وَلَكَـمْ نَجْـوى بِهـا وَكَـمِ

وَالتِثـامٍ بَـينَ مُعتَنِـقٍ ... وَاعتِنـاقٍ بَـينَ مُلتَـثِمِ

بِكَـلامٍ رَقَّ جانِبُـهُ ... بَـينَ مَنثـورٍ وَمُنـتَظِمِ

---

١ – المعجم : ٤ .

٢ – الديوان : ١٠٦ .

فَتَعاقَـــــدنا يَـــــداً بِيَـــــدٍ   وَتَعاهَـــــدنا فَمـــــاً بِفَـــــمِ
وَانتَصَـــفنا مِـــن مَظالِمِنـــا   وَأَخَـــذنا أَخـــذَ مُحـــتَكِمِ[1]

وفيها ينصّ على أنّه في الستّين من عمره ، وأنّ امتداد العمر قد حطّه عن مكانته الكريمة ليصل بهذه الشكوى إلى قسم المديح نافياً أن يهتضم وهو بممدوحه يعتصم :

مـالَ بي عَـنْ عِيشَـةٍ كَرُمَـتْ   عُمُـــــرٌ أَدَّى إِلى الهَـــــرَمِ
عـاثَ في خَـطِّ العِـذَارِ بِـهِ   شَـــرَرٌ قَـــدْ طَـــارَ في فَحَـــمِ
وَبَيـــاضُ العَـــيشِ مُقـــتَرِنٌ   بِسَـــوادِ العُـــذرِ وَاللَّمَـــمِ
وَكَفـــاني مَـــسُّ نائِبَـــةٍ   أَن يُرِيـــغَ الـــدَّهرُ مُهتَضَـــمي
لا لَعَمْـــرُ الـــمَجدِ وَالكَـــرَمِ   وَمَضـــاءِ السَّـــيفِ وَالقَلَـــمِ
قَسَـــماً بَـــرّاً يُشَـــفِّعُهُ   قَسَـــمٌ أَرْعَـــاهُ مِـــنْ قَسَـــمِ
لا يَنـالُ الـدَهرُ مِـن جِهَـتي   وَبِـــإِبراهيمَ مُعتَصَـــمي
الإِمـــامُ الـــمُستَقِلُّ بِـــهِ   رُكـنُ بَيـتِ الفَضـلِ وَالكَـرَمِ
وَالشِّـهَابُ الـمُستَضَاءُ بِـهِ   في دَيـاجي الظُّلْـمِ وَالظُّلَـمِ[2]

ثمّ يتعرض ابن خفاجة لهزيمة ممدوحه وجيشه في تلك الموقعة محمّلاً عساكر

---

١ – الديوان : ١٠٧ .

٢ – الديوان : ١٠٨ .

المرابطين السبب في الخسارة لانفضاضهم عنه وإخلالهم بمراكزهم ، ملصقاً عار الهزيمة بهم لا بممدوحه:

وَرِجــــالٍ قـــادَةٍ نُخُـــبٍ نَزَلُــوا عَــن رُتبَــةِ الــبُهَمِ
وَأَخلُّــــــوا بِمَراكِـــــزِهِمْ وَاســتَطارَتْ خَــيلُهُم بِهِــمِ
فَتَفــرّى الجَـيشُ عَــنْ مَلِـكٍ ســافِرٍ عَــنْ وَجــهِ مُلتَــثِمِ
مُقْـــدِمٍ في الـــرَّوْعِ مُجـــتَرِئٍ ضــارِبٍ بِالسَّــيْفِ مُقــتَحِمِ
وَبِهِــمْ مــا جَـرَّ ذَلِـكَ مِــنْ كَلْــمِ عــارٍ أَو خَنَــا كَلِــمِ
لا بِقـــرْمٍ غَـــيرِ مُضـــطَهَدٍ وَقَريـــعٍ غَـــيرِ مُهتَضَـــمِ[1]

ولا ندري سبب تعرّض ابن خفاجة لهزائم المرابطين من دون أن يطلب أحد منه أن يذكر ذلك ، فهل هي الحيدة والصدق والموضوعيّة أم هي النكاية والتشفّي من أناس غيّروا حياته الكريمة كما غيّر الزمان شبابه إلى الهرم ؟!

ويشير في نهاية القصيدة إلى حاجته إلى الاعتصام بممدوحه الفتيّ والاستجارة به :

حَــقُّ حِمْــصٍ أَنْ تُسَــرَّ بِــهِ أَرضُـــها مِـــن عـــالَمٍ عَلَــمِ
وَغَمــــــامٌ دونَ رَيِّقِـــــهِ بَـــرقُ بِشْــرٍ غَــيرُ مُــتَّهَمِ

---

١ – الديوان : ١٠٩ .

مَـا انتَـدى إلَّا رَأَيـتَ بِـهِ　　　شَـيخَ رَأيٍ في فَـتى كَـرَمِ

ظَـلَّ يَنـدى وَجهُـهُ خَفَـراً　　　وَهـوَ ذاكـي شُـعلَةِ الفَهَـمِ

سَـخِرَت بِـالنَّجمِ هِمَّتُـهُ　　　وَازدَرَتْ يُمنـاهُ بِالـدِّيَمِ

أَعصَمَتْ نَفسُ امرِئٍ عَلِقَتْ　　　مِنـهُ بِـالوُثقى مِـنَ العِصَـمِ

وَاسـتَجارَتْ مِـنْ مُخَيَّمِـهِ　　　بِفِنـاءِ البَيـتِ وَالحَـرَمِ[1]

ويلفت النظر إلحاح ابن خفاجة على وصف ممدوحه بالفتى وأشباهها في قصيدته هذه وسائر قصائده السالفة [2] .

---

١ – الديوان: ١١٠ .

٢ – قال ابن خفاجة في القصيدة الثالثة :

سـروراً بـه مـن فـتى دولـة　　　تبـاهي بعليـاه خـير الـدولْ

الديوان : ١٠٢

وقال في القصيدة الثانية :

وأدبـر لا يلـوي علـى متعـذّر　　　حـذار فـتى يسـري إليـه فيسـرع

الديوان : ٨٨

وقال في القصيدة الأولى :

دعا باسمه داعي الحفيظـة والندى　　　فلبّى على شـرخ الشباب وأهطعا

وهبّ كما هبّ الحسـام شهامة　　　وعـبّ كمـا عـبّ الخضم تبرّعـا

وجرّ به ذيل الخميس ابن غابة　　　تـردّى غلامـاً بالعـلا وتلفّعـا

الديوان : ٥٩

وقبل القصيدة الخامسة والأخيرة التي وجّهها ابن خفاجة إلى الأمير إبراهيم في إشبيليّة في شوّال من سنة (٥١٤ هـ) نجد قصيدتين أرسلهما ابن خفاجة إلى أحد كبار وزراء الأمير إبراهيم وهو أبو العلاء ابن زهر (ت ٥٢٥ هـ) ليوصل إلى الأمير إبراهيم شكواه ، وتتّصل القصيدة الأولى منهما بقطعة نثريّة تشرح ما عرّض به بوضوح ، وعارض بها قصيدة المتنبّي الشهيرة في كافور الإخشيدي التي مطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا [1]

في موضوعها وعروضها، مازجاً بين غرضين متناقضين هما الرثاء والمديح، وهو أمر غريب علّله ووضّح سببه في الرسالة الملحقة بها ، وقدّم للقصيدة بقوله :

« وقال يرثي جملة من الإخوان الأعيان، تلاحقوا في أقصر مدّة من الزمان، ويندب ريعان الشباب ومعاهد أولئك الأتراب الأحباب ، ويمدح أبا العلاء ابن زهر – أعزّه الله – وكتب بها إليه ، منتصف محرّم سنة أربع عشرة وخمسمئة :

كَفانيَ شَكوى أَن أَرى المَجْدَ شاكِيا وَحَسبُ الرَّزايا أَن تَرانيَ باكِيا
أُداري فُؤاداً يَصْدَعُ الصَّدرَ زَفرَةً وَرَجعَ أَنينٍ يَجْلِبُ الدَّمْعَ سَاجِيا
وَكَيفَ أُوَارِي مِن أُوارٍ وَجَدْتُني لَهُ صَادِراً عَن مَنهَلِ الماءِ صَادِيا

---

١ – ديوان المتنبّي : ٢٨١/٤ .

وَهــا أَنــا تَلْقَــانِي اللَّيَــالي بِمِلئِهَــا   خُطُوبــاً وَأَلقَــى بِالعَويــلِ اللَّيالِيــا

وَيَطْوِي عَلَى وَخْزِ الأَشافِي جَوانِحِي   تَـوَالِي رَزَايَا لا تَـرَى الـدَّمْعَ شَـافِيا

ضَمانٌ عَلَيها أَن تَرى القَلبَ خَافِقاً   طِوالَ اللَّيَالِي أَو تَرَى الطَّرْفَ دَامِيا

وَإِنَّ صَــفاءَ الــوُدِّ وَالعَهْــدِ بَينَنــا   لَيَكْرُمُ عَنْ أَنْ أَشرَبَ الماءَ صَافِيا[1]

ويبدو أن القصيدة في رثاء نفسه وشبابه أكثر من كونها في رثاء أصدقائه، أو هي في رثاء نفسه لفقدها هؤلاء الأصدقاء ، ونشعر فيها بوصوله إلى حالة تقترب من اليأس :

وَكَـمْ قَـدْ لَحَتـني العَـاذِلاتُ جَهالَـةً   وَيَـأبى الـمُعَنّى أَن يُطِيـعَ اللَّواحِيـا

فَقُلْــتُ لَهَــا إِنَّ البُكَــاءَ لَراحَــةٌ   بِــهِ يَشـتَفي مَـنْ ظَـنَّ أَلّا تَلاقِيـا

أَلا إِنَّ دَهـراً قَـد تَقاضـى شَـبيبَتي   وَصَحْبِي لَدَهْرٌ قَدْ تَقَاضَى الـمَرازِيا

وَقَدْ كُنْتُ أُهْدِي الـمَدْحَ وَالـدَّارُ غُرْبَةٌ   فَكَيْــفَ بِإِهْــدَائِي إِلَيْــهِ الــمَراثِيا

أَإِخْوَانَنَــا بِالعُــدوَتَينِ صَــمِمْتُمُ   بِحُكـمِ الرَّدَى عَنْ أَن تُجِيبُوا مُنادِيا

فَقَيَّدتُ مِن شَجْوِي وَأَطلَقتُ عَبْرَتي   وَخَفَّضتُ مِن صَوتي هُنالِكَ شاكِيا

...

زَمــانٌ تَــوَلّى بِالــمَحاسِنِ عــاطِرٌ   تَكَــادُ لَياليــهِ تَســيلُ غَواليــا

تَقَضّـى وَأَبْقَـى بَـينَ جَنـبَيَّ لَوعَـةً   أُنَاجِي لَهَا أُخرى اللَّيـالي البَواكِيا[2]

---

١ – الديوان : ١٩٨ .

٢ – الديوان : ١٩٨ – ١٩٩ .

وتجمح به خيل الذكريات مرّة ثانية لتعود به إلى أيّام لهوه وطربه، وتنتهي به إلى مزيد من الحزن والبكاء والحنين لفقد كلّ هذا :

كَـأَنِّيَ لَمْ آنَـسْ إِلى اللَّهــوِ لَيلَــةً | وَلَمْ أَتَصَـفَّحْ صَـفحَةَ الـدَّهرِ رَاضِـيا
وَلَمْ أَتَلَقَّ الرِّيحَ تَنْدَى عَلى الحَشَا | سُـلُوّاً وَلَمْ أَطـرَبْ إِلى الطَّيرِ شـادِيا
وَكانَتْ تَحايانا عَلى القُربِ وَالنَّوى | تَطِيـبُ عَلـى مَـرِّ اللَّيـالي تَعَاطِيـا
فَهَـلْ مِـن لِقـاءٍ مُعـرِضٍ أَو تَحِيَّـةٍ | مَعَ الرَّكْبِ يَغْشَى أَو مَعَ الطَّيفِ سارِيا
فَهـــا أَنَـــا وَالأَرزاءُ تَقــرَعُ مَــرْوَةً | بِصَـدْرِي وَقَلبـاً بَـينَ جَنْـبَيَّ حَانِيـا
أَحِـنُّ إِذا مـا عَسـعَسَ اللَّيـلُ حَنَّـةً | تُـذِيبُ الحَوَايـا أَو تَفُـضُّ التَّرَاقِيـا
وَأُرخِـصُ أَعـلاقَ الـدُّمَوعِ صَـبابَةً | وَعَهْـدِي بِـأَعلاقِ الـدُّمُوعِ غَوَالِيـا[1]

ويرجع ليصف ذكرياته السعيدة في بلدته شقر في أيّام شبابه التي حال من دون عودتها المشيب الذي وخط رأسه ، فكأنّ حياته الأولى في زمن ملوك الطوائف تساوي الشباب وما فيه من قوّة ونشاط وملذّات ، وكأنّ حياته في زمن المرابطين تساوي المشيب وما فيه من ضعف وعجز وحسرات ويرى ابن خفاجة استحالة عودة تلك الأيام الجميلة، فيتملكه اليأس لولا أمانٍ علّلته بممدوحه ابن زهر لينتقل بذلك بسهولة وذكاء إلى المديح :

وَدوُنَ حُلَـى تِلـكَ الشَّـبيبَةِ شَـيْبَةٌ | حَلِيــتُ بِهــا رَغْمــاً وَلَمْ أَكُ حَالِيــا

---

١ – الديوان : ١٩٩ .

وَإِنَّ أَجَدَّ الوَجدِ وَجدٌ بِأَشْمَطٍ تَلَدَّدَ يَستَقري الرُّسومَ البوَالِيا

وَتَهفو صَبَا نَجْدٍ بِهِ طِيبَ نَفحَةٍ فَيَلقَى صَبَا نَجْدٍ بِمَا كَانَ لاقِيا

فَقُل لِلَيالي الخيفِ هَلْ مِنْ مُعَرِّجٍ عَلَينَا وَلَوْ طَيْفاً سُقِيتِ لَيَالِيا

وَرَدِّد بِهاتِيكَ الأَباطِحِ وَالرُّبا تَحِيَّةَ نَاءٍ لَيسَ يَرجُو التَّلاقِيا

فَما أَستَسيغُ الماءَ يَعذُبُ ظامِئاً وَلا أَستَطيبُ الظِّلَّ يَبرُدُ ضاحِيا

وَلَولا أَمانٍ عَلَّلَتْني عَلى النَّوَى بِلُقْيَا ابنِ زُهْرٍ ما عَرَفتُ الأَمَانِيا

أَخو المَجدِ لَمَ يَعْدِلْ عَنِ النَّجدِ نازِلاً بِأَرضٍ وَلَمَ يَشمَخْ مَعَ الوَجْدِ نَازِيَا

تَلوذُ بِرُكنَي حَالِقٍ مِنهُ شاهِقٍ فَتَغشى كَرِيماً حامِلاً عَنكَ حَامِيا[1]

ووصفُ ابن زهر بأنّه يحمي ويحمل عمّن يلوذ به له دلالة واضحة في حاجة ابن خفاجة لمن يحميه من الجور ، ويحمل عنه المغارم التي يلوّح بشكواه بها في أواخر القصيدة :

فَيَا أَيُّها النَّائي مَعَ النَّجمِ هِمَّةً وَمَرْقَى خِلالٍ في الإِمَارَةِ سامِيا

يَرى فَرْقَدَ اللَّيلِ السُّهَا مِنهُ ثَالِثاً وَيَرعى بِهِ بَدْرُ الدُّجُنَّةِ ثَانِيَا

حَنانَيكَ في ناءٍ شَكا مَسَّ لَوعَةٍ فَسَفَّرَ مِن شَوقٍ إِلَيكَ القَوافِيا

وَحَيّا بِها أَذْكَى مِنَ الرَّوضِ نَفحَةً وَأَرْهَفَ مِنْ لَدْنِ النَّسيمِ حَوَاشِيا

وَقَد نَدَيَتْ حَتَّى لَمَ ادْرِ أَرُقعَةً أُنَمِّقُ أَمْ دَمْعاً أُرَقْرِقُ جارِيا[2]

والصورة الأخيرة التي أبدعها ابن خفاجة هي من الصور النادرة الرائعة

---

١ – الديوان : ٢٠٠ .

٢ – الديوان : ٢٠١ – ٢٠٢ .

تدلّ على مبلغ الحزن والأسى الذي وصل إليه ابن خفاجة الذي خطّ بدموعه حروف قصيدته .

ورأى ابن خفاجة أنّ التلويح بقصده لا يكفي، ولا بدّ من التصريح والوضوح فوصل القصيدة بقطعة نثريّة مبينة ، قال فيها :

« وَإِنِّي كَتَبْتُهُ عَنْ نَصَبٍ يَتَّصلُ، وَتَعَبٍ لا يَنْفَصِلُ، بِمَا اتَّفَقَ فِي هَذِهِ الجِهَةِ مِنْ تَثَاقُلِ الأعْمَالِ، بِتَدَاوُلِ العُمَّالِ، فَمَا تَتَمَهَّدُ مِنْ حَالَةٍ حَتَّى تَتَهَدَّمَ، وَلا تُوْجَدُ بِهَا مِنْ رَاحَةٍ حَتَّى تُعْدَمَ. وَمَنْ عَهِدَ المَطِيَّ الوَطِيَّ، وَأَلِفَ الأَمْرَ السَّنِيَّ الهَنِيَّ، شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ ذَلِكَ المَرْكَبِ مَرْكَباً، وَيُعَرِّيَ مِنْ رِدَاءِ ذَلِكَ السَّنَاءِ مَنْكِباً، لاسِيَّمَا وَقَدِ انْتَقَلَتْ بِنَا السِّنُّ مِنْ شَبِيْبَةٍ إِلَى شَيْبَةٍ »[1] .

إذاً فالأمر واضح لا لبس فيه إنّه تثاقل الأعمال بسبب تبدّل الولاة وتداول العمّال ، فلا يكاد يركن إلى حالة حتّى تتبدل، ولا يشعر بشيء من الراحة حتّى يتحوّل ، وهذا يدلّ دلالة واضحة على عدم تقدير عمّال هذه الدولة الجديدة له حقّ قدره الذي يراه ابن خفاجة لنفسه، والذي كان عليه في شبيبته .

ويكمل ابن خفاجة شرح شكواه وتوضيحها بما لا يترك مجالاً لأيّ لبس أو تأويل : « وَلَسْتُ إِخَالُ الدَّوْلَةَ العَزِيزَةَ –لا زَالَتْ خَافِقَةَ الأَعْلامِ، رَائِقَةَ الأيَّامِ– تَسْتَجِيْزُ أَنْ أَكُوْنَ مَعَ الطُّفُوْلَةِ أَجْمَلَ، وَمَعَ الكُهُولَةِ أَخْمَلَ.

---

١ – الديوان : ٢٠٢ .

مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَرْتَضِيَ تِلْكَ سِيْرَةً، فِيْمَنْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ شَابّاً وَكَهْلاً، وَوَجَدَتْهُ لِلْيَدِ الكَرِيْمَةِ أَهْلاً، فَحَلَّتْ بِهِ مَنْزِلاً رَحْباً وَجَنَاباً سَهْلاً، وَقَالَتْ لِلْعَاذِلِ فِيْهِ وَلِلعَادِلِ بِهِ مَهْلاً. فَجَزَى اللهُ أُوْلِي السِّيَاسَةِ، وَذَوِي الفَهْمِ وَالنَّفَاسَةِ، أَفْضَلَ جَزَاءٍ مَلِيٍّ، عَنْ مَبَرَّةٍ وَلِيٍّ، وَكَفَى بِهَا حَالاً أَتَقَلَّى لَهَا وَأَتَقَلَّبُ، وَأَتَشَغَّبُ بِمُعَانَاتِهَا وَأَتَشَعَّبُ، إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ تَوَلِّي أَيَّامٍ، وَتَوَالِي آلامٍ، بِفِقْدَانِ إِخْوَانٍ، أَعْيَانٍ، كَانُوا، فَبَانُوا » [1] .

يقرّر ابن خفاجة أنّ شكواه إنّما هي أنّه كان في زمن الطفولة – أي في عهد ملوك الطوائف– أجمل ، بما تحمله هذه الكلمة من معان رائعة مفرحة ، وأنّه صار في زمن الكهولة — أي في عهد المرابطين – أخمل ، بما تحمله هذه الكلمة من معان مريعة محزنة، وأنّهم قصّروا في " مبرّة وليّ " لهم، وهذا يثبت أنّ القول بأنّ المرابطين عرفوا قدر ابن خفاجة " فوفّوه حقّه " بعيد من الصواب ، فهو لم يأخذ حقّه من التقدير وقد تجاوز الستّين من العمر ، وهو يتقلّى ويتقلّب من حاله هذه ويعاني منها ، زيادة على فقد الشباب وعدم الأصحاب .

ويعلم ابن خفاجة بحسّه النقدي الدقيق غرابة جمعه بين الرثاء والمديح والجدّ والهزل، ويتخيّل ناقداً ينقده فيعلّل ذلك لاجتماعه مع ابن زهر « فِي خِلَّةٍ، بَعْضِ تِلْكَ الخِلَّةِ، افْتَتَحَ الشِّعْرَ بِالرِّثَاءِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ المُسَاهَمَةِ وَالتَّعْزِيَةِ، ثُمَّ أَرْدَفَ بِالمَدْحِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ التَّأْنِيسِ وَالتَّسْلِيَةِ، وَلَمَّا أَشَارَ إِلَى

---

١ – الديوان : ٢٠٣ .

مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مُصَابٍ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ أَوْصَابٍ، انْكَفَأَ عَلَيْهِ الكَلامُ فِي ذَلِكَ انْكِفَاءً، فَانْهَرَقَ عَنْهُ كَرَمَ عِشْرَةٍ وَوَفَاءً » [1] .

إذاً فابن خفاجة مصاب وذو أوصاب ، ومصابه هذا وأوصابه تلك هي التي تجعل الكلام يتدفّق تدفّقاً من دون تروٍّ ومن دون تنقيح ، لذلك فهو يطلب من صديقه ابن زهر أن يغضي عمّا قد يعتور رسالته الشعريّة والنثريّة من تقصير أو اختصار فإنّما سببه هو : « اسْتِغْرَاقِ النَّفْسِ، واسْتِغْلاقِ الأُنْسِ » [2]، فصفحات السرور قد انطوت ولم يبق سوى الآلام والذهول الذي يمنعه من الإجادة والتثقيف والتنقيح لأدبه .

وفي شهر رمضان من السنة نفسها يردف ابن خفاجة قصيدته الأولى لابن زهر بقصيدة ثانية ، ويصرّح في مقدّمتها بتوالي رسائله إلى الأمير إبراهيم التي يدعوه فيها إلى مراعاة جانبه ، وقضاء حوائجه ، وعدم فلاحها في تحقيق ذلك ، فيطلب من ابن زهر إيصالها إلى الأمير ممّا يدلّ على تعذّر وصول ابن خفاجة بنفسه إلى الأمير لإنجاز مطلبه وتحقيق مأربه ، وفي هذه القصيدة يطلق ابن خفاجة لنفسه العنان فيتحدّث عن ذكريات الصبا بصوت جهوريّ عال ، يقول في التقديم لهذه القصيدة :

« وقال يمدح الفقيه الأجلّ ، الوزير الأعلى أبا العلاء ابن زهر — أدام الله رفعته — وقد توالت كتبه على الأمير الأجلّ ، أبي إسحاق — أيّده الله —

---

١ – الديوان : ٢٠٣ — ٢٠٤ .

٢ – الديوان : ٢٠٤ .

يحمله فيها على الاهتبال بجهته ومراعاة جانبه، وقضاء رغائبه ومآربه، وكتب بها إليه في شهر رمضان سنة أربع عشرة وخمسمئة :

شَأَوتُ مَطايا الصِّبَا مَطلَبا وَطُلتُ ثَنايا العُلا مَرقَبا
وَأَقبَلتُ صَدرَ الدُّجى عَزمَةً تُوَطِّئُ ظَهرَ السُّرى مَركَبا
فَجُبتُ إِلى سُدفَةٍ سُدفَةً وَخُضتُ إِلى سَبْسَبٍ سَبْسَبا
وَقُلتُ وَقَد شاقَني مُلتَقى شَميمِ العَرارِ وَبَرْدِ الصَّبا
خَليلَيَّ مِن حِميَرٍ حَدِّثا أَخا شَيبَةٍ عَن لَيالي الصِّبَا
وَبُلّا بِذِكرِ الهَوى غُلَّةً بِصَدرِ كَريمٍ صَبا ما صَبا
وَما غامَ ما غامَ حَتّى انجَلى فَأَضحى وَلا انقادَ حَتّى أَبى
وَحَنَّ هَديلٌ عَلى بانَةٍ تَصَدّى خَطيباً بِها أَخطَبا
فَأَذكَرَنا لَيْلَةً بِاللِّوى وَعَهْداً لِعَصْرِ الصِّبا أَطرَبا
وَماءً بِوادي الغَضا سَلسَلاً وَمُرتَبَعاً بِالحِمى مُعشِبا
لَيالِيَ عَهدي بِنا فِتْيَةً وَعَهدي بِأَحبابِنا رَبرَبا[1]

ويسترسل ابن خفاجة في وصف طيب أيّام الصبا والشباب، وتحسّره عليها في أبيات جميلة من الشعر الذاتيّ ، ثمّ يفخر بشعره فخراً واسعاً جدّاً حتّى إنّه ليتجاوز الحدّ المقبول فيه وكأنّ في ذلك تعويضاً نفسيّاً للحيف

١ – الديوان : ١١٦ .

الذي يلقاه ، ثمّ يعوج على مدح قصير لابن زهر مشيراً إلى أنّ المرابطين قد عرفوا قدره فاستوزروه ، في حين أنّهم لم يقدّروه حقّ قدره ، ويشير إلى وعد وُعِد به ينال به العلا ، وأنّه سيجزي من يساعده في تحقيقه جزاء دائماً وافراً متتابعاً ؛ يقول :

لَقَــد عَرَفَــتْ قَــدرَهُ دَولَــةٌ تُفَـدِّي بِـهِ الأَكـرَمَ الـمُجْتَبى
وَتَعتَــدُّهُ الــمُنتَقى الــمُقْتَنَى عَلـى الخَـيرِ وَالحُـوَّلَ القُلَّبـا
تَقِــلُّ الــوِزارَةُ في حَقِّــهِ وَتَنــزِلُ عَــن قَــدرِهِ مَنصِــبا

...

وَحَسبُ المُنى أَنْ سَرَى مَوعِدٌ كَفيــلٌ بِنَيــلِ العُــلَا مَطلَبــا
تَوالَــت رِقاعُــكَ تَــتْرى بِــهِ وَشُــكري لَهـا مَوكِبـاً مَوكِبـا
وَغَــيرِيَ مَــن غَــيرِهِ مَوعِــداً يَشــيمُ بِــهِ بارِقــاً خُلَّبــا[1]

ولمّا لم تفلح شفاعة ابن زهر ووساطته ، أو كانت برقاً خلّباً أرسل ابن خفاجة قصيدة ناريّة إلى الأمير إبراهيم في الشهر التالي شهر شوّال وهو الشهر الذي قامت فيه ثورة في قرطبة على المرابطين بُعيد عيد الأضحى كما هو معروف، وفي هذه القصيدة الأخيرة التي أرسلها للأمير حزن شديد وغضب شديد، وعتب شديد ، ويأس شديد ، وكتب بها إليه بإشبيليّة على

١ – الديوان : ١١٨ – ١١٩ .

نأي الدار بينه وبين ممدوحه – كما يقول ابن خفاجة – مادحاً ومعاتباً مصرّحاً بمطلبه مستنجزاً وعداً متكرّراً ممطولاً ، بأن يعامله بما يستحقّه ، وأن يراعى وضعه وتتقدّر مكانته بوصفه عيناً من الأعيان وأديباً من كبار الأدباء وعلقاً نفيساً كانت الملوك في العهد السابق تتسابق على أمثاله ، وتفتخر بحيازته في بلاطها. يبدأ ابن خفاجة قصيدته بنسيب حزين يندب فيه نفسه وشبابه وخلّانه ، ويقدّم للقصيدة – قبل ذلك – بقوله :

« وقال يستنجز ميعاداً تكرّر في جهته من الأمير أبي إسحاق ابن أمير المسلمين – أيّده الله – يحمله في جميع شؤونه على الأفضل الأجمل ، وكتب بها إليه بإشبيليّة في شوّال سنة أربع عشرة وخمسمئة :

أَلَا تَلْعَـــةٌ مَطْلُولَـــةٌ وَقَبُـــولُ ... فَيَنْـدَى صَبَاحٌ أَوْ يَـرِقَّ أَصِـيْلُ

وَتُفْصِحَ عَنْ شُكْرِ الغَمَامِ خَمِيْلَةٌ ... ويُعْـرِبَ عَـنْ سِرِّ الغَـرَامِ هَدِيْـلُ

وَقَدْ شَطَّ مَحْبُوبٌ وَأَجْدَبَ مَرْتَعٌ ... وَأَخْفَـقَ مَـأْمُولٌ وَقَـلَّ خَلِيْـلُ

وَأَخْلَـقَ رَسْـمٌ للشَّـبَابِ وَمَعْلَـمٌ ... وَأَرَّقَ لَيْـــلٌ بِـــالفُرَاتِ طَوِيْـــلُ

وَحَـنَّ إِلَى مَـيٍّ عَلَـى النَّـأْيِ نَـازِحٌ ... يَحُـومُ عَلَـى وَصْـلٍ فَعَـزَّ وُصُـولُ

أَخُو عَزْمَةٍ خَلَّى الرُّبَا تَرْتَقِي بِهَا ... إِلَى حَيْـثُ يَهْـوَى وَالبِطَـاحَ تَمِيْـلُ

تَـرَاءَى لَـهُ البَـرْقُ اليَمَـانِي فَشَـاقَهُ ... حَبِيـبٌ وَعَهْـدٌ بِالحَبِيـبِ مَحِيْـلُ[1]

وتشفُّ رموز ابن خفاجة بصاحبها فما هذا العاشق إلّا الشاعر نفسه

---

١ – الديوان : ٢٩٣ .

وما ميّ إلّا مطالبه الممطولة غير المطلولة وغير المنجزة ، لذلك لم تفصح الخميلة – وهي الشاعر أيضاً – عن شكر الغمام ، ولم يهدل الحمام – وهو الشاعر أيضاً – ولم يفصح عن سرّ الغرام وصدقه فيه بل يصل الشاعر إلى دركة من اليأس سحيقة إذ بَعُد نيل المطلوب، وما من بديل يغني أو يسلّي عنه، بل يقول بكلّ صراحة ووضوح ومباشرة بأنّ مأموله قد أخفق، وما من معين على تحقيقه لقلّة الخلّان .

ثمّ يكثر ابن خفاجة من أسلوبي النداء والاستفهام ، فيبدأ بنداء: " بانة الوادي، ونفحات الريح ، وريم نجد "، مشيراً إلى أنّ "العوادي كثيرة"، وإلى أنّ " الوفاء قليل " ، ثمّ يكثر من أسلوب الاستفهام سائلاً عناصر الطبيعة الحيّة ونجداً وريم نجد ، ليصل إلى غرضه بهذا الأسلوب ويوصل رسالته التي يريد إيصالها :

وَهَلْ تَنْهَضُ الأَقْدَارُ يَوْماً بِحَاجَتِي ... وَرَأْيٌ لإِبْــــرَاهِيمَ فِيَّ جَمِيــــلُ
وَكَيْفَ وَأَنِّ مَاطَلَ الدَّهْرُ بِالمُنَى ... وَسَــوَّفَنِي لَيَّــانُ مِنْــهُ مَطُــولُ
وَعِنْـدِيَ فِيْهَـا للأَمِـيْرِ مَوَاعِــدٌ ... يُبَـلُّ بِهَـا تَحْـتَ الهَجِـيرِ غَلِيـلُ
وَأَنْبَاءُ حُسْنَى أَلهَتِ الرَّكْبَ وَالسُّرى ... فَطَـالَ بِهَـا قَـالٌ هُنَـاكَ وَقِيـلُ
وَيَأْبَى جَلاَلُ المُلْكِ أَنْ تَخْجَلَ العُلاَ ... وَشُـكْرٌ تَهَـادَاهُ الـبِلاَدُ حَفِيـلُ
وَهَـلْ يَتَعاصَـى مِـنْ قَضَـاءِ لُبَانَـةٍ ... وَلِلسَّـعْدِ سَـعْيٌ بِالنَّجَـاحِ كَفِيْـلُ
فَمُـنَّ بِهَـا غَـرَّاءَ كَالشَّـمْسِ طَلْقَـةً ... يُنِيـفُ لَهَـا فَـوْقَ السِّـمَاكِ تَلِيـلُ
تُظَـلِّلُنِي مِنْهَـا إِذَا سِـرْتُ رَايَـةٌ ... وَيَزْحَـفُ دُوْنِي إِنْ صَـرَخْتُ رَعِيـلُ

وَتَــنْهَضُ بِالآمَــالِ نَهْضَــةَ عِــزَّةٍ لَهَــا غُــرَّةٌ سَــيَّالَةٌ وَحُجُــولُ[1]

ويشير – بعد ذلك – إلى ضيم لحقه ، وضريبة فرضت عليه، وغرم أثقل ظهره ، وخفّض قدره بل أذلّه ، ويستغرب من ذلك ومن دونه ذلك الممدوح الكريم القويّ :

وَأَنَّى يُلِــمُّ الضَّــيْمُ يَوْمــاً بِجَــانِبِي وَدُوْنِيَ مَطْـرُورُ الـذُّبَابِ صَـقِيْلُ

وَأَغْلَـبُ ضَـارٍ مِـنْ لُيُـوثِ عَمَايَـةٍ تَسِــيْلُ سَمَاحــاً كَفُّــهُ وَتَصُــولُ

...

فَيَــا أَيُّــهَا الــمَلِكُ الأَغَــرُّ وِلايَــةً وَخَصْـلاً وَأَصْـلاً وَالجَلِيْـلُ جَلِيْـلُ

أَمِثْلُــكَ مَوْجُــوْدٌ بِحِمْــصَ مُــؤَمَّراً عَزِيــزاً وَمِثْلِــي بِــالعِرَاقِ ذَلِيْــلُ

أَيَجْمُــــلُ أَنِّي شِــــيعَةٌ وَصَــــنِيْعَةٌ وَيَبْهَظُـنِي عِـبْءٌ عَلَـيَّ ثَقِيْـلُ

فَأَغْـدُو وَخَطْـوِي إِنْ خَطَـوْتُ لِطِيَّـةٍ قَصِـيْرٌ وَطَـرْفِي إِنْ نَظَـرْتُ كَلِيْـلُ

وَمِثْلُــكَ مِــنْ قَــرْمٍ تَحَمَّــلَ مِثْلَــهُ حَمَالَــةَ غُــرْمٍ وَالكَــرِيمُ حَمِيــلُ[2]

ثمّ يتبع هذه القصيدة بقطعة نثريّة يشرح فيها شكواه، ويقول في مقدّمتها :

« الأَمِيْرُ الأَجَلُّ الأَوْحَدُ– أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَفَسَحَ للأَكَارِمِ أَعْطَانَهَ!، وَعَمَرَ بِاتِّسَاقِ السَّعَادَةِ وانْتِسَاقِ الإِرَادَةِ أَوْطَانَهُ– يَتَقَبَّلُ هَذِهِ الكَلِمَةَ عَلَى النَّأْيِ تَحِيَّةً، وَيَهُزُّ لَهَا مِنْ مَعَاطِفِ سُؤْدَدِهِ أَرْيَحِيَّةً » [3] .

---

١ – الديوان : ٢٩٤ – ٢٩٥ .

٢ – الديوان : ٢٩٥ .

٣ – الديوان : ٢٩٦ .

فممّا يلفت الانتباه هي تلك الدعوة الفريدة العجيبة التي اعترض ابن خفاجة الجملة الأولى في رسالته بأن يفسح الله تعالى أعطان الممدوح ويوسّعها للأكارم ويعني نفسه وأمثاله!، والأعطان مبارك الإبل حول الحوض، ويقال للكريم هو واسع العَطَن ، ومعنى تلك الدعوة أنّ أعطان الممدوح ضيّقة لا تتسع للأكارم ؛ ومن ثَمّ فالأمير غير كريم .

ثمّ يذكر ابن خفاجة غرضه بوضوح وجلاء فيقول :

« وَمِثْلُ الأَمِيْرِ الأَجَلِّ- وَصَلَ اللهُ سَعْدَهُ- اعْتَقَدَنِي عَلَى نَأْيِ الدَّارِ أَحَدَ مَنِ انْتَظَمَ فِي جَمَاعِتِه، أَوِ اعْتَصَمَ بِهِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، فَحَمَلَنِي مَحْملَ هَذَا أَوْ ذَلِكَ، وَاشْتَمَلَ عَلَيّ هُنَا مِنْ هُنَالِكَ. وَأَنَّ كَانَ، فَإِنَّهُ مِنْهُ إِجْمَالٌ، وَبِالدَّوْلَةِ السَّعِيْدَةِ جَمَالٌ » [1] .

وهذا أسلوب عالٍ في الطلب غير المباشر ، ويقتصر هذا الطلب على أن يعامله الأمير كفردٍ من جماعته الخاصّة أو رجل من أهل طاعته ، وما أيسره من طلب ، وما أقدر الأمير على تحقيقه ، فإن لم يكن ابن خفاجة يعامل وهو في الثالثة أو الرابعة والستّين من عمره كفرد من جماعته فمتى يكون ذلك؟ وإن لم يكن يُحمل على أنّه من صنائعهم ومن رجالهم فمتى يحمل؟!.

أمّا الأمير الثاني الذي مدحه ابن خفاجة فهو:

---

١ – الديوان : ٢٩٧ .

٢- أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين (ت بعد٥٢٣ هـ)

وهو أكبر سنّاً من أخيه عليّ أمير المسلمين ، وكان أوّل من أعلن بيعته وطاعته له بعد وفاة أبيه ، فعيّنه أخوه على بعض ولايات المغرب ، ثمّ انتدبه لولاية غرناطة ، وهي قاعدة حكم المرابطين في الأندلس ، وجعله القائد الأعلى لجيش المرابطين سنة (٥٠١ هـ)،ثمّ أعيد إلى المغرب سنة (٥٠٤ هـ) ليتولّى ولاية تلمسان، ثمّ نراه والياً على مرسية وبلنسية ، ثمّ عيّن والياً على غرناطة سنة (٥١٥ هـ) ، ثمّ ولي إشبيليّة إلى جانب غرناطة في جمادى الثانية سنة (٥١٦ هـ) إلى سنة (٥١٧ هـ) ، ثمّ ضمّ قرطبة إلى حكمه ، ثمّ رجع إلى المغرب سنة (٥٢٠ هـ) وتولّى حكم فاس ، ثمّ عزل عنها سنة (٥٢٣ هـ) .

وقد خصّه ابن خفاجة بقصيدتين؛ وقدّم الأولى منهما على جميع قصائد الديوان ، وقد نظمها في ولاية الأمير الأولى لغرناطة وبعض مدائن الأندلس أوائل القرن السادس ، ولكنّه لم ينشدها أمام الأمير ، ولم يرسلها إليه في ولايته الأولى ، بل تركها مدّة - لأسباب نجهلها — حتّى غادر الأمير إلى تلمسان سنة (٥٠٤ هـ)، وبعد أن عاد القائد الأعلى ابن عائشة (ت بعد ٥١٥ هـ) إلى المغرب سنة (٥٠٨ هـ) لذهاب بصره — فهو يدعو له بالشفاء — أرسلها مع أحد أصدقائه من وزراء الدولة عند انتقاله إلى العدوة المغربيّة ، فهو يقول في الرسالة التي حمّلها صديقه الوزير مبيّناً ما يطلبه ابن خفاجة من الصديق موضّحاً سبب تأخيرها :

« وَبَعْدُ، فَمِثْلُكَ مِمَّنِ اضْطَرَمَتْ لَهُ صُدُورُ السَّادَةِ، بِنَارِ الحَسَادَةِ، وَألقَتْ إِلَيْهِ أَيْدِي القَادَةِ، بِفَضْلِ المَقَادَةِ – حَفِظَ الصَّدِيقَ فِي أَمَانَتِهِ، وَخَدَمَهُ فِي لُبَانَتِهِ، وَوَطَّأَ لَهُ فِي أَعْطَانِ، ذَلِكَ السُّلْطَانِ، تَوْطِئَةً يَسْتَقِلُّ لَهَا الغَبْرَاءَ مِهَاداً، وَالجَوْزَاءَ وِسَاداً، وَشَرْحُ هَذِهِ الجُمْلَةِ الَّتِي سَطَّرْتُهَا وَصَدَّرْتُ بِهَا، أَنِّي أَصْحَبْتُ خِطَابِيَ هَذَا كَلِمَةً فِي الأَمِيرِ الأَجَلِّ أَبِي الطَّاهِرِ – أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَعَمَّرَ بِالعَدْلِ أَوْطَانَهُ – قَدْ كُنْتُ صُغْتُهَا فيهِ مُنْذُ الزَّمَانِ الأَطْوَلِ، فَأَفْرَغْتُهَا إِبْرِيزاً، وَفَرَغْتُ مِنْهَا تَطْرِيزاً، ثُمَّ أَنْسَأْتُ، مَا أَنْشَأْتُ، لِعِلَلٍ شَغَبَتْ، وَشَغَلَتْ. غَيْرَ أَنَّ إِرْجَاءَهَا، لاَ يَقْطَعُ رَجَاءَهَا، وَإِمْهَالَهَا، لا يُوجِبُ إِهْمَالَهَا. وَقَدِ اسْتَنَبْتُ مَجْدَكَ فِي جَلائِهَا، وَاسْتَنْهَضْتُ سَرْوَكَ لِزِفَافِهَا وَإِهْدَائِهَا »[1].

إذاً فأهمّ ما يطلبه ابن خفاجة من صديقه الوزير هذا ومن أصدقائه الوزراء عامة أن يُوَطِّئ له في أعطان ذلك السلطان، أو يمهّد له الطريق إليه، ويبدو أنّ ابن خفاجة ما كان ليصل إلى بلاط السلطان بغير مساعدة ، ونظنّ أنّ تأخير إهداء هذه القصيدة كان لعدم قدرته على توصيلها إلى ممدوحها .

وقد قدّم ابن خفاجة لقصيدته – كعادته – بذكر موضوع القصيدة ومكان إرسالها ، غير أنّ اللافت للنظر أنّه يطلب في هذا التقديم من الأمير

---

١ – الديوان : ٣٠ .

أن يتشكّر له أخاه من أمّ ثانية القائد الأعلى ووالي مرسية الأسبق الأمير ابن عائشة لرعايته جانبه وتحقيق مطالبه ، و"الحديث لك يا كنّة فاسمعي يا جارة" ، مشيراً إلى وفائه للأمراء والولاة حتّى بعد خروجهم من الولاية ومن الأندلس كافّة ، وحاثّاً الأمير أن ينهج النهج نفسه ليلقى الجزاء نفسه :

« قال ، وكتب بها إلى الأمير الأجلّ أبي الطاهر تميم ابن أمير المسلمين وناصر الدين — أيّده الله وعضده بتقواه — يمدحه ، ويسأله مخاطبة القائد الأعلى أبي عبدالله محمّد بن عائشة [1] – شفاه الله — متشكّراً له على رعاية جانبه، وتسنّي أوطاره عنده ومآربه، كتب بها إليه بتلمسان– حرسها الله –:

أَمَا وَالتِفَاتِ الرَّوْضِ عَنْ زَرَقِ النَّهْرِ   وَإِشْرَافِ جِيدِ الغُصْنِ فِي حِلْيَةِ الزَّهْرِ [2]

وفي أواخر القصيدة يجأر بشكواه إلى الأمير، ويذكر حاجته إلى كتاب شفاعة من الأمير يقدّمه إلى العمّال عندما يثقلون بالمغارم والضرائب ظهره، ليعامل معاملة خاصة الأمير وأهل طاعته ، يقول :

فَلَوْ مَسَحَتْ يُمْنَاهُ عَنْ وَجْهِ لَيْلَةٍ   لَحَطَّتْ قِنَاعَ اللَّيْلِ عَنْ قَمَرٍ يَسْرِي

---

١ – محمّد بن عائشة هو ولد يوسف بن تاشفين (ت بعد ٥١٥ هـ) ، نسب إلى أمّه عائشة، أحد كبار قوّاد المرابطين ، وقد ولي مرسية نحو ٥٠١ هـ إلى ٥٠٨ هـ إذ اعتلّ بصره وعمي بعد صدره من غزوة البورت في برشلونة فاستدعاه أخوه أمير المسلمين علي ابن يوسف بن تاشفين إلى المغرب . ابن الأبّار — المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي : ٥٤ .

٢ – الديوان : ٢٣ .

رَمَيْـــتُ بِآمَـــالِي إِلَيْـــهِ وَإِنَّمَـــا	حَمَلْتُ بِهِ المَرْعَى الجَدِيبَ إِلَى القَطْرِ
وَلا أَمَـــلٌ إِلَّا كِتَـــابُ شَـــفَاعَةٍ	إِذَا الخَطْـبُ أَعَيَـا وِزْرَهُ شَـدَّ مِـنْ أَزْرِي
شَفِيْعٌ لَو اسْتَعْطَفْتُ عَصْرَ الصِّبَا بِهِ	لعَـاجَ سَـقَتْهُ دَمْعَـةُ الـمُزْنِ مِـنْ عَصْـرِ
وَبِي مَسٌّ شَكْوَى لا أُطِيقُ لَهَا السُّرَى	فَإِنْ لَمْ أَطَأْ بَابَ الأَمِيرِ فَعَنْ عُذْرِ
وَلَـوْ مُلِّئَـتْ عَيْـنِي الـدُّجَى لَمَلأْتُهَـا	بِغُرَّةِ شَمْسِ العَصْرِ فِي مَطْلَعِ القَصْرِ
وَمَـا الـمَرْءُ إِلَّا قَلْبُـهُ فَـإِذَا سَـرَى	مَعَ الرَّكْبِ مِنْ شَوْقٍ فَإِنِّي مَعَ السَّفْرِ [١]

ولعلّ هذه القصيدة من أوائل القصائد التي أرسلها ابن خفاجة إلى الأمراء المرابطين إذ ينحصر زمن نظمها بين (٥٠١ — ٥٠٤ هـ) ، ممّا يدلّ على أنّ علاقة ابن خفاجة بالمرابطين لم تكن لمحبّة وولاء بل للتشكّي من جور العمّال المرابطين ، وللحصول على كتب الشفاعة أو الوساطة ليشدّ من أزره إذا ادلهمّ خطب العمّال واستفحل خطره .

لقد كان ابن خفاجة « من أعيان مدينة شقر » [٢] كما يقول ابن دحية الكلبي ، وكان « رئيساً مفخّماً » [٣] ، كما يقول صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) ، وكان لا يرضى أن يعامل معاملة الرعيّة، ولا أن يُتَعسّف في أمر الحريّة، وقد بيّن ذلك في القصيدة الثانية التي خصّ بها

---

١ – الديوان : ٢٧ .

٢ – المطرب من أشعار أهل المغرب : ١١١ .

٣ – الوافي بالوفيات : ٥٥/٦ .

الأمير تميماً بعد عودته إلى الأندلس وتولّيه مدينة مرسية ، فقال في التقديم لها مصرّحاً وموضحاً :

« ولمّا ولي مرسية – حماها الله – الأمير الأجلّ أبو الطاهر تميم – أيّده الله – تعسّف في أمر الحريّة ، وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة فقال يشير إلى حال الثغر – تلافاه الله – وإلى العدول به عن رسمه ، وعن حمله فيما تقبّل باسمه ، وكتب بها إليه . فأمر لذلك – أيّده الله – برعايته في جميع أعماله ، وحمله على أتمّ البرّ فيما حقّ من أحواله :

بِمِثْلِ عُـلاَكَ مِـنْ مَلِـكٍ حَسِيبِ	عَدَلْتُ إِلَى الـمَدِيحِ عَنِ النَّسِيبِ
وَسَـــاعَدَنِي ثَنَـــاءٌ فِيـــهِ رَطْـــبٌ	كَمَـا سَرَتِ التَّحِيَّـةُ مِـنْ حَبِيـبِ
وهَــزَّتْ مِــنْ مَعــاطِفِيَ القَــوَافِي	كَمَـا هَفَـتِ النُّعَـامَى بِالقَضِـيبِ
أَمَـــــا وَرُوَاءِ دَوْلَتِـــــهِ يَمِينـــــاً	تَأَلّاهَـــا نَجِيـــبٌ فِي نَجِيـــبِ
لَقَـدْ ضَـحِكَ الصَّـبَاحُ بِمُجْـتَلاَهُ	وَرَاءَ اللَّيْــلِ عَــن ثَغْــرٍ شَــنِيبِ
وَظَـــاهَرَنِي بِمُغْتَـــرَبِي حُسَـــامٌ	أَنِسْـتُ بِـهِ وَنِعْـمَ أَخُـو الغَرِيـبِ
أَشِــيمُ بِــهِ سَــنَى بَــرْقٍ يَمَــانٍ	يُخَفِّـرُنِي إِلَى الـمَرْعَى الخَصِـيبِ[1]

بدأ ابن خفاجة بالمديح مباشرة من دون مقدّمات غزليّة أو ما أشبه ذلك ، وكأنّه كان في عجلة من أمره ، وقد ذكر ذلك ابن خفاجة نفسه ، ويلفت النظر بعض الألفاظ الدالّة على الانفصال بينه وبين المرابطين في

١ – الديوان : ٩١ – ٩٢ .

قوله « دولته » وليس دولتنا ، فلا ينسب الدولة المرابطيّة إليه في هذه المرّة وفي كلّ مرّة ، بل كانت ترد -كما رأينا - بصيغة " الدولة السعيدة أو الميمونة أو الغرّاء "كما يشدّ الانتباه أنّ الذي يظاهر ابن خفاجة ويساعده هو السيف القاطع الذي يذهب وحشته ويؤانسه — من دون الناس — في غربته ، ولهذا دلالات ظاهرة .

ثمّ يسهب ابن خفاجة في المديح ويعرض بعدها إلى هجوم الإسبان على ثغور الأندلس وما فعلوه من أمور تشيب لها النواصي ، ويحثّه على تدارك الأمر وتحرير الثغر ونجدته ، ثمّ يدعوه لنجدته هو ممّا دهمه من حوادث الليالي التي لا توقّر من مشيبه ، ويبثّه شكواه ويصف علّته ؛ وليس سوى الممدوح من طبيب :

فَإِنَّــكَ وَالرِّبَــاطُ إِلَى اغْتِبَــاطٍ ... كَفِيــلُ السَّـعْدِ بِـالفَتْحِ القَرِيــبِ
وَإِنِّي وَالنَّسِــيمُ يَهُـــبُّ لَـــدْناً ... لَمُشْـتَمِلٌ عَلَـى نَفَـسٍ مُـذِيبِ
لِحَادِثَــةٍ تُصَــدِّعُ مِــنْ صَـفَاتِي ... ولاءً أَوْ تُكَــدِّرُ مِــنْ قَلِيــبِي
فَهَــا أَنَــا أَلحَــظُ الأَيَّــامَ شَــزْراً ... وَأَرْمِيهَــا بِطَــرْفِ الــمُسْتَرِيبِ
وَأَشْكُو لَـوْ شَـكَوْتُ إِلَى مُصِيخٍ ... لَيَــالِيَ لا تُــوَقِّرُ مِــنْ مَشِــيبِي
تَمَشّـى تَــارَةً مِشْــيَ السَّــبَنْتَى ... وَآوِنَــةً تَــدِبُّ دَبِيــبَ ذِيــبِ
وَكُنْـتُ مَـتَى اسْـتَرَبْتُ مِـنَ اللَّيَـالِي ... فَزِعْـــتُ إِلَى ثَبِــيرٍ أَوْ عَسِــيبِ
إِلَى جَبَــلٍ أَصُــدُّ بِــهِ العَــوَادِي ... وَأَقْتَــادُ الــمُنَى قَــوْدَ الجَنِيــبِ
أَظَــلُّ بِــهِ أُنَــادِي مِــنْ بَعِيــدٍ ... وَأَلـتَمِسُ الـمَطَالِبَ مِـنْ قَرِيـبِ

فَيَـا مَلِـكَ الـمُلُوكِ وَلِي لِسَـانٌ   يُشِـيرُ بِـهِ البَيَـانُ إِلَى خَطِيـبِ
يَفُـضُّ بِكُـلِّ قَافِيَـةٍ خِتَامـاً   وَيُفْعِـمُ كُـلَّ نَـادٍ رِيـحَ طِيـبِ
دَعَـاكَ وَلَـوْ دَعَـوْتُ بِـهِ جَمَـاداً   لَهَـزَّ مَعَـاطِفَ الغُصْـنِ الرَّطِيـبِ
وَمِثْلِـي هَـزَّ مِثْلَـكَ ثُمَّ أَصْـغَى   عَلَـى ثِقَـةٍ يُصِـيخ إِلَى مُجِيـبِ
وَرَدَّدَ فِيـكَ نَظْرَتَـهُ رَجَـاءً   كَمَا التَفَتَ العَلِيلُ إِلَى الطَّبِيبِ[1]

إنّها نفثة مصدور تذيب الحديد ، وصرخة موتور تسمع من بعيد ، ينبّه فيها ابن خفاجة على أنّ هذه الحادثة تكاد تصدّع صخرة ولائه للمرابطين وتكدّر صفاء بئر مودّته لهم ، وإنّه لحادث جلل ألّا توقّر الليالي من مشيبه ، ثمّ نجد شبه تهديد مبطّن للأمير إن لم يجب دعوته ، فشعر ابن خفاجة يحرّك الجماد ويجعله يهتزّ كالغصن الرطيب فكيف لا يحرّك الأمير ، ثمّ يساوي ابن خفاجة نفسه بالأمير في قوله : " ومثلي هزّ مثلك "، وهو أمر نادر الحدوث من مادح أو طالب حاجة ، ولكنّه خفّف من غلوائه في البيت التالي مستثيراً الناحية الإنسانيّة في الأمير بجعله الطبيب الذي يقدر أن يداوي العليل ، فيلتفت نحوه ، ويكرّر النظر إليه راجياً منه أن يداوي علّته .

ويلوح لابن خفاجة أنّه لا النظر ولا الشعر بقادرين على توضيح

---

١ – الديوان : ٩٣ – ٩٤ .

شكواه وتحديدها بدقّة فيتبع قصيدته برسالة نثريّة قصيرة لا تدع مجالاً للتأويل ويقول :

« الأَمِيرُ الأَوْحَدُ، الأَمْجَدُ -أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَمَهَّدَ بِالسَّعَادَةِ أَعْطَانَهُ!- يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ مُتَرَتِّبُونَ بَيْنَ عُلْوٍ وَسُفْلٍ، وَمُتَقَسِّمُونَ إِلَى نَبِيهٍ وَغُفْلٍ، وَأَنَّ لِكِلَيْهِمَا مَكَانَةً مِنَ السِّيَاسَةِ مَرْسُومَةً، وَمَرْتَبَةً مِنَ الرِّيَاسَةِ مَعْلُومَةً. عَلَى هذَا مَضَتِ الدُّوَلُ، وَانقَرَضَتِ القُرُونُ الأُوَل. وَإِنِّي -وَالحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ لِكُلِّ مُنْعِمٍ غَمَرَ بِحُسْنَاهُ، وَبَسَطَ بِالفَضْلِ يُمْنَاهُ - مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ، مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُؤَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا. وَهَا أَنَا - وَقَدْ أَخْلَقَ رِدَاءُ الشَّبَابِ، وَلَحِقَ بِالتُّرَابِ، أَكْثَرُ الأَتْرَابِ - أَلْيَقُ بِذَلِكَ المَأْخَذِ الكَرِيمِ، وَأَخْلَقُ بِوُجُودِ بَرْدِ ذَاكَ النَّسِيمِ، وَرَأْيُ الأَمِيرِ - أَيَّدَهُ اللهُ- أَجْمَلُ، وَبَاعُ طَوْلِهِ أَطْوَلُ. وَهُوَ بِشَرَفِ مَوْلِدِهِ، وَكَرَمِ مَحْتِدِهِ، يُنْعِمُ بِإِقْبَالِهِ، وَيَسِمُ بِإِجْمَالِهِ، وَيَكْتَنِفُ بِإِحْسَانِهِ، وَيُشْرِفُ بِسُلْطَانِهِ - لا زَالَ شَامِلاً بِالبِرِّ، مُشْتَمِلاً بِالنَّصْرِ، سَعِيدَ الجَدِّ، حَمِيدَ القَصْدِ، بِحَوْلِ اللهِ » [١] .

ويعلّق ابن خفاجة على القطعة النثريّة بمثل ما قدّم للقصيدة :

« فما فرغ من قراءته ، حتّى عهد بما هو أهله ، أيّده الله » [٢] .

---

١ - الديوان : ٩٤ — ٩٥ .

٢ - الديوان : ٩٥ .

ولا ندري أهذه التعليقات المريحة التي علّقها ابن خفاجة نفسه صحيحة ، أم هي نوع من التعويض النفسي وردّ الاعتبار ودفع الحسّاد ؟ لأنّ ابن خفاجة لا يفتر عن الشكوى بعد ذلك . وقد تكون قصيدته قد أفلحت هذه المرّة وأنجحت مطلبه ، ولكنّ المشكلة هي تداول العمّال والولاة على المدائن ، فلا يكاد يمهّد لنفسه عند أحدهم حتّى يذهب ويبدّل بآخر كما ذكر ابن خفاجة سابقاً .

كما أنّ « أساليب المرابطين في الحكم لم تكن تتّسم بكثير من الرفق والكياسة ، وأنّها كانت بالعكس تتّسم بالضغط والخشونة » ، كما يقول الأستاذ عبدالله عنان [1] .

وفي ديوان ابن خفاجة بيتان يشيران إلى جور الملك في عصره ، وأثره في الناس :

لَعَمرِيَ لَوْ أَوْضَعتَ في مَنهَجِ التُّقَى
لَكَانَ لَنَا في كُلِّ صالِحَةٍ نَهْجُ
فَما يَستَقيمُ الأَمرُ وَالمَلْكُ جائِرٌ
وَهَلْ يَستَقيمُ الظِّلُّ وَالعُودُ مُعْوَجُّ [2]

---

١ – دولة الإسلام في الأندلس– عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس : ٨٣ .

٢ – الديوان : ٣٦٩ .

٣- الأميرة الحرّة مريم

ولم يقتصر ابن خفاجة على مدح الأمير تميم فقد مدح زوجه الحرّة مريم بنت ابن تيفلويت بقصيدة لا ندري أهي قبل القصيدة السابقة أم بعدها ، وفي كلتيهما يزعم ابن خفاجة أنّها نجحت في تحقيق مطالبها ، ولا يصحّ ذلك ، فلو نجحت القصيدة التي قالها في الأمير لما احتاج إلى شفاعة زوجه ، ولو نجحت القصيدة التي قالها في زوج الأمير لما احتاج إلى قصيدة العتب الشديد الموجّهة إلى الأمير .

يقدّم ابن خفاجة للقصيدة بقوله :

« وقال ، وكتب بها إلى الحرّة مريم – رحمها الله – يتشفّع بها إلى زوجها الأمير أبي الطاهر تميم – أيّده الله – وكانت ممّن تقوم على كثير من الخير ، وتحفظ جملة وافرة من الشعر ، وتحاضر به ، وتثيب عليه . فما وقفت على ما كتب به حتّى نفذ العهد بحملانه على أتمّ وجوه البرّ والمحافظة والمراعاة والمكارمة :

يَمَّمْـتُ مِـنْ عُلْيَـاكِ خَيْـرَ مُـيَمَّمِ	وَحَلَلْـتُ مِـنْ مَغْنَـاكِ دَارَ مُخَـيَّمِ
فَخَلَعْتُ عَنْ عُنُقِي حِمَالَةَ صَارِمٍ	وَأَرحْـتُ نَفْسِـي مِـنْ حَمَالَـةِ مَغْـرَمِ
وَنَزَلْـتُ مِنْ خَصْـبٍ بِأَمْرَعِ مَرْتَعٍ	خَضِـلٍ وَمِـنْ أَمْـنٍ بِـرَأْسِ يَلَمْلَـمِ
وَلَقَـدْ تَهَـادَتْنِي الـمَطَايَا وَالسُّـرَى	وَعُبَـابُ لُجَّـةِ كُـلِّ لَيْـلٍ مُظْلِـمِ
حَـتَّى سَـكَنْتُ وَلِلَّيَـالِي جَوْلَـةٌ	كُحِلَـتْ بِهَبْوَتِهَـا عُيُـونُ الأَنْجُـمِ

وَكَفَى احْتِمَاءَ مَكَانَةٍ وَصِيَانَةٍ		أَنِّي عَلِقْتُ بِذِمَّةٍ مِنْ مَرْيَمِ
ذَاتِ الأَمَانَةِ وَالدِّيَانَةِ وَالتُّقَى		وَالخُلْقِ الاشْرَفِ وَالطَّرِيقِ الأَقْوَمِ
ذَاتِ الجَلالَةِ وَالجَزَالَةِ وَالنُّهَى		وَالبَيْتِ الارْفَعِ وَالنِّصَابِ الأَكْرَمِ
مِنْ أُسْرَةٍ يَتَلَثَّمُونَ إِلَى الوَغَى		يَوْمَ الحَفِيظَةِ بِالعَجَاجِ الأَقْتَمِ[1]

يتحدّث ابن خفاجة في الأبيات السابقة عن أمرين هما أمن مفتقد وغرم مفترض ثقيل ، يريد أن يرتاح منه ، وأن يصون مكانته بتعلّقه بذّمة الحرّة الأميرة ، وتشفُّع ابن خفاجة بها يدلّ على المستوى العالي للمرأة المرابطيّة المثقّفة العالمة المشاركة في بعض أمور الدولة .

ويسهب ابن خفاجة في هذه القصيدة في تصوير عزّ المرابطين وكرمهم وشجاعتهم إلّا أنّه يصدمنا بيت يتحدّث عن جود الأميرة فيقول :

وَيَفُكُّ مِنْ أَغْلالِ أَسْرَى فَاقَةٍ		وَفَصِيحِ قَوْمٍ فِي مَقَادَةِ أَعْجَمِ[2]

فهل قصد ابن خفاجة بالفصيح نفسه ، وهل قصد بالأعجمي المرابطين البربر الذين يحكمون الأندلسيّين ، والذين لا يفهمون العربيّة فهماً دقيقاً .

---

١ – الديوان : ٩٦ – ٩٧ .

٢ – الديوان : ٩٨ .

٤- الأمير ابن تيفلويت (ت ٥١٠ هـ)

ومدح ابن خفاجة والد الحرّة مريم؛ وهو أبو يحيى أبو بكر بن إبراهيم ابن تيفلويت ، وهو كذلك زوج أخت أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وابن عمّه، وكان والياً على غرناطة سنة (٥٠٠ هـ)، ثمّ على مرسية ثمّ ضمّ إليها بلنسية نحو (٥٠٢ هـ)، ثمّ طرطوشة وسرقسطة نحو سنة (٥٠٨ هـ) إلى وفاته ، وكان مشهوراً بالكرم والشجاعة، وعاش حياة باذخة فخمة ، وانهمك في اللذّات والشراب[١]، لذلك كان ابن تيفلويت أقرب أمراء المرابطين إلى ابن خفاجة ، وقد مدحه بقصيدة واحدة نصّ في التقديم لها على اسم الأمير، ولكنّها أطول قصائده قاطبة في المدح وغيره، وتبلغ (٩٩) بيتاً ، وأرسلها إليه وهو في العدوة المغربيّة ، ولا ينسى ابن خفاجة أن يسأله تشكّر القائد الأعلى ووالي مرسية السابق الأمير محمّد بن عائشة والدعاء له بالشفاء ، يقول ابن خفاجة في التقديم لها :

« وقال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم – رحمه الله – ويسأله تشكّر القائد الأعلى أبي عبدالله بن عائشة – شفاه الله – عن برّه به ، وإجماله معه ، وحمله في أمر ضياعه على أتمّ الحرّية وأعمّ المزيّة ، وكتب بها إليه بالعدوة ، فراجع عن ذلك بما اقتضاه طوله – رحمه الله :

سَمَحَ الخَيَالُ عَلَى النَّوَى بِمَزَارِ   وَالصُّبْحُ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِ نَهَارِ»

---

١ – عصر المرابطين : ٨٩ .

فابن خفاجة يعبّر بدقّة عن مطالبه وعمّا يعنيه بالبرّ به والإجمال معه بعبارة مختصرة وهي « حمله في أمر ضياعه على أتمّ الحريّة وأعمّ المزيّة » ، فهو في مديحه للمرابطين لا يستجدي أو يطلب عطاء بل يرجو من ولاتهم أن يجملوا معه في الضرائب المفروضة على ضيعته أو ضياعه – كما يقول – وأن يتركوا له الحرّية فيها .

ويسهب ابن خفاجة في الغزل والأوصاف لينتقل إلى المديح بوصف قطاة تظل خائفة ممّا قد تتعرّض له ليل نهار ، فيدعوها – ويدعو نفسه – للاستجارة بحمى ممدوحه العزيز الجوار :

مَخْضُـوبَةِ المِنْقَـارِ تَحْسَـبُ أَنَّهَـا	كَرَعَتْ عَلَى ظَمَأٍ بِكَأْسِ عُقَارِ
لا تَسْتَقِرُّ بِهَا الأَدَاحِي خَشْيَةً	مِـنْ لَيْـلِ وَيْـلٍ أَوْ نَهَـارِ بَـوَارِ
وَلَوِ اسْتَجَارَتْ مِنْهُمَا بِحِمَى أَبِي	يَحْـيَى لآمَنَهَـا أَعَـزُّ جِـوَارِ
حَـرَمٌ إِذَا اشْـتَمَلَ الطَّرِيـدُ بِظِلِّـهِ	لَمْ يَخْشَ مِنْ جَوْرٍ هُنَالِكَ جَارِ
تَقِـفُ الرِّيَـاحُ بِجَانِبَيْـهِ هَيْبَـةً	وَيَعُـبُّ بَحْـرُ العَسْـكَرِ الجَـرَّارِ [1]

وهذه القطاة إن هي إلّا قناع فنّي للشاعر نفسه الباحث عن جوار ولو من وراء البحار ، فهو في العدوة الأندلسيّة وممدوحه في العدوة المغربيّة ، ليتخلّص من الجور الجاري عليه .

---

١ – الديوان : ٣٦ .

ويطنب ابن خفاجة في تعداد مآثر ممدوحه ابن تيفلويت مبالغاً في ذلك مبالغة لا نجدها في سائر قصائده المدحيّة :

لَبِسَ التَّوَاضُعَ عَنْ جَلالٍ وَارْتَقَى ... شَرَفاً بِحَيْثُ سَمَا سَمَاءَ فَخَارِ

ألقَتْ إِلَيْهِ بِالأُمُورِ إِمَارَةٌ ... مَلأَتْ رُوَاءً أَعْيُنَ النُّظَّارِ

فَعِنَانُ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الغَرَّاءِ فِي ... تَدْبِيرِ ذَاكَ الفَارِسِ المِغْوَارِ

بَطَلٌ جَرَى الفَلَكُ المُحِيطُ بِسَرْجِهِ ... وَاسْتَلَّ صَارِمَهُ يَدُ المِقْدَارِ

يَمْتَدُّ حَبْلُ الأَسْمَرِ الخَطِّيِّ فِي ... يَدِهِ وَبَاعُ الأَبْيَضِ البَتَّارِ[1]

ويطيل ابن خفاجة في مديحه من دون تلميح أو ذكر لمطالب أو رغائب إلّا في البيت الأخير الذي يطلب فيه – بشكل مباشر – الشفاعة والوساطة له على تنائي الشقّتين :

وَاشْفَعْ عَلَى شَحْطِ الدِّيَارِ لآمِلٍ ... أَهْدَى الثَّنَاءَ عَلَى تَنَائِي الدَّارِ[2]

إذاً لا بدّ من الشفاعات والوساطات لدفع ظلم ، أو حمل مغرم ، أو صون مكانة ، بل لا بدّ لابن خفاجة من أن يأوي ﴿إِلَى رُكْنٍ شَدِيْدٍ﴾[3] أو يستجير بحمى ممدوحه ليدرأ عن نفسه الأذى ؛ فثمّة قطعة شعريّة موصولة بقطعة نثريّة ، ذكر فيها ابن خفاجة تعرّضه لبعض المضايقات والأذى فيهرع

---

١ – الديوان : ٣٧ .

٢ – الديوان : ٣٩ .

٣ – سورة هود : ٨٠ .

إلى الكتابة إلى الأمير أبي بكر بن إبراهيم ليكتب إلى عامله ليكفّ عنه أذى المسيء :

« وكتب إلى الأمير أبي بكر بن إبراهيم – رحمه الله – :

أَوَجْهُـكَ بَسّـامٌ وَطَـرْفِيَ بـاكِ	وَعَـدْلُكَ مَوجـودٌ وَمِثلِـيَ شـاكِ
وَتَأبى اهتِضامي في جَنابِكَ هِمَّةٌ	تَهُـزُّكَ هَـزَّ الـريحِ فَـرْعَ أَراكِ
وَقَـد نـالَ مِـنّي ظـالِمٌ لِيَ ذاعِـرٌ	فَيـا هَبَّـةَ السَّـيْفِ الحُسَـامِ دَراكِ

عَدْلُ الأَمِيرِ الأَجَلِّ –أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ بِالنَّجْمِ ارْتِقَاءَهُ– أَقْرَبُ دَرَكاً وَرَجَاءً، وَأَفْسَحُ أَكْنَافاً وَأَرْجَاءً، مِنْ أَنْ يَكُونَ أُفْقِي يُظْلِمُ، وَمِثْلِي فِي طَاعَتِهِ يُظْلَمُ. وَإِنِّي دُهِيتُ بِشيطَانٍ لا يُغْنِي فِيْهِ أَنْ يُتَلَقَّى بِعَزِيمَةٍ، وَيُتَوَقَّى بِتَمِيمَةٍ. وَقَدْ سَجَنهُ مِرَاراً بِسَبَبِي «فُلانٌ»– وَفَّقَهُ اللهُ– فَمَا كَفَّ ذَلِكَ مِنْ خَطْوِهِ، وَلا قَصَّرَ مِنْ شَأْوِهِ، وَلا غَضَّ مِنْ جِمَاحِهِ، وَلا قَصَّ مِنْ جَنَاحِهِ. وَلَنْ يَصِلَ بِحَوْلِ اللهِ إلى أَنْ أهِنَ، أَوْ أُمْتَهَنَ، وَهذِهِ رِيْحُ السُّلْطَانِ تَهُبُّ، وَبَحْرُهُ يَعُبُّ، وَالحَقُّ مُفْتَقِرٌ إِلَى عَضُدِ أَمْرِهِ، وَشَدِّ أَزْرِهِ. فَإِنْ رَأَى –أَدامَ اللهُ مَا بِيَدِهِ– أَنْ يُوَقِّعَ إلى «فُلَانٍ» فِي أَنْ يُحْسِنَ عَوْنِي، وَيُجْرِيَ إلى صَوْنِي، فَعَلَ مُنَعَّماً. والرَّبُّ –جَلَّ وَعَزَّ– يُفْسِحُ لِلْفَضْلِ أَمَدَهُ، وَيَبْسُطُ بِالفَوَاضِلِ يَدَهُ، وَيَجْعَلُ خَيْرَ يَوْمَيْهِ غَدَهُ، بِحَوْلِهِ وطَوْلِهِ .

فوقّع –رحمه الله– بما هو أهلُه » [1] .

ولقد توطّأ لابن خفاجة عند ابن تيفلويت «مكان مرعيّ ، وبرّ بجانبه حفيّ »[2]، مهّد له تشابههما في حياتهما الخاصّة في الميل إلى اللهو والمرح ، لذلك فإنّ ابن تيفلويت هو الوحيد الذي رثاه ابن خفاجة من أمراء المرابطين الذين عاصرهم أو اتّصل بهم ، وقد رثاه بمقطوعتين اثنتين، ولكنّهما قصيرتان لا تتجاوز الواحدة منهما ثلاثة أبيات في حين أنّ مدحته له تبلغ المئة إلّا بيتاً ، ولهذا دلالته الواضحة ، كما أنّ هذا الرثاء جاء معارضة لقطعة ابن باجة (ت ٥٣٣ هـ) وزير ابن تيفلويت في رثائه ؛ لإظهار تفوّقه على الوزير شعريّاً ، لذلك فإنّ ابن خفاجة لم يقل في التقديم للقطعتين إنّه قد رثى ابن تيفلويت بل :

« قال في ذلك معارضاً لذلك المقطوع :

يا صَدىً بِالثَّغرِ مُرْتَهَناً ... بِمَمَرِّ الرِّيْحِ وَالدِّيَمِ

لا أَرى إلَّا أَخا كَمَدٍ ... باكِياً مِنكَ أَخا كَرَمِ

كَم بِصَدرِي فيكَ مِن حُرَقٍ ... وَبِكَفِّي لَكَ مِن نِعَمِ »[3]

---

١ – الديوان : ١٧٠ – ١٧١ .

٢ – الديوان : ١٠٥ .

٣ – الديوان : ١٠٥ .

٥- الأمير ابن الحاج

والأمير الخامس والأخير من أمراء المرابطين الذي نجد له مدحة في ديوان ابن خفاجة هو أبو يحيى ؛ أبو بكر بن محمّد بن الحاجّ ، وقد مدحه ابن خفاجة عندما تولّى أبوه القائد المرابطي محمّد بن الحاجّ [١] ولاية بلنسية سنة (٥٠٢ هـ) التي يسكنها ابن خفاجة وفيها ضيعته ، ويبدو أنّ ابن خفاجة كان يتقرّب من كلّ من يحكم مدينته ويمهّد لنفسه عنده ، ليكون من شيعته وخاصّته ، ويظلّ في كنفه ورعايته وحمايته ، ويتخلّص من مغارمه وضرائبه ، قال ابن خفاجة في التقديم لقصيدته هذه الموصولة بقطعة نثريّة :

« وكان أبو بكر ابن الحاجّ – رحمه الله – جليلاً ، وكان بينه وبين ابن خفاجة اتّصال اقتضى مخاطبته خلال كونه خارج بلنسية ، فقال ، وكتب بها إليه ، عند صرف أبي محمّد بن فاطمة [٢] عنها – رحمه الله – وولاية أبيه إيّاها :

لِـذِكْرِكَ مـا عَـبَّ الخَلـيجُ يُصَـفِّقُ ... وَبِاسمِكَ ما غَنّى الحَمامُ المُطَوَّقُ
وَمِن أَجْلِكَ اهتَزَّ القَضيبُ عَلى النَّقى ... وَأَشـرَفَ نُـوّارُ الرُّبـا يَتَفَتَّـقُ
وَمـا ذاكَ إِلّا أَنَّ خُلقَـكَ رائِـقٌ ... يُهَـزُّ كَمـا هَـزَّ الرَّحيـقُ الـمُعَتَّقُ

---

١ – لم يمدح ابن خفاجة القائد أبا عبدالله بن الحاجّ (ت ٥٠٨ أو ٥٠٩ هـ) ولكن ثمّة قصيدة في ديوانه في وصف معترك بجهة قرطبة في مدّة ابن الحاجّ : انظر ص ٢٥١ – ٢٥٣ .

٢ – من كبار القوّاد والولاة المرابطيّين (ت ٥١٠ هـ)

حَسُـنتَ غَنَـاءً وَاجـتِلاءً وَخِـبرَةً | فَكُلُّـكَ مَومـوقُ الحُلـى مُتَعَشَّـقُ
وَلِنْـتَ لَيَـانَ السَّـيفِ أَمّـا فِرِنـدُهُ | فَطَلْـقٌ وَأَمّـا غَرْبُـهُ فَمُـذَلَّقُ
فَهَـل عَلِمَـتْ تِلـكَ الإِمـارَةُ أَنَّهـا | يَفِـيْضُ عَلَيها مِـن رُوائِـكَ رَونَـقُ
فَـلا عَـينَ إِلَّا وَهْـيَ تَظمَـأُ لَوعَـةً | وَإِنسانُها في ماءِ وَجْهِكَ يَغرَقُ»[١]

ولنا أن نتساءل – مرّة ثانية — عن سبب هذه الليونة في المديح ، ومزجه بما يشبه الغزل، حتّى ليحسن هذا الممدوح الشابّ جلوة واجتلاء !! وهي لفظة غير مناسبة ، وهو متعشّق لحلاه ، والعيون تظمأ لرؤياه ، وإنسانها في ماء وجهه يغرق ، وهذه الصورة مشهورة في الغزل في قول الشاعر ابن عبد ربّه :

وإذا نظـرت إلى محاسـن وجهـه | أبصرت وجهـك في سناه غريقـا [٢]

ويكرّر مثل هذا في الرسالة الملحقة بالقصيدة ، التي بدأها بدعاء خاصّ للممدوح :

« أَطَالَ اللهُ –أَيُّهَا السَّيِّدُ الأَوْحَدُ– بَقَاءَكَ، كَمَا وَصَلَ عِزَّتَكَ وَارْتِقَاءَكَ، وَأَسْمَى مَرَاتِبَكَ وَعُلاكَ، كَمَا أَسْنَى مَنَاقِبَكَ وَحُلاكَ، وَأَخْلِقْ بِهَا مِنْ دَعْوَةٍ

---

١ – الديوان : ١٨٤– ١٨٥ .

٢ – ديوان ابن عبد ربّه : ١٢٠ .

هَتَكَتْ حِجَابَ الظَّلْمَاءِ، وَقَرَعَتْ بَابَ السَّمَاءِ أَنْ تَثْبُتَ هُنَالِكَ مَعَ المَجَرَّةِ سَطْراً، وَتُكْتَبَ فِي دِيْوَانِ القَبُولِ صَدْراً، فَإِنَّهَا عَنْ قَلْبٍ كَرُمَ فِي مُشَايَعَتِكَ سِيرَةً، وَخَلُصَ فِي جِهَتِكَ عَقِيدَةً وَسَرِيرَةً، حَتَّى لَسْتُ أَدْرِي أَضَمِيرٌ، أَمْ مَاءٌ نَمِيْرٌ، وَهَلْ مِنْ مَحِيدٍ، عَنْ هَوَى أَرْوَعَ وَحِيدٍ؟، أَرَى بِهِ الفَضْلَ قَدْ مَثَلَ صُورَةً، وَالنُّبْلَ قَدْ أُنْزِلَ سُوْرَةً، وَالصُّبْحَ يَتَبَلَّجُ بَاسِماً، والرَّوْضَ يَتَأَرَّجُ نَاسِماً، فَهَنِيئاً لِتِلْكَ الدَّوْلَةِ المَيْمُونَةِ أَنَّكَ عَلَمُ رِدَاءٍ، ذَلِكَ الرُّوَاءِ، وَوُسْطَى قِلادَةٍ، تِلْكَ السِّيَادَةِ » [1] .

ومن ذلك كلّه نستطيع أن نقول إنّ مديح ابن خفاجة لأمراء المرابطين لم يكن عن إعجاب بهم ، ولا عن محبّة وولاء لهم ، بل كان لحاجات ومتطلّبات ، وفي قصيدة نظمها ابن خفاجة بعد أن حلب الدهر أشطره ، تحسّر فيها على فقد شبابه مقرّراً انتفاء الأكابر والأعيان في عصره الذين يستحقّون أن يمدحوا « وقال يتوجّع لفقد الشباب وعدم العلية الأعيان ، ويصف فرساً أشهب :

أَلَا سَرَتِ القَبُـوْلُ [2] وَلَـوْ نَسِـيْما　　　وَجَـاذَبَنِي الشَّبَابُ وَلَـوْ قَسِـيْما [3]

وَطَـالَعَنِي الظَّـلَامُ بِـهِ خَيَـالاً　　　فَأَقْبَـلَ نَـاظِرِي وَجْهـاً وَسِـيْما

....

١ – الديوان : ١٨٨ .

٢ – القَبول : الريح تأتي من مطلع الشمس أو هي ريح الصبا لأنّها تستقبل الدبور .

٣ – القسيم : الشطر ، النصف .

وَكُنْـتُ رَجَـوْتُ أَنْ أَعْتَـاضَ مِنْـهُ زَعِيْمـاً [1] أَو عَلِيْمـاً [2] أَو حَلِيْمـا[3]

وَلَمَّـــا أَنْ نَظَـــرْتُ مَـــعَ اللَّيَـــالِي فَلَـــمْ أَنْظُـــرْ بِـــهَا إِلَّا مَلِيْمـــا [4]

عَبَامـاً[5] أَو كَهَامـاً [6] أَو جَهَامـاً[7] لَئِيْمـاً[8] أَو دَمِيْمـاً[9] أَو ذَمِيْمـا [10]

شَـدَدْتُ عَلَـى القَـوَافِي كَـفَّ حُـرٍّ كَـــرِيْمٍ لَا يُسَـــوِّغُهَا لَئِيْمـــا

فَمَـــا أُطْـــرِي إِذَا أَطْرَيْـــتُ إِلَّا حَمِيّـاً [11] أَو حَبِيْبـاً أَو حَمِيْمـا[12]

---

١ – الزعيم : هو سيّد قومه ورئيسهم والمتكلّم عنهم .

٢ – العليم : هو العارف حقّ المعرفة ، المتقن ، الخبير .

٣ – الحليم : ذو الأناة والعقل وضبط النفس ، والسكون عند الغضب .

٤ – المَليم : الذي يأتي بما يلام عليه ، ويستحق اللوم ويستوجبه ، يقال : ربّ لائم مليم

٥ – العَبام : كلمة جامعة للذمّ ، فهو الثقيل العيي الذي لا عقل له ولا أدب ولا شجاعة ولا رأس مال ، والأحمق الكليل اللسان والغليظ الخلقة في حمق .

٦ – الكَهام : الكليل العيي البطيء المسنّ لا غناء عنده ، وكهم السيف : كلّ فلم يقطع

٧ – الجَهام : السحاب لا ماء فيه ، يقال جاء من هذا الأمر بجهام أي بما لا خير فيه.

٨ – اللئيم : المَهين ، دنيء الأصل شحيح النفس .

٩ – الدميم : القبيح المسيء .

١٠ – الذميم : المعاب المهجوّ .

١١ – الحميّ : الذي لا يحتمل الضيم والظلم ، وجاءت في رواية أخرى : " حفيّاً " وهي أنسب للسياق ، والحفيّ : هو المبالغ في إكرامك مظهر السرور والفرح له والمكثر من السؤال عن حالك .

١٢ – الحميم : القريب الذي تودّه ويودّك .

وَمَطْـــرُوراً [1] أُجَـــرِّدُهُ صَـــقِيْلاً   وَيَعْبُوبـــاً [2] أَكُـــرُّ بِـــهِ كَرِيْمَـــا [3]

إذاً فابن خفاجة يتحدّث بكلّ صراحة أنّه كان يرجو أن يعتاض من شبابه المنصرم عنه — برغمه — زعيماً أو عليماً أو حكيماً من الناس ، ولكنّه وجد — عكس ذلك — مجامع للمعايب والقبح ، ومخازي مكدّسة في أشكال أناس لا خير يرتجى منهم ، ولا يجدي الخير فيهم .

فما كان منه إلّا أن قرّر قراراً محدّداً ملزماً بألّا يسفح مدامة شعره على من كان بتلك الصفات الذميمة ، ولا يطري — حين يطري — إلّا حميّاً أو(حفيّاً) أو حبيباً أو حميماً ، وجعل مدحهم إطراء ، ولعلّ هذا ما وجدناه في مدحه وثنائه لبعض الوزراء والأدباء والعلماء والقضاة الأندلسيّين ، إذ إنّ قصائده فيهم أقرب إلى الإخوانيّات منه إلى المديح. ويطري ابن خفاجة — كذلك — صديقين ملازمين له وهما سيفه الصقيل وفرسه الكريم، فلعلّهما أكثر فائدة ووفاء من كثير من الناس .

ولهذا كلّه نرى أنّ ابن خفاجة لم يكن راغباً في مدح أمراء المرابطين ، وأنّه قد أحجم حقّاً عن مدحهم نحو عقدين من الزمن ، ولكنّ الأيّام اضطرّته إلى مدح بعض أمراء المرابطين الذين حكموا المدائن التي كان يقيم بها ابن خفاجة ويتردّد إليها ، فعل ذلك حماية لنفسه وصيانة لمكانته ورعاية لضيعته .

---

١ – المطرور : السيف .

٢ – اليعبوب : الفرس الكريم الجواد الواسع الجري .

٣ – الديوان : ١١٤ – ١١٥ .

٣- أصدقاؤه

اعتمد المرابطون في إدارة شؤون الأندلس السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة على الخبرات الأندلسيّة ، فكان أغلب الوزراء والقضاة من الأدباء والعلماء الأندلسيّين ، لأنّ العلم والأدب كانا سلّماً يرتقى بهما للمناصب العالية في الأندلس عامّة . وتقلّد عدد من أصحاب ابن خفاجة الوزارة بما يمتلكون من مؤهّلات ، ولعلّ ابن خفاجة كان قادراً أن يكون مثلهم لو لم يعتزل الحياة العامّة بداية عهد المرابطين ، حتّى إنّ ناسخ ديوان ابن خفاجة سمّاه الوزير الفقيه[١] ، إذ كان يمتلك كلّ الأدوات الأدبيّة اللازمة للوصول إلى هذا المنصب كما أنّ إبداع ابن خفاجة الفنّيّ الرائع ، ومكانته الأدبيّة السامية قد أوصلته إلى مجالس الكبراء ، وأهّلته للاتّصال بكبار الوزراء والأدباء والعلماء والقضاة الأندلسيّين ومصادقتهم . وهنا نشير إلى اقتصار صداقة ابن خفاجة على الأندلسيّين شعريّاً ، وإلى أنّ هذه الصداقات عدا الصداقات الشخصيّة الخاصّة بأيّام الصبا والشباب قد تجلّت – شعريّاً – في عهد المرابطين .

أمّا صداقات الصبا والشباب فتتّصف بالعموميّة ؛ فلا يذكر ابن خفاجة أشخاصاً بأعيانهم، ولا أناساً بأسمائهم ، بل يذكرهم بمجملهم في مجالس الأنس كما رأينا ، أو في حومات الوغى ، كقوله في صدر قصيدة في الحماسة والغزل :

---

١ – الديوان : ١٨٢.

مَضَاءٌ كَمَا سُلَّ الحُسَامُ مِنَ الغِمْدِ وَحَزْمٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزَّنْدِ
وَحُكْمٌ كَمَا زَاحَمْتَ مَنْكِبَ هَضْبَةٍ وَبَأْسٌ كَمَا حَدَّثْتَ عَنْ أَسَدٍ وَرْدِ
بِأَمْثَالِهِمْ مِنْ فِتْيَةٍ أَقْتَضِي المُنَى وَفَتْكِ القنا بِالكَفِّ وَالكَفِّ بالزَّنْدِ
شَبَابٌ عَلَى خَيْلٍ عِرَابٍ فَإِنْ يَكُنْ جِلَادٌ فَقُلْ فِي بَأْسِ مُرْدٍ عَلَى جُرْدِ
إِذَا اعْتَقَلُوا الخَطِّيَّ فِي لَيْلَةِ السُّرَى نَظَرْتَ إِلَى الخَطِّيِّ مُلْداً عَلَى مُلْدِ
فَأَسْمَرُ عَسَّالٌ وَأَخْمَصُ بَاسِلٌ وَمَثْوَى الرَّدَى بَيْنَ الأَسَاوِرَةِ الأُسْدِ
تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرَ النَّجِيْعِ سُلَافَةٌ تُدَارُ وَلا غَيْرَ الأَسِنَّةِ مِنْ وِرْدِ
وَلا شَجَرٌ إِلَّا مُثَقَّفَةُ القنا وَلا نَهَرٌ إِلَّا مُشَطَّبَةُ الهِنْدِ
فَزَهْرٌ وَلَكِنْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنِ الجَنَى وَمَاءٌ وَلَكِنْ غَيْرُ مُسْتَعْذَبِ الوِرْدِ
قَدِ انْتَظَمُوا فِي نَحْرِ شُقْرٍ قِلادَةً وَكُلُّهُمُ وُسْطَى فَنَاهِيكَ مِنْ عِقْدِ
فَدَيْتُهُمُ مِنْ كُلِّ أَرْوَعَ مَاجِدٍ كَرِيْمِ السَّجَايَا لَا يَزِيفُ إِلَى النَّقْدِ
وَمَا مِنْهُمُ إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلٌ رَفِيْعُ سَمَاءِ المَجْدِ هَامِي حَيَا الرَّفْدِ
مِكَرٌّ وَصَدْرُ الرُّمْحِ يَهْتَزُّ عِزَّةً وَيَمْضِي وَجَفْنُ السَّيْفِ يُسْفِرُ عَنْ جَدِّ
وَقَدْ عَطَفَ الضَّرْبُ الحُسَامَ بِكَفِّهِ وَغَيْرُ قَوِيمٍ بُرْثُنُ الأَسَدِ الوَرْدِ
وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ لَخِدْنُ العُلَا تِرْبُ النَّدَى لِدَةُ المَجْدِ[1]

هذا أمر ؛ وأمر آخر مهمّ هو أن أغلب أصدقائه المذكورين بالاسم كانوا من العلماء والأدباء ، وكانت بينهم رسائل إخوانيّة وردود كقوله :

---

١ – الديوان : ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

وَأَرْوَعَ أَمْجَــــــــدَ قَرَّظْتُــــــــــهُ

وَبِـــيْضُ الـــلاَّلِي لِبِـــيْضِ النُّحُـــور

وَشَعْشَـــــعَتِ الخَمْـــــرُ أَغْلاَقَـــــهُ

فَأَطْلَعَهَـــــا غُـــــرَراً لِلْبُـــــدُور

وَهَاتِيـــــــكَ آدَابُــــــهُ لُجَّـــــةٌ

فَمَـــنْ لِي وَقَـــدْ زَخَـــرَتْ بِـــالعُبُور

وَمَـــا ازْبَـــدَّتِ الكَـــأْسُ فِي كَفِّـــهِ

وَلكِنَّهَـــا ضَـــحِكَتْ عَـــنْ سُـــرُور

إِذَا مَـــا جَـــرَى فَـــوْقَ قِرْطَاسِـــهِ

يَـــرَاعٌ جَـــرَى حِبْـــرُهُ بِـــالحُبُور

فَيَلْـــثِمُ أَوْضَـــاحَ تِلْـــكَ الرِّقَـــاع

وَلُعْـــسَ مَرَاشِـــفِ تِلْـــكَ السُّـــطُور

فَهَـــلْ نِقْسُـــهُ مِـــنْ سَـــوَادِ اللَّمَـــى

وَمُهْرَقُـــهُ مِـــنْ بَيَـــاضِ الثُّغُـــور[1]

وبصورة عامّة فقد كانت صلة ابن خفاجة ببعض الوزراء متينة ، وعلاقته ببعضهم الآخر حميمة ، وكانت له معهم رسائل شعريّة متبادلة فائقة القيمة الفنّيّة ، ومدائح رائعة عذبة ، بعضها أشبه بالقصائد الإخوانيّة

---

١ – الديوان : ٦٠.

منها بالمدح ، بيد أنّه لابدّ له في بعضها من إزجاء المديح والثناء والإطراء لتسيير الأمور وتيسير الأحوال ؛ لأنّه كما يقول ابن خفاجة :

وَلِلمَـــدحِ أَلحـــانٌ تَهُـــزُّ شَـــجِيَّةٌ   تُنَسّـي بِهـا الـمُكّاءَ كُـلَّ صَـفيرِ[1]

هذا من جانب ؛ ومن جانب آخر فإنّ المناصب الرفيعة تغيّر النفوس الوضيعة ، وثمّة مقطوعة صغيرة في شعر ابن خفاجة تشرح ذلك ؛ يقدّم لها بقوله :« وقال يعاتب بعض إخوانه ، وقد اجتاز على الجزيرة فلم يعرّج على مكانه ، على حين ولي رسم الكتابة ، ودعي لخطّة الوزارة :

قُــل لِلمُقــيمِ مَــعَ النُفــوسِ عَلاقَــةً
يــا راكِبــاً ظَهْــرَ الــمَطِيِّ بُراقــا
لِمَ صِـرْتَ تَرغَـبُ عَـنْ سَـجَايَا حُـرَّةٍ
قَــد كُنْــتَ مُقتَنِيــاً لَهــا أَعْلاقــا
أَتَمُــرُّ لا تُلـوي عَلـى مَثـوى أَخِـي
ثِقَــةٍ وَلا تَقِــفُ الرِّكَــابَ فُواقــا
أَتُــرى الــوِزارَةُ غَيَّرَتــكَ خَلِيْقَــةً
إِنَّ الـــوِزَارَةَ تَنْقُـــلُ الأَخْلاقـــا[2]

---

١ – الديوان : ١٨٢ .

٢ – الديوان : ١٦٢ .

وأصدقاء ابن خفاجة وممدوحوه منهم ثلاثة أصناف ، هي :

أ- الوزراء :

يرى ابن خفاجة أنّ الوزير الصديق هو من « حَفِظَ الصَّدِيقَ فِي أَمَانَتِهِ، وَخَدَمَهُ فِي لُبَانَتِهِ، وَوَطَّأَ لَهُ فِي أَعْطَانِ، ذَلِكَ السُّلْطَانِ »[1]، وكثيراً ما كان ابن خفاجة يشير في تقديمه لقصائده في مدحهم وفي أثنائها إلى أمور يطلب من بعضهم مساعدته في تحقيقها أو مؤازرته في إنجاحها ، ويصرّح بمراعاة بعضهم الآخر له ولضيعته .

١- الوزير أبو محمّد ابن عامر[2] (؟)

قال ابن خفاجة في التقديم لقصيدته في مدحه :

«وكان الوزير المشرف[3] ، أَبُو محمّد ابْنُ عَامِرٍ، مجملاً معه، ومراعياً له، فيما كان يختصّ به بضيعته بِبَلَنْسِيَةَ -حماها الله- وكان صديقه، فقال يخاطبه:

---

١ - الديوان : ٣٠ .

٢ - ذكره ابن بسام عَرَضاً في التقديم للقصيدة نفسها الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٥٩٨/٦ .

٣ - الإشراف : وظيفة وخطّة من الوظائف العظام في الأندلس ، وهي خاصة بالشؤون المالية للدولة ، وكان هناك دار خاصّة بها تسمى دار الإشراف .

حَدَرَ القِنَاعَ عَنِ الصَّبَاحِ المُسْفِرِ ‏ وَلَوَى القَضِيبَ عَلَى الكَثِيبِ الأَعْفَرِ

وَتَمَلَّكَتْـــــهُ هِــــزَّةٌ في عِــــزَّةٍ ‏ فَـارْتَجَّ فِي وَرَقِ الشَّـبَابِ الأَخْضَـرِ

مُتَنَفِّساً عَـنْ مِثْـلِ نَفْحَـةِ مِسْكَةٍ ‏ مُتَبَسِّـماً عَـنْ مِثْـلِ سِمْطَـيْ جَـوْهَرِ

لَوْ كُنْتَ حَيْثُ تَرَى الهِلالَ وَوَجْهَهُ ‏ لَوَقَفْـتَ شَـكّاً وِقْفَـةَ الـمُتَحَيِّرِ

سَــلَّتْ عَلَــيَّ سُـيُوفَهَا أَجْفَانُــهُ ‏ فَلَقِيـتُهُنَّ مِـنَ الـمَشِيبِ بِمِغْفَـرِ[1]

وفي القصيدة – بعد الغزل المطوّل– عتب وتهديد واعتداد بالنفس لم يوضّح ابن خفاجة لمن أرسله ، وإن كان غير بعيد أن يكون المعاتب هو الممدوح نفسه :

وَأَخٍ زَأَرْتُ لَـــهُ وَلَـــوْلا أَنَّـــنِي ‏ آنَسْــتُ مَــا أَنْكَرْتُــهُ لَــمْ أَزْأَرِ

أَنْسَــأْتُ مَــا أَنْشَــأْتُهُ مِــنْ عَتْبِـهِ ‏ فَأَقَــامَ تَحْـتَ غَمَامَــةٍ لَــمْ تُمْطِــرِ

وَلَـوِ التَقَيْنـا حَيْـثُ يُصْغِي سَاعَةً ‏ لَسَــقَتْهُ بَــيْنَ مَلامَــةٍ وَتَشَــكُّرِ

تَهْمــي بِمَــاءِ الــوَرْدِ فِي أَرْدَانِــهِ ‏ وَبْــلاً وَتَخْصِــبُ سَمْعَــهُ بِــالجَوْهَرِ

وَعُــلاهُ لَــوْلا بَــرْقُ وَعْــدٍ شِمْتُــهُ ‏ فِي عَــارِضٍ مِــنْ بِـرِّهِ مُسْـتَمْطِرِ

لَنَسَـخْتُ أَسْطَارَ الكِتَابِ كَتَائِباً ‏ مُصْــطَفَّةً وَطَرَقْتُــهُ فِي عَسْــكَرِ[2]

ثمّ دلف إلى المديح فقال :

---

١ – الديوان : ٤٨.

٢ – الديوان : ٥٠.

وَجَرَى الحدِيثُ بِبَعْضِ ذِكْرَى طَاهِرٍ فَجَعَلْتُ جَزْلَ وَقُودِهَا مِنْ عَنْبَرِ
وَطَفِقْتُ أُذْكِيهَا وَأَذْكُرُ ذِهْنَهُ فَإِخَالُ ذَاكَ وَهذِهِ مِنْ عُنْصُرِ
وَكَأَنَّهَا وَالرِّيحُ عَابِثَةٌ بِهَا تُزْهَى فَتَرْقُصُ فِي قَمِيصٍ أَحْمَرِ
وَلَدَتْ بِهِ أُمُّ السِّيَادَةِ أَوْحَداً مُتَضَمِّناً مَعْنَى العَدِيدِ الأَكْثَرِ
تُعْدِي عُلاهُ دِيَارَهُ فَلَهَا بِهِ فِي مُرْتَقَى زُحَلٍ جَمَالُ المُشْتَرِي
فَإِذَا وَطِئْتُ جَنَابَهُ قَدَّسْتُهُ فَكَأَنَّنِي أَمْشِي بِهِ فِي مَشْعَرِ[1]

٢- الوزير أبو الحسين ابن الربيع (؟)

قال ابن خفاجة في التقديم لقصيدته في ابن الربيع وغرضها :

«وقال يمدح أبا الحسين ابن الربيع صاحب مدينة قرطبة لأمر عرض له بها :

ماذا عَلَيكَ وَقَد نَأَيتَ دِيارَا لَو طافَ بي ذاكَ الخَيالُ فَزَارَا
وَنَظَمتُ مِن قُبَلٍ بِصَفحَةِ جيدِهِ عِقداً وَقَد لَبِسَ العِناقَ شِعارَا
فيمَ التَعَلُّلُ في هَواكَ وَقَدْ طَوى مِنّي الضَّنى وَبِكَ النَّوى أَسرارا[2]

ويطيل الغزل ثمّ يعرّج على المديح :

أَأَبا الحُسَينِ وَما دَعَوتُ مُصَغِّراً بِأَبي الحُسَينِ وَقَد دَعَوْتُ كُبارا
أَعزِزْ عَلَيَّ وَقَد حَلَلتَ عزازَةً بَينَ الجَوانِحِ أَن شَحَطْتَ جِوارا

---

١ - الديوان : ٥٠ ، ٥١ .

٢ - الديوان : ١٤٢.

وَشَـرِقتُ فيـكَ بِعَـبرَةٍ مَشْـبُوْبَةٍ كَـالبَرقِ يَقـدَحُ في الغَمامَـةِ نـارا
وَعُـلاكَ لَـو سَـمَحَ الزَّمـانُ بِلَيلَـةٍ مِنـهُ تُطِـلُّ بِصَـفحَتَيهِ عِـذارا
لَثَـنَى مَعاطِفَهـا اهتِـزازُ بَشاشَـةٍ طَرَبـاً وَخَـفَّ بِها السُّرورُ وَقـارا
فَاسـتَهجَنَت حَمـلَ الثُرَيّـا تُوْمَـةً وَاستَصغَرَتْ لُبسَ الهِلالِ سِوارا
وَعَسى الزَّمانُ وَإِن عَسا في حالَةٍ يَحنـو فَيَـدنو بِـالوَزيرِ مَـزارا
فَمِـنَ الـمُنى وَهـوَ الغَزالَـةُ سُـنَّةً لَـو أَنَّـني كُنـتُ الهِـلالَ سِـرارا[1]

وفي نهاية القصيدة يشير إلى جناية مصائب الزمان عليه وإلى اعتلاء المشيب لعارضيه ، ويلمح إلى حاجته إلى من يصرف عنه صرف الزمان الجائر :

وَلَـئِن عَـدَتني عَنـكَ كُـلُّ تَنوفَـةٍ يَهفـو لَهـا قَلـبُ السَّـرابِ حِـذارا
فَلَرُبَّمـا طَرَقَـتْ جَنـابي فِتْيَـةٌ كَرُمـوا جِـواراً في العُـلا وَنِجـارا
نُجَبـاءُ تَخفِـقُ في ظُهـورِ نَجائِـبٍ مـا إِن تَضِـلُّ وَقَـد مَثَلـتَ مَنـارا
صَدَعَت بِهِم سِجْفَ الظَلامِ أَجادِلٌ لَزِمَـتْ بِـهِ أَكوارَهـا أَوكـارا
فَسَـرَتْ إِلَيَّ مَـعَ الرِكـابِ تَحِيَّـةٌ عَقَـدَتْ عَلَـيَّ مِـنَ العُـلا أَزرَارَا
هَـزّازَةٌ نـاءَت بِعِطفـي عِـزَّةٍ حَـتّى جَـرَرتُ عَلـى الـمَجَرِّ إِزارا
هَدَرَتْ جِنايَةَ صَرفِ دَهرٍ جائِرٍ نَفَـضَ الـمَشيبَ بِعارِضَـيَّ غُبـارا
وَإِذا حَنَـوتَ وَلا سَـلَوتَ فَإِنَّمـا أَنْتَ القَريبُ وَإِن شَحَطْتَ دِيَارا[2]

---

١ – الديوان : ١٤٤.

٢ – الديوان : ١٤٥.

٣– الوزير أبو محمّد عبد الله بن ربيعة (؟)

وهو صديق الطفولة والشباب ورفيق الدراسة في الكتّاب ، وشريك الذكريات الجميلة ، إنّه أقرب أصدقائه إليه وأحبّهم إلى قلبه قاطبة ، ولم يصف ابن خفاجة علاقته بأحد من الناس بمثل ما وصف علاقته به إذ وصفها " بالانتظام والالتحام " .

ولا نجد في ديوان ابن خفاجة قصيدة في مدح صديقه الوزير هذا ، إذ كانت علاقته به تتجاوز هذا الحدّ بكثير ، ولكنّنا نجد ثلاث مرثيّات رائعات ، ولم يرث ابن خفاجة أحداً بمثل هذا العدد سواه ، ممّا يدلّ على محبّة صافية ووفاء حقيقيّ، ولعلّه رثى نفسه وشبابه وأيّامه الحلوة في رثائه له.

وقدّم ابن خفاجة للمرثيّة الأولى بقوله : « وقال يرثي الوزير أبَا محمّد عبدَ الله بنَ ربيعةَ – رحمه الله– وكانا قد جمعت بينهما أذمّة الشباب، ومحضر الكتَّاب، وقراءة الحساب والآداب، فكانا من الانتظام والالتحام، بحيث لا يريان ينفصلان، حتّى اخترمته الوفاة بعقب وفاة جملة من إخوانهما وأقرانهما، فقال يتوجّع ويتفجّع:

فِي كُلِّ نادٍ مِنكَ رَوضُ ثَناءِ   وَبِكُلِّ خَدٍّ فيكَ جَدْوَلُ ماءِ

...

وَكَفى اكتِئاباً أَن تَعيثَ يَدُ البِلى   في مَحوِ تِلكَ الصُّورَةِ الحَسْناءِ

وَلَطالَمــا كُنّــا نُــريحُ بِظِلِّـــهِ	فَنُــريحُ مِنــهُ بِسَــرحَةٍ غَيْنَــاءِ
فَتَقَتْ عَلى حُكْمِ البَشاشَةِ نَوْرَها	وَتَنَفَّسَــتْ في أَوْجُــهِ الجُلَسَــاءِ
تَتَفَــرَّجُ الغَمّــاءُ عَنْــهُ كَأَنَّــهُ	قَمَــرٌ يُمَــزِّقُ شَمْلَــةَ الظَّلْمَــاءِ
قَاسَمْتُ فِيهِ الرُّزْءَ أَكْرَمَ صَاحِبٍ	فَمَضَــى يَنُــوءُ بِأَثقَــلِ الأَعْبَــاءِ
يَهْفُو كَمَا هَفَتِ الأَرَاكَةُ لَوْعَةً	وَيَــرِنُّ طَــوْراً رِنَّــةَ الوَرْقَــاءِ
عَجَباً لَها وَقَدَتْ بِصَدْرٍ جَمْرَةً	وَتَفَجَّرَتْ في وَجْنَةٍ عَنْ ماءِ[1]

يظهر ابن خفاجة في أغلب أبيات القصيدة المتوسّطة البالغة (٢٥) بيتاً ، ممّا يثبت أنّه كان يرثي نفسه وشبابه مع المرثيّ ، ويظهران معاً في آخر القصيدة ظهوراً لافتاً :

وَلَئِن تَراءى الفَرْقَدانِ بِنا مَعاً	وَكَفــاكَ شُــهرَةَ سُــؤدُدٍ وَعَــلاءِ
فَلَطالَما كُنّا نَروقُ المُجتَلَى	حُســناً وَنَمــلأُ نــاظِرَ العَليــاءِ
يُزهَى بِنا صَدرُ النَّدِيِّ كَأَنَّنا	نَسَــقاً هُنــاكَ قِــلادَةُ الجَــوزاءِ[2]

ويطيل ابن خفاجة في المرثيّة الثانية حتّى يجاوز الخمسين بيتاً ببيت ، وفيها يتّضح رثاؤه لشبابه مع رثائه لأصحابه في آن :

---

١ – الديوان : ١٧٨ ، ١٧٩.

٢ – الديوان : ١٨٠.

وَكَيفَ يَغيضُ الدَّمْعُ أَو تَبرُدُ الحَشَا وَقَـد بـادَ أَقْـرَانٌ وَفَـاتَ شَـبَابُ

فَما نابَ عَن خِلِّ الصِّبَا خِلُّ شَيبَةٍ وَلا عاضَ مِن شَرْخِ الشَّبابِ خِضَابُ

أَلا ظَعَنـاً مِـنْ صَـاحِبٍ وَشَـبيبَةٍ فَهَـلْ لَهُمـا مِـنْ ظـاعِنَيْنَ إِيـابُ

دَحَا بِهِما صَرْفُ اللَّيالي إِلى البِلى "وَكُـلُّ الَّـذي فَـوقَ الـتُرابِ تُـرابُ"

فَهـا أَنـا أَبكـي كُـلَّ مَعهَـدِ راحَـةٍ تَضـاحَكَ أَحبـابٌ بِـهِ وحَبَـابُ

...

وَقَـد جـاشَ بَحـرٌ بَـينَ جَنبَيَّ مـائِجٌ لَــهُ زَخــرَةٌ في وَجْنَــتِي وَعُبــابُ

فَيا لَهُمُ مِـن رَكْـبِ صَحْـبٍ تَتـابَعوا فُرادَى وَهُـم مُلدُ الغُصونِ شَبابُ

دَعـا بِهِـم داعـي الـرَّدى فَكَأَنَّمـا تَبـارَتْ بِهِـمْ خَيْـلٌ هُنـاكَ عِـرابُ

فَها هُـم وَسِلْمُ الدَّهرِ حَربٌ كَأَنَّما جَثـا بِهُـمُ طَعْـنٌ لَهُـمْ وَضِـرابُ

هُجـودٌ وَلا غَيْــرَ الـتُّرابِ حَشِـيَّةٌ لِجَنــبٍ وَلا غَــيرَ القُبــورِ قِبــابُ

فَحَتّى مَتى تَـبري اللَّيـالي سِـهامَها وَحَـتّى مَـتى أُرْمَـى بِهـا فَأُصـابُ

وَحَـتّى مَـتى أَلقـى الرَّزايـا مُمِضَّـةً كَما كَرَعَت بَينَ الضُّلوعِ حِرابُ[1]

ثمّ يعوج ابن خفاجة على صندوق الذكريات المديدة البالغة ثلاثين حجّة - كما يقول – مع ابن ربيعة صديقه الذي لا يغني غناءه أحد، وجاره منذ عهد الصبا واللهو إلى بداية الاكتهال والتوبة والرجاحة والاتّزان ليستعرض سيرة حياتهما معاً :

---

١ – الديوان : ٢١٨.

يُذَكِّرُنيــهِ كُــلَّ حــينٍ جِــوارُهُ فَيَحْفِــزُنِي رُزءٌ بِــهِ وَمُصــابُ
فَلَستُ بِناسي صاحِبٍ مِن رَبيعَةٍ إِذا نَسِيَتْ رَسْمَ الوَفاءِ صِحابُ
أَجَلتُ طِباعي فيهِ فَالأُنسُ وَحشَةٌ طِوالَ اللَّيالي وَالنَّعيمُ عَذابُ
وَهَيهاتَ لا أَغنى خَليلٌ غِناءَهُ ولا عَدَلَ العَذْبَ الفُراتَ سَرابُ
وَمِمّا شَجاني أَن قَضى حَتفَ أَنفِهِ وَما اندَقَّ رُمحٌ دونَهُ وَذُبابُ
وَأَنّا تَجارَيْنا ثَلاثينَ حِجَّةً فَفاتَ سِباقاً وَالحِمامُ قِصابُ
وَكَيفَ تَهاجَرنا كُهُولاً وَإِنَّما لَوى الدَّهرُ فَرعَينا وَنَحنُ شَبابُ
كَأَن لَم نَبِت في مَنزِلِ القَصفِ لَيلَةً نُجيبُ بِها داعي الصِّبَا وَنُجابُ
إِذا قامَ مِنّا قائِمٌ هَزَّ عِطفَهُ شَبابٌ أَرَقناهُ بِها وَشَرابُ
جَمَحْنَا بِمَيدانِ الصِّبَا ثُمَّ إِنَّنا كَرَرْنا فَكانَتْ فَيْئَةٌ وَمَتابُ
وَلَمّا تَراءَتْ لِلمَشيبِ بُرَيقَةٌ وَأَقشَعَ مِن ظِلِّ الشَّبابِ سَحابُ
نَهَضنا بِأَعباءِ اللَّيالي جَزالَةً وَأَرسَتْ بِنا في النَّائِباتِ هِضابُ[١]

ومّما يميّز رثاء ابن خفاجة – زيادة على صدقه وحرارته – أنّه يطيل في الحديث عن نفسه، وعن أثر غياب ذلك المرثيّ عنه حتّى ليتمنّى لو يستطيع أن يحاور صديقه ميتاً :

كَفَى حَزَناً أَن لَم يَردِني عَلى النَّوَى رَسُولٌ وَلَمْ يَنفُذْ إِلَيَّ كِتابُ

---

١ – الديوان : ٢١٩.

وَأَنّي إِذا يَمَّمــــتُ قَبْــــرَكَ زائِـــــراً وَقَفــتُ وَدونيْ لِلــتُّرابِ حِجــابُ

فَـأَظلَمَ قَـرنُ الشَّـمْسِ وَهْـيَ مُنـيرَةٌ وَضـاقَتْ بِـلادُ اللَّـهِ وَهْـيَ رِحـابُ

وَرَقْرَقْـتُ بَـيْنَ الحُزْنِ وَالصَّبرِ عَبْرَةً لَهَــا جَيْئَــةٌ في مُقلَــتِي وَذَهــابُ

وَلَــو أَنَّ حَيّــاً كــانَ حــاوَرَ مَيِّتــاً لَطــالَ كَــلامٌ بَيْنَنَــا وَخِطــابُ

وَأَعــرَبَ عَمّــا عِنْــدَهُ مِــن جَلِيَّــةٍ فَـأَقلَعَ عَـنْ شَمْـسٍ هُنَـاكَ ضَـبابُ

عَلَيكَ سَلامُ اللَّهِ مِن صاحِبٍ قَضى فَــأَوْحَشَ رَبْــعٌ بَعْــدَهُ وَجَنــابُ[1]

ويطنب ابن خفاجة في مرثيّته الثالثة حتّى تبلغ (٥٣) بيتاً ، وفيها يكرّر وصف أحزانه الشديدة لشدّة علاقته به يقول :

جارَيتُــهُ طَلَــقَ الحَيــاةِ إِلى الــرَّدى فَحَوى بِهِ قَصَبَ السِّباقِ جَوَادُ

كُنَّــا اصــطَحَبنا وَالتَّشــاكُلُ نِسبَةٌ حَـــتّى كَأَنّـــا عـــاتِقٌ وَنِجَـــادُ

ثُمَّ افتَرَقنـــا لا لِعَـــودَةِ صُـــحبَةٍ حَـــتَّى كَأَنّـــا شُـــعلَةٌ وَزِنَـــادُ

يــا أَيُّهــا النَّــائِي وَلَسْــتَ بِمُسـمِعٍ سَــكَنَ القُبــورِ وَبَينَنــا أَسْــدَادُ

مــا تَفعَـلُ الـنَّفْسُ النَّفِيسَـةُ عِنـدَما تَتهــــاجَرُ الأَرواحُ وَالأَجسَــــادُ

كُشِفَ الغِطاءُ إِلَيكَ عَن سِرِّ الرَّدَى فَأَجِـبْ بِمـا تَنْـدَى بِـهِ الأَكبَـادُ

فَـوَراءَ سِـترِ اللَّيْـلِ مُضـطَرِمُ الحَشَـا لا يَســـتَقِرُّ بِـــهِ هُنـــاكَ مِهَـــادُ

لَم يَـدرِ إِلَّا يَـومَ مَوتِـكَ مـا الأَسـى فَكَــأَنَّ مَوتَــكَ لِلأَسـى مِـيْلَادُ

---

١ - الديوان : ٢٢٠.

وَكفـاهُ وَجْـداً أَن يَقـولَ وَلِلـدُّجى بَحْـرٌ لَـهُ مِـن دَمعِـهِ أَمـدَادُ

حَتّـامَ أَنـدُبُ صَـاحِباً وَشَـبيبَةً فَتَفـيضَ عَـينٌ أَو يَحِـنَّ فُـؤَادُ

أَقْصِـرْ فَـلا ذاكَ الخَليـلُ بِآيِـبٍ يَومـاً وَلا ذاكَ الشَّـبَابُ مُعَـادُ

فَقُصـارُ مُجتَمِـعُ الأَصـاحِبِ فُرقَـةٌ وَجُمَـارُ أَنْـوارِ الشَّـبَابِ رَمَـادُ

...

نِـدٌّ تَبَسَّـمَ عَنـهُ صَـدرُ الـمُنتَدى طَرَبـاً بِـهِ وَاهتَـزَّتِ الأَنْـدَادُ

وَأَخٌ لِـوُدٍّ لا أَخٌ لِـوِلادَةٍ وَأَمَسُّ مِـن نَسَـبِ الـوِلادِ وِدَادُ

مَلَكَتـهُ غَشْـيَةُ نَومَـةٍ لا تَنجَلِـي وَلِكُـلِّ عَـينٍ نَومَـةٌ وَسُـهَادُ[1]

ويقف في آخر القصيدة على قبره ، ويدعو له بالسقيا دعاء رائعاً:

فَبَكـاكَ مِـن قَـبرٍ كَـريمٍ عـارِضٌ زَجِـلٌ لَـهُ مِـن رَنَّـةٍ إِرْعَـادُ

نُحِـرَ العَـزاءُ عَلَيـهِ لَم تُنحَـرْ بِـهِ إِبِـلٌ وَلَم تُعقَـرْ عَلَيـهِ جِيَـادُ

وَسَـقاكَ وابِـلُ رَحمَـةٍ تَغْشَـى بِـهِ جَنَباتِـكَ الـوُرّادُ وَالـزُّوَّادُ

تَهفـو الـبُروقُ بِجانِبَيْـهِ كَأَنَّمـا عُقِـرَتْ بِهـا خَيـلٌ عَلَيـكَ وِرَادُ

فَبِطَـيِّ تُربِـكَ أَيُّ بَيْـتِ قَصيدَةٍ لَـو أَنَّ ذاكَ البَيـتَ كـانَ يُعَـادُ[2]

١ – الديوان : ٢٣١ ، ٢٣٢.

٢ – الديوان : ٢٣٤ .

ب- الوزراء الأدباء و العلماء

مدائح ابن خفاجة لأضرابه من أصحاب حرفة الأدب الذين وصلوا إلى الوزارة متنوّعة الأهداف ، فمنها خالص لوجه المودّة والصداقة ، ومنها ما كان لأغراض معيّنة وطلبات خاصّة ، كما أنّ هناك نمطاً آخر – يميّز الأدباء من سواهم – وهو الرسائل الشعريّة المتبادلة في تقريظ إبداع الطرفين والثناء على آدابهما ، فيرسل إليه الوزراء الأدباء قصائد في الثناء والتشوّق فيراجع ابن خفاجة هؤلاء الوزراء ، ويردّ على قصائدهم التي أرسلوها على الوزن والقافية نفسها غالباً، وقد تكون هناك معارضات لإظهار التفوّق ، وقليلاً ما يحدث بعض الصدام بينهم، إذا حدث نقد شخصيّ له أو لأدبه.

١- أبو عبد الله محمّد بن عائشة (ت بعد ٥١٠ هـ)

ولعلّه أقرب الوزراء الأدباء إلى قلبه لتقاربهما في الفكر والهوى والسكن ومراحل الحياة من النزوع إلى اللهو ومجالس الأنس في أحضان الطبيعة إلى الجنوح إلى الزهد والاتّزان والحلم عندما اشتعل الرأس شيباً ، فقد كانا صديقين حميمين وجارين متلاصقين ، وقد وصف ابن خاقان مكانة ابن خفاجة من ابن عائشة بأنّه « كان منزع نفسه ومصرع أنسه ، به نفح له بالمنى عبق وشذا ، ومسح عن عيون مسرّاته القذى ، وغدا على ما كان وراح ، متهافتاً في ميدان ذلك المراح »[1].

---

١ – مطمح الأنفس : ٣٤٨ ، وانظر الذخيرة : ٦/٨٩٠ .

وفي رسالة نثريّة أرسلها ابن خفاجة إلى أستاذه ابن صواب في المغرب وحمّلها محمّد بن عائشة عندما استدعي إلى العدوة ، بيّن ابن خفاجة مدى متانة علاقته به إذ قال مخبراً عن حاله :

« فَأَمَّا أَنَا، فَإِنِّي كُنْتُ فِي هذِهِ المُدَّةِ الفَارِطَةِ، قَدْ سَكَنْتُ إِلَى مَنْ خَبَرْتُهُ، فَوَثَّقْتُهُ، وَسَبَرْتُهُ، فَوَمَقْتُهُ، وَمَا زِلْنَا بِحَالِ ارْتِبَاطٍ، وَاغْتِبَاطٍ، حَتَّى اسْتُدْعِيَ مِنَ العُدْوَةِ، فَلَبَّى تَلْبِيَةَ الإِجَابَةِ، وَانْتَقَلَ بِاسْمِ تَقَلُّدِ رَسْمِ الكِتَابَةِ. وَانْصَدَعَ مَا بَيْنَنَا لا لالتِئَامٍ، وَانْتَثَرَ لا لانْتِظَامٍ. وَأَيُّ بِنَاءٍ لِغَيْرِ انْهِدامٍ؟ أَوْ ضِيَاءٍ لِغَيْرِ ظَلامٍ؟ وَكُنْتُ قَدِ اسْتَرَحْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِكَ، وَسَدَدْتُ بِمَوْضِعِهِ مِنْ خَلَّةٍ بَعْدَكَ، فَنَكَأَ – لَعَمْرُ اللهِ – بِقُرْحٍ قُرْحاً، وَذَرَّ عَلَى جُرْحٍ مِلْحاً. وَأَيُّ طَمَعٍ فِي لِقَاءٍ، أَوْ بَقَاءٍ؟، وَالسِّنُّ –كَمَا قَدْ عَلِمْتَ – السِّنُّ، وَمَا مِنَّا –وَإِنْ تَنَفَّسَ– إِلَّا شَنٌّ ، وَاللهُ تَعَالَى أَسْأَلُهُ مَغَبَّةً تُوسِعُ رُحْمَاهُ، وَرِضَاهُ، لا إِلهَ سِوَاهُ... وَهُوَ جَارِي بَيْتَ بَيْتَ، وَعِنْدَهُ مِنْ أَمْرِي كَيْتَ وَكَيْتَ. فَإِنْ تطَوَّلْتَ وَعَيْتَ، وَآنَسْتَهُ هُنَالِكَ وَرَعَيْتَ، آخِذاً بِالمَعْهُودِ مِنْ طَوْلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ»[1] .

وقد ترك ابن خفاجة له – كصديق طفولته السابق– ثلاث قطع رائعات من الشعر الإخوانيّ الرائق الراقي في أحوال متعدّدة ، لتقاربهما في

---

١ – الديوان : ٦٥ ،٦٦، ٦٧ .

الفكر وتشاركهما في النظر ، فكان ابن خفاجة يكتب إليه يستدعيه للأنس به والفرح بلقياه ، والسعادة برؤياه :

« وقال، وكتب بها إلى أَبِي عَبْدِ اللهِ محمّد بْنِ عَائِشَةَ - رحمه الله تعالى- يستدعيه للأنس به، والراحة معه، فيما كانا يشتركان فيه من نظر، ولطبِّ صديق لهما تعذّرت معالجته، وطالت شكايته:

يَـا هِـزَّةَ الغُصْـنِ الوَرِيـقْ	وَبَشَاشَـةَ الـرَّوْضِ الأَنِيـق
أَأَتَتْكُمَـا بُشْـرى بِسُقْـ	ـيَا أَمْ سَـلامٌ مِـنْ صَـدِيق
فَهَـزَزْتَ مِـنْ عِطْـفٍ نَـدٍ	وَسَفَرْتَ عَـنْ وَجْـهٍ طَلِيـق
وَلَقَـدْ أَقُـولُ إِذَا سَـرَى	بَـيْنَ الأَقَـاحِي وَالشَّـقِيق
نَفَـسٌ وَنَى فَكَأَنَّـهُ	مِـنْ رِقَّـةٍ لَفْـظُ الشَّـفِيق
بـاللهِ يَـا نَفَـسَ الصَّـبَا	حَيِّ الصَّدِيقَ عَنِ الصَّدِيق
قُـلْ لِلْحَبِيـبِ بَـلِ الحَمِيـ	ـمِ بَلِ الشَّفِيقِ بَلِ الشَّقِيق
يَـا مُلْتَقَـى الخُلُـقِ الشَّرِيـ	ـفِ وَهَشَّـةَ الوَجْـهِ الطَّلِيـق
إِنَّ النَّجَـاةَ بَعِيـدَةٌ	فَاسْلُكْ بِنَا قَصْدَ الطَّرِيـق
وَارْكُـضْ بِنَـا رَكْضـاً حَثِيـ	ـثاً فِيـهِ عَـنْ نَظَـرٍ رَقِيـق
فلِمِثْلِهَـا مِـنْ شُـقَّةٍ	أَعْـدَدْتُ مِثْلَـكَ مِـنْ رَفِيـق
فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَنْ مَكا	نٍ قَـدْ نُبِـذْتَ بِـهِ سَحِيق
وَارْكَـبْ بِيَ اللَّفْـظَ الجَلِيـ	لَ وَسِرْ إِلَى المعْنَى الـدَّقِيق

وَامْسَـحْ قَـذَى طَـرْفِي بِـهِ　　　يَمْـــتَدَّ فِي فَـــجٍّ عَمِيـــق

وَشُـــبِ الوَعِيـــدَ بِمَوْعِــدٍ　　　فَالـــمَاءُ يُمْـــزَجُ بِـــالرَّحِيق

وَتَـلافَ مِـنْ بَحْـرِ الشَّـكَا　　　ةِ أَخـــاً يَمُـــدُّ يَـــدَ الغَرِيـــق

لا بِالسَّـــقِيمِ وَلا الصَّحِيــ　　　ـحِ وَلا الأَسِيرِ وَلا الطَّلِيق

لَـــوْ جِئْتَـــهُ فَفَجَأْتَـــهُ　　　لأَقَـــلَّ جَفْـــنَ الـــمُسْتَفِيق

لا تَــــبْخَلَنَّ بِنَفْحَــــةٍ　　　وَثَــرَاكَ مِــنْ مِسْــكٍ فَتِيــق

وَارْبَـــعْ بِـــوَادِي عِيشَـــةٍ　　　خَضِــلٍ وَنَمْ فِي رَأْسِ نِيــق[١]

إنّها أنشودة عذبة يترنّم بها ابن خفاجة، وتملأ الجوّ بهجة وحبوراً ،ولا نكاد نجد لها مثيلاً ، ولا تقتصر علاقته به على الزيارة في السرور والأفراح ، بل يقوم ابن عائشة بعيادته في أثناء الأمراض والأتراح، فيبدع ابن خفاجة صوراً تدلّ على التمازج والإخاء « وقال وقد عاده أبو عبد الله بن عائشة رحمه الله :

إِنَّ اللَّيـــالِي لا دَهَتْـــكَ لَعابِثَـــهْ

فَوَقَيــتُ فيــكَ يَــدَ الزَّمَــانِ العائِثَــهْ

وَسَلِمتَ مِنْ خِلٍّ يَعودُ عَلَى النَّوَى

كَرَمــاً فَتَنفَــرِجُ الخُطُــوبُ الكارِثَــهْ

---

١ – الديوان : ٤٢ ،٤٣ .

فَــأَرَى بِـــهِ لِلقَلْـــبِ قَلبـــاً ثَانِيـــاً
عِـــزّاً وَلِلعَينَـــينِ عَينـــاً ثالِثَـــهْ[1]

وفي قصيدة ثالثة يبلغ التعبير عن علاقته الأخويّة الوثيقة بابن عائشة ذروة عالية في ثلاثة أبيات:

وَوَصَـلتُ مـا بَيـني وَبَـينَ محمّـد حَـــتّى كَأَنّـــا مِعْصَـــمٌ وَذِرَاعُ
وَظَفِرتُ مِنهُ عَلى المَشيبِ بِصاحِبٍ خَلَـفَ الشَّـبابَ فَلـي إِلَيـهِ نِـزَاعُ
قَـد كُنـتُ أُغلِـي في ابتِيـاعِ وِدادِهِ لَــو أَنَّ أَعْــلاقَ الــوِدادِ تُبَــاعُ[2]

٢- **أبو الحسن ابن رُحَيْم** (ت بعد ٥١٥ هـ)

وقد مدحه ابن خفاجة بقصيدتين اثنتين تطفح الأولى منهما بالفرح والإقبال على الحياة والاستمتاع بالطبيعة :

وكان بينه وبين الوزير أبي الحسن بنِ رُحَيْمٍ- رحمه الله- انتظام ؛ فممّا قاله فيه:

تَشَــفَّعْ بِعِلــقٍ لِلشَّــبابِ خَطـيرِ وَبِـتْ تَحـتَ لَيـلٍ لِلوِصَـالِ قَصـيرِ

١ – الديوان : ٢٦٦ .

٢ – الديوان : ٢٢٥ .

وَنِلْ نَظرَةً مِن نَضرَةِ الحُسْن وَانتَعِشْ بِغُـرَّةِ رَقَـراقِ الشَّـبابِ غَريـرِ

فَما الأُنسُ إلّا في مُجاجِ زُجاجَةٍ وَما العَيشُ إلّا في صَريرِ سَريرِ

وَإِنّي وَإِن جِئتُ المَشيبَ لَمولَعٌ بِطُرَّةِ ظِلٍّ فَوقَ وَجهِ غَديرِ[1]

ثمّ انتقل من وصف الطبيعة إلى المديح فقال :

وقَنَّعَ وَجْهَ الأُفْقِ مُزْنٌ كَأَنَّهُ أَيادِي رُحَيْمٍ أَوْ هِضَابُ ثَبِيرِ

فَتىً شابَ في عَصرِ الشَّبيبَةِ حُنكَةً وَقامَ صَغيراً في جَلالِ كَبيرِ

وَأَصغى إِلى داعي النَّدى سَمعَ أَروَعٍ مُجيبٍ عَلى بُعدِ الصَّريخِ مُجيرِ[2]

ثمّ انتقل من مدحه إلى مدح أسرته العريقة :

إِذا قِستَ ما بَينَ الحُسامِ وَبَينَهُ تَبَسَّمَ وَاهتَزَّ اهتِزازَ سُرورِ

مِنَ الِ رُحيمٍ حَيثُ لا هَضبَةُ العُلا لِهَدٍّ وَلا بَحْرُ النَّدى لِعُبُورِ

مِن القَومِ أَدَّتْهُم إِلى خَيرِ أَبطُنٍ تَخَيَّرنَ لِلأَبناءِ خَيرَ ظُهُورِ

تَرى المُزنَ ثَجّاجاً بِهِم مُتَهَلِّلاً سَماحَةَ أَيدٍ وَابتِسامَ ثُغورِ

غَيارى عَلى الأَيدي العَذارى وَإِنّمَا تُزَفُّ مِنَ الكِتمانِ خَلفَ سُتُورِ

فَهاهُم كَما تَهوى العُلا لا تَناؤُهُم لِمَوْتٍ وَلا أَسرارُهُم لِنُشورِ

---

١ – الديوان : ١٨١ .

٢ – الديوان : ١٨١ ، ١٨٢ .

يَـذوبونَ ظَرَفـاً غَـيرَ أَنَّ قُلـوبَهُم   إِذا ما دَهى خَطبٌ قُلوبُ صُخُورِ

تَـرى بِهِـمُ مِـن نَضـرَةٍ فِي سَماحَـةٍ   طُلـوعَ بُـدُورٍ فِي ارتِجـاجِ بُحُـورِ[1]

وأشار في نهاية القصيدة إلى جمعه بين الشجاعة والأدب والكتابة في آن:

فَيا حُسنَ مَرأى المُلْكِ بَينَ مُهَنَّدٍ   خَضـيبٍ وَرِدْءٍ لِليَـرَاعِ نَصِـيرِ

وَقَـد طـارَحَ السَـيفُ الـيَراعَ فَأَطرَبـا   بِرَجـعِ صَـليلٍ رائِـعٍ وَصَـريرِ[2]

ويلقّب ابن خفاجة ابن رحيم بالمشرف ، وهي كما ذكرت خطّة عظيمة من خطط الدولة ، وقد تولّى الإشراف في زمن تفاقم أزمات ابن خفاجة وتعالي شكواه ، وتعسّر مطالبه ، وتعذّر حصولها ، لذلك نشعر بتململ وتقلقل في مقدّمة مدحته الثانية له: « وممّا قاله في المشرف أبي الحسن ابن رحيم :

جَفـنٌ تَجـافى لِلخَلِـيِّ عَـنِ الكَـرى   وَهَوىً تَهاوى بِالـمَطِيِّ عَلى السُّرى

فِي حَيْـثُ أَذْكَـى الطَّـرْفُ أَوْفَى سَمْعِـهِ   وَوَعَـى وَخَفَّـرَنِي الحُسَـامُ وَمَـا دَرَى[3]

---

١ – الديوان : ١٨٢ .

٢ – الديوان : ١٨٣ .

٣ – الديوان : ٢٥٦ .

وينتقل ابن خفاجة إلى قسم المديح فيبدأ بمدح بني رحيم عامّة ، فنراه يستصرخ بآل رحيم ليغيثوه من أمر لم يحدّده ، ممّا يشي بصعاب يعاني منها ابن خفاجة ، ومشكلات يتعرّض لها ويريد حلّها ، ويحاول أن يستنجد بمن يكون قادراً على نجدته أو مساعدته :

وَصَرَختُ يا لَبَني رُحَيمٍ صَرخَةً فَالتَفَّتِ الأمْجَادُ حَولي عَسكَرا
مِن كُلِّ طَلْقِ الوَجهِ تاهَ جَوادُهُ زَهواً بِعِزَّةِ رَبِّهِ فَتَبَختَرا
صَلْتِ الجَبينِ لَوَ انَّني مُستَقبِلٌ بِرُوَائِهِ لَيلَ السِّرَارِ لأقمَرا
ما إن سَقَتكَ بِهِ السَّماحَةُ مُزنَةً إلّا أَرَتْكَ بِهِ الصَّباحَ النَّيِّرَا

ثمّ يصل إلى مدح الوزير الأديب أبي الحسن، ويشير إلى أدبه الرفيع ، وتسلّمه خطة الإشراف :

وَأَغَرَّ أَزهَرَ باتَ يَعْبَقُ نَفحَةً فَكَأَنَّ في بُردَيهِ رَوضاً أَزهَرا
طَلقِ المُحَيَّا وَاليَدَينِ كَأَنَّهُ قَمَرٌ تَطَلَّعَ في غَمامٍ أَمطَرا
لَبِسَ الرِّدَاءَ مِنَ الثَّنَاءِ مُطَرَّزاً فَوقَ القَميصِ مِنَ الحَياءِ مُعَصفَرا
استَمجَدَ الإِشْرَافُ مِن شَرَفٍ بِهِ فَمَشى اليَرَاعُ بِكَفِّهِ مُتَبَختِرا
فَلَرُبَّ سَماءِ الأَديمِ طَويلَةٍ حَسَدَتْ بِراحَتِهِ القَصيرَ الأَصفَرا[1]

---

١ – الديوان : ٢٥٧ .

٣- أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر (ت ٥٢٥ هـ)

وقد خصّه كسابقه بقصيدتين اثنتين في سنة شاقّة عليه (٥١٤ هـ) الأولى في منتصف محرّم منها ، وقد جمع فيها بين الرثاء والمديح، وقد سلف[1] بعضها ، وقال فيها :

كَفى قَومَهُ عَلياءَ أَن كانَ غايَةً ... لَهُم وَكَفاهُ أَن يَكُونُوا مَبادِيا

تَبَوَّأَ مِنْ رَسمِ الوِزارَةِ رُتبَةً ... تَمَنّى مَراقِيها النُجُومُ مَرَاقِيا

وَأَحرَزَ في أُخْرَى اللَّيالِي فَضائِلاً ... تُعَدُّ عَلَى حُكْمِ المَعَالي أَوَالِيا

مَكارِمُ يُسْتَضْحَى بِها مِن مُلِمَّةٍ ... تَنُوبُ وَيُسْتَسْقَى الغَمَامُ غَوادِيا

لَقيتُ بِهِ والنُّبْلُ رائِشُ نَبلِهِ ... أَخا فَهَمٍ لا يُخطِئُ الرَّأْيَ رَامِيا

وَأَروَعَ يَندَى لِلطَّلاقَةِ صَفْحَةً ... وَيَقدَحُ زَنْداً لِلنَّباهَةِ وارِيا

فَيَجمَعُ بَينَ الماءِ أَبْيَضَ سَلْسَلاً ... يَسُحُّ وَبَينَ الجَمْرِ أَحْمَرَ حَامِيا[2]

والقصيدة الثانية أرسلها إلى ابن زهر في رمضان من السنة نفسها بعد أن أخفق ابن خفاجة في إيصال رسائله إلى الأمير إبراهيم ، وقال في مدحه فيها :

فَلِلَّهِ قَولِيَ ما أَهذَبا ... وَلِلَّهِ لَفظِيَ ما أَعذَبا

---

١ - انظر صفحة (٦٧) من الكتاب .

٢ - الديوان : ٢٠١ .

وَلِلَّـــهِ زُهْـــرٌ أَخَـــا سُـــؤْدُدٍ رَسـا هَضـبَةً أَوْ سَـرَى كَوكَبـا
تَصـوبُ السَّـماءُ إِذا مـا حَبـا وَيَمْثُـلُ رَضْـوى إِذا مـا احتَـبى
وَتَعشـو الضُّـيوفُ إِلى نـارِهِ فَتَلقـى هُنـاكَ أَلا مَرحَبـا
وَتَمضـي بِـهِ فِي الـوَغى نَجـدَةٌ مَضى السَّيْفُ فِي كَفِّهِ أَو نَبا
فَتَرضـى الصَّـوارِمُ عَنْـهُ أَخـاً وتُكْـبرُ مِنـهُ الـمَعالي أَبـا[١]

٤- أبو عامر محمّد بن يحيى بن يَنَّق (ت ٥٤٧ هـ)

وكانت بينهما رسائل شعريّة إخوانيّة ، فقد ردّ ابن خفاجة على شعر أرسله الوزير الأديب ابن ينّق إليه — على عادة الشعراء في رسائلهم الإخوانيّة — فقال :

« وممّا راجع به الوزير أبا عامر ابن يَنَّقَ ، أعزّه الله :

مُتَهَلِّـلٌ نَسَـخَ الـدُّجى كـافُورَةً عِنْـدِي فَـلَاحَ بِـهِ الظَّـلَامُ وَفَاحَـا
فِي لَيْلَـةٍ قَلَصَـتْ عَلَـيّ ذُيُولَهـا فَلَبِسْـتُ مِـنْ إِمْسَـائِهَا إِصْـبَاحَا
لَـوْ لَمْ يَقِـدْ عِنْـدِي ضِـيَاءٌ غَيْـرُهُ لَكَفَـى بِشَـرْخِ شَـبَابِهِ مِصْـبَاحَا
سَـامَرْتُ مِنْـهُ مُجْمَـراً مُتَنَفِّسـاً فَأَلِفْـتُ نَفَّاحـاً بِـهِ لَفَّاحَـا
مَا شَبَّ عَنْ طَوْقِ الصِّبَا يَرْمِي بِهِ حَـتَّى تَطَلَّـعَ يَلْـبَسُ الأَمْـدَاحَا
لَـوْ كَـانَ أَلغَـزَ فِي هَـوَاهُ لِلْعُـلَا لَكَفَـى بِهَشَّـةِ وَجْهِـهِ إِفْصَـاحَا

---

١ – الديوان : ١١٨.

حَمَـلَ الـذَّكَاءَ إِلَى الجِـدَالِ وَرُبَّمَـا حَمَلَ الـمَضَاءَ إِلَى الجِلادِ سِلَاحَا

يَقِـظٌ إِذَا مَـا جَـالَ يَوْمَـاً فِكْـرُهُ أَوْرَى بِـهِ قَـدْحاً وَفَـازَ قِـدَاحَا

يَجْرِي بِمَـيْدَانِ الـمَحَاسِنِ مُنْشِـداً فَيَفُـوتُ أَنْفَـاسَ الرِّيَـاحِ جِمَاحَـا

مِنْ كُـلِّ بَيْـتٍ لَـوْ حَـدَا حَـادٍ بِهِ لَيْلاً لَفَاضَ عَلَى الرِّكَابِ صَبَاحَا

هَــزَّازِ أَعْطَـافِ النَّــدِيِّ كَأَنَّمَــا تُسْقَى هُنَاكَ بِهِ الـمَعَاطِفُ رَاحَا

وَصَـحِيفَةٍ هَـزَّ البَـدِيْعُ صَـفِيْحَةً مِنْهَـا وَثَقَّـفَ بِالسُّـطُورِ رِمَاحَـا

وَرَدَتْ تُـذَكِّرُنِي الحَدِيقَـةَ نَفْحَـةً وَتَهُـزُّنِي هَـزَّ القَضِـيبِ مِرَاحَـا

نَفَـضَ المِـدَادُ بِمَعْطِفَيهَـا دُهْمَـةً جَـرَتِ المَحَاسِـنُ فَوْقَهَـا أَوْضَـاحَا

فَكَـأَنَّ رَوْضـاً بَـاتَ يَفْتُـقُ نَـوْرَهُ فِيْهَـا وَطَاوُوسـاً يَمُـدُّ جَنَاحَـا[1]

وفي نهايتها فخر بالقصيدة .

وممّا لاشكّ فيه أنّ معاني المديح في الرسائل الشعريّة المتبادلة بين الأدباء تختلف عن معاني المديح التي تزجى للملوك والأمراء ، فيهتمّ ابن خفاجة بالصفات الأدبيّة للأديب الممدوح ، والسمات الإبداعيّة للقصيدة التي أرسلها كالذكاء والجدال واليقظة ، ومدى تأثير أدبه في الناس وروعة هذا الأدب وجماله ، زيادة على قصر الرسائل الشعريّة النسبي بالموازنة مع قصائد المديح .

---

١ – الديوان : ٢٨٧ ، ٢٨٨.

٥- أبو عبد الله محمّد بن عثمان (ت ٥٣٣ هـ)

أرسل ابن عثمان قصيدة إخوانيّة إلى ابن خفاجة فردّ عليه بهذه الأبيات وقدّم لها بقوله :

« وقال يراجع الكاتب أبا عبد الله بن عثمان – أعزّه الله – عن شعر كتب به إليه :

وَحُلَّـةٍ مِـن طِـرازِ الـنَّظْمِ رائِقَـةٍ	هَـزَزْتُ بَـأْواً بها أَعطـافَ آمَـالي
مِن حَوْكِ وَشَّاءِ بُرْدِ الخَطِّ تَحْسَبُهُ	في الطِّرسِ مُشتَمِلاً مِنهُ بِسِرْبالِ
نِضْوٌ تَمُجُّ ذُعَافَ المَوْتِ شُعْبَتُهُ	كَأَنَّـهُ لَهْـذَمٌ فِي كَـفِّ عَسَّـالِ
سَحَبتُها لابِساً بُردَ الشَّبَابِ بِها	أَجُـرُّ مِـن طَـرَبٍ أَذيـالَ مُختـالِ
فَحَبَّـذا نُطفَـةٌ تَنسـاغُ بـارِدَةٌ	مِن مَنهَلٍ طامِحِ الآذِيِّ سَلسالِ
وَزَهـرَةٌ غَضَّـةٌ تَفتَـرُّ عـاطِرَةٌ	مِن رَوضَةٍ لَدنَةِ الأَنفاسِ مِخضالِ
فِي مُلتَقى رَبـوَةٍ لِلفَضلِ مُشرِقَةٍ	وَمُنتَحى عـارِضٍ لِلطَّبعِ هَطَّـالِ
فَالبَسْ بِها خِلعَةً لِلمَجدِ ضافِيَةً	طَويلَ باعِ العُلا والعُمْرِ والحَالِ
وَاردُدْ تَحِيَّـةَ نَـائِي العَهـدِ مَـدَّ بِمَا	عَاطَاكَ مِن عِلْقِ صِدْقٍ كَفَّ إجلالِ
شَطَّت بِهِ الدَّارُ فاستَرعى تَحِيَّتَهُ	نَسيمَ عـاطِرَةِ الأَذيـالِ مِكسـالِ
تَـرَدَّدَتْ بَـينَ أَزهـارِ الرُّبَا سَـحَراً	تَطِيْـبُ مَـا بَـينَ إِدبـارٍ وَإِقبـالِ[1]

---

١ – الديوان : ٢٥٥ ، ٢٥٦.

٦- أبو جعفر أحمد بن سعدون (؟)

ممّا يميّز ردّ ابن خفاجة على الوزير ابن سعدون أنّه راجعه بقصيدة نظمها وهو عليل ، ولكنّ شعره كان سليماً معافىً قويماً :

« وقال في أثناء علّة طالت به ، يراجع الوزير أبا جعفر بن سعدونَ عن شعر له :

أَنَفحَةُ طيبٍ ما تَنَسَّمتُ أَم نَظْمُ … وَفَضلَةُ كَأسٍ ما تَرَشَّفتُ أَم ظَلْمُ

خَطيرٌ مِنَ الشِّعْرِ اِشتَمَلتُ بِبُردِهِ … وَقَد بَزَّ جِسمي بُردَةَ الصِّحَّةِ السُّقْمُ

يَكادُ يَشِفُّ الطِّرْسُ عَنْ نُورِ حُسْنِهِ … وَما فُضَّ في صَدْرِ النَّدِيِّ لَهُ خَتمُ

تَفَجَّرَ فيهِ الطَّبْعُ فَجْراً وَإِنَّما … أَطَلَّ بِهِ مِنْ كُلِّ قافِيَةٍ نَجْمُ

وَلَو أَنَّ سَمْعاً ثَمَّ يُصغِي لَمَا دَرَى … أَبَيتٌ يُرَوَّى أَمْ يُرَاشُ بهِ سَهْمُ

شَفَانِي وَقَدْ أَشْفَى الضَّنَى بي عَلى الرَّدى … وَبَعضُ الكَلامِ الحُرِّ يُشفَى بِهِ الكَلْمُ

فَقَبَّلتُ كَفّاً أَتحَفَتْنِي بِعِلْقِهِ … وَحُقَّ لِكَأسِ الرَّاحِ أَن يُكرَمُ الكَرْمُ

وَعانَقتُ عُنواناً هُناكَ قَرَأتُهُ … وَقُلتُ أَلا لَيْتَ المسَمَّى هُوَ الإِسْمُ

أَبا جَعفَرٍ لِلَّهِ دَرُّكَ فَارِساً … بِحَيثُ سُطُورُ الشِعرِ خَيلٌ لَهُ دُهْمُ

يَجُوْلُ مَلِيّاً لَيْسَ يَنْبُو بِطَبْعِهِ … فُتُورٌ وَلا يَكْبُو بِخَاطِرِهِ وَهْمُ

أَلا طَوَّقَتْ تِلْكَ اللآلِي مُقَلَّدِي … وَلا عَجَبٌ أَنْ جَادَ بِاللُّؤْلُؤِ اليَمُّ

وَعِنْدِي لِمَا أَهْدَيْتَ مِنْ كُلِّ فِقْرَةٍ … لِسَانٌ بِهِ رَطْبٌ وَحُبٌّ لَهُ جَمُّ

وعُذْراً إِلَى عُلْيَاكَ إِنِّي بِحَالَةٍ … تَعَفَّى بِهَا رَسْمُ القَرِيضِ فَلا رَسْمُ[1]

---

١ - الديوان : ٢٨٦ ، ٢٨٧.

٧- أبو محمّد عبد الله بن السِّيْد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ)

وثمّة قصيدة يردّ فيها على أَبِي محمّد البَطَلْيُوْسِيِّ ويصفه بالأستاذ تقديراً لعلمه الواسع في تقديمه للقصيدة ، وفي القصيدة القصيرة الجميلة نفسها :

« وقال: وكتب إلى الأستاذ أبي محمّد البطليوسي جواباً عن شعر له وردّ عليه في العروض والرويّ :

أَبِــرُّكَ أَمْ مَــاءٌ يَسُــحُّ وَبُسْــتَانُ ... وَذِكْــرُكَ أَمْ رَاحٌ تُــدَارُ وَرَيْحَــانُ

وَإِلَّا فَمَــا بَــالِي وَفَــوْدِيَ أَشْمَــطٌ ... تَلَوَّيْــتُ فِي بُــرْدِي كَــأَنِّيَ نَشْــوَانُ

وَهَــلْ هِــيَ إِلَّا جُمْلَــةٌ مــن مَحَاسِــنٍ ... تَغَــايَرُ أَبْصَــارٌ عَلَيْهَــا وَآذَانُ

بِأَمْثَالِهَــا مِــنْ حِكْمَــةٍ فِي بَلاغَــةٍ ... تَحَلَّــلُ أَضْــغَانٌ وَتَرْحَــلُ أَظْعَــانُ

وَتُــنْظَمُ فِي نَحْــرِ الــمَعَالِي قِــلادَةٌ ... وَتُسْحَبُ فِي نَادِي المَفَاخِرِ أَرْدَانُ

كَلامٌ كَمَا اسْتَشْرَفْتَ جِيدَ جَدَايَةٍ ... وَفُصِّــلَ يَــاقُوتٌ هُنَــاكَ وَمَرْجَــانُ

تَــدَفَّقَ مَــاءُ الطَّبْــعِ فيــهِ تَــدَفُّقاً ... فَجَاءَ كَمَا يَصْفُو عَلَى النَّارِ عِقْيَانُ

أَتَــانِي يَــرِفُّ النَّــوْرُ فِيــهِ نَضَــارَةً ... وَيَكْــرَعُ مِنْــهُ فِي الغَمَامَــةِ ظَمْــآنُ

وَتَأْخُــذُ عَنْــهُ صَنْعَةَ السِّــحْرِ بَابِــلٌ ... وَتَلْوِي إِلَيْهِ أَخْدَعَ الصَّبِّ بَغْدَانُ

وَجَــدْتُ بِــهِ رِيحَ الشَّبَابِ لُدُونَــةً ... وَدُونَ صَــبَا رِيــحِ الشَّــبِيبَةِ أَزْمَــانُ

وَشَــاقَ إِلَى تُفَّــاحِ لُبْنَــانَ نَفْحَــةً ... وَهَيْهَاتَ مِنْ أَرْضِ الجَزِيرَةِ لُبْنَانُ

فَهَــلْ تَــرِدُ الأُسْــتَاذَ عَــنِّي تَحِيَّــةٌ ... تَسِيرُ كَمَا عَاطَى الزُّجَاجَةَ نَدْمَانُ

تَهَــشُّ إِلَيْهَــا رَوْضَــةُ الحَزْنِ سُــحْرَةً ... وَيَثْــنِي إِلَيْهَــا مِــنْ مَعَاطِفِــهِ البَــانُ

تَحَمَّلَهَــا حَمْــلَ السَّــفِيرِ بَنَفْسَــجٌ   تَحَمَّلَــهُ حَمْــلَ السَّــرِيرَةِ سُوسَــانُ[1]

٨- أبو الحسن عليّ بن الإمام (ت بعد ٥٣٠ هـ)

وثمّة قطعة قصيرة في ابن الإمام تشي بعلاقة ابن خفاجة الوشيجة به، قدّم لها بقوله:« ولما صدر الوزير الكاتب الأجلّ، أبُو الحَسَنِ بْنُ الإمَامِ، عن حضرة بَلَنْسِيَةَ – حماها الله – بإثر تخلّي الأمير أَبي الطَّاهِرِ تَميمٍ عن طاعة الشرق، قال يتوجّع لانتقاله، ويصف قصر المسافة بين حلّه وترحاله:

أَذِنَ الرَّحيــــــلُ بِلُقيَــــــةٍ لِـــــوَداعِ
إِنَّ اللَّيــــــالي نَــــــزرَةُ الإِمتــــــاعِ
فَأَطَلْــتُ عَــضَّ أَنــامِلي أَسَــفاً عَلــى
زَمَـــنٍ خَـــلا مِنـــهُ قَصـــيرُ البـــاعِ
لَم يَنفَصِــلْ عَــن ضَــمَّةٍ لِإِقامَــةٍ
إِلّا إِلى تَعْنِيْقَــــــةٍ لِزَمَـــــاعِ[2]

٩- أبوبكر محمّد بن عبد العزيز المعروف بابن المُرْخي (ت ٥٣٦ هـ)

---

١ – الديوان : ٩٨ ، ٩٩.

٢ – الديوان : ٢٤٣.

وهو من حسنات الأندلس، والصديق الوحيد الذي ذكره ابن خفاجة في خطبة ديوانه أو مقدّمته النقديّة في قبالة من نعى عليه بعض شعره ، فأشار إلى رأي ابن المرخي في شعره ، مبدياً إعجابه به لكونه من النقّاد المنصفين ، قال ابن خفاجة :

«وَلِلّهِ دَرُّ الوَزِيرِ الكَاتِبِ الأَجَلِّ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ المُرْخِي، فَمَا أَحْسَنَ نَصَفَتَهُ، وَأَكْرَمَ فِي هذَا البَابِ صِفَتَهُ، لَقَدْ شَهِدْتُ لهُ فِي نَحْوٍ مِنْ هذَا مَقَاماً حَمَدْتُهُ، وَكَلاماً اسْتَجَدْتُهُ ، أَمْتَعَ اللهُ السِّيَادَةَ بِجَلالِهِ وَشَرَفِ خِلالِهِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَشِيمَةُ كُلِّ مَنْ كَمُلَ فِي ذَاتِهِ، وَنَبُلَ فِي أَدَوَاتِهِ »[1].

ولا نجد لابن خفاجة قصيدة موجّهة لابن المرخي ، وعلى العكس من ذلك نجد نتفة للوزير ابن المرخي تبيّن علاقته الحميمة بابن خفاجة يقول فيها :

أماطل فيك الشوق وهو غريم ... وأطلب فيض الدمع وهو كريم

ولو أنّه ماء لبرّد غلّتي ... ولكنّ دمع العاشقين حميم[2]

١٠- أبو بكر محمّد بن الصائغ المشهور بابن باجة (ت ٥٣٣ هـ)

---

١ - الديوان : ١٩.

٢ - المغرب في حلى المغرب : ٣٠٨/١

كان الأمير أبو بكر ابن تيفلويت يُعرف بمخدوم ابن باجة ، وممدوح ابن خفاجة ، وإن كنّا لا نعرف طبيعة العلاقة بينهما بدقّة ، وإن كان ابن خفاجة يصفه "بالوزير الأجلّ " ،ولكنّه –كما يظهر من معارضته لمقطوعته في رثاء ابن تيفلويت بمقطوعتين اثنتين بدل الواحدة على الوزن والرويّ وعدد الأبيات ذاته – يشير إلى تفوّقه فنّيّاً وعدديّاً على ابن باجة [1] .

١١– أبو مروان عبد الملك بن مسعود بن خلصة بن أبي الخصال (ت ٥٣٩ هـ) وثمّة رسالة مطوّلة لابن خفاجة وجّهها إليه ، فيها مدح كثير وإشارة إلى سوء فهم سرعان ما صحّح ، وفيها تذمّر من توقّف الدهر عن إسعافه ومواتاته ، ومواتاة من هو دونه :

«وكتب إلى الوزير الفقيه، أَبِي مَرْوَانَ ابْنِ أَبِي الخِصَالِ، بعقب التقائهما بحضرة شَاطِبَة:

يَا سَيِّدِي الأَعْلَى، وَقِدْحِي المُعَلَّى، وَعِلْقِي الأخْطَرَ الأَغْلَى– لا زِلْتَ بَيْنَ شَفَاعَةٍ مَقْبُولَةٍ، وَطَاعَةٍ للهِ مَوْصُولَةٍ– كَتَبْتُهُ وَالنَّفْسُ تُفَدِّيكَ، وَتَتَمَنَّى فَلا تَعْتَدِيكَ، وَتَتَشَكَّرُ مَا اسْتَشْعَرَتْهُ مِنْ تَحَفِّيكَ، وَتَهِيمُ بِالجَانِبِ الغَرْبِيِّ فِيكَ، كَلَفاً بِمَا تَتَنَشَّقُهُ مِنْ رَوْحِ شِيَمِكَ، وَتَتَشَوَّقُهُ مِنْ مَرَاقِي هِمَمِكَ. لا زِلْتَ

---

١ – انظر الديوان : ١٠٥ – ١٠٦ .

تَبْقَى، وَتَرْقَى، وَالسَّعْدُ مِنْ خَدَمِكَ، وَالنَّجْمُ مِنْ مَوَاطِئِ قَدَمِكَ، بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى.

وَبَعْدُ، فَقَدْ كَانَ انْفِصَالُنَا عَمَّا لَمْ يُتَحَصَّلْ فَهْماً، وَلَمْ يُعْطِ عِلْماً، ثُمَّ تَلاَهُ، مَا كَشَفَهُ وَجَلاَهُ، فَشَكَرْتُ اليَدَ الجسِيمَةَ، والـمَبَرَّةَ الوَسِيْمَة، تَشَكُّرَ مَلِيءٍ بِالثَّنَاءِ، عَلَى ذَلِكَ السَّرْوِ وَالسَّنَاءِ، وَتَمَلَّكَنِي صُنْعٌ أَبَاتَنِي بِلَيْلَةِ السَّرَّاءِ، وَهَزَّنِي هَزَّ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ. وَكُنْتُ قَلِقَ الحَشَايَا خَفَّاقَ الأَحْشَاءِ، أَتَأَلَّمُ لإِلحَاحِي وَإِلحَافِي، وَأَتَمَلْمَلُ لِتَوَقُّفِ الدَّهْرِ عَنْ إِسْعَادِي وَإِسْعَافِي، مَعَ مُوَاتَاتِهِ فِي بَعْضِ الأَزْمِنَةِ، وَأَكْثَرِ الأَمْكِنَةِ، لِنَفَرٍ لَا يُوَافِقُ هَذَا الاسْمُ هُنَالِكَ مُسَمَّاهُ، وَلاَ يَنْطَبِقُ لَفْظُهُ عَلَى مَعْنَاهُ، فَمَا عَلَيْكَ مِنْ بَأْسٍ أَنْ تَعْدِلَ عَنْ قِرَاءِتِهِ «نَفَراً»، إِلَى قِرَاءَتِهِ «بَقَراً»، فَالتَّهَمُّمُ بِذَاتِ الـمَعْنَى، آكَدُ مِنَ التَّهَمُّمِ بِاللَّفْظِ وَأَوْلَى. وأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ خَطَلِ القَوْلِ، وَأَسْتَمْنِحُهُ الـمَعْهُودَ مِنَ الطَّوْلِ، فَهُوَ المَلِيءُ بِهِ، عَزَّ وَجْهُهُ »[1].

ثمّ يصوّر عودته الشاقّة في فصل الشتاء ، فيصف المطر والسيل ، وما لاقاه من ويل : « فَسِرْنَا، وَمَا كِدْنَا، بَيْنَ سِبَاحَةٍ، وَمَسَاحَةٍ، حَتَّى شَارَفْنَا الدِّيَارَ وَقَدْ عَبَسَ وَجْهُ السَّمَاءِ، وَأَدْرَكَ بِنَا كُمَيْتُ المَسَاء ... وَذِكْرُ اللهِ– تَعَالَى– مِلْءُ الصُّدُورِ وَالأَفْوَاهِ، وَشِعَارُ الألسِنَةِ وَالشِّفَاهِ. وَمَا كُنَّا لِنَعْبُرَ مَسَافَةَ تِلْكَ المَجَابَةِ، إِلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ، وَعَطْفَةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ، وَنَظْرَةٍ مِنْ

---

١ – الديوان : ٣٠٢ ، ٣٠٣.

رَحِيمٍ كَرِيمٍ. وَتَلافَانَا اللهُ بِحَافِلِ نُعْمَاهُ، وَشَامِلِ رُحْمَاهُ، فَأَدْرَكَنَا عَلَى سَيْرٍ بَطِيٍّ، وَإِعْيَاءٍ مطِيٍّ، وَخُلُقٍ غَيْرِ وَطِيٍّ »[1]

ثمّ استطرد ليصف السراج والموقد نثراً وشعراً مظهراً براعته الأدبيّة ، ثمّ تحدّث عن ألمه من مصائب الزمان وسوء الطالع والأحوال لولا لقاء أبي مروان ابن أبي الخصال :

« وَلَمَّا قُمْتُ لأَدَاءِ المَكْتُوبَةِ، فَتَلَقَّيْتُ بِوَجْهِي الأَرْضَ، وَقَضَيْتُ الفَرْضَ، ثُمَّ نِلْتُ مِنَ الزَّادِ، وَمِلْتُ إِلَى الرُّقَادِ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ جَنْبِي وَالفِرَاشِ، وَدَبَّ فِيَّ رُوْحُ الانْتِعَاشِ، مَسَحْتُ جَفْنِي مِنْ ذَلِكَ الوَسَنِ، وَتَفَرَّغْتُ لِمَلامَةِ الزَّمَنِ، فَجَعَلْتُ أَتَكَلَّمُ عَنْ إِحَنِهِ، وَأَتَالَّمُ مِنْ مِحَنِهِ، فَرَاطَلَ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْنَ مُنَّتِهِ وَهَنَتِهِ، وَعَادَلَ بَيْنَ سَيِّئَتِهِ وَحَسَنَتِهِ، وَأَشَارَ إِلَى مَا أَتَاحَ مِنْ لُقْيَاكَ، ثُمَّ قَالَ لِي: هَذَا بِذَاكَ، وَهَلْ يُؤْكَلُ الشّهْدُ إِلَّا بِسُمٍّ؟ فَاسْتَسَغْتُ هُنَالِكَ خُطْبَانَ خُطُوبِهِ، وَكَفَأْتُ عِنْدَ ذَلِكَ ذَنُوبَ ذُنُوبِهِ، وَأَلقَيْتُ بِيَدِ السِّلْمِ وَكُنْتُ لَهَ حَرْباً، وَعَلَيْهِ إِلْباً. وَحَاوَلْتُ أَنْ نَلْتَقِيَ فَنَتَحَدَّثَ، وَنَتَجَاذَبَ ذِكْرَ مَا حَدَثَ، وَمِنْ مُنَى المَصْدُورِ لَوْ نَفَثَ، فَعَاقَ عَنِ اللِّقَاءِ وَقْتٌ، أَكْثَرُهُ مَقْتٌ، وَبَخْتٌ، أَوْفَرُهُ شَخْتٌ »[2].

---

١ – الديوان : ٣٠٤ ، ٣٠٥.

٢ – الديوان : ٣٠٦.

١٢– أبو عبد الله محمّد بن مسعود بن خلصة المشهور بابن أبي الخصال (ت ٥٤٠ هـ) وقد ذكره ابن خفاجة مرّتين في ديوانه ، الأولى ردّاً على رسالة شعريّة ونثريّة أرسلها ابن أبي الخصال إليه ، وقد احتفظ ابن الخطيب بالشطر الشعريّ منها فأورد (١٩) بيتاً قال:

« من إخوانيّاته ما خاطب به أبا إسحاق ابن خفاجة :

هبّ النسيم هبوب ذي إشفاق　　　يزهى[١] الهوى بجناحه الخفّاق[٢]

وفيها يتحدّث عن اللهو والخمرة ، ولا يحظى أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة إلّا بذكر في آخر البيت الأخير منها :

تالله أصرف نحوها وجه الرضا　　　لو شعشعت برضا أبي إسحاق[٣]

أمّا ابن خفاجة فقد احتفل بقصيدة ابن أبي الخصال ونثره وراجعه بقصيدة بلغت (٣٦) بيتاً خصص لابن أبي الخصال ما يزيد على (٢٠) بيتاً منها وقدّم لها بقوله: « وقال يراجع ذا الوزارتين الكاتب أبا عبد الله ابن أبي الخصال – أعزه الله – عن مخاطبته نظماً ونثراً ، وكتب بها إلى الحضرة :

أَمُقَامُ وَصلٍ أَم مَقامُ فِراقِ　　　فَالقُضْبُ بَينَ تَصافُحٍ وَعِناقِ

خَفّاقَةٌ ما بَينَ نَوحِ حَمامَةٍ　　　هَتَفَتْ وَدَمعِ غَمامَةٍ مُهراقِ

---

١ – كذا في الرسائل، ولعلّها : يُزجي

٢ – رسائل ابن أبي الخصال : ٦٥١

٣ – رسائل ابن أبي الخصال : ٦٥٢

عَبِثَت بِهِنَّ يَدُ النُّعامى سُحْرَةً فَوَضَعنَ أَعناقاً عَلى أَعناقِ

أَنْسَيْنَني خُلُقَ الوَقارِ وَرُبَّما أَذكَرنَني بِمَواقِفِ العُشّاقِ

ضَمّاً وَلَثْماً وَاستِطابَةَ نَفحَةٍ وَخُفوقَ أَحشاءٍ وَفَيْضَ مَآقِ[1]

ثمّ يتحدّث مع نسيم الصبا ليصل به إلى الممدوح، ويحيّيه تحيّة خاصّة:

سِر وادِعاً لا تَستَطِرْ قَلْباً هَفا بِجَناحِ شَوْقٍ رِشتَهُ خَفّاقِ

وَإِذا طَرَقْتَ جَنابَ قُرطُبَةٍ فَقِف فَكَفاكَ مِن ناسٍ وَمِن آفاقِ

وَالثُم يَدَ ابْنِ أَبي الخِصالِ عَنِ العُلا مُتَشَكِّراً وَاضْمُمْهُ ضَمَّ عِناقِ

وَافتُق بِناديهِ التَّحِيَّةَ زَهرَةً نَفّاحَةً تُغني عَنِ استِنشاقِ

كَالشَّمسِ يَومَ الدَّجنِ تَندى مُجتَنى ظِلٍّ وَتَحسُنُ مُجتَلى إِشراقِ

وَاهزُزْ بِها مِن مَعطِفَيهِ فَإِنَّما شَعشَعتَها كَأساً بِيُمنى ساقِ[2]

ويشير ابن خفاجة إلى رسالة ابن أبي الخصال وأثرها فيه ، ويزجي الثناء الوافر إليه :

وَخِطابِ بِرٍّ نابَ عَنهُ سِفارَةً إِنَّ الخِطابَ عَلى البِعادِ تَلاقِ

يَندى عَلى كَبِدي لَدُونَةَ مَنطِقٍ فَيَفي بِحُرِّ تَرائِبٍ وَتَراقِ

---

١ – الديوان : ١٥٨.

٢ – الديوان : ١٥٩.

فَهُناكَ أَروَعُ مِلءُ عَيْنِ الـمُجتَلي　　　يَقظـانُ مُوْثَـقُ عُقـدَةِ الميثـاقِ

هَزَجَـتْ بِـهِ هَـزْجَ الحَمـامِ مَحامِـدٌ　　　حَمَلَـتْ حُـلاهُ مَحْمَـلَ الأَطـواقِ

لَـدنُ الحَواشـي لَـو أَطَـلَّ غَمامَـةً　　　لَخَـلا مِـنَ الإرعـادِ وَالإِبـراقِ

شَـرُفَتْ بِـهِ فِقَـرُ الثَّنـاءِ وَرُبَّمـا　　　تَتَشَـرَّفُ الأَطـواقُ بِالأَعنـاقِ[1]

ويخصّص لأدب ابن أبي الخصال وإبداعه حيّزاً مهمّاً:

طالَـت بِـهِ رُمْـحَ السِّـماكِ يَراعَـةٌ　　　تَستَضـعِفُ الجَـوزاءَ شَـدَّ نِطـاقِ

ما خَطَّ مِن غُرَرِ الحِسانِ وَضاءَةً　　　حَـتّى استَمَدَّ لَهـا مِـنَ الأَحـداقِ

مُغـرىً بِـأَغراضٍ تَهـولُ بَراعَـةً　　　وَرَفيـفِ أَلفـاظٍ تَشـوقُ رِقـاقِ

تَهفـو بِـهِ طَـوراً قُـدامى بـارِقٍ　　　فيهـا وَآوِنَـةً جَنـاحُ بُـراقِ

أَقسَـمتُ لَـو أَخَـذَ الهِلالُ كَمالَـهُ　　　عَنـهُ لَـتَمَّ تَمـامَ غَـيرِ مُحـاقِ

وَكَفـاكَ مِـن غُصْـنٍ لِسَـطْرِ بَلاغَـةٍ　　　مُتَسَـابِقِ الإِثْمـارِ والإِيْـرَاقِ

مُسـتَبدِعٍ حُسـناً فَمِـن مَعْـنىً لَـهُ　　　حُـرٍّ وَمِـنْ لَفْـظٍ بِـهِ رَوَّاقِ

مُتَوَلِّـدٍ عَـن خَـاطِرٍ مُتَوَقِّـدٍ　　　لَهَبـاً وَطَبـعٍ سَلْسَـلٍ دَفّـاقِ

لَـوْ كَـانَ أُرْهِـفَ صَـارِماً لَهَـزَزْتُهُ　　　في مَـاءِ إِفرِنـدٍ لَـهُ رَقْـرَاقِ[2]

وبعد أن تجاوزت قصيدة ابن خفاجة قصيدة ابن أبي الخصال طولاً

١ – الديوان : ١٥٩.

٢ – الديوان : ١٦٠.

وفنّاً وروعةّ وإبداعاً انتقل ابن خفاجة ليردَّ على رسالة ابن أبي الخصال فشحذ لها كلّ أدواته الفنّيّة ، جمع لها كلّ ما يستطيع من الفنون البلاغيّة ، وتكلّف لأجلها تكلّفاً لا يتكلّفه في أكثر نثره ؛ ولاسيّما أنّه يعلم أنّه يرسل الوشي لصنعاء ، ويبيع التمر بهجر ، وتواضع له تواضعاً لم نره يقدّمه لأحد من قبله ، وطامن من نفسه أمامه ، وجعل أدبه يقبّل بساطه ويغدو في جملة عبدانه :

« هَا هُوَ – أَدَامَ اللهُ عِزَّ عِمَادِي– قَدْ تَجَافَى لَهُ عَنْ صَدْرِ مَيْدَانِهِ، وَتَشَرَّفَ بِلَثْمِ أَرْدَانِهِ. وَاكْتَتَبَ فِي جُمْلَةِ عُبْدَانِهِ، فَاسْتَقْبَلَ فُسْطَاطَهُ اسْتِقْبَالَ إِهْلالٍ، وَقَبَّلَ بِسَاطَهُ تَقْبِيلَ إِجْلالٍ. وَأُقْسِمُ لَوْ تَحَمَّلَ حَجْماً، وَتَمَثَّلَ نَجْماً، لَمْ أَرْضَهُ، حتَّى يَهْبِطَ أَرْضَهُ، وَيَقْضِيَ فَرْضَهُ، جَوَاباً عَنْ نَثْرٍ تَرَدَّدْتُ فِيْهِ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَغَدِيرٍ، وَتَلدَّدْتُ مِنْهُ بَيْنَ أَرَاكَةٍ وَهَدِيْرٍ، لا أَعْدَمُ هُنَاكَ نَسِيماً رَطْباً، وَمَوْرِداً عَذْباً،﴿ وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبّاً ﴾، وَنَظْمٍ قَدْ أَشْرَف فِي نَضْرَةٍ، تِلْكَ الحَضْرَةِ، يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الأَهْوَاءِ، وَيَمْتَزِجُ لَطَافَةً بِالهَوَاءِ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ أَحْسَنِ مُزْدَوِجٍ، مِنْ أَرَجٍ فِي ثَلَجٍ، وَأَطْيَبِ مُنْتَشَقٍ، مِنْ عَبَقٍ فِي لَثَقٍ، كَأَنَّ ذُيُولَ سَحَابَةٍ هُنَاكَ تُسْحَبُ، وَعُيُونَ حَدِيقَةٍ تُحْدِقُ. وَحَسْبُكَ مِنْ شِعْرٍ يُضَاهِي الشِّعْرَى إِشْرَاقاً، وَالشَّمْسَ إِبْرَاقاً، وَيُبَاهِي القَمَرَ اتِّسَاقاً، وَعِقْدَ الجَوْزَاءِ انْتِسَاقاً، يَتَغَنَّى بِهِ الشَّرْبُ، وَيَتَرَنَّمُ الرَّكْبُ، فَطَوْراً يُنْتَشَقُ مَعَ العَرَارِ بِتِلْكَ الخَمَائِلِ، وَتَارَةً يُعْتَنَقُ مَعَ الطَّيْفِ اعتناقَ الحَمَائِلِ. وَمَا ضَرَّهُ– وَهَا هُوَ أَنْدَى مِنْ ظِلِّ الغَمَامَةِ، وَأَحْلَى مِنْ سَجْعِ الحَمَامَةِ، فَقَدْ طَابَ نَفَساً، وانْسَابَ

سَلَساً، وَكَرُمَ نِسْبةً، وَشَرُفَ نِصْبَةً، وَأَلَّفَ بَيْنَ رِقَّةِ السِّحْرِ، وَنَفَسِ عَنْبَرِ الشَّحْرِ- أَلَّا يكُونَ فِي أَكْنَافِ العِرَاقِ يُوْلَدُ، وَفِي أَرْضِ الحِجَازِ يُوجَدُ.. »[1].

وبعد ما يزيد على عقد من الزمن نجد ابن خفاجة يردّ على رسالة لابن أبي الخصال ويعاتبه عتاباً شديداً على قطيعة لم يذكر أسبابها ، وتهمة لم يحدّدها :

« كتب أَبُو إِسْحَاقَ الخَفَاجِيُّ إلى أَبِي عَبدِ اللهِ ابنِ أَبِي الخَصَالِ، أعزّهما الله:

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُنَاجِي الشَّوْقَ نَاجِيَةٌ   هَلَّا وَنَحْنُ عَلَى عَشْرٍ مِنَ العُشَرِ

وَرَدَتْنِي -أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ رَئِيْسِي المُعَظَّمِ قَدْرُهُ، المُقَدَّمِ أَمْرُهُ، المُعْتَرَفِ بِحَقِّهِ، المُخْتَلَفِ إِلَّا فِي سَبْقِهِ- رُقْعَتُهُ المَبْرُورَةُ، عَلَى حِيْنَ لَا عَهْدَ لِي بِظلِّ ذَلِكَ الغَمَامِ، وَلَا ذِمَّةَ بِيَدِي مِنْ حَبْلِ ذَلِكَ الزِّمَامِ، إِلَى اللهِ أَشْكُو غِيَرَ الأَيَّامِ، وَانْتِقَالَ تِلْكَ السَّجَايَا الكِرَامِ. وَمَا تَطَلَّعَتْ رُقْعَتُهُ الخَطِيْرَةُ تَبْهَرُ النُّبَهَاءَ، وَتَنْظُرُ فِي أَعْطَافِهَا خُيَلَاءَ، حَتَّى مَسَحْتُ لَهَا جَفْنِي أَحْسَبُنِي فِي المَنَامِ، وَأَنْشَدْتُهَا إِخَالُهَا مِنْ أَضْغَاثِ الأَحْلَامِ:

إِنِّي شَرِبْتُ وَكُنْتُ غَيْرَ شَرُوْبِ   وَتُقَرِّبُ الأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيْبِ

وَقَدْ كُنْتُ خِلْتُ أَنَّ وُدَّ ذَلِكَ السَّيِّدِ -أَمْتَعَ اللهُ السِّيَادَةَ بِمَكَانِهِ- قَدْ خَيَّمَ فَمَا يَرْحَلُ، وَرَسَخَ فَمَا يَزْحَلُ، وَصَفَا شِرْبُهُ فَمَا يَطْحَلُ. وَهَلّا نَشِطَ

---

١ - الديوان : ١٦٠- ١٦١.

لِلمُطَالَعَةِ – أَعَزَّهُ اللهُ– فَقَامَ حِيْنَ قَعَدْتُ، وَاقْتَرَبَ إِنْ كُنْتُ بَعُدْتُ؟ فَمَا شِمْتُ لِخَطَابِهِ بَارِقَةً، وَلَا التَمَحْتُ لِصَحِيْفَةٍ لَهُ شَارِقَةً، إِلَّا بَعْدَ أَحْوَالٍ تَجَاوَزَتِ العَقْدَ عَدَداً، وَحَسْبُكَ بُعْدَ عَهْدٍ وَنَاهِيْكَ أَمَداً.

وَبَعْدُ، فَجَزَى اللهُ المِرْيَةَ خَيْراً، فَإِنَّهَا أَذْكَرَتْنِي قَوْلَ الأَوَّلِ وَكُنْتُ أُنْسِيتُهُ:

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ   لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ

وَلَا –وَأَبِيْكَ– مَا لأَمْتَ فِيْمَا حَكَمْتَ، وَلَا جُرْتَ حَتَّى اسْتَشَطْتَ فَثُرْتَ. إِنَّ النَّصَفَةَ لَفِي خُلُقِكَ، وَإِنَّ العَدَالَةَ لَمِنْ طُرُقِكَ، وَمَا عَبْدُ الحَمِيْدِ، وَلَا الصَّابِئَانِ وَلَا ابْنُ العَمِيْدِ، بِأَعْدَلَ مِنْكَ فِيْهَا حُكْماً، وَأَسَدَّ سَهْماً.

وَبَعْدُ، فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ تُهْمَةِ الـمُشَارِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ –وَحَقِّكَ– لَبَرِيءُ السَّاحَةِ مِمَّا بِهِ وَسَمْتَهُ وَرَسَمْتَهُ، طَائِشٌ سَهْمُكَ فِيْمَا قَذَفْتَهُ بِهِ وَاقْتَرَفْتَهُ. وَأَمَّا حَالُ مَنْ يَعْتَقِدُكَ قَسِيْمَهُ، وَيَجِدُ بِذِكْرِكَ بَرْدَ الأُنْسِ وَنَسِيمَهُ، فَحَالُ مَنْ خَلَّفَ السَّبْعِينَ وَرَاءَهُ، فَهُوَ يَرْتَقِبُ يَوْمَهُ وَيُنْدُبُ أَمْسَهُ، وَيُوَدِّعُ دُنْيَاهُ وَيُنْشِدُ نَفْسَهُ:

هَلْ فَاتَ صَرْفَ الرَّدَى لَبِيدُ   وَطَاوَلَ الدَّهْرَ لَا يَبِيدُ »[1]

---

١ – الديوان : ٣١٣ ، ٣١٤، ٣١٥ .

ثمّ يختم ابن خفاجة الرسالة بالثناء والتحيّة والسلام على ابن أبي الخصال الذي يرجى ويخشى في آن واحد :

« لَازِلْتَ عِمَاداً وَعَتَاداً، وَمَراداً يُحْمَدُ وَمَصَاداً، وَلا بَرِحْتَ تُغْشَى، وَتُرْجَى تَارَةً وَتُخْشَى. وَأُبْلِغُكَ تَحِيَّةً، تَتْبَعُهَا تَحِيَّةٌ، عَدَدَ العُشْبِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ. وَالسَّلامُ يَتَعَاقَبُ وَيَتَوَالَى عَلَيْكَ، وَعَلَى مَنْ لَدَيْكَ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى، وَبِمِثْلِهِ تَخُصُّكَ جُمْلَةُ الإِخْوَانِ وَالأَعْيَانِ» [1].

ويبدو أنّ ابن أبي الخصال بدأ بالردّ عليه ، ثمّ أبعده المرض من ذلك، ففي إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة ما نصّه:

« وابتدأ أبو عبد الله معارضته في هذه القطعة البدعة فقال :

أصخرة أنت أم حديد — يخطئك الوعد والوعيد

أم كوكب يخلق الليالي — وهو على مرّها جديد

ثمّ عرض له – أزاح الله علّته – ما سدّ طريق عارضه الهطل ، وأصلد زند خاطره المشتعل ، على حين شيمت منه هذه البارقة الرائقة ، واقتطفت منه هذه الزهرة النضرة ، (*ثمّ عبارة مطموسة في ذيل الورقة*) » [2].

---

١ – الديوان : ٣١٦ .

٢– الديوان : ٣١٦ (الحاشية ٥) .

١٣– أبو نصر الفتح بن محمّد بن عبيد الله بن خاقان (نحو ٤٨٠ – نحو٥٢٩ هـ)

لم يذكره ابن خفاجة بالاسم في ديوانه مع أنّه قال فيه أربع قطع أدبيّة، وذلك لتغيّر علاقته به ، فقد عرفنا من قبل أنّ ابن خاقان قد اجتمع مع ابن خفاجة في بلاط الأمير إبراهيم في مدينة شاطبة في عيد الفطر سنة (٥١٠ هـ) ، وفي ديوان ابن خفاجة مقطوعة شعريّة ردّ بها وأثنى على من يسمّيه بفتى شابّ من أهل النبل ؛ ويعني به ابن خاقان ؛ إذ ثمّة نحو ثلاثين سنة بينهما ، وبدليل أنّ القطعة النثريّة التالية التي أوردها ابن خفاجة قد نصّ ابن خاقان على أنّ ابن خفاجة قد أرسلها إليه ، وقد راجع ابن خفاجة بمقطوعته الشعريّة شعراً ونثراً لابن خاقان عندما زاره ضيفاً ، قال ابن خفاجة في التقديم لها :

« وقال يجاوب ويداعب فتى شابّاً من أهل النبل عن نظم ونثر له ، وقد ورد ضيفاً :

يَـا لِـيْنَ عِطْفِـي وَاخْضِـرَارَ جَنَـابِي
لِرَفيـــفِ آدابٍ وَمـــاءِ شَـــبَابِ
رَاقَـا وَرَقَّـا فَـالتَقَى بِهِمَـا مَعـاً
ثَغْـرُ الحَبَـابِ وَأَوجُـهُ الأَحْبَـابِ
فَسَـجَعتُ ثَمَّ حَمامَـةً وَمِـنَ الـمُنَى
أَنِّي اسـتَعَرتُ لَهَـا جَنـاحَ غُـرابِ

وَسَــكِرتُ سُــكرَي قَهْــوَةٍ وَشَــبيْبَةٍ
وَسَـحَبْتُ مِـن ذَيلَـي هَـوىً وَتَصـابِ

وَأَمَـــا وَطَبْعِـــكَ إِنَّـــهُ لَمُبَـــرِّزٌ
فِي حَلْبَـــةِ الشُّـــعَراءِ وَالكُتّـــابِ

مُتَخايِـــلٌ فِي صَـــدْرِ كُـــلِّ جَريـــدَةٍ
بِقَصـــــيدَةٍ وَكَتيبَـــــةٍ لِكِتـــــابِ

ثم إنّه جاوبه عن رقعة وردت له بما نسخته »[1] .

ويقدّم ابن خاقان لهذه القطعة النثريّة :

« وكتب إليّ معاتباً على مخاطبة لم ير لها جواباً ، ولا قرع لإنبائي بها باباً ، فكتبتُ إليه معتذراً بطول اغترابي، وتوالي اضطرابي ، وإنّي ما استقررت يوماً، ولا نقعت في منهل الثواء ظمأ ولا حوماً ، فكتب إليّ مراجعاً : ... »[2]

« يَا سَيِّدي الأَعْلَى، وَعِلْقِيَ الأَغْلَى -تَحَلَّى بِكَ وَطَنُكَ، وَلا تَخَلَّى مِنْكَ عَطَنُكَ- كَتَبْتُهُ، وَالوُدُّ عَلَى أُولَاهُ، وَالعَهْدُ بِحُلَاهُ، تَرِفُّ زَهْرَةُ ذِكْرَاهُ، وَيَمُجُّ الرِّيَّ ثَرَاهُ، مُنْطَوِياً عَلَى لَذْعَةِ حُرْقَةٍ، بَلْ لَدْغَةِ فُرْقَةٍ، أَبِيتُ لَهَا بِلَيْلٍ لَا يَنْدَى جَنَاحُهُ، وَلَا يَتَنَفَّسُ صَبَاحُهُ. فَهَا أَنَا، كُلَّمَا تَنَاوَحَتِ الرِّيَاحُ أَصِيلاً، وَتَنَفَّسَتْ نَفَساً بَلِيْلاً، أُصَانِعُ البُرَحَاءَ تَنَشُّقاً، وَأَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ تَشَوُّقاً.

---

١ - الديوان : ٢٣٩ .

٢ - قلائد العقيان : ٧٤٦/٤ — ٧٤٧ .

فَهَلْ تَجِدُ عَلَى الشِّمَالِ نَفْحَةً، كَمَا أَجِدُ عَلَى الجَنُوبِ لَفْحَةً؟ أَمْ هَلْ تُحِسُّ لِذَلِكَ الوَهْجِ أَلَماً، كَمَا أُحِسُّ لِهَذَا الأَرَجِ لَمماً؟ وَأَمَّا وَحَقِّكَ قَسَماً، يَشْتَمِلُ عَلَى الأَيْمَانِ كَرَماً، إِنَّ فِي أَدْنَى هَذِهِ اللَّوَاعِجِ، مَا يَقْتَضِي إِنْضَاءَ النَّوَاعِجِ، وَيَحْمِلُ عَلَى خَرْقِ، جَيْبِ الخَرْقِ، وَجَرِّ ذَيْلِ، بُرْدِ اللَّيْلِ، حَتَّى أَهْبِطَ أَرْضَ ذَلِكَ الفَضْلِ فَأَغْتَبِطَ، وَأَرِدَ مَشْرَعَ ذَلِكَ الأُنْسِ فَأَبْتَرِدَ. وَعَسَى اللهُ بِلُطْفِهِ أَنْ يَنْظِمَ هَذَا البَدَدَ، وَيُعِيدَ ذَلِكَ الدَّدَ، فَيُبَرِّدَ الأَحْشَاءَ، كَيْفَ شَاءَ.

وَإِنَّ خِطَابَكَ الكَرِيمَ وَافَى، فَأَنْهَى تَحِيَّةً، هَزَّتْنِي أَرْيَحِيَّةً، هَزَّ الـمُدَامَةِ تَتَمَشَّى، وَالحَمَامَةِ تَتَغَنَّى، فَلَوْلا أَنْ يُقَالَ صَبَا، لالتَزَمْتُ سُطُورَهُ، وَلَثَمْتُ مَسْطُورَهُ. وَمَا أَنْطَقَتْنِي صَبْوَةٌ اسْتَفَزَّتْنِي، فَهَزَّتْنِي، وَلَكِنْ سُؤْرٌ فِي كَأْسِ الشَّبَابِ تَنَاوَلْتُهُ، فَكُلَّمَا شَرِبْتُ، طَرِبْتُ. فَلَوْلا تَوَقُّعُ تَغَامُزِ الشَّيْبِ، لابْتَدَرْتُ شَقَّ الجَيْبِ، ثُمَّ صِحْتُ: وَاطَرَبَاهُ، وَنَادَيْتُ: « وَاحَرَّ قَلْبَاهُ » .

وَبَعْدُ، فَإِنِّي وَقَفْتُ مِنْ جُمْلَتِهِ عَلَى مَا وَقَعَ مَوْقِعَ القَطْرِ، وَحَسْبُكَ ثَلَجاً، وَطَلَعَ طُلُوعَ هِلالِ الفِطْرِ، وَكَفَاكَ مُبْتَهَجاً. وَمَا أَغْرَبَ فِيمَا أَعْرَبَ عَنْهُ مِنْ تَفْسِيرِ حَالِكَ، وَتَفْصِيلِ حِلِّكَ وَتَرْحَالِكَ. وَلا غَرْوَ أَنْ تَتَجَاذَبَكَ الرَّوَاحِلُ، وَتَتَهَادَاكَ الـمَرَاحِلُ، فَمَا لِلنَّجْمِ أَخِيكَ مِنْ دَارٍ، وَلا فِي غَيْرِ الشَّرَفِ مِنْ مَدَارٍ. فَقَعْ، أَنَّى شِئْتَ وَارْبَعْ، أَوْ طِرْ، حَيْثُ أَحْبَبْتَ وَطُرْ، فَمَا انْتَضَتْكَ يَدُ الـمَغْرِبِ، إِلَّا مَاضِيَ الـمَضْرِبِ، وَلا تَعَاطَتْكَ أَقْطَارُ البِلادِ، إِلَّا

طَيِّبَ المِيْلادِ، فَمَا ضَارَ أَنْ نَعَقَ بِبَيْنِكَ غُرَابٌ، وَخَفَقَ بِرَحْلِكَ سَرَابٌ، إِذَا لَمْ يَغُضَّ مِنْ فَضْلِكَ اغْتِرَابٌ، وَلَمْ يُخِلَّ بِنَصْلِكَ ضِرَابٌ.

لازِلْتَ مُخَيِّماً بِمَنْزِلَةِ عِزٍّ، تَجْمَعُ مِنَ اتِّسَاعٍ فِي ارْتِفَاعٍ، وَإِمْتَاعٍ فِي امْتِنَاعٍ، مَا بَيْنَ إِمْرَةِ بغدانَ، وَمَنَعَةِ غُمْدَانَ، بِمَشِيْئَةِ اللهِ، تَعَالَى»[1] .

وهذه الرسالة على قدر كبير من الأهمّيّة لأنّها تدلّ على علاقة ابن خفاجة الوثيقة بابن خاقان ، وتشير إلى أيّام اللهو والدد التي حضراها ، وتعبّر عن كبير حزنه وشديد ألمه لفراقه .

إلّا أنّ ما عكّر صفو هذه العلاقة هو ما نمي إلى ابن خفاجة من أنّ ابن خاقان ذكره بما لا يليق به وهو في سنّ تجاوز الستّين ، وتندّر بأخبار لهوه وغيّه في شبابه في كتابه "قلائد العقيان" كما ذكر ابن خاقان نفسه في كتابه هذا : « وبلغه أنيّ ذكرته في هذا الكتاب بقبيح ، وأثبتُّ في وصف أيّام فتوّته بتندير وتمليح ، فكتب إليّ يعاتبني... »[2] ، ولكنّ ابن خفاجة لم يذكر اسم ابن خاقان مطلقاً بل قدّم لقصيدته بقوله :

« وقال وقد بلغه عن صديق له أنّه نال منه فكتب بها إليه :

---

١ – الديوان : ٢٤٠ ، ٢٤١، ٢٤٢ .

٢ – قلائد العقيان : ٤/٧٤٤ .

خُـذْها يُـرِنُّ لَهـا الجَـوادُ صَـهيلا وَتَسـيلُ مـاءً في الحُسـامِ صَـقِيْلا

...

إيــهٍ وَمــا بَـينَ الجَــوانِحِ غُلَّــةٌ لَـو كُنـتُ أَنقَـعُ بِالعِتـابِ غَلِـيْلا

ما لِلصَّديقِ وُقيتَ تَأكُلُ لَحْمَهُ حَيّـاً وَتَجْعَـلُ عِرْضَـهُ مِنْـدِيْلا

أَقْبَلْتَـهُ صَـدْرَ الحُسَـامِ وَطَالَمـا أَضْـفَيتَهُ دِرْعـاً عَلَيْـكَ طَـوِيْلا

مـاذا ثَنـاكَ عَـنِ الثَّـنَاءِ وَنَشْـرِهِ بُـرْداً عَلى الرَّسْمِ الجَمِيـلِ جَمِـيْلا

أَرِجـاً كَمـا عَثَـرَ النَّسِـيمُ بِرَوْضَـةٍ لَـدْناً كَمـا نَضَـحَ الغَمـامُ مَقِـيْلا

أَعِـدِ التِفاتَـكَ وادَّرِكْهَـا خِلَّـةً لا تَسـتَقِلُّ بِهَـا عُـلاكَ مَمِـيْلا

وَأَصِخْ إِلى سَجْعِ القَـريضِ فَرُبَّمـا نَـدبَ القَـريضُ مِنَ الوَفـاءِ هَـدِيْلا

وَعُـجِ الـمَطِيَّ عَلى الـوِدَادِ وَحَيِّـهِ طَلَـلاً عَلـى حُكْـمِ الزَّمَـانِ مُحِيْلا

وَابعَـثْ بِطَيفِـكَ وَاعتَقِـدْها زَورَةً وَصِلِ السَّلامَ عَلى النَّـوَى تَعْلِيْلا

وَلَئِنْ سَأَلتُ بِـكَ الغَمامَـةَ وابِـلاً يَسِـمُ الجَـديبَ لَمـا سَأَلتُ بَخِيْلا

وَإِذا دَعَبْــتُ وَلا دُعَابَــةَ غَيْبَــةٍ فَاغْضُـضْ هُنـاكَ مِنَ العِنَـانِ قَلِيْلَا

وَاصحَبْ وَذِهنُكَ مِن هَجِيرٍ لافِحٍ ذِكـراً كَمـا سَـرَتِ القَبُـولُ بَلـيْلا[1]

ثمّ يقوم بإزجاء الثناء على ابن خاقان مشيراً إلى إبداعه الخارق، ويختم بتعريض ذكيّ :

فَلَقَدْ حَلَلتَ مَعَ الشَّبَابِ بِمَنزِلٍ يَرْتَـدُّ طَـرْفُ الـنَّجْمِ عَنْـهُ كَلِـيْلا

وَبَدَهتَ لا نَزْرَ الـمَحاسِنِ مُجْبِلاً وَمَضَـيتَ لا قَضِـمَ الغِـرارِ فَلِـيْلا

---

١ – الديوان : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

مُتَــدَفِّقاً أَعيــا العُقُــولَ طَرِيْقَــةً　　　فَكَأَنَّمَــا رَكِــبَ الــمَجَرَّ سَــبِيْلا

يَســتَوقِفُ العُلْيَــا جَــلالاً كُلَّمَــا　　　سَــجَدَ الــيَرَاعُ بِكَفِّــهِ تَبْجِــيْلا

لا تَســتَنيرُ بِــكَ السِــيادَةُ غُــرَّةً　　　حَتّى يَسيلَ بِكَ النَّدَى تَحجيْلا

وَسِـوايَ يُنشِـدُ في سِـوَاكَ نَدَامَـةً　　　يـا لَيْتَـنِي لَـمْ أَتَّخِـذْكَ خَلِـيْلا[1]

فابن خفاجة يعدّ أخبار صبوته وفتوّته في مرحلة سابقة من مراحل عمره من الأمور الشخصيّة الخاصّة التي طواها الزمان ، ولا يحبّ أن تنشر على الملأ ، ولا يريد أن تشوّه صورته الجميلة التي يرسمها لنفسه ، ثمّ يردف ابن خفاجة هذه القصيدة بمقطوعة رائية يمزج فيها العتب بالمودّة والتهديد، ولكنّه لم يرسلها إليه ، ولعلّ ذلك لزوال ما بينهما من غيوم العتب ، ولعلّ ابن خاقان حذف ما كان ذكره من أخبار لا تروق لابن خفاجة ، فقال : « في ذلك الأمر ملتزماً لحرف الميم مع الراء ، ولم يكتب بها إلى المعاتَب :

لكَ الخَيْرُ أنَّ الخَيْرُ في وُدِّ صَاحِبٍ　　　مُغيرٍ عَلى عِرضِ الصَّديقِ مُقَامِرِ

يَهَــشُّ مَــعَ اللُّقْيَــا إِلَيَّ كَأَنَّمَــا　　　أَحُــلُّ بِرَبــعٍ لِلبَشاشَــةِ عَــامِرِ

وَمَهْمَـا نَـأَى غَامَـتْ عَلَـيَّ سَمَـاؤُهُ　　　وَجادَتْ بِصَوبٍ لِلغَضَاضَةِ هَامِرِ

فَجَـرَّ بِلَحْمِـي ظَالِمـاً كُـلُّ دَاعِـرٍ　　　وَلَاكَ بِعِرْضِـي مُضْـغَةً كُـلُّ سـامِرِ

وَإِنّي لألقَـى الرَّكْـبَ يَهـبِطُ أَرضَـهُ　　　بِـأَذْكَى ثَنَـاءٍ مِـنْ أَرِيـجِ الـمَجَامِرِ

---

١ - الديوان : ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

وَيَطـرُقُني ضَـيفاً مَـعَ اللَّيـلِ طَيفُـهُ فَيَكـرَعُ في مـاءٍ مِـنَ البِشـرِ غـامِرِ
فَأَغضَـيتُ إِغضـاءَ الكَـريمِ لِفِتيَـةٍ كِـرامِ الـحُلَى وَالـمُنتَمَى والأَوَامِـرِ
وَأَحجَمـتُ جُبْنـاً عَـنْ لِمَـامٍ بِغِيبَـةٍ وَإِنِّي لَمَطـوِيٌّ عَلـى بَـأْسٍ عـامِرِ
وَقُلـتُ وَحُسـنُ الصَّـبرِ خَيْـرُ مَغَبَّـةٍ « هِنيئـاً مَريئـاً غَـيرَ داءٍ مُخَـامِرِ»
وَلَو شِئتُ رُعتُ القِرنَ وَالبِيدُ بَيْنَنا بِصَـهلَةِ خَـوّارِ الأَعِنَّـةِ ضَـامِرِ[1]

ج : القضاة والأدباء والعلماء :

اتّصل ابن خفاجة بثلاثة من قضاة عصره ، وكانت علاقته بهم وطيدة تؤهّله للشفاعة والوساطة ، وتصل إلى المداعبة وتشير إلى برّهم به وإقبالهم عليه ، فتكون قصائده فيهم مكافأة لبرّهم ومجازاتهم لإحسانهم .

١– القاضي أبو أميّة إبراهيم بن عصام (ت ٥١٦ هـ)

وهو قاضي قضاة مرسية وفقيهها ، والأكثر قرباً من ابن خفاجة ، فثمّة خمس قصائد ومقطعات وقطعتان نثريّتان موجّهة إليه ، ترجع إحداها إلى ما قبل الخمسمئة للهجرة ، « وقال وكتب بها إلى قاضي القضاة أبي أميّة – وصل الله توفيقه – مكافأة له عن برّه به وإقباله عليه ، وذلك في سنة سبع وتسعين وأربعمئة :

---

١ – الديوان : ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

يَـا نَشْـرَ عَـرْفِ الرَّوْضَـةِ الغَنَّـاءِ وَنَسِـيمَ ظِـلِّ السَّـرْحَةِ الغَيْنَـاءِ[1]

وتتميّز معاني مديح القضاة من معاني المديح عامّة بذكر معاني العدالة والسكينة والتقى:

أَرْسَـى بِـهِ فِي اللهِ طَـوْدُ سَـكِينَةٍ وَعَدَالَـةٍ وَامْتَـدَّ حَبْـلُ رَجَـاءِ

خَلَعَ القَضَـاءُ عَلَيْهِ خِلْعَةَ سُؤْدُدٍ غَنِيَـتْ بِشُـهْرَتِهَا عَـنِ الأَسْمَـاءِ

عَبِقُ الثَّنَـاءِ نَـدي الجَنَـابِ كَأَنَّـهُ رَيْحَانَـةٌ مَطْلُولَـةُ الأَفْيَـاءِ

أَبَـداً لَـهُ فِي اللهِ وَجْـهُ بَشَاشَـةٍ وَوَرَاءَ سِـتْرِ الغَيْـبِ عَـيْنُ ذَكَـاءِ

قَـدْ رَاقَ بَـيْنَ فَصَـاحَةٍ وَصَـبَاحَةٍ سَمْعَ الـمُصِيخِ لَـهُ وَعَـيْنَ الرَّائِـي[2]

ويطيل ابن خفاجة في القصيدة الثانية حتّى تبلغ الخمسين بيتاً أو تزيد بادئاً إيّاها بالحماسة والفتوّة صائغاً قصيدته بالجزالة والقوّة : « وممّا خاطب به الفقيه الأجلّ قاضي القضاة أبا أميّة وصل الله توفيقه :

أَلا مـاءَ إِلَّا فَـوقَ نَصْـلٍ يُجَـرَّدُ وَلا ظِـلَّ إِلَّا تَحـتَ رُمـحٍ يُسَـدَّدُ[3]

وفيها يفخر ابن خفاجة بقطع التنائف والبحار :

طِلابـاً لِأَمْـرٍ يَرْكَـعُ الـرُّمحُ عِنْـدَهُ طَـويلاً وَيَهـوي الـمَشرَفِيُّ فَيَسْـجُدُ

---

١ – الديوان : ٤٠ .

٢ – الديوان : ٤١ .

٣ – الديوان : ١٩٤ .

وَحوماً عَلى ماءٍ تَدَانَى بِهِ المُنى ... وَيَنأَى بِهِ المَسْرَى فَيَدْنُو وَيَبْعُدُ

طَوَيتُ بِهِ تَحتَ الضُّلُوعِ سَريرَةً ... سَيُفصِحُ عَنها السَّيْفُ وَهْوَ مُجَرَّدُ

وَقَد فَلَّهُ طُوْلُ الجِلادِ كَأَنَّما ... يُقَبِّلُ مِنْهُ مَفْرِقَ القِرْنِ أَدْرَدُ

ودُوْنَ اعتِناقِ المَجْدِ كُلُّ ثَنِيَّةٍ ... تُمَدُّ إلى لَمسِ السَّمَاءِ بِهَا يَدُ

عَلَيها وِشَاحٌ لِلعَقيقَةِ مُذْهَبٌ ... يَجُوْلُ وَبُرْدٌ لِلغَمامَةِ أَربَدُ

وَأَخضَرَ عَجَّاجٍ تُدَرِّجُهُ الصَّبَا ... فَتُتْهِمُ فيهِ العَيْنُ طَوراً وَتُنجِدُ

كَأَنَّ فُؤاداً بَينَ جَنبَيهِ راجِفاً ... يَقومُ بِهِ نَأيُ الحَبيبِ وَيَقعُدُ

سَأَركَبُ مِنهُ ظَهرَ أَدهَمَ رَيِّضٍ ... مَروُعٍ بِسَوطِ الريحِ يَجْرِي فَيُزبِدُ

وَأَمضي فَإِمّا بَيتُ نَفْسٍ كَريمَةٍ ... يُهَدُّ وَإِمّا بَيْتُ عِزٍّ يُشَيَّدُ

وَإِنْ غُضَّ يوماً دونَهُ طَرفُ حاسِدٍ ... فَإِنَّهُما شَمْسٌ تُنيرُ وَأَرمَدُ[1]

ثمّ يدلف إلى مديح ابن عصام مؤثراً جانب الأخلاق والدين فيه :

فَإِنَّ لإِبراهِيمَ فَيأَةَ رَأفَةٍ ... تَعودُ بِعَطفِ الحِلمِ وَالعَودُ أَحمَدُ

وَما ابنُ عِصامٍ غَيرَ هَضبَةِ عِصمَةٍ ... تُجيرُ وَسُقْيَا رَحمَةٍ تَتَجَدَّدُ

يَسيرُ بِهِ فِي الحَقِّ رَأيٌ مُسَدَّدٌ ... عَلى مَنهَجِ التَّقْوى وَعَزْمٌ مُؤَيَّدُ

فَما تُرعَدُ الأَسيافُ إِلّا مَهابَةً ... لِمُؤتَمِرٍ فِي اللَّهِ يَنْهَى وَيَنْهَدُ

وَلا تُكسَفُ الأَقمارُ إِلّا حَسادَةً ... لِمُضطَلِعٍ بِالمَجدِ يَسعى فَيَسعَدُ

وَيُذكي وَراءَ اللَّيلِ عَيناً حَديدَةً ... يَنامُ بِها الدينُ احتِراساً وَتَسهَدُ

وَيَحلُمُ لا عَنْ ذِلَّةٍ وَلَرُبَّما ... سَطا أَسَدٌ مِنهُ وَأَطرَقَ أَسْوَدُ

---

١ - الديوان : ١٩٤ ، ١٩٥.

أَمـا وَصِـراطٍ بَـينَ عَينَيـهِ لِلهُـدى　　لَقَـد شَـادَ أَركَـانَ العُـلَا مِنـهُ سَـيِّدُ
وَأَلَّـفَ أَشـتاتَ الفَضـائِلِ أَروَعٌ　　وَقـامَ بِأَعبـاءِ الـمَكارِمِ أَيِّـدُ[1]

وتستمر أمواج المديح الهادرة وتتابع في روعة وأسر شديدين ، ويختم ابن خفاجة قصيدته مستعيناً بعدد من عناصر الطبيعة :

فَيا عارِضاً يَطْوِي السُّرى طَيَّ رَهْبَةٍ　　فَيَستَلُّ سَيْفَ البَرقِ طَوراً وَيَغْمِدُ
وَيَسحَبُ أَذيالَ الرَّبابِ عَلى الرُّبا　　فَيَلقُطُ مِنْ دُرِّ النَّدَى ما يُبَدِّدُ
تَحَمَّلْ إِلى قاضي القُضاةِ تَحِيَّةً　　تَبيتُ بِمَلقَى رَحْلِهِ تَتَرَدَّدُ
تَضُوعُ كَما فاحَت مَعَ الفَجرِ رَوضَةٌ　　وَطابَ بِريحِ المَندَلِ الرَّطبِ مَوقِدُ
وَتَهْوي إِلى لَثمِ البِساطِ وَإِنَّما　　تُصَلّي إِلى رُكنِ المَعالي فَتَسْجُدُ[2]

ويسهب ابن خفاجة كذلك في القصيدة الثالثة، ويرسلها لابن عصام لمّا أصابه خطب يسير:

« وقال ، وكتب بها إلى الفقيه الأجلّ ، قاضي القضاة أبي أميّة – وصل الله توفيقه – وقد وهت رجله بعثرةٍ في وهاد أثناء ليلة ، والتزم الفتحة قبل الرويّ لمعنى اقتضى ذلك:

١ – الديوان : ١٩٦.

٢ – الديوان : ١٩٧.

بِـذَاتِ الـمَكارِمِ ذَاكَ الأَلَـمْ وَفِي اللهِ مَـا نَـابَ تِلْـكَ القَـدَمْ

فَـرَوَّعَ حَـتَّى نُجُـومَ العُـلَا وَضَعْضَعَ حَـتَّى سَمَـاءَ الكَـرَمْ[1]

ويحبّر ابن خفاجة المديح تحبير صنع خبير من الشعراء، إلّا أنّ ما يميّز هذه المدحة الإخوانيّة أنّ ابن خفاجة زاحم ممدوحه شطرها الثاني لينتقل عبر حكم صاغها إلى الحديث عن نفسه مفتخراً بفتّوته ولهوه :

فَمَـا ظُلْمَـةُ الجَهْـلِ إلَّا عَمـىً وَلا نَبْـوَةُ الفَهْـمِ إلَّا صَـمَمْ

وَلا شَـرَفُ الـمَرْءِ غَيْـرُ النُّهَـى وَإلَّا فَحَيْـثُ الوُجُـودُ العَـدَمْ

وَلا العِـزُّ إلّا اعْتَقَـالُ القنـا وَضَرْبُ الطُّلَا وَاعْتِسَافُ الظُّلَمْ

وَجَوْبُ الفِجَاجِ وَخَوْضُ الهِيَاجِ وَشَـقُّ العَجَـاجِ وَوَطْءُ القِمَـمْ

وَحَسْـبُ الـدُّمى وَالعِـدا أَنَّـني رَشَفْتُ اللَّمَى وَخَضَبْتُ الِّلمَمْ

وَأَكْرَهْـتُ صِـدْقَ القنـا وَالظّبـا فَهـذَا تَثَـنَّى وَذَاكَ انْـثَلَمْ

وَأَقْبَلْـتُ وَجْـهَ الـرَّدَى أَدْهَـماً رَمَيْـتُ الصَّـبَاحَ بِـهِ فَـادْلَهَمْ

كَـأَنِّ وَقَـدْ رَثَّ ثَـوْبُ الـدُّجَى رَتَقْـتُ بِـهِ خَرْقَـهُ فَالتَـأَمْ

وَلَيْـلٍ قَرَنْـتُ بِـهِ عَزْمَـةً قَـدَحْتُ الظَّـلامَ بِهَـا فَاضْـطَرَمْ

وَأَوْطَـأْتُ أَحْشَـاءَهُ أَشْـقَراً كَـأَنِّ نفَخْـتُ بِـهِ فِي ضَـرَمْ

كَـأَنِّ وَقَـدْ خَـبَطَ اللَّيْـلُ بِي قَـدَحْتُ بِـهِ شُـعْلَةً فِي فَحَـمْ[2]

---

١ – الديوان : ٤٤.

٢ – الديوان : ٤٦ ، ٤٧ .

بل إنّ ابن خفاجة يبالغ في وصف مجالس لهوه وشربه في مجالي الطبيعة التي يرجع بوساطة عناصرها إلى الثناء والإطراء في صور كونيّة عجيبة:

وَيَــا رُبَّ لَيْــلٍ جَــنِيٍّ الــمُنَى ... شَهِيِّ اللَّمَى مُسْتَطَابِ اللَّمـمْ

لَهَـوْتُ وَدُونَ التِمَـاحِ الصَّبَاحِ ... ظَـلامٌ سَـجَا وَغَمَـامٌ سَـجَمْ

نُمِـدُّ الشَّـرَابَ بِبَـرْدِ الرُّضَـابِ ... وَجُـنْحَ الظَّـلامِ بِسُـودِ اللِّمَـمْ

وَقَـدْ كَـتَمَ اللَّيْـلُ سِـرَّ الهَـوى ... وَنَمَّــتْ بِمَـا اسْـتَوْدَعَتْهُ النِّـيَمْ

وَأَهْدَى إِلَى الرَّوْضِ نَشْرُ الصَّبَا ... سَــلاماً يَلُـفُّ فُـرُوعَ السَّـلَمْ

تَحَمَّلَ مِنْ شُكْرِ قَاضِي القُضَاةِ ... ثَنَــاءً تَجَسَّــمَ طِيبــاً فَــنَمْ

أَرِقْــتُ أَغُــوصُ عَلَــى دُرِّهِ ... وَقَدْ مَاجَ بَحْرُ الدُّجَى وَالتَطَمْ

وَقَـدْ وَقَـفَ اللَّيْـلُ لا يَهْتَـدِي ... فَتَخْطُــو بِــهِ لِلثُّرَيَّــا قَــدَمْ

وَغَـامَ فَـأَجْهَشَ حَـتَّى بَكَـى ... سُـحَيْراً وَأَبْـرَقَ حَـتَّى التَـدَمْ

وَلَمَّــا تَرَنَّمْــتُ أَطْرَبْتُــهُ ... بِمَـا صُغْتُ أُطْرِيكُمُ فابْتَسَمْ[1]

ولمّا عاد ابن عصام إلى القضاء بعد صرفه عنه هنّأه بقصيدة موصولة برسالة نثريّة:« وقال يهنّئ الفقيه الأجلّ قاضي القضاة أبا أميّة – وصل الله توفيقه – بعوده إلى خطّة القضاء بعد صرفه:

١ – الديوان : ٤٧ .

بُشرى كَما أَسفَرَ وَجْهُ الصَّباحْ وَاسْتَشْـرَفَ الرائِـدُ بَرقـاً أَلاحْ
وَارتَجَـزَ الرَّعـدُ يَمُـجُّ النَّـدى رِيّـاً وَيَحـدُو بِمَطايـا الرِّيَـاحْ
فَـدَنَّرَ الزَّهـرُ مُتُـونَ الرُّبـا وَدَرْهَـمَ القَطْـرُ بُطـونَ البِطَـاحْ
هَبَّـتْ رَواحـاً وَهْـيَ نَفّاحَـةٌ فَطـابَ ريحـاً نَشْـرُ ذاكَ الـرَّواحْ
أَفصَـحَ غِرِّيـدٌ بِهـا مُطـرِبٌ يَنْشُـرُ مِـن طِرسٍ قُـدَامَى جَنَـاحْ
فَهَـل تُـرَى أَسمَـعَ غُصـنَ النَّقَـى فَهَـزَّ مِـن عِطفَيـهِ هَـزَّ ارتِيـاحْ[1]

« وكتب مع هذه القصيدة بما نسخته:

إِنَّهُ لا فَرْقَ بَيْنَ الحُسَامِ، وَبَيْنَ القَضِمِ الكَهَامِ، حَتَّى يُبْتَلَى هَذَا وَذَلِكَ، وَتُعْلَمَ حَقِيقَةُ مَا هُنَالِكَ. وَلَيْسَ بِمَعْدُودٍ فِي المِحَنِ، مَا وَاصَلَ بَيْنَ المِنَنِ، وَفَاءَ بِجميلِ الذِّكْرِ، وَجَزيلِ الشُّكْرِ، فَمَا تُخُيِّل مِحْنَةً حَتَى تَحَوَّلَ مِنْحَةً. وَلَعلَّه مَعَ ذَلِكَ قَدْ أَفَادَ تَجرِيباً، واقْتَضَى حُنْكَةً وتَهْذِيباً، بِمَا أَجْرَى مِنَ العِبَرِ وَالغِيَرِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ الأَوِدَّاءِ وَالأَعْدَاءِ»[2].

بل إنّ ابن خفاجة ــ الذي لم يرسل إلى الأمير عليّ بن يوسف بن تاشفين أيّة قصيدة أو رسالة — كتب عن أهل مرسية يشكره على ذلك[3].

---

١ – الديوان : ١٦٥ .

٢ – الديوان : ١٦٧ ، ١٦٨ .

٣ – انظر الديوان : ١٦٩ .

وتوفّيت والدة القاضي ابن عصام فرثاها ابن خفاجة – شعراً ونثراً – بحكم علاقته الوثيقة بالقاضي، واستفاد من الموقف ليثني على خلق القاضي وعدله ونجابته؛ قال :

وَسَطَا بِسَيِّدِةِ النِّسَاءِ وَمَا دَرَى ... أنْ قَدْ سَطا بِقَليلَةِ النُّظَراءِ

بِنَجيبَةٍ جاءَتْ بِأَوحَدَ أَمجَدٍ ... قَد فاتَ طَولاً أَيدِيَ النُّجَباءِ

مُتَقَلِّبٌ في اللَّهِ بَينَ بَشاشَةٍ ... يَندى الهَشيمُ بِها وَبَيْنَ مَضَاءِ

لَدْنٌ كَمَطلُولِ النَّسيمِ وَتارَةً ... خَشِنٌ كَصَدْرِ الصَّعْدَةِ السَّمْراءِ

في مَقعَدٍ وَسِعَ الأَنامَ عَدالَةً ... وَسَما فَزاحَمَ مَنْكِبَ الخَضْرَاءِ

يَستَنزِلُ الأَرْوَى هُناكَ سَكينَةً ... وَيَرُوعُ قَلبَ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ

عَدْلٌ يَظَلُّ بِظِلِّهِ ذِئبُ الغَضَى ... جاراً هُناكَ لِظَبيَةِ الوَعْسَاءِ

وَكَفاهُمَا أَن يَخْلُوَا بِأَرَاكَةٍ ... عِندَ المَقيلِ وَيَشْرَبا مِنْ مَاءِ[1]

وذيّل القصيدة بأبيات يفخر بها بقصيدته .

" وأصحب هذه القصيدة رقعة " أبّنها فيها ودعا لابنها :

« فَسَقَى اللهُ ذَلِكَ الأَصْلَ كُلَّ هَامِرٍ، مِنْ غَمَامِ الرَّحْمَةِ هَامِلٍ، وَوَقَى هَذَا الفَرْعَ كُلَّ عَاصِفٍ، مِنْ رِيَاحِ الحَوادِثِ قَاصِفٍ، وَأَمْتَعَنَا بِكَرِيمِ ظِلِّهِ وَثَمَرَتِهِ، كَمَا أَمْتَعَهُ بِطيبِ مَغْرِسِهِ وَتُرْبَتِهِ »[2] .

---

١ – الديوان : ٢٧٥ .

٢ – الديوان : ٢٧٦ .

إذاً فقد كان ابن خفاجة يتمتّع بظلّ ممدوحه السجسج، وثمرته اليانعة فلا غرو أن يخصّه بكلّ هذه القصائد والرقاع .

ثمّ يدعوه ابن خفاجة إلى الصبر والتصبّر على فداحة هذا الحادث الكارث لأنّه من أهل الشريعة والتعقّل ومن أولي الجزالة والرجاحة والجلالة ، ويشير إلى تأخّره في تقديم واجب العزاء لتوالي المصائب التي تقيّده بإسارها ولا يكاد يفلت من واحدة منها حتّى يعلق بثانية ، وحمّل أحد أصدقائه مهمّة شرح ذلك له :

« وَمَا كَتَبْتُ– أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكَ – أُذَكِّرُ وَأُبَصِّرُ، فَأَنْتَ بِمَا مَنَحَكَ اللهُ أَذْكَى، وَأَحْضَرُ فَهْماً وَأَزْكَى، وَلَكِنِّي لمَّا قَامَ بِي فَادِحُ الرُّزْءِ يُحَرِّكُنِي، ثُمَّ قَعَدَ بِي اسْتِيلاءُ الضَّعْفِ يُمْسِكُنِي، كَتَبْتُ أُجْلِي وَجْهَ العُذْرِ فِي التَّوقُّفِ، وَأَشْرَحُ سَبَبَ التَّأَخُّرِ وَالتَّخلُّفِ. وَمِثْلُكَ– وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَكَ– مَنْ تَصَفَّحَهُ وَتَأَمَّلَهُ، وَأَنْعَمَ عَلَى عَادَتِه فَتَقَبَّلَهُ، وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنِّي لا أَكَادُ أفْلِتُ مِنْ إِسَارِ شَكْوَى، إلَّا رَسَفْتُ فِي قَيْدِ أُخْرَى، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ نُعْمَى، وَتَذْكِرَةٌ مِنْ غَفْلَةٍ وَرُحْمَى. وَقَدْ حَمَّلْتُ مِنْ ذَلِكَ فُلاناً– أَعَزَّهُ اللهُ – مَا سَيَبْسُطُهُ مُجْمِلاً، وَتَعِيهِ مُنَعَّماً مُتَطَوِّلاً »[1] .

---

١ – الديوان : ٢٧٧ .

٢- القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن ميمون (؟)

وعلاقة ابن خفاجة به علاقة ودّ مفرحة تبيّن طبعيهما المرحين قال : « وكان بينه وبين القاضي أبي إسحاقَ بنِ ميمونَ – رحمه الله – مداعبات شعريّة ومخاطبات ، فاستطعمه يوماً فراخ الحمام وعنباً ،فكتب إليه يستدعيه ويصف موضعاً مشرفاً جديداً :

بِمـا حُزْتَـهُ مِـنْ شَـريفِ النِّظـامِ وَأَرهَفتَـهُ مِـن حَواشـي الكَـلامِ
تَعـالَ إِلى الأُنـسِ في مَجلِـسٍ يَهُـزُّ بِـهِ الشَّـيخُ عِطفَـي غُـلامِ
صَـقيلٍ تَخـالُ بِـهِ بَيْضَـةً تَروقُـكَ تَحـتَ جَنـاحِ الظَّـلامِ
رَطيـبِ النَّسـيمِ كَـأَنَّ الصَّـبَا تُجَـرِّرُ فيـهِ ذُيـولَ الغَمـامِ
يَكـادُ سُـروراً بِأَضـيافِهِ يَهَـشُّ فَيَلقـاهُمُ بِالسَّـلامِ
وَعِنـدي لِمِثلِـكَ مِـن خاطِـبٍ بَنـاتُ الـحَمامِ وَأُمُّ الـمُدامِ
بَنـاتٌ تَنَـافَسُ فيهـا الـمُلُوكُ وَتَلهُـو العَـذَارَى بِها في الخِيَـامِ
فَقَدكِدنَ يَلقَطنَ حَبَّ القُلوبِ وَيَشـرَبنَ مـاءَ عُيـونِ الكِـرَامِ
وَصَـفراءُ طَلَّقـتُ بِنتـاً لَهَـا وَمـا لِلْكِـرَامِ وَمَـأْتَى الحَـرَامِ
أَمُـصُّ مَراشِـفَها لَوْعَـةً وَأَذْكُـرُ مـا بَينَنـا مِـن ذِمـامِ
فَعُـجْ تَتَصَـفَّحْ بَـديعَ البَـديعِ وَتَلْمَـحْ سَـلامَةَ شِـعرِ السَّـلامي
وَعِـشْ تَتَثَـنَّى انثِنـاءَ القَضـيبِ سُـرُوراً وَتَسـجَعُ سَـجْعَ الحَمَـامِ
وَتَحْمِـلُ ثَوبَـكَ خَطِّـيَّةٌ وَيَنطِـقُ عَنـكَ لِسـانُ الحُسـامِ[1]

---

١ – الديوان : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

ويردف ابن خفاجة بذكر موقف مشابه آخر مع القاضي ابن ميمون ثانية إذ يستطعمه القاضي في أبيات أرسلها إليه فيراجعه ابن خفاجة ويجاوبه مداعباً :

« وكتب إليه الوزير القاضي المذكور يستطعمه ثانية عنباً ، ومقصده في ذلك التماس الجواب عن شعره ، فجاوبه عنه في رويّه ، والتزم من حرف الياء ما لا يلزم ، فقال :

بَرَعــتَ فَرُعْــتَ فَمَــنْ ذا حَبِيْــبٌ
لَــهُ الوَيــلُ أَم مَــنْ أَبُــو الطَيِّــبِ
وَلَــــوْ جَارَيَــــاكَ إِلى غايَــــةٍ
لَفُــزتَ وَكَانَــا مِــنَ الخُيَّــبِ
أَجَــدْتَ وَجُــدْتَ فَمِــنْ رَوْضَــةٍ
تَــنِمُّ وَمِــنْ وابِــلٍ صَــيِّبِ
وَحَســبِيَ عُلْيَــاكَ مِــن دَوْحَــةٍ
وَبِــرُّكَ مِــنْ ثَمَــرٍ طَيِّــبِ
وَعِنــدي فَهَــلَ ثَمَّ مِــنْ رَغبَــةٍ
لَــكَ البِكْــرُ في خُلُــقِ الثَّيِّــبِ[1]

١ – الديوان : ٢٤٦ .

٣– القاضي أبو عبد الله محمّد بن حمدين (ت ٥٠٨ هـ)

أرسل ابن خفاجة مدحته الجزلة الرائعة إلى القاضي ابن حمدين يسأله التوسّط لأحد من أبناء مدينته ليحظى بعمل ، ممّا يدلّ على الحالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة الصعبة التي كانت في ذلك الوقت حتّى إنّ الإنسان ليحتاج إلى كتاب تزكية ليحصل على عمل ، وقد تجلّى ذلك في ظهور ما يسمّى بالزُّرْزُوريّات :« وقال ، وكتب بها إلى قاضي الجماعة بقرطبة ، أبي عبد الله بن حمدينَ ، يسأله الشفاعة لصديق من أهل الجزيرة :

جَـرِّرْ مُـلاءَةَ كُـلِّ يَـومٍ شـامِسِ وَاسْحَبْ ذُؤابَةَ كُلِّ لَيْلٍ دامِسِ

...

وَسَلِ الغِنى مِنْ ظَهْرِ طِرْفٍ أَشْقَرٍ يَطَأُ القَتيلَ وَصَدرِ رُمحٍ داعِسِ

وَازْحَمْ بِذاتِكَ شِدْقَ لَيثٍ ضاغِمٍ طَلَبَ الثَّراءَ وَنابَ صِلٍّ ناهِسِ

وَارغَبْ بِنَفسِكَ عَن مَقامَةِ فاضِلٍ قَد قَامَ يَمْثُلُ في خَصاصَةِ بائِسِ

فَـالحُرُّ مُفتَقِـرٌ إِلى عِـزِّ الغِـنى فَقْـرَ الحُسـامِ إِلى يَمـينِ الفـارِسِ

وَإِذا عَثَـرْتَ وَلا عَثَـرْتَ بِحـادِثٍ فَرَكِبتَ مِنهُ ظَهرَ صَعبٍ شامِسِ

فَـافزَع إِلى قاضـي الجَماعَـةِ رَهبَـةً تَضَـعِ العِنـانَ بِخَيرِ راحَـةِ سائِسِ

وَاستَسقِ مِنهُ إِن ظَمِئتَ غَمامَةً يَخضَـرُّ عَنهـا كُـلُّ عـودٍ يـابِسِ[1]

ويدلف بعد ذلك إلى مدح بني حمدين ثمّ يرجع إلى مديح قاضي الجماعة:

---

١ – الديوان : ٢٢٨ .

خَلَعَ الثَّنَاءُ عَلَيهِ أَكرَمَ خِلْعَةٍ يُزْهَى بِها في الدَّسْتِ عِطفُ اللَّابِسِ

سَلِسُ الكَلامِ عَلى السَّمَاعِ كَأَنَّهُ سِنَةٌ تَرَقرَقُ بَينَ جَفنَيْ ناعِسِ

ما إِن يُمازُ مِنَ الشِّهَابِ طَلاقَةً حَتَّى تُمَدَّ إِلَيهِ كَفُّ القَابِسِ[1]

وفي نهاية هذه القصيدة الفائقة يحثّ ابن خفاجة القاضي ابن حمدين على القيام بتلك الوساطة لذلك الغريب :

فَانهَضْ أَبا عَبْدِ الإِلَهِ بِآمِلٍ قَد جابَ دونَكَ كُلَّ خَرقٍ طامِسِ

عاجَ الرَّجاءُ عَلى عُلاكَ بِهِ فَلَمْ يَعُجِ المَطِيَّ بِرَسْمِ رَبْعٍ دارِسِ

فَاشفَعْ لِمُغتَرِبٍ رَجاكَ عَلى النَّوَى يَمدُدْ إِلى الخَضراءِ راحَةَ لامِسِ

وَامدُدْ إِلَيهِ بِكَفِّ جِدٍّ قائِمٍ يَجذِبْ بِهِ مِن ضَبْعِ جَدٍّ جالِسِ

فَلَرُبَّ يَومٍ قَد زَفَفْتَ بِهِ المُنى وَمَحَوتَ فيهِ سَوادَ ظَنِّ البائِسِ

وَبَقِيْتَ تَخْتَلِبُ النُّفُوسَ نَفاسَةً وَسِيَاسَةً وَوُقيْتَ عَيْنَ النَّافِسِ[2]

٤- الأديب عبد الحقّ بن خلف الشاطبي ابن الجنّان (ت ٥٣٩ هـ)

فقد ذكر كلّ من الحافظ الذهبيّ (ت ٧٤٨ هـ) وصلاح الدين الصفديّ[3] أنّه صحب ابن خفاجة ، ولا نعرف عن صحبتهما شيئاً أكثر من هذا .

---

١ – الديوان : ٢٢٩ .

٢ – الديوان : ٢٣٠ .

٣ – تاريخ الإسلام : ٥٠٥/٣٦ – الوافي بالوفيات : ٤١/١٨ .

٥- الفقيه أبو بكر محمّد بن مُفَوِّز (ت ٥٠٥ هـ)

ويبدو أنّه كان صديقاً لابن خفاجة عندما كان في شاطبة ثمّ انتقل إلى الحضرة في غرناطة ، ولابن خفاجة قطعتان شعريّتان فيه ، أشار في الأولى منهما إلى انتقال ابن مفوِّز الى الحضرة وابتعاده عنه : (وكتب إلى الفقيه الفاضل أبي بَكْرِ بْنِ مُفَوِّزٍ - رحمه الله - ، وكانت بينهما أذمّة :

أَورَى بِأُفقِـكَ بـارِقٌ يَتَـأَلَّقُ ... وَسَقَى دِيارَكَ وابِلٌ يَتَدَفَّقُ

وَتَحَمَّلا عَنّي إِلَيكَ تَحِيَّةً ... تَنْدَى عَلى نَفَسِ القَبُولِ وَتَعْبَقُ

فكَأَنَّ مَاءَ الوَرْدِ عنْهَا يَنْهَمِي ... عِطْراً ومِسْكَ الهِنْدِ فِيْها يُفْتَقُ

وَوُقيتُ فيكَ مِنَ اللَّيالي إِنَّها ... غِربانُ بَينٍ بِالتَفَرُّقِ تَنْعَقُ

فَلَقَد نَأى ما بَينَنَا فَمُغَرِّبٌ ... مُستَوطِنٌ ظَهرَ النَّوَى وَمُشَرِّقُ

وَلَئِن سَلَوتَ وَما إِخالُكَ ناسِياً ... كَرَمَ الإِخاءِ فَإِنَّني أَتَشَوَّقُ

وَيَهيجُني نَفَسُ النَّسِيمِ إِذا سَرى ... وَيَشُوقُني فيكَ الحَمامُ الأَورَقُ

فَإِذا تَطَلَّعَ مِن سَمائِكَ بارِقٌ ... أَو طافَ زَورٌ مِن خَيالِكَ يَطرُقُ

خَفَقَتْ لِذِكرِكَ أَضْلُعي فَكَأَنَّ لِي ... في كُلِّ جانِحَةٍ جَناحاً يَخفِقُ

وَتَمَلَّكَتْنِي لَوعَةٌ مَشْبُوبَةٌ ... شَوقاً إِلَيكَ وَعَبرَةٌ تَتَرَقْرَقُ[١]

وطلب ابن خفاجة في القطعة الثانية من ابن مفوّز أموراً عرضت له بالحضرة، « وكتب إلى الفقيه أبي بكر بن مفوّز - رحمه الله - يستنهضه

١ - الديوان : ٢١٢ ، ٢١٣ .

في أمر عرض له بالحضرة :

أَهُـــزُّكَ لا أَنّي إِخالُـــكَ نَابِيَـــا
وَإِن كُنْـتَ مَطـرورَ الغِـرارِ يَمانِيـا

وَلَكِـنَّ هَـزَّ السَّيفِ وَالسَّوطِ شيمَتي
وَإِن زُعـتُ سَـبّاقاً وَنبَّهـتُ ماضِـيا

وَمـا هَـزَّ أَعطـافَ الكَـريمِ إِلى العُـلا
كَـأَروَعَ شَـيْحَانٍ يَهُـزُّ العَوالِيـا

إِذا السَّيفُ لَم يَشـرَبْ بِـهِ الـدَّمَ قانِياً
عَبيطـاً أَبى أَن يَشـرَبَ المـاءَ صـادِيا

وَقَـد نُطـتُ آمـالي بِـأَبلَجَ واضِـحٍ
تَجَشَّـمَها أَمضـى مِـنَ السَّيفِ عارِيـا

وَأَكـرَمَ آثـاراً مِـنَ الـمُزنِ غادِيـاً
وَأَشـهَرَ أَوضـاحاً مِـنَ البَـدرِ سـارِيا

فَمـا الغُصُـنُ الـمَطْلولُ أَشـرَفَ باسِماً
وَمـادَ أُصَـيلاناً عَلـى المـاءِ صـافِيا

بِـأَليَنَ أَعطافـاً وَأَحسَـنَ هَشَّـةً
وَأعْطَـرَ أَخلاقـاً وَأَنـدى حَواشِـيا[1]

١ - الديوان : ١٧٦، ١٧٧ .

وقد يظنّ ظانٌّ أنّ ابن خفاجة كان نفعيّاً يصادق ويمدح من كانت له مصلحة معه فحسب ، إذ كثيراً ما وجدناه ينصّ على ذكر حاجته من ممدوحه في التقديم للقصيدة قبل إيرادها ؛ كقوله يمدح « صاحب مدينة قرطبة لأمر عرض له بها »[1]، وقوله يستنهض أحد الفقهاء المقرّبين من البلاط « في أمر عرض له بالحضرة »[2] ، وقوله « يمدح ، ويسأل حاجة خفيفة »[3] .

ويعاتب صديقه إذا مطل في تحقيق مطلبه كقوله :

« وعلق بجانب بعض الإخوان ، الأعيان بجذمِ حاجة عرضت له عند السلطان، فطال مطله ، والتوى مطلبه ، فقال يعاتبه »[4].

ثمّ ينتفي المدح وتنتهي الصداقة بعد انتفاء المصلحة وانقضاء الحاجة، أو عدم قدرة ذلك الصديق على تحقيقها، وثمّة مدحة قدّم لها بما يوحي بذلك إذ لم يرسلها ابن خفاجة إلى صاحبها لتحقّق مطلوبه منها :

« وقال يخاطب أبا مدافع العربيّ – رحمه الله – متشفّعاً به ، واتّفق أن تسنّى مطلوبه فلم يكتب بها إليه »[5] .

---

١ – الديوان : ١٤٢ .

٢ – الديوان : ١٧٦ .

٣ – الديوان : ٢٠٧ .

٤ – الديوان : ٧٢ .

٥ – الديوان : ٩٥ .

ولكنّ الأمر عكس ذلك فابن خفاجة يقدّر الصداقة تقديراً كبيراً إلى درجة الإخاء ، وهو يرثي صديقه الوزير ابن ربيعة بعد موته بثلاث قصائد من عيون الرثاء في الأدب العربي في حين لا نجد مدحة واحدة فيه في حياته ، وهو يتذكّر أستاذه وصديقه ابن صواب ويصل حبله به حتّى بعد أن رحل إلى المغرب ، وتفرّقا مدّة طويلة وبعد أن تجاوز الستّين .

كما أنّ مصالحه لم تكن في الوصول إلى المراتب الوظيفيّة العالية كالوزارة ورئاسة ديوان الإنشاء ، وليست في استجلاب كثير من الأموال ومزيد من الضياع بل في المحافظة على ما لديه منها ، لأنّ ابن خفاجة كان راغباً عن أمور السياسة ، وكان قنوعاً كريم النفس ميسور الحال ، وكان يرى نفسه من الجلّة والأعيان ؛ ويجب أن يعامل على هذا الأساس من التقدير والرعاية والحريّة والمكارمة ، وهو منذ القصيدة الأولى التي أرسلها إلى الأمير تميم تشكّر في التقديم لها الأمير ابن عائشة « على رعاية جانبه وتسنّي أوطاره عنده ومآربه »[1] ، وبيّن هذه الأوطار والمآرب في التقديم للقصيدة الثانية وتشكّره لابن عائشة « عن برّه به وإجماله معه، وحمله في أمر ضياعه على أتمّ الحريّة وأعمّ المزيّة »[2] ، ومدح الوزير المشرف ابن عامر لأنّه كان « مجملاً معه ، مراعياً له فيما كان يختصّ به بضيعته ببلنسية »[3] .

---

١ – الديوان : ٢٣ .

٢ – الديوان : ٣٣ .

٣ – الديوان : ٤٨ .

فإن لم يحقق الأمير ذلك فإنّه يطلبه ويكرّر طلبه ، فقد توالت كتب ابن خفاجة على الأمير إبراهيم « يحمله فيها على الاهتبال بجهته ومراعاة جانبه ، وقضاء رغائبه ومآربه » [1] .

ولمّا لم يحقّق الأمير له ذلك فإنّه أرسل إليه رسالة عتب شديد استنجز فيها ميعاداً تكرّر في جهته « يحمله في جميع شؤونه على الأفضل والأجمل »[2] .

ولمّا ولي الأمير تميم مرسية و« تعسّف في أمر الحريّة وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة » أرسل إليه ابن خفاجة قصيدة عتب شديد ، أسفرت كما زعم ابن خفاجة عن « رعايته في جميع أحواله وحمله على أتمّ البرّ فيما حقّ من أحواله »[3] ،وكذلك فعلت الأميرة الحرّة مريم زوج الأمير تميم « فما وقفت على ما كتب به حتّى نفذ العهد بحملانه على أتمّ وجوه البرّ والمحافظة والمراعاة و المكارمة»[4] .

فهل كثير على شاعر مثل ابن خفاجة أن يعامل بمثل هذا ، ولكن لمّا صارت حاجاته البسيطة آمالاً بعيدة اضطرّ إلى مديح الأمراء والوزراء والتصريح بهذه المطالب .

---

١ – الديوان : ١١٦ .

٢ – الديوان : ٢٩٣ .

٣ – الديوان : ٩١ .

٤ – الديوان : ٩٦ .

كما أنّ بعض أمداحه – شعراً و نثراً – كانت لتحقيق مصالح أهل بلده ، كتشكّره لأمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين لإعادة القاضي ابن عصام إلى منصبه [1] ، وكمديحه للقاضي ابن حمدين والتوسّط لصديق له من أهل جزيرته ، وكتشفّعه لكثير من الناس وتوسّطه لهم [2] .

لذلك فإنّني أرى أنّ علاقة ابن خفاجة مع الخاصّة والعامّة علاقة طبيعيّة طيّبة فلا يقصّر في خدمة الناس ولا يترفّع عنهم ، بل على العكس من ذلك يبذل جاهه في سبيلهم ، وهو ليّن الجانب، دمث الطباع ، يميل إلى المرح والمداعبة ، « وقال يستجفي ويستخشن بعض من كان يذهب إلى الوقار على العقار :

لا ما لَدَيكَ حَلاوَهْ ولا عَلَيكَ طَلاوَهْ

طايِبْ وَلاعِبْ وَداعِبْ وَدَع سَجايا البَداوَهْ

فَإِنَّ أَوحَشَ شَيْءٍ جَسَاوَةٌ في غَبَاوَهْ [3]

بيد أنّ حياته الخاصّة ، وإبداعه الفائق ، ومكانته السامية قد جعلت له حاسدين ومبغضين كاشحين ، وقد أشار إلى ذلك في قصيدة أرسلها إلى صديقه الأديب ابن عائشة :

---

١ – الديوان : ١٦٩ .

٢ – الديوان : ٢٢٨ و انظر : ٣٢٠ – ٣٢١ – ٣٢٢ – ٣٢٤ .

٣ – الديوان : ١٦٥ .

وَدَفَعتُ في صَدرِ الرَّدى عَن مَطْلَبٍ بَيْـني وَبَـيْنَ الـدَّهْرِ فِيْـهِ قِـرَاعُ
وَقَبَضتُ ذَيلي رَغْبَةً عَن مَعشَرٍ عُـوْجِ الطِّبَـاعِ كَـأَنّهُم أَضْـلَاعُ
جَـارِينَ في شَـوْطِ العِنـادِ كَـأَنَّهُمْ سَـيْلٌ تَلاطَـمَ مَوْجُـهُ دَفَّـاعُ
يَرمـونَ أَعطـافي بِنَظْـرَةِ إِحْنَـةٍ وَقَـدَتْ كَما تُـذْكي العُيونَ سِبَاعُ
أَفرَغتُ مِن كَلِمِي عَلى أَكْبَادِهِم قَطْـراً لَـهُ أَسْمَـاعُهُم أَقْمَـاعُ[1]

وفي مقطوعة أخرى يتحدّث عن منافس حاسد بعينه شمت به لوعكة أصابته فردّ عليه ردّاً قاسياً : « وقال وهو موعوك ، في لزوم ما لا يلزم ، يشير إلى منافس له:

أَنىّ تُطـاوِلُني وَدُوني بَسْـطَتا
جِـدٍّ يُسـاعِدُني وَجَـدٍّ يُسْـعِدُ
هـا قَـد حَلَلـتُ وَلِلتَّقَلْقُـلِ غايَـةٌ
في حَيثُ يُشْرِفُ بي ويَشْرُفُ مَقْعَدُ
طُلتُ السِّماكَ فَهَل سَمِعتَ بِحيلَةٍ
تَرقى بِها نَحوَ السِّماكِ وَتَصْعَدُ
الـزَمْ ثَـراكَ وَغُـضَّ طَرفَـكَ ذِلَّـةً
فَمَكـانَتي أَنْـأَى عَلَيـكَ وَأَبْعَـدُ

---

١ – الديوان : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وَلَـئِن طَرِبـتَ وَقَـد عَـرَتني وَعكَـةٌ
وَاللَّيـــثُ يُـــورَدُ وَالــــمُهَنَّدُ يُرْعَـــدُ

فَقَـدِ اسْـتَطلتُ عَلَـى الكَـلامِ بِمِقْـوَلٍ
بِـكَ مِـنْ ذَلاقَتِـهِ الـمُقِيمُ الـمُقْعِدُ[1]

وابن خفاجة لا يحب النقد لشخصه وسلوكه ولأدبه شعره ونثره ، وقد سبق أن رأيناه في عتابه لابن خاقان يلوّح له بالوعد والوعيد ، والودّ والتهديد، لتندره بأخبار فتوّته وصبوته، أمّا نقد أدبه فقد كان يثيره كثيراً، حتّى إنّه خصّص أكثر من نصف خطبة ديوانه لذلك، وأكثر من الاستفهام عمّا يريد هذا الناقد الجاهل وأطال في ذمّه ، عموماً وخصوصاً وأكثر من إيراد شعره الذي صَدَرَ في صَدْر عمره ، ثقة بإغضاء أهل الفضل :

وَإِنِّي اسْتَرْسَلْتُ فِي إِثْبَاتِ مَا صَدَرَ عَنِّي مِنْ ذَلِكَ فِي صَدْرِ عُمْرِي، وَمُبْتَدَأِ أَمْرِي، اسْتِرْسَالَ ثِقَةٍ بِإِغْضَاءِ أَهْلِ الفَضْلِ، وَحَمَلَةِ السِّيَادَةِ وَالنُّبْلِ. وَلَمْ أَحْتَفِلْ بِنَقْدِ أَقْوَامٍ، فِي مَسَالِيخِ أَنْعَامٍ، يُرَاؤُونَ النَّاسَ ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلّا قَلِيلاً﴾ وَإِنَّ جَمِيعَ الكَلَامِ- مِنْ مُرْتَجَلٍ بَدِيهِيٍّ، وَمُنَقَّحٍ حَوْلِيّ، مُتَقَدِّماً كَانَ سَابَقاً، أَوْ تَالِياً لاحِقاً – مُسْتَهْدِفٌ لِمَطْعَنِ طَاعِنٍ، إِمَّا بِوَجْهٍ صَحِيحٍ يُعْقَلُ وَيُقْبَلُ، وإِمَّا لِـخُبْثِ سَرِيرَةٍ، وَضَعْفِ بَصِيرَةٍ، وَخُطْوَةٍ فِي الإِدْرَاكِ قَصِيرَةٍ.

---

١ – الديوان : ١٤٥ ، ١٤٦.

وَلِوُجُودِ هَذَيْنِ القِسْمَيْنِ الأَخِيرَيْنِ، أَوْ وُجُودِ أَحَدِهِمَا فِي أَحَدِ أَهْلِ هَذَا العَصْرِ، بِذلِكَ المِصْرِ، مَا بَلَغَنَا أَنَّهُ لا يَرَى لأَحَدٍ مِنْ حَاكَةِ الشِّعْرِ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ، وَقَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِ، إلَّا أَنْ يَتَجَزَّلَ، مَدَحَ أَوْ تَغَزَّلَ، وجَدَّ أَوْ هَزَلَ، وَيَسْتَهْجِنُ فِي بَابِ الغَزَلِ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ الأَنِيقَةَ، وَيَسْتَبْرِدُ تِلْكَ الألفَاظَ المُرْهَفَةَ الرَّقِيقَةَ »[1].

ثمّ استفهم ابن خفاجة عمّا ينعاه هذا الناقد هل هو اتّباعه طريقة الصوريّ (ت ٤١٩ هـ) أم مسلك الشريف الرضيّ (ت ٤٠٦ هـ) أم نهج مهيار الديلميّ (ت ٤٢٨ هـ) أم أسلوب المتنبّي (ت ٣٥٤ هـ) ، ثمّ اختبر هذا الناقد عمليّاً ليرميه بالشذوذ والضعف ، وأنّه ليس من أرباب هذا الشأن :

« وَبَعْدُ، فَلْنَقُلْ لِهذَا النَّاعِي عَلَيْنَا مَا ذَكَرْنَاهُ: جِئْنَا بِمَقْطُوعَيْنِ، أَوْ ثَلاثَةٍ فِي هذَا الأُسْلُوبِ السَّخِيفِ، وَاللَّفْظِ المُشْتَرَكِ الضَّعِيفِ، بِزَعْمِكَ. فَإِنْ تَشَبَّهَ بِمَنْ ذَكَرْنَاهُنّ وَاسْتَقَلَّ بِمَا سِمْنَاهُ، ثُمَّ عَدَلَ عَنْهُ يَخْتَارُ مَا سِوَاهُ، عُدَّ مِمَّنِ انْفَرَدَ بِرَأْيٍ فَائِلٍ يَرَاهُ. وَلا مَحَالَةَ أَنَّ الشُّذُوذَ عَنِ الإجْمَاعِ، لَشُذُوذٌ فِي الطِّبَاعِ، أَوِ اسْتِيَلاءُ وَهْنٍ، قَدْ غَلَبَ عَلَى ذِهْنٍ. فَإِنْ كَانَ لَيْسَ مِمَّنْ يَرْكُضُ فِي ذَلِكَ المَيْدَانِ، وَلا يَجْرِي فِي هذا العِنَانِ، فَلْنَقُلْ لَهُ:

١ – الديوان : ١٠ ، ١١ ، ١٢.

أَيُّهَـــا العَائِـــبُ سَـــلْمَى أَنْـــتَ عِنْـــدِي كثُعَالَـــهْ

رَامَ عُنْقُـــــــوداً فَلَمَّـــــــا أَبْصَـــرَ العُنْقُـــودَ طَالَـــهْ

قَـالَ هـذَا حَـامِضٌ لَمْـ ـــــمَا رَأَى أَلَّا يَنَالَـــهْ»[1]

ولا يكتفي ابن خفاجة بكلّ هذا حتّى يستشهد برأي الكاتب الوزير ابن المرخيّ في شعره –كما سلف– من دون بيان هذا الرأي المنصف ، ثمّ يعود إلى ذلك الناقد المزجيّ البضاعة الحاسد – من دون أن يسمّيه– ليكيل له المعائب كيلاً :

« وَهَلْ يَغُضُّ وَيَتَنَقَّصُ، وَيَبْحَثُ عَنِ العَثَرَاتِ وَيَفْحَصُ، إِلَّا مُزْجَى البِضَاعَةِ، فِي تِلْكَ الصِّناعَة، مُتَخَلِّفٌ، فِي تِلْكَ البَابَةِ مُتَكَلَّفٌ، مُسِفٌّ، فِي تِلْكَ المِهْنَةِ مُسَفْسِفٌ، قَدْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِفُسُولِ الفَهَمِ، وَسُفُولِ القَدَمِ، وَعَجَزَ عَنْ تَسَنُّمِ تِلْكَ الـمَرْقَبَةِ، وَإِحْرَازِ تِلْكَ الـمَنْقَبَةِ، فَهُوَ يَلْقُطُ، مَا لا يَسْقُطُ، بَيْنَ سُوءِ طَوِيَّةٍ وَاعْتِقَادٍ، وَتَأَخُّر فِي بَابِ الانْتِقَادِ، وَرَجَاءَ تَسَاوِي الأَقْدَامِ فِي الـمَرَاتِبِ، وَمُطاوَلَـةِ الرُّؤُوسِ بِالـمَنَاكِبِ، وَالنَّاسُ أَحَدُّ أَبْصَاراً، وَالحَقُّ أَعَزُّ أَنْصَاراً، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَ »[2].

---

١ – الديوان : ١٨.

٢ – الديوان : ١٩.

٤ – حياته بعد انقضاء الشباب :

مضى شباب ابن خفاجة مسرعاً وانقضى ما فيه من أوطار ، وكأنّه حلم جميل يشدّ جفونه عليه ولا يريد أن يصحو منه ، وكثيراً ما يصف سرعة انقضائه ، كقوله:

« وقال يصف سرعة ذهاب أيّام الشباب :

أَلا مَضَــى عَصْــرُ الصِّــبَا فَانْقَضَــى
وَحَبَّـــذَا عَصْـــرُ شَـــبَابٍ مَضَـــى
بِـــتُّ بِـــهِ تحْـــتَ ظِـــلالِ الـــمُنَى
مُجْتَنِيـــاً مِنْـــهُ ثِمَـــارَ الرِّضَـــا
ثُمَّ مَضَـــى أَحْسَـــبُهُ كَوْكَبـــاً
مُنْكَـــدِراً أَوْ بَارِقـــاً مُومِضَـــا
فَمَـــا تَصَـــدَّى يَنْتَحِـــي مُقْـــبِلاً
حَـــتَّى تَـــوَلَّى يَنْثَـــني مُعْرِضَـــا
وَمَـــرَّ لا يُلْـــوِي وَمَـــا ضَـــرَّ مَـــنْ
أَعْـــرَضَ لَـــوْ سَـــلَّمَ أَوْ عَرَّضَـــا
وَإِنَّمَـــا ضَـــاءَ بِلَيْـــلِ الصِّـــبَا
صُـــبْحُ مَشِـــيبٍ سَـــاءَنِي أَنْ أَضَـــا
لاحَ فَفِـــي عيْـــنَيَّ نُـــورُ الهُـــدَى
مِنْـــهُ وَفِي قَلْـــبِيَ نَـــارُ الغَضَـــى

وَابْـيَضَّ مِـنْ فَـوْدِي بِـهِ أَسْـوَدٌ
كُنْـتُ أَرَى اللَّيْـلَ بِـهِ أَبْيَضَـا[1]

وأمّا الشيب فلابن خفاجة معه حديث ذو شجون ، ولكنْ للشيبة الأولى شجن طويل: « وقال لأوّل شيبة طلعت في عذاره ، فأفصحت بوعظه وإنذاره :

أَرِقـتُ عَلـى الصِّبا لِطُلـوعِ نَجـمٍ ... أُسَمّيـهِ مُسـامَحَةً مَشـيبا
كَفـاني رُزءَ نَفـسٍ أَن تَبَـدَّى ... وَأَعظَـمُ مِنـهُ رُزءاً أَن يَغيبـا
وَلَـولا أَن يَشُـقَّ عَلـى الـمَعَالِي ... لَلاقَيـتُ الفَتـاةَ بِـهِ خَضـيبا
فَلَـم أَعـدَم هُنـاكَ بِـهِ شَـفيعاً ... إِلى أَمَـلٍ وَلَم أَبـرَح حَبيبـا
غَريبَـةُ شَـيبِ فَـودٍ إِن تَمَـادَتْ ... حَيـاتي آلَ أَسـوَدُهُ غَريبـا
شَـنِئتُ لِمُجْتَلاهـا النَّـوْرَ حَـتّى ... شَـنِئتُ لِمُجتَلـى النَّـوْرِ القَضيبا
وَعِفـتُ كَراهَـةً للشَّـيبِ شَـيئاً ... يَكـونُ لَـهُ شَـبيهاً أَو نَسـيبا
وَأَيَّـةُ شَـيبَةٍ إِلّا نَـذيرٌ ... فَهَـل طَـرَبٌ وَقَـد مَثَلَـت خَطيبـا
وَنُؤْتُ بِحَملِها مِن عِبْءِ خَطبٍ ... كَـأَنّي قَـد حَمَلـتُ بِهـا عَسـيبا
وَمِلتُ على الشَّبابِ عَنِ التَّصابي ... وَكَيـفَ بِـهِ وَقَـد طَلَعَـتْ رَقيبـا
وَقُلـتُ الشَّـيبُ لِلفِتيـانِ عَيـبٌ ... كَفـى الأَحـداثَ شَـيْناً أَن تَشيبا
فَـلا تَطمَـح إِلى فَـودي غُلامـاً ... غَريـراً واغْشَـني كَهْـلاً أَريبـا
فَأَحسَـنُ مِـن حَمـامِ الشَّـيبِ غَـنَّى ... غُـرابُ شَـبيبَةٍ أَلِـفَ النَّعيبـا

---

١ – الديوان : ٨٥.

يَطيــبُ بِنَفسِــهِ عِنــدَ الغَــواني فَيَغـنى عَـن فَتيـتِ المِسْـكِ طيبـا
وَتَرعـى مِنـهُ عَـينُ الظَّـبيِ شِـبْهاً لَهَــا يَسْــتأْلِفُ الظَّــبيَ الرَّبيبــا
وَبَــينَ العَــينِ وَالشَّــعرِ اشْــتِراكٌ كَــريمٌ يَقتَضــي نَسَــباً قَريبــا[1]

وجاءت الكهولة تثقله بكلكلها ، وتدعوه إلى أن يرعوي ، ولكنّ ذكريات الشباب وما فيه من لهو ومرح أشدّ تأثيراً منها ، وسريعاً ما تطلّ لتطغى على داعي التعقّل : « وقال عندما اكتهل :

أَلا دَعَــانِي اليَــومَ دَاعِــي النُّهَــى
وَقَوَّمَــتْ قِــدْحِيَ أَيْــدِي الخُطــوبْ
وَكُنْــتُ خَفَّــاقَ جَنــاحِ الهَــوَى
جَــرَّارَ أَذيــالِ التَّصَــابِي سَــحُوبْ
فَــرُبَّ لَيْــلٍ أَقمَــرٍ بِتُّــهُ
مُهتَــزَّ أَعْطَــافِ الأَمَــانِي طَــرُوبْ
هَصَــرتُ فيــهِ مِــن غُصُــونِ الصِّــبَا
وَبِــتُّ أَجْــنِي مِــنْ ثِمَــارِ الــذُّنُوبْ
وَإِنَّ سِــيَّيْنِ صَــباحُ الــمُنى
إِذَا انْطَـوَى عَنْـكَ وَلَيـلُ الكُـرُوبْ[2]

---

١ – الديوان : ١٢٧ ، ١٢٨.

٢ – الديوان : ٢١٣.

وجاءت **الخمسون** وذرّت الأمراض بقرنيها تنهش جسمه الناحل ، وإن كان الأمل في الشفاء منها كبيراً في هذه المرحلة : « وقال في أثناء علّة ملتزماً ما لا يلزم من حرف الحاء :

جَهِلْتُ وَما ألقَى عَليْماً وَإِنَّمَا
مَرِهْتُ وَأَعيَا أَنْ أَمُرَّ بِكاحِلِ

فَسِرْتُ وَقَدْ أَجدَبْتُ أَرْتَادُ مَرتَعاً
فَلَمْ تَطَأِ الوَجْنَاءُ بِي غَيْرَ مَاحِلِ

وَخُيِّلَ لِي أَنِّي أُقِيمُ وَإِنَّمَا
أَسِيرُ وَإِنْ لَمْ أَحتَقِبْ زَادَ رَاحِلِ

فَقُلْتُ وَقَدْ خَلَّفْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً
وَرَائِي لَقَدْ أَعْجَلْتُ طَيَّ المَرَاحِلِ

أَنُوءُ بِعِبءِ السُّقْمِ بَيْنَ حُشاشَةٍ
تَجُودُ وَجِسْمٍ قَدْ تُعُرِّقَ نَاحِلِ

وَأَسبَحُ في بَحْرِ الشَّكَاةِ لَعَلَّنِي
سَأَعْلَقُ يَوْماً مِنْ نَجَاةٍ بِسَاحِلِ[1]

فجانب التفاؤل في هذه المرحلة أوسع من الجانب الآخر ، وإقباله على الحياة والمرح مايزال قويّاً ، لذلك نراه يتغزّل بأمة صغيرة له وعمره إحدى وخمسون سنة : « وقال يتغزّل في أمة له صغيرة تسمّى عفراء :

---

١ - الديوان : ٢٦٢.

أَرِقْـتُ لِـذِكْرَى مَنْـزِلٍ شَـطَّ نَـازِحٍ كَلِفْـتُ بِأَنْفَـاسِ الشَّـمالِ لَـهُ شَـمَّا

فَقُلْـتُ لِبَـرْقٍ يَصْـدَعُ اللَّيْـلَ لامِـحٍ أَلا حَـيِّ عَـنِّي ذَلِـكَ الرَّبْـعَ وَالرَّسْـمَا

وَأَبْلِـغْ قَطِـينَ الـدَّارِ أَنِّي أُحِـبُّهُمْ عَلَى النَّأْيِ حُبّاً لَوْ جَزَوْنِي بِهِ جَمَّا

وَأَقْـرِئْ عُفَيْـرَاءَ السَّـلامَ وَقُـلْ لَهَـا أَلا هَـلْ أَرَى ذَاكَ السُّـهَا قَمَـراً تَـمَّا

وَهَـلْ يَتَثَـنَّى ذَلِـكَ الغُصْـنُ نَضْـرَةً بِجِزْعِـي وَهَـلْ أَلـوِي مَعَاطِفَـهُ ضَـمَّا

وَمَنْ لِي بِذَاكَ الخِشْف مِنْ مُتَقَنَّصٍ فَأَكْلَـهُ عَضّـاً وَأَشْـرَبَهُ لَثْمَـا

وَدُونَ الصِّبَا إِحْدَى وَخَمْسُونَ حِجَّةً كَأَنِّي وَقَدْ وَلَّـتْ أُرِيتُ بِهَا حُلْمَـا

فَيَالَيْتَ طَيْرَ السَّعْدِ يَسْنَحُ بِالمُنَى فَأَحْظَى بِهَا سَهْماً وَأَبْأَى بِهَا قِسْما

وَيَـا لَيْتَـنِي كُنْـتُ ابْـنَ عَشْـرٍ وَأَرْبَـعٍ فَلَـمْ أَدْعُهَـا بِنْتـاً وَلَمْ تَـدْعُنِي عَمَّـا[1]

وتختلف الأمور بعد أن تجاوز **الستّين** كثيراً ، فتكثر العلل ويدبّ الضعف في أعضاء ابن خفاجة، إنّه « ضعف طبيعيّ ، وكسل يتشبّه بعيّ» كما يقول ، وفي قصيدة أخرى يشير إلى مثل ذلك فيقول :

فَـــآهٍ طَـــويلاً ثُمَّ آهٍ لِكَـــبرَةٍ بَكَيتُ عَلى فَقْدِ الشَّبابِ بِها دَما

وَقَد صَدِئَت مِرآةُ طَرْفِي وَمِسْمَعي فَما أَجِدُ الأَشياءَ كَالعَهدِ فيهِما

وَهَـل ثِقَـةٌ فِي الـدَّهْرِ يَحْفَـظُ خُلَّـةً إِذا غَـدَرا بي صـاحِبانِ هُمَـا هُمَـا[2]

وفي رسالته لأستاذه ابن صواب التي كتبها إليه بعد أن أكمل الستّين سنة يتحسّر ابن خفاجة على شبابه وأحبابه ، بل يترقّب فواته واقتراب

---

١ – الديوان : ٨١.

٢ – الديوان : ٢٣٧.

وفاته ، فكان ذلك انعطافاً في حياته ، وتبدّلاً في سلوكه وميله إلى التفكّر والتديّن :

« وَلا تَذَكَّرْتُ مَا رَاقَ مِنْ عِشْرَةٍ، وَرَقَّ عَنْهَا مِنْ قِشْرَةٍ، إِلَّا تَمَلَّكَ جَفْنِي الاسْتِعْبَارُ، وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي النَّهَارُ. فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الأَيَّامِ، المُتَخَيَّلَةِ مِنَ الأَحْلامِ؟ وَأَيْنَ مَنْ قَدْ عَرَفْنَا وَأَلِفْنَا مِنَ الإِخْوَانِ؟ بَانُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا، وَفُقِدُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا وُجِدُوا. فَهَا أَنَا لا أَسْتَرِيحُ فِيهِمْ إِلَّا إِلَى شَكْوَى، تُقِضُّ المَضْجَعَ، وَتَفُضُّ الأَضْلُعَ، وَلا أَنْطَوِي إِلَّا عَلَى ذِكْرَى، تُصَدِّعُ حَصَاةَ القَلْبِ، وَتُؤْذِنُ بِالظَّعْنِ فِي أَعْقَابِ ذَلِكَ الرَّكْبِ. فَآهٍ ثُمَّ آهٍ عَلَى شَبَابٍ قَدِ انْقَلَبَ، وَذَهَابٍ قَدِ اقْتَرَب، فَلاَ تَنَاجِيَ إِلَّا بِعَمَلٍ يُتَعَقَّب، وَأَجَلٍ يُتَرَقَّبُ.

وَعَلَى ذِكْرِ ذَلِكَ، أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيَال قَدْ أَرِقْتُ، فَتَلَدَّدْتُ أَنْظُرُ فِي أَعْقَابِ مَا مَضَى، مِنْ عُمْرِي فَانْقَضى، وَأَتَوَقَّى، عَلَى شَفَافَةِ مَا غَبَرَ مِنْهُ وَتَبَقَّى، فَسَنَحَ لِي أَنْ قُلْتُ:

أَلا سَاجِلْ دُمُوعِي يَا غَمَامُ	وَطَارِحْنِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ
فَقَدْ وَفَّيْتُهَا سِتِّينَ حَوْلاً	وَنَادَتْنِي وَرَائِي هَلْ أَمَامُ
وَكُنْتُ وَمِنْ لُبَانَاتِي لُبَيْنَى	هُنَاكَ وَمِنْ مَرَاضِعِيَ المُدَامُ
يُطَالِعُنَا الصَّبَاحُ بِبَطْنِ حُزْوَى	فَيُنْكِرُنَا وَيَعْرِفُنَا الظَّلامُ
وَكَانَ بِهِ البَشَامُ مَرَاحَ أُنْسٍ	فَمَاذَا بَعْدَنَا فَعَلَ البَشَامُ

فَيَا شَرْخَ الشَّبَابِ أَلا لِقَاءٌ يُبَلُّ بِهِ عَلَى يَأْسٍ أُوَامُ
وَيَا ظِلَّ الشَّبَابِ وَكُنْتَ تَنْدَى عَلَى أَفْيَاءِ سَرْحِتَك السَّلامُ

فَمَا كَانَ إِلَّا أنْ صَرَخْتُ عَوِيلاً، وَانْتَحَبْتُ طَوِيلاً، حَتَّى أَيْقَظْتُ مَنْ كَانَ إِلَى جَانِبِي ضَجِيعاً، وَزِدْتُ فَكِدْتُ أُحِيلُ الدَّمْعَ نَجِيعاً. وَحُقَّ لِمَنْ شَاهَدَ تَضَعْضُعَ أَرْكَانِهِ، وَتَدَاعِيَ بُنْيَانِهِ، وَذَهَابَ خِلّانِهِ، وَإِدْبَارَ عُمْرِهِ وَزَمَانِه، أَنْ يُطْرِقَ هُنَالِكَ فِكْرَةً، وَيَمْلأَ جَفْنَيْهِ عَبْرَةً، وَيُرَدِّدَ الأَسَفَ جَمْرَةً، حَتَّى يَذُوبَ كَمَداً أَوْ يَقْضِيَ حَسْرَةً»[1] .

وقد ذكر ابن خاقان هذه الأبيات مفردة عن رسالة ابن صواب، وقدّم لها بقوله : « أخبرني أنّه لما أقلع عن صبوته ، وطلع ثنيّة سلوته ، والكهولة قد حنّكته ،وأسلكته من الارعواء حيث أسلكته ، نام فرأى أنّه مستيقظ ، وجعل يفكّر بما مرّ من شبابه ، وفيمن ذهب من أحبابه ، ويبكي على أيّام لهوه ، وأوان غفلته وسهوه ، ويتوجّع لسالف ذلك الزمان ، ويتبع الذكر دمعاً كواهي الجمان ، ثمّ استيقظ وهو يقول ... »[2] .

وكذلك فعل ابن دحية الكلبيّ مغلّباً الجانب الديني لصحوته ويقظته : « ولمّا بلغ سنّ الكهولة ، وأدرك من أقطار الشبيبة مأموله ، نام فرأى أنّه

---

١ – الديوان : ٦٣– ٦٥

٢ – قلائد العقيان : ٤/٧٤٠ – ٧٤١ .

مستيقظ يفكّر فيما سلف من بطالته، ويتحسّر على ما فرّط من تجرّيه على معصية الله واستطالته ، ويتذكّر ما مضى من شبابه ، ومن انقضى من أحبابه ، ودمعه يباري صوب المزن في انصبابه ، ويحكيه في انسجامه وانسكابه ، فانتبه وهو منتبه لرشاده ، مقبل على التزوّد لمعاده ، منشد ما تنزعج القلوب من إنشاده ... »[1] .

وإحساس ابن خفاجة بدنوّ الأجل وخوفه منه يتجلّى منذ العقد السابع من عمره غير مرّة – كما رأينا – وفي مقدّمة ديوانه الذي جمعه بنفسه في أواسط العقد السابع من عمره ، فهو يقول فيه:« لمّا ارتقتْ بيَ السنُّ مرتقاها، وشارفتِ الحياةُ منتهاها »[2] .

وثمّة أربع قصائد مديح في ديوانه مؤرّخة بتاريخ سنة (٥١٤ هـ) أي وهو في الثالثة أو الرابعة والستّين من عمره ؛ إحداها يبدأ فيها بالغزل بطلب من الأمير إبراهيم ، ولا تخلو من ذكر مغامراته العشقيّة مع أنّه ابن ستّين سنة :

وَقَبِلْتُ الكَأسَ مِن يَدِهِ ... فَاجتَنَينا الوَردَ مِن عَنَمِ
وَسَواءٌ دُرُّ مَنطِقِهِ ... وَحُلاهُ حُسنَ مُنتَظَمِ
صَمَّ سَمعي فيهِ عَن عَذَلي ... وَابنُ سِتّينَ أَخو صَمَمِ
فَأَراني لا أَرى صَدَراً ... عَن غَرامٍ والوُلوعُ عَمِ

---

١ – المطرب : ١١٧ .

٢ – الديوان : ٨ .

أَيـنَ مـا غَيَّبْـتُ مِـنْ شَـغَفٍ   أَيـنَ مـا قَضَّـيتُ مِـنْ لَمَـمِ

أَيـنَ مـا أَحـرَزتُ مِـن أَمَـلٍ   آلَ يَطـــويني عَلـــى أَلَمِ

هَـلْ لَـدَيَّ اليَـومَ مِنـهُ سِـوى   طـولِ قَـرعِ السِـنِّ مِـن نَـدَمِ[1]

والثانية في الأمير إبراهيم في شوّال من السنة نفسها ، وفي مقدّمتها يشير إلى أنّ رسم الشباب قد أخلق ، وفي نهايتها يشير إلى شحوبه وكبره وعجزه عن الرحيل:

وَلَـوْلَا شُـحُوبٌ طَـائِفٌ بِـابْنِ كَبْـرَةٍ   لَـهُ فَـوْقَ أَكْـوَارِ الـمَطِيِّ مَمِيـلُ

يَقُـومُ بِـهِ شَـوْقٌ [إليـك][2] مُبَـرِّحٌ   وَيُقْعِـدُهُ جِسْـمٌ هُنَـاكَ نَحِيـلُ

لَطَـــارَ بِآمَـــالِي نَجَـــاءٌ وَتَـــارَةً   رَجَـاءٌ فَـأَهْوَى بِي إِلَيْـكَ رَحِيـلُ[3]

والقصيدة الثالثة في الوزير زهر ابن زهر في منتصف محرّم، وفيها يشير إلى صروف الدهر الذي تقاضت شبيبته وصحبه ، وإلى حؤول الشيب دون حلى الشبيبة[4]، ويصل القصيدة بقطعة نثريّة يذكر فيها تبدّل عمّال المدينة " واسْتِغْلاقِ الأُنْسِ "، وما لذلك من أثر سلبيّ فيه وفي أدبه[5].

---

١ – الديوان : ١٠٧ ، ١٠٨ .

٢ – فراغ في الديوان ، وهي كلمة مقترحة لضرورة الوزن .

٣ – الديوان : ٢٩٦ .

٤ – الديوان : ١٩٨ — ٢٠٠ .

٥ – الديوان : ٢٠٢ — ٢٠٤ .

ويعبّر عن ذلك أيضاً بقوله :« أَتَأَلَّـمُ لإلحَاحِي وَإلحَافِي، وَأَتَمَلْمَلُ لِتَوَقُّفِ الدَّهْرِ عَنْ إِسْعَادِي وإِسْعَافِي » [1].

أمّا القصيدة الرابعة فهي في شهر رمضان سنة (٥١٤ هـ)، وفيها يطنب في وصف أيام لهوه وصباه، ويتقطّع كمداً على ذهابه وهو في الستّين

وَأَعوَلـتُ أَنـدُبُ عَصـراً خَـلا   وَقَصـرُ ابـنِ سِـتّينَ أَن يَنـدُبا [2]

إذاً فقد انتهى أنس ابن خفاجة وغلّقت أبوابه ، لتوقّف الدهر عن مساعدته وإسعافه ، وجاءت **السبعون** فنجد تحوّلاً كبيراً منه إلى التديّن والزهد ، ففي رسالة عتاب أرسلها إلى ابن أبي الخصال ، يصف نفسه وهو في السبعين من العمر مترقّباً شبح الموت ، متزهّداً في الدنيا متوسّلاً بربّ العباد ويرى حاله «حَالَ مَنْ خَلَّفَ السَّبْعِينَ وَرَاءَهُ، فَهُوَ يَرْتَقِبُ يَوْمَهُ وَيُنْدُبُ أَمْسَهُ، وَيُوَدِّعُ دُنْيَاهُ وَيُنْشِدُ نَفْسَهُ:

هَـلْ فَـاتَ صَـرْفَ الـرَّدَى لَبِيدُ   وَطَـاوَلَ الـدَّهْرَ لَا يَبِيـدُ
أَمْ خَـارَ عُـوْدٌ بِـهِ صَـلِيْبٌ   وَخَـرَّ بَيْـتٌ لَـهُ مَشِـيدُ
وَكَيْـفَ نَبْقَـى وَلَـيْسَ يَبْلَـى   دَهْـرٌ تَـوَلَّى بِـهِ حَدِيـدُ
نَطْـوِي زَمَـاَن الحَيَـاةِ كَـدّاً   كَمَـا طَـوَى رَكْضَـهُ البَرِيـدُ

---

١ – الديوان : ٣٠٢ .

٢ – الديوان : ١١٧.

وَكَمْ عَسَى يَا أَخَا الشَّكَايَا | تُرْمَى فَتُخْطَى وَكَمْ تَحِيدُ
فَوِّضْ وَسَلِّمْ إِلَى قَدِيرٍ | تَجْرِي اللَّيَالِي بِمَا يُرِيْدُ
فَهْوَ الكَرِيمُ الحَكِيمُ فِيمَا | يَفْعَلُ وَالمُبْدِئُ المُعِيدُ
وَارْضَ بِدَارِ البِلَى مَحَلّاً | لَعَلَّهُ مَنْزِلٌ سَعِيْدُ
فَرُبَّمَا فُزْتَ بالأَمَانِي | إِذَا طَوَى شِلْوَكَ الصَّعِيدُ
وَخَيْرُ مَا تَسْتَنِيلُ رُحْمَى | مِنْ مَلِكٍ بَطْشُهُ شَدِيدُ
يَأْنَسُ فِي قَبْرِهِ المُوَارَى | بِهِ وَفِي لَيْلِهِ الوَحِيْدُ
فَيَا مَلاذِي وَيَا مَعَاذِي | إِذَا طَوَى شَخْصِيَ الكَدِيْدُ
وَعُدْتُ تُرْباً فَلا قَرِيبٌ | يَغْشَى فِنَائِي وَلا بَعِيدُ
امْنُنْ بِحُسْنَاكَ مِنْ جَوَادٍ | فَبَعْضُ أَسْمَائِكَ الحَمِيدُ
وَأَنْجِزِ الوَعْدَ مِنْ كَرِيمٍ | إِنْ لَمْ يَكُنْ أَنْجَحَ الوَعِيدُ
فَنِعْمَ مَا تَفْعَلُ المَوَالِي | وَبِئْسَ مَا تَفْعَلُ العَبِيدُ[1]

وشبّه ابن خاقان تنسّك ابن خفاجة بتنسّك ابن أذينة (ت نحو ١٣٠ هـ) الشاعر الأموي الفقيه المحدّث صاحب البيتين الشهيرين[2]، فقال

١ - الديوان : ٣١٤ ، ٣١٥ .

٢ - الأغاني : ٣٢٨/١٨ وهما قوله :

قالت وأبثثتها وجدي فبحت به | قد كنت عندي تحبّ الستر فاستترِ
ألست تبصر من حولي فقلت لها | غطى هواك وما ألقى على بصري

: « نسك اليوم نسك ابن أذينة ، وغضّ [1]عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه »[2] ، أي إنّ نفسه ما تزال تنازعه بعض الشيء لكنّه تغلّب عليها ، يوضّح ابن خفاجة هذا بقوله في فصل من رسالة له : «

مَحَارُ الفَتَى شَيْخُوْخَةٌ أَوْ مَنِيَّةٌ   وَمَرْجُوْعُ وَهَّاجِ المَصَابِيْحِ رِمْدِدُ

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ كَوْنٍ وَفَسَادٍ ، وَسُوْقُ نَفَاقٍ وَكَسَادٍ ، وَالعُمْرُ بِالإِنْسَانِ مُضْطَرِبٌ ، وَالمَرْءُ مَوْجٌ مَعَ الأَيَّامِ مُنْقَلِبٌ ، وَإِنَّ لِلشَّبِيْبَةِ صَبْوَةً ، وَلِلْحَدَاثَةِ هَفْوَةً ، وَقُصَارَى الطَّيْشِ رَكَانَةٌ وَوَقَارٌ ، وَأَوَّلُ قُرَّحِ الخَيْلِ المِهَارُ ، وَلَمْ أَرَ كَالشَّبَابِ مَطِيَّةً لِلْجَهْلِ ، وَلَا كَالمَشِيْبِ فِطْنَةً لِلْعَقْلِ :

وَإِنَّ نَهَارَ المَرْءِ أَهْدَى لِرُشْدِهِ   وَلَكِنَّ ظِلَّ اللَّيْلِ أَنْدَى وَأَبْرَدُ

فَإِنْ يَكُنِ الصِّبَا حِلْيَةً تَرُوْعُ ، فَإِنَّ الكَبْرَةَ عُطْلَةٌ أَوْ إِمْرَةٌ تَرُوْقُ :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ   فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ[3]

وفي ديوان شعره إشارات متعدّدة إلى زهده في الحياة وملاهيها ودعوته إلى ذلك ، وثمّة شواهد عمليّة على هذا في عودته إلى ديوانه وتفقّده « تفقّدَ متأمّلٍ مثقّفٍ ، فمنهُ ما تعهدتُه فقيّدتُه ، ومنهُ ما لحظتُه فلفظتُه ،

---

١ - في الأصل : وما غضّ ... نظرة ، والتصحيح من طبعة : محمّد الطاهر ابن عاشور .
٢ – قلائد العقيان : ٤/ ٧٤٠
٣ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٥٥٨/٢/٣ .

ومنهُ ما تصفحتُه فأصلحتُه »[1] ، كما يقول ابن خفاجة ، ولم يترك في ديوانه من المجون والتصريح إلّا قطعة واحدة ؛ استغفر الله منها ، ونصّ على أنّها لم تك إلّا مجرّد قول[2] ، لأنّه عرف أنّ الإنسان محاسب على ما كتب ، ذلك ما ذكره « عندما فرغ من نسخ كتاب السَّنَن و السُّنَن :

أَلا قَصْـــرُ كُـــلِّ بَقَـــاءٍ ذَهَـــاب
وَعُمْـــرَانُ كُـــلِّ حَيَـــاةٍ خَـــرَاب

وَكُـــلٌّ مَـــدينٌ بِمَـــا كَـــانَ دَانَ
فَـــثَمَّ الجَـــزَاءُ وَثَمَّ الحِسَـــاب

فَـــلا تُجْـــرِ كَفَّـــكَ فِي مُهْـــرَقٍ
بِمَـــا لايَسُـــرُّ هُنَـــاكَ الكِتَـــاب

فَإِنَّـــكَ يَومْـــاً مُجَـــازىً بِـــهِ
وَإِنَّ يَـــداً كَتَبَتْـــهُ تُـــرَاب

وَلا خُطَّـــةٌ غَيْـــرَ إِحْـــدَى اثْنَتَيْـــ
ـنِ إِمَّـــا نَعِـــيمٌ وَإِمَّـــا عَـــذَاب

فَرُحْمَـــاكَ يَـــا مَـــنْ عَلَيْـــهِ الحِسَـــابْ
وَزُلْفَـــاكَ يَـــا مَـــنْ إِلَيْـــهِ الـــمَآب[3]

---

١ – الديوان : ٩ .

٢ – الديوان : ١٥٧ .

٣ – الديوان : ٢١٣ ، ٢١٤ .

والقطعة السابقة والتقديم لها يدلّان على اهتمامه بالعلوم المفيدة وتخصيص وقت مناسب لها .

وثمّة خبر يسير يدلّ على أنّ ابن خفاجة كان ينشد طلّابه وهو في هذه السنّ المتقدّمة بعضاً من شعره ، فقد نقل ابن الأبّار عن ابن غلبون :« قال أنشدنا أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة لنفسه بجزيرة شقر ؛ بلده في بضع وعشرين وخمسمئة ممّا كان قاله لمّا بلغ الستّين من عمره:...»[1] .

وتغيّر ما كان من اعتداد ابن خفاجة بفتوّة الصبا ، وما فيها من قصف ومجون إلى الانزواء وحيداً ، واعتزال الناس أحياناً، والتفكّر في حاله، قال :

غَـــيْرِيَ مَـــنْ يَعْتَـــدُّ مِـــنْ أُنْسِـــهِ
مَـــا نَـــالَ مِـــنْ سَـــاقٍ وَمِـــنْ كَأْسِـــهِ
وَشَـــأْنُ مِثْلِـــي أَنْ يُـــرَى خَالِيـــاً
بِنَفْسِـــهِ يَبْحَـــثُ عَـــنْ نَفْسِـــهِ[2]

وتبدّل ما كان من تسريح ابن خفاجة طرفه بين الحسان إلى تقليبه بين كواكب السماء ، لذهاب حلو عيشه وذبول أمله :

---

١ – التكملة : ١٧٦

٢ – الديوان : ٦٢ .

« وكتب : فَهَا أَنَا بَيْنَ عَيْشٍ قَدْ ذَهَبَ حُلْوُهُ، وَنَضَبَ صَفْوُهُ، وَأَمَلٍ أَخْلَقَتْ جِدَّتُهُ، وَذَبُلَتْ نَضْرَتُهُ، مُتَلَدِّدٌ بَيْنَ عَبْرَةٍ أُبَدِّدُهَا، وَزَفْرَةٍ أُرَدِّدُهَا، وَحَسْرَةٍ أَجُدِّدُهَا، وَطَرْفٍ أُقَلِّبُهُ فِي الكَوَاكِبِ، كَأَنَّنِي أَلتَمِسُهُ فِيْهَا وَأَطْلُبُهُ، وَآمُلُ طُلُوعَهُ مَعَهَا فَأَرْقُبُهُ »[1] .

وقال ابن عميرة الضبّيّ (ت ٥٩٩ هـ) : « أخبرني بعض أشياخي أنّه كان يخرج من جزيرة شُقْر ، وهي كانت وطنه في أكثر الأوقات إلى بعض تلك الجبال التي تقترب من الجزيرة وحدَه ، فكان إذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا إبراهيم تموت – يعني نفسه – فيجيبه الصوت ، ولا يزال كذلك حتّى يخرّ مغشيّاً عليه »[2]. وقد ذكر ذلك في قصيدته الشهيرة في الاعتبار :

بَعَيشِكَ هَل تَدْرِي أَهُوجُ الجَنَائِبِ ... تَخُبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النَّجائِبِ

فَمـا لـُحْتُ في أولَى الـمَشَارِقِ كَوكَبـاً ... فَأَشرَقتُ حَتّى جُبتُ أُخْرَى المَغَارِبِ

وَحِيْـداً تَهَـادَانِي الفَيَـافِي فَـأَجتَلِي ... وُجُـوْهَ الـمَنَايا فِي قِنَـاعِ الغَيَاهِـبِ[3]

ثمّ يصف الجبل الباذخ ، ويستمع إلى حديثه العجيب ، جاعلاً إيّاه معادلاً موضوعيّاً له ،إذ تفنى دموع الجبل من فراق أصحابه ، وترتجف أيك أضلعه لظعنهم وتندب ورقه لرحيلهم الأبديّ:

١– الديوان : ٣٣٢ .

٢ – بغية الملتمس : ١٩٨ .

٣– الديوان : ٢١٥ .

فَمَا كانَ إلَّا أَن طَوَتْـهُم يَـدُ الرَّدَى ... وَطـارَتْ بِهِـمْ رِيْـحُ النَّـوَى وَالنَّوائِـبِ

فَما خَفْقُ أَيْكِي غَيرَ رَجفَةِ أَضْلُعٍ ... وَلا نَـوْحُ وُرْقِي غَيرَ صَرْخَةِ نادِبِ

وَما غَـيَّضَ السُّـلوَانُ دَمْعِي وَإِنَّمَـا ... نَزَفْـتُ دُمُـوعِي فِي فِـرَاقِ الأَصَـاحِبِ

فَحَتّى مَتَى أَبْقَى وَيَظعَنُ صَاحِبٌ ... أُوَدِّعُ مِنـهُ راحِـلاً غَـيرَ آيِـبِ

وَحَـتّى مَـتى أَرعَـى الكَواكِـبَ سَـاهِراً ... فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرَى اللَّيالِي وَغارِبِ

فَرُحمَـاكَ يـا مَـولايَ دَعـوَةَ ضَـارِعٍ ... يَمُـدُّ إلى نُعْمَـاكَ رَاحَـةَ رَاغِـبِ[1]

فحديث ابن خفاجة عن فراق الأحباب والأصحاب وحزنه لذلك حديث طويل شجيّ منوّع بين نثر وشعر ، قال نثراً : « وكتب:

وَمَا تَذَكَّرْتُ عَطَلَ نَحْرِ الزَّمَانِ، مِنْ قَلائِدِ الإِخْوَانِ، وَكَيْفَ كَرَّ الدَّهْرُ فَمَحَا مَحَاسِنَ تِلْكَ الصَّحِيْفَةِ، وَطَوَى طَوَامِيْرَ تِلْكَ الشَّبِيْبَةِ، إِلَّا انْقَدَحَتْ بِصَدْرِي لَوْعَةٌ، لَوْ أَنَّهَا بِالحَجَرِ لانْفَطَرَ فَانْفَجَرَ، أَوْ بِالنَّجْمِ لانْكَدَرَ فَانْتَثَرَ:

وَمَـا وَجْـدُ أَعْرَابِيَّـةٍ قَـذَفَتْ بِهَـا ... صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ

تَمَنَّـتْ أَحَالِيْـبَ الرِّعَـاءِ وَخَيْمَـةً ... بِنَجْـدٍ فَلَـمْ يُقْـدَرْ لَهَـا مَـا تَمَنَّـتِ

بِأَعْظَمَ وَجْداً مِنِّي بِذَلِكَ القَصْرِ، وَقَدْ انْتَثَرَ عِقْدُ أَحْبَابِهِ، وَأَقْفَرَ عَامِرُ جَنَابِهِ، وَانْسَلَخَ لَيْلُ شَبَابِهِ، وَطَارَ وَاقِعُ غُرَابِهِ، وَانْطَوَتْ لَهُ صَحَائِفُ أَيَّامٍ لا

١- الديوان : ٢١٦ ، ٢١٧ .

تُنْشَرُ، عَلَى سُطُورِ آثَامٍ لا تُبْشَرُ، فَكَأَنَّمَا تَقَشَّعَ مِنْهُ سَحَابٌ، وَاضْمَحَلَّ بِقَيْعَتِهِ سَرَابٌ، فَصِرْنَا لَا نَتَلاقَى إِلَّا بِالذِّكْرِ، وَلَا نَتَرَاءَى إِلَّا بِالفِكْرِ»[1].

وقال ابن خفاجة شعراً يندب قبور أحبته ويبكيها شجواً في قصيدة عجيبة بدأ فيها بالغزل وانتهى بالرثاء ؛ مع علمه بذلك ونصّه عليه في التقديم لها ، فخاطب نسيم الريح وطلب منه أن يسأل الغمام بعض ظلّ وطلّ ، ثمّ قال :

وَأَيُّ نَدىً أَوْ بَـرْدِ ظِـلٍّ لِمُــزْنة ... عَلَى عَقْـبِ أَتْـرَابٍ رُزِئْـتُ كِـرَامِ

وَقَفْتُ وُقُوفَ الثُّكْلِ بَيْنَ قُبُورِهِمْ ... أُعَظِّمُهَـا مِـنْ أَعْظُـمٍ وَرِجَـامِ

وَأَنْـدُبُ أَشْـجَى رَنَّـةً مِـنْ حَمَامَـةٍ ... وَأَبْكِـي فَأَقْضِـي مِـنْ ذِمَـامِ رِمَـامِ

قَضَـوْا بَـيْنَ وَادٍ لِلسَّـمَاحِ وَمَشْـرَعٍ ... وَغَـارِبِ عِـزٍّ فِي العُـلَا وَسَـنَامِ[2]

ولا يهنأ ابن خفاجة برؤية قبور أصحابه ومعاهد شبابه ، إذ محا أغلبها سيل شديد فقال :« يندب معاهد الشباب ، ويتوجّع لوفاة الإخوان والأتراب ، بعقب سيل عفا الديار ، ومحا الآثار :

أَلا عَـرَّسَ الإِخـوانُ في سـاحَةِ البِلـى

وَمَــا رَفَعــوا غَــيرَ القُبــورِ قِبابــا

١- الديوان : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

٢- الديوان : ٥٣ .

فَـدَمعٌ كَمـا سَـحَّ الغَمـامُ وَلَوعَـةٌ

كَمـا ضَـرَبَتْ ريـحُ الشَّـمالِ شِـهابا

إِذا اسـتَوقَفَتني في الـدِيارِ عَشِـيَّةً

تَلَـدَّدْتُ فيهـا جِيْئَـةً وَذَهابـا

أَكُـرُّ بِطَـرفي في مَعاهِـدِ فِتيَـةٍ

ثَكِلْـتُهُمُ بـيضَ الوُجـوهِ شَـبابا

فَطـالَ وُقـوفي بَـينَ وَجـدٍ وَزَفـرَةٍ

أُنـادي رُسـوماً لا تُحـيرُ جَوابـا

وَأَمحـو جَميـلَ الصَّـبرِ طَـوراً بِعَـبرَةٍ

أَخُـطُّ بِهـا في صَـفحَتَيَّ كِتابـا

وَقَد دَرَسَـت أَجسـامُهُم وَدِيـارُهُم

فَلَـم أَرَ إِلّا أَقـبُراً وَيَبابـا

وَحَسـبِيَ شَـجواً أَن أَرى الـدارَ بَلقَعـاً

خَـلاءً وَأَشـلاءَ الصَّـديقِ تُرابـا[1]

وصار ابن خفاجة يأنس بالمقابر عامّةً يعتبر منها ، ويستعبر فيها :

« وقال وقد مرّ يوماً بالمقابر فأطال الوقوف بها بين اعتبار واستعبار :

أَلا صُمَّتِ الأَجداثُ عَنِّي فَلَمْ تُجِبْ

وَلَم يُغنِـني أَنِّي رَفَعـتُ بِهَـا صَـوتِي

---

١ – الديوان : ١٧٧ ، ١٧٨ .

فَيــا عَجَبــاً لي كَيــفَ آنَــسُ بِالــمُنى

وَغايَــةُ مــا أَدرَكــتُ مِنهــا إِلى فَــوتِ

وَهَــل مِــن سُــرورٍ أَو أَمــانٍ لِعاقِــلٍ

وَمُفْضَــى غُبُــورِ الغَــابِرِينَ إِلى الــمَوتِ

جعلنا الله منه على حذر ، وزوّدنا له من سفر ، وتغمّدنا برحماه ، وأهّلنا لنعماه فهو أهل ذلك ، لا إله سواه »[1].

وأمّا **الثمانون** – وبلّغتها – فلم تترك له أيّ نوع من أنس أو هناءة في غذاء وطعام ، أو راحة في سنة ومنام : « وقال عندما بلغ إحدى وثمانين سنة، يجيب أبَا العَرَبِ عَبْدَ الوَهَابِ التُّجِيبِيَّ، وقد سأله عن حاله:

أَيُّ أُنْـــــسٍ أَو غِــــذاءٍ أَو سِــــنَهْ

لِإِبـــنِ إِحــــدى وَثَمــــانينَ سَــــنَهْ

قَلَّــصَ الشَّــيْبُ بِهــا ظِــلَّ اِمــرِئٍ

طالَمــــا جَــــرَّ صِــــباهُ رَسَــــنَهْ

تــــارَةً تَخْطــــو بِــــهِ سَــــيِّئَةٌ

تُسْــخِنُ العَــينَ وَأُخــرى حَسَــنَهْ[2]

---

١ – الديوان : ٣٠٩ .

٢ – الديوان : ٣٥٥ .

واستسلم ابن خفاجة أخيراً للقضاء ، واستعدّ ليومه المحتوم ؛ حتّى إنّه صنع أبياتاً شجيّة يتبدّى فيها حرصه على معاني الأخوّة والرحمة والوفاء وترشح منها بقايا اعتزازه بنفسه بل بأشلائه التي وصفها بالكرم، وجهّزها لتنقش أو تكتب على شاهدة قبره الذي كان معروفاً بظاهر جزيرة شقر ، وقد أورد له ابن الأبّار هذه المقطّعة التي « أعدّها لتكتب على قبره:

خَلِيلَــيَّ هَــلْ مِــنْ وَقْفَــةٍ لِتَــأَلُّمٍ
عَلَــى جَــدَثِي أَوْ نَظْــرَةٍ لِتَــرَحُّمِ

خَلِيْلَـيَّ هَـلْ بَعْـدَ الـرَّدَى مُـنْ ثَنِيَّـةٍ
وَهَــلْ بَعْـدَ بْطِـن الأَرْضِ دَارُ مُخَـيِّمِ

وَإِنَّــا حَيِينَــا أَوْ رَدِينَــا لإِخْــوَةٌ
فَمَــنْ مَــرَّ بِيْ مِــنْ مُسْـلِمٍ فَلْيُسَـلِّمِ

وَمَــاذَا عَلَيْــهِ أَنْ يَقُــولَ مُحَيِّيــاً
أَلا عِـمْ صَـبَاحاً أَوْ يَقُـولَ أَلا اسْـلَمِ

وَفَــاءً لأَشْــلاءٍ كَــرُمْنَ عَلَــى البِلَــى
فَعَــاجَ عَلَيْهَــا مِــنْ رُفَــاتٍ وَأَعْظُــمِ

يُــرَدِّدُ طَــوْراً آهَــةَ الحُــزْنِ عِنْــدَهَا
وَيَــذْرِفُ طَــوْراً دَمْعَــةَ الــمُتَرَحِّمِ[1]

---

١ – الديوان : ٣٦٣ .

وتوفّي ابن خفاجة ببلدته ومسقط رأسه شقر سنة (٥٣٣ هـ) كما أجمع على ذلك أغلب من ترجم له[١] ، وقال ابن الأبّار في "التكملة" إنّه: « توفّي يوم الأحد السادس والعشرين من شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة »[٢]، وقال في "المعجم" إنّه « توفّي في آخر شوّال سنة (٥٣٣ هـ) »[٣]، وحدّد ابن عميرة الزمن فقال « توفّي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة لأربع بقين من شوّال »[٤].

وليس ثمّة من خالف زمن وفاته إلّا أنّ شهاب الدين المقّري تردّد بين زمنين : فقال : « توفّي سنة ثلاث أو خمس وثلاثين وخمسمئة »[٥] .

وقال ابن الأبّار في نهاية ترجمته لابن خفاجة :« ولم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة ، ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صلحاً، وأجلوا أهلها في آخر سنة تسع وثلاثين وستّمئة »[٦].

رحمه الله تعالى .

---

١ – انظر الصلة : ٩٩ ، سير أعلام النبلاء : ٥٢/٢٠ ، تاريخ الإسلام : ٣١٣/٣٦ – الوافي بالوفيات : ٥٥/٦ ، مطالع البدور :٨٤ ، كشف الظنون: ٧٦٥/١ ، أبجد العلوم : ٩٢/١ ، هديّة العارفين : ٩/١ .

٢ – التكملة : ١٧٧

٣ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٦٠ .

٤ – بغية الملتمس : ١٩٨ ، وانظر وفيات الأعيان : ٥٦/١ ، بغية الوعاة : ٤٢٢/١

٥– نفح الطيب : ٤٨٨/٣ .

٦ – التكملة : ١٧٧

ثالثاً : صفاته

إنّ وضوح الصفة الذاتيّة لأدب ابن خفاجة جعلت منه مرآة واضحة لصفاته، وقد انعكست فيها صفتان خَلقيّتان ماديّتان هما النحول والسمرة، قال في وصف الرمح:

وَمُثَقَّــفٌ لَــدنُ الــمَهَزِّ يَشُــوقُهُ ... مــا شــاقَني فَــإِذا اهْتَــزَزْتُ تَــأَطَّرا

وَقَــدِ اشــتَبَهنا سُمــرَةً وَنَحافَــةً ... فَلَـوِ التَفَـتَّ لَمـا عَرَفـتَ الأَسمَـرا[1]

وليس النحول من الأوصاف الشعريّة المتخيّلة التي تدلّ على العاشق المعمود ، بل إنّ ابن خفاجة يؤكدها في وصف نفسه مراراً في غير الغزل — كما سلف — وفيه كقوله:

وَإِنِّي لَمُهْتَــزٌّ لِــذِكْرَاكَ لَوْعَــةً ... كَمَا اهْتَزَّ فِي مَسْرَى النَّسِيمِ قَضِيْبُ

نَحِيــلٌ تَهَــادَانِي الرِّيَــاحُ فَلَيْتَهَــا ... شَمَــالٌ تَهَــادَى بَيْنَنَــا وَجَنُــوبُ

تَهُــبُّ بِنَـا طَـوْراً جَنُوْبـاً فَنَلْتَقِـي ... وَتَجْــرِي شَمَــالاً تَــارَةً فَنَــؤُوبُ[2]

أمّا الصفات الخلقيّة المعنويّة فهي الأكثر ، وكثيراً ما تتبدّى الصفات الانفعاليّة الحارّة في شعره ، وكثيراً ما يصف نفسه بالشجاعة والفتوّة والفروسيّة ، وقد وجدنا ذلك مراراً ، ولاسيّما في قطعه المفاوز والقفار ليلاً ،

---

١ – الديوان : ٢٥٦ .

٢ – الديوان : ٢٩٩ .

ومخاطبته للجبل ، ومصادقته للسيف والرمح ، وكذلك في عشق الفرسان ولهوهم ، هذا اللهو الذي كان في مرحلة الشباب ، وبحدود معيّنة مقبولة في مجتمعه وعصره ، وفي قبالة ذلك لا نجد أيّ عبث بالدين وفرائضه ، بل كان يؤدّي فروضه ويذكر الله تعالى ويتوكّل عليه ،كقوله في رسالة يصف عودته إلى دياره : « وَذِكْرُ اللهِ- تَعَالَى- مِلْءُ الصُّدُورِ وَالأَفْوَاهِ وَشِعَارُ الألسِنَةِ وَالشِّفَاهِ. وَمَا كُنَّا لِنَعْبُرَ مَسَافَةَ تِلْكَ المَجَابَةِ، إلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ، وَعَطْفَةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ، وَنَظْرَةٍ مِنْ رَحِيمٍ كَرِيمٍ. وَتَلافَانَا اللهُ بِحَافِلِ نُعْمَاهُ، وَشَامِلِ رُحْمَاهُ..

وَلَمَّا قُمْتُ لأَدَاءِ المَكْتُوبَةِ، فَتَلقَّيْتُ بِوَجْهِي الأَرْضَ، وَقَضَيْتُ الفَرْضَ »[1]

وقد وصفه الرشاطي بـ «الطبع الكريم والهدي القويم »[2].

ومن أهمّ ما تميّز به ابن خفاجة من صفات هو النبل والعزّة والمروءة فهو يرى نفسه من الجلّة النبهاء ، والأعيان النبلاء لذلك صار شاعراً وقال: « أَعْتَقِدُ أَنَّ الشِّعْرَ مِنْ خِلالِ الجِلَّةِ، وَحِلْيَةِ النُّبَلاءِ العِلْيَةِ »[3] ، وبذلك وصفه ابن دحية فقال : « من أعيان مدينة شقر »[4].

---

١ – الديوان : ٣٠٤ – ٣٠٦ .

٢ – التكملة : ١٧٦

٣ – الديوان : ٦

٤ – المطرب : ١١١ .

ووصف ابن الأبّار ابن خفاجة بأنّه «كان نزيه النفس »[1]، فقد كان يحترم نفسه ويصونها ويوقّرها، لا يرضى لها ما ينقصها ويشينها، فكان يأبى أن يعامل معاملة الرعيّة، أو يتعسّف بأمر الحريّة، وقد ذكر ذلك غير مرّة في خطابه لأمراء المرابطين كقوله : إنّي « مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ، مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُؤَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا »[2] .

ويتبدّى هذا الاحترام والصيانة حتّى مع من هم دون الأمراء كالقضاة، كقوله في عتاب أحدهم:

« وَإِنَّنِي مَسَحْتُ الأَرْضَ غَرْباً وَشَرْقاً، وَلَقِيتُ جُهْماً وَطَلْقاً، وَشَرِبْتُ العُمْرَ صَفْواً وَرَنْقاً، وَحَلَلْتُ بِأَنْدِيَة القُضَاةِ وَالقَضَاءِ، وَحَطَطْتُ بِأَوْدِيَةِ الفَضْلِ وَالفُضَلاءِ، فَمَا وَطِئْتُ لِأَحَدِهِمْ سَاحَةً إِلَّا رَاقَ بِشْرُهُ، وَرَقَّ قِشْرُهُ، فَمَا الفَضْلُ كُلُّهُ فِي الصَّمْتِ وَالجُمُودِ، حَتَّى يَلْتَبِسَ الإِنْسَانُ بِالجُلْمُودِ »[3].

ويتجلّى –كذلك– في عدم إراقة ابن خفاجة ماء وجهه في الطلب والإلحاح والكدية ، بل كان زاهداً بما في أيدي الناس ، غنيّاً عنهم ، وكان قنوعاً بما كتبه الله ، وقد ذكر ذلك مجملاً في قوله :

---

١ – التكملة : ١٧٦.

٢ – الديوان : ٩٥ .

٣ – الديوان : ٣٣٠ .

« معَ اقتناعٍ ، قامَ مقامَ اتّساعٍ ، فأَغناهُ عنْ تبذُّلٍ وانتجاعٍ »[1] .

وذكره مفصّلاً في رقعة له : « وَلَوْ أَنَّنِي شِئْتُ اسْتِدْرَارَ أَخْلافِ العَيْشِ، وَقَرَعْتُ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، لَكَدَدْتُ وَجَدَدْتُ، وَحَثَثْتُ الرَّكْضَ وَجَهَدْتُ، وَجُبْتُ السَّبَاسِبَ أَرْدِيَةً، وَخُضْتُ النَّوَائِبَ أَوْدِيَةً، وَرُعْتُ الكَوَاكِبَ أَنْدِيَةً، حَتَّى أُخَيِّمَ حَيْثُ السَّمَاءُ دَارٌ، وَالسِّمَاكُ جَارٌ، وَأَرْفُلُ حَيْثُ العِزَّةُ حُلَّةٌ، وَالثَّرْوَةُ حِلْيَةٌ. وَلَكِنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ قَلْباً هِمَّتُهُ مَا هِمَّتُهُ، فَهُوَ يَرَى الصَّبْرَ أَيْمَنَ رَفِيقٍ يَصْحَبُهُ، وَالقَنَاعَةَ أَكْرَمَ ذَيْلٍ يَسْحَبُهُ. وَعَلامَ يَبْتَذِلُ الوَجْهُ مَصُونَ مَائِهِ، وَيُلْقِي عَنْهُ قِنَاعَ حَيَائِهِ، وَإِنَّمَا الدُّنْيَا- وَبِئْسَ الطَّمَعُ- "سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيْبٍ تَقْشَّعُ" »[2] .

لقد كان ابن خفاجة متميّزاً في خصاله ، رفيعاً في شمائله ، متأنّقاً في تعامله حتّى مع الباعة في انتقاء طعامه ، فقد ذكر ابن عميرة الضبّيّ أنّه : « كان يأتي الجزيرة إلى المعالج الذي يبيع الفاكهة فيساومه ، فإذا سمّى له عدداً أو وزناً نقصه من ذلك العدد أو الوزن على شرط أنّه يختار ما أحبّ بيده »[3] .

---

١ – الديوان : ٢٩٠ .

٢ – الديوان : ٣٢٩ .

٣ – بغية الملتمس : ١٩٨ .

وكان يتعامل ابن خفاجة مع الناس عامّة وخاصّة بمودّة وأدب عالٍ – كما رأينا في مبحث أصدقائه –ولا يتكبّر عليهم، ولا يرى نفسه أعظمهم، يقول في قصيدة حماسيّة بعد وصف أصدقائه بأوصاف هائلة :

وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ لَخِدْنُ العُلَا تِرْبُ النَّدَى لِدَةُ المَجْدِ[1]

وكان يقوم بمدّ يد العون لأهل بلدته والمحتاجين بمروءة وطيبة ظاهرتين في شعره ونثره ، كقوله :

« لِلمُتَوسِّلِينَ– أَعَزَّكَ اللهُ– مَنَازِلُ، وَفِي الأَيَادِي فُرُوضٌ وَنَوَافِلُ، وَخَيْرُ المَعْرُوفِ، مَا وُضِعَ عِنْدَ الشَّرِيفِ لا المَشْرُوفِ. وَإِنَّ أَبَا فُلاَنٍ الهَاشِمِيَّ، لَفَرْعٌ مِنْ أَشْرَفِ نَبْعَةٍ، نَمَتْ فِي أَكْرَمِ بُقْعَةٍ. وَمَنْ حَلَّ مِنَ الشَّرَفِ مَحَلَّتَهُ، وَلَبِسَ مِنَ الفَضْلِ حِلْيَتَهُ، فَقَدْ غَنِيَ عَنِ الإِطْرَاءِ وَالثَّنَاءِ، غِنَى الغَزَالَةِ عَنِ الذُّبَالَةِ. وَهُوَ مُجْتَازٌ عَلَى أُفُقِكَ، وَنَازِلٌ بِكَ ضَيْفاً، كَمَا تَتَغَشَّاكَ السَّحَابَةُ صَيْفاً، وَهُوَ رَاحِلٌ بَعْدُ، تَخِدُ بِهِ الرَّكَائِبُ، وَتُثْنِي عَلَيْكَ الحَقَائِبُ. وَأَنْتَ أَجْدَرُ مَنْ تَلَقَّاهُ بِالبِشْرِ، وَأَقْبَلَهُ وَجْهَ البِرِّ، فَعِنْدَ أَهْلِ الفَضْلِ يُوْضَعُ الفَضْلُ، وَفِي مَغَارِسِهَا تُغْرَسُ النَّخْلُ ،لاَزِلْتَ غَمَامَ نُعْمَى وَرُحْمَى، وَلَا نَزَلْتَ إِلَّا بِمَنْزِلِ رُعْيَا وَسُقْيَا »[2].

---

١ – الديوان : ٣٢٩ .

٢ – الديوان : ٣٢١ . وانظر : ٢٣٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ .

رابعاً : تلاميذه

سلفت أخبار متعدّدة تدلّ على أنّ ابن خفاجة كان يروي شيئاً من الحديث لطلبته، وأنّه ينشدهم بعض شعره ويرويه لهم ، وثمّة خبر يدلّ على أنّه كان يروي بعض شعر غيره، فقد ذكر الحافظ السلفيّ(ت ٥٧٦ هـ) أنّ ابن خفاجة روى قطعة لابن فضال الحلواني (ت ٤٧٩هـ) أحد شعراء إفريقيّة [١] .

وثمّة إشارات يسيرة في بعض كتب التراجم إلى عدد من تلاميذه الذين رووا وأخذوا عنه ، أو حملوا ديوانه عنه ، أو قرؤوا شعره عليه، ومنهم:

١- **علي بن أحمد بن الباذش** (ت ٥٢٨ هـ)

ذكر ابن الأبّار، وابن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ) أنّه روى عن ابن خفاجة الشاعر[٢].

٢- **محمّد بن عبد الرحمن الكتندي** (ت ٥٨٣ هـ)

ذكر كلّ من ابن الأبّار والذهبيّ والصفديّ أنّه لقي ابن خفاجة فأخذ عنه[٣]

---

١ – معجم السفر : ١٥١ .

٢ – التكملة : ١٧٦، الذيل والتكملة : ١٦٦/١ ، وانظر المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٢٨٧

٣ – التكملة : ١٧٦، تاريخ الإسلام : ١٦١/٤١، الوافي بالوفيات : ١٩٢/٣، المطرب : ٨١ .

٣- **اليسع بن عيسى الغافقي** (ت ٥٧٥ هـ)

ذكر كلّ من الحافظ الذهبي وابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هـ) أنّه روى عن ابن خفاجة[١] .

٤- **يعقوب بن محمّد الشقري** (ت ٥٨٤ هـ)

ذكر الحافظ الذهبي أنّه صحب ابن خفاجة وحمل عنه[٢] .

٥- **يحيى بن محمّد الأركشي** (ت ٥٨٦ هـ)

عرّفه ابن سعيد أنّه « هو راوية ابن خفاجة »[٣] ، وقال الحافظ الذهبي : « حمل عن أبي إسحاق بن خفاجة ديوانه »[٤] .

٦-**إبراهيم بن يوسف بن قرقول الحمزي** (ت ٥٦٩ هـ)

ذكره ابن الأبّار[٥]، وصلاح الدين الصفدي[٦]، وقال الحافظ الذهبي : « أخذ عن أبي إسحاق الخفاجي ديوانه »[٧] .

---

١ - تاريخ الإسلام : ١٦٤/٤٠ ، لسان الميزان : ٢٩٩/٩ .

٢- تاريخ الإسلام : ٢٠٦/٤١ ، المطرب : ٩٤ ، ١١٤ .

٣ - المغرب في حلى المغرب : ٣١٦/١ .

٤ - تاريخ الإسلام : ٢٥٨/٤١ .

٥ - التكملة : ١٧٦

٦ - الوافي : ١٠٩/٦ .

٧ - تاريخ الإسلام : ٣٣٢/٣٩ .

٧- **أبو رجال بن غلبون** (ت ٥٨٩ هـ)

قال الحافظ الذهبيّ : « رحل إلى أبي إسحاق ابن خفاجة فحمل عنه ديوان شعره » [١] .

٨- **أبو العرب عبد الوهاب بن محمّد التجيبي** (٥٥٢ هـ)

قال ابن عبد الملك : « سمع ببلنسية أبا إسحاق الخفاجي » [٢] .

٩- **عبد الله بن محمّد بن عبد الله الكناني الحشمي** :

ذكر السلفي أنه قال له:« قرأت على أبي إسحاق الخفاجي كثيراً من شعره »[٣] .

١٠- **أبو بكر بن رزق** .

١١- **أبو عمر بن عيّاد** .

١٢- **أبو محمّد بن عبيد الله** .

١٣- **أبو يوسف يعقوب بن طلحة ، وغيرهم** . ذكرهم ابن الأبّار[٤] .

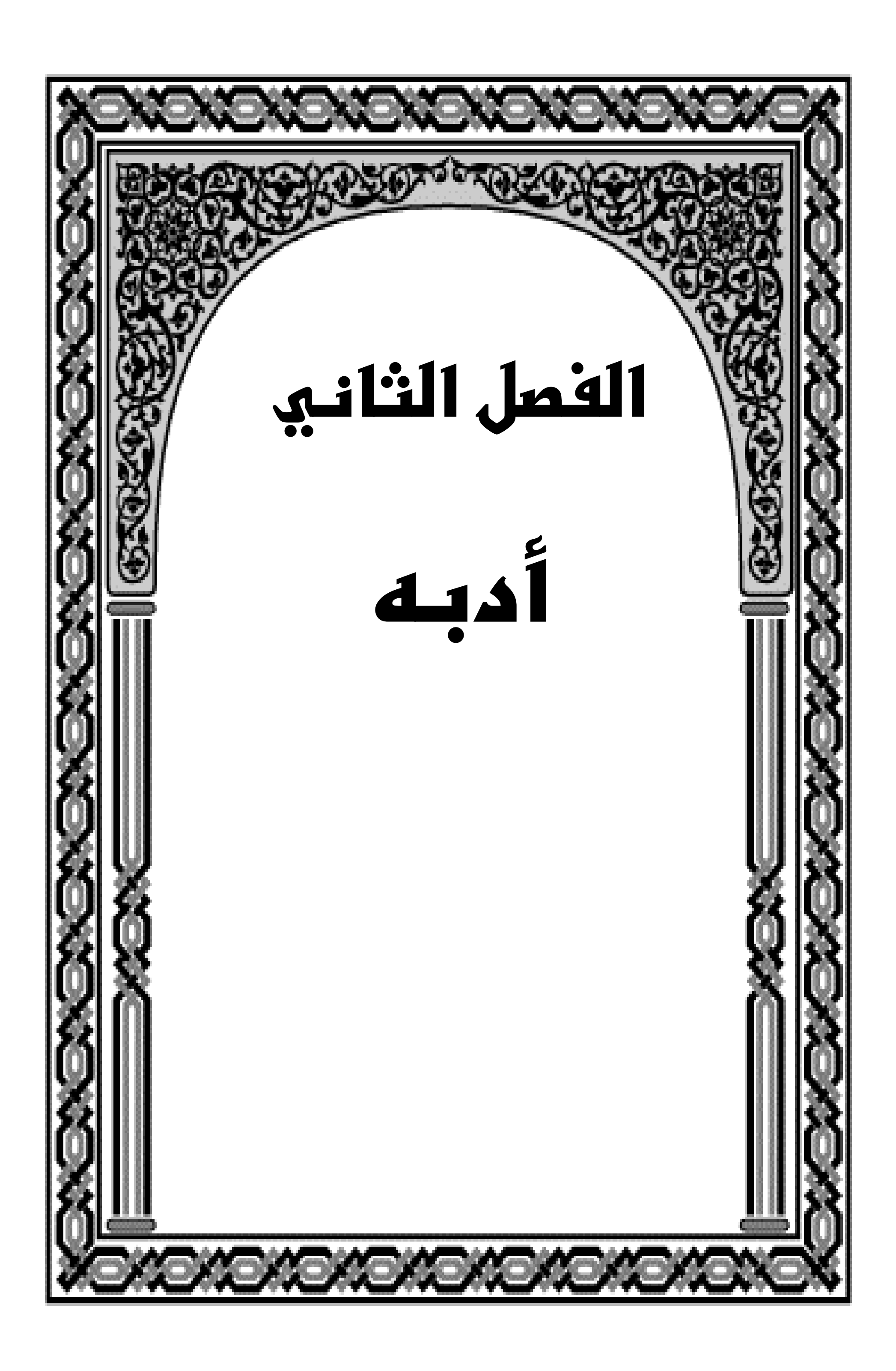
---

١ - تاريخ الإسلام : ٣٢٣/٤١ – ٣٢٤ ، وانظر المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٦١، تحفة القادم : ٢٥ .

٢ - الذيل و التكملة : ٩٤/١.

٣ - معجم السفر : ١٥٠ .

٤ - التكملة : ١٧٦.



الفصل الثاني

أدبه

الفصل الثاني أدبه

أولاً : الثنـاء على شعره و نـقده

١- الثنـاء على شعره

كما كان ابن خفاجة ظاهرة فريدة في حياته كان كذلك شعره الذي انتشر في المشرق والمغرب وطبّقت شهرته الآفاق ، وتداول الناس ديوانه بسنده إليه وتنافسوا فيه ، كما ذكر ابن الأبّار في التكملة : « وديوان شعره متنافس فيه ، مرويّ عنه »[١]. وقال في المعجم :« وديوانه عندي من طرق إليه .. »[٢] ثمّ يعدّد هذه الطرق ، وكذلك الأمر في فهرسة ابن خير (ت ٥٧٥ هـ) والخريدة للعماد (ت ٥٩٧ هـ) [٣] .

وقال ابن خلّكان : « وله ديوان شعر قد أحسن فيه كلّ الإحسان »[٤] .

وقال الحافظ الذهبيّ في السير : « له ديوان مشهور »[٥] ، وقال في تاريخ الإسلام : « وديوانه موجود بأيدي الناس »[٦] .

---

١ - التكملة : ١٧٦

٢ - المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي : ٥٨ .

٣ - فهرسة ابن خير : ٤٠٧ ، خريدة القصر : ١/ ١٤٩ .

٤ - وفيات الأعيان : ٥٦/١ ، الوافي بالوفيات : ٥٥/٦ .

٥ - سير أعلام النبلاء : ٥٢/٢٠ .

٦ - تاريخ الإسلام : ٣١٣/٣٦ .

وقد أثنى النقّاد الأندلسيّون والمشارقة على شعر ابن خفاجة في حياته وبعد مماته ثناء كثيراً ، وقد أسبغ عليه الثناء معاصروه الأندلسيّون ولاسيّما ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) الذي التقاه غير مرّة وسمع بعض شعره منه ، فقال في ترجمته الموسّعة له ، وقد قدّمه على جميع الأدباء والشعراء في قسم تراجم « بدائع نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء » :

« الفقيه الأديب أبو إسحاق ابن خفاجة – رحمة الله عليه – :

مالك أعنّة المحاسن وناهج طريقها ، العارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها الراقم لبرودها ، المجيد لإرهافها ، العالم بجلائها وزِفافها ، تصرّف في فنون الإبداع كيف شاء ، وأتبع دلوه في الإجادة الرشاء ، فشعشع القول وروّقه ، ومدّ في ميدان الإعجاز طُلُقَه ، فجاء نظامه أرقّ من النسيم العليل وآنق من الروض البليل ، يكاد يمتزج بالروح ، وترتاح إليه النفس كالغصن المروح ، إن شبّب فغمزات الجفون الوطف ، أو إشارة البنان التي تكاد تعقد من اللطف ، وإن وصف سراه والليل بهيم ما فيه وضوح ، وخدّ الثرى بالندى منضوح ، فناهيك من غَرَض انفرد بمضماره ، وتجرّد لحمى ذماره ، وإن مدح فلا الأعشى للمحلّق ، ولا حسّان لأهل جلّق ، وإن تصرّف في فنون الأوصاف ، فهو فيها كفارس خَصَاف ... وقد أثبتُّ له ما يقف عليه اللواء ، وتصرف إليه الأهواء »[١] .

---

١ – قلائد العقيان : ٧٣٩/٤ – ٧٤٠ .

ومنهم ابن بسّام الشنترينيّ (ت ٥٤٢ هـ) الذي اختلط بعض عباراته بعبارات ابن خاقان ولا ندري السبب ، ولا نعلم من هو صاحبها على وجه التحديد ، ممّا لا داعي لتكرارها ، قال :

« في ذكر الأديب أبي إسحاق إبراهيم ابن خفاجة :

الناظم المطبوع ، الذي شهد بتقديمه الجميع ، المتصرّف بين حكمه وتحكّمه البديع ... نشأ ببلاد الجانب الشرقي من الأندلس فلم يذكر معه هناك محسنٌ ... وهو اليوم بمطلعه من ذلك الأفق ، يبلغني من شعره ما يُبْطل السحر ، ويعطّل الزهر ، وقد أثبتُّ بعض ما وقع إليّ من كلامه فتصفّحْه تعلمْ أنّه بحر النظام ، وبقيّة الأعلام »[1] .

ومنهم الرشاطيّ (ت ٥٤٢ هـ) الذي نقل عنه ابن الأبّار أنّه « وصفه بالمعارف الجمّة والآداب ، وقال فيه " واحد عصره ونسيج وحده، والطبع الكريم والهدي القويم " »[2].

وقال فيه ابن بشكوال (٤٩٤ – ٥٧٨ هـ) الذي أدركه قرابة أربعة عقود : « هو حامل لواء الشعر بالأندلس ، والإمام فيه غير مدافع ، فإنّه سلك فيه طريق الحلاوة والجزالة ... وله مقطّعات ترويها الرقاع، وتزدان بسماعها الأسماع »[3].

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٥٤١/٢/٣ – ٥٤٢ .

٢ – التكملة : ١٧٦

٣ – الصلة : ٩٩ .

ومنهم الحجاريّ (ت ٥٨٤ هـ) في كتابه المسهب الذي لم يصل إلينا ونقل عنه ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) في المغرب أشياء كثيرة ، منها قوله في ابن خفاجة :

« هو اليوم شاعر هذه الجزيرة ، لا أعرف فيها شرقاً ولا غرباً نظيره »[١] .

وقال ابن عميرة الضبّيّ (ت ٥٩٩ هـ) عنه :

« شاعر مشهور متقدّم مبرّز حسن الشعر جدّاً ، خبيث الهجاء ، وشعره كثير مجموع ، وكانت له همّة رفيعة »[٢] .

وقال ابن دحية الكلبيّ (ت ٦٣٣ هـ) :

« ومن فحول شعراء الأندلس مالك أزمّة القريض ، وماسك راية التصريح فيه والتعريض ، شعره أرقّ من النسيم ، وآنق من المحيّا الوسيم أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الخفاجي »[٣] .

وقال ابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) في تكملته :« وكان عالماً بالآداب، صدراً في البلغاء، متقدّماً في الكتّاب والشعراء ، يتصرّف كيف يريد، فيبدع ويجيد ناظماً وناثراً ومادحاً وراثياً ومشبّباً ومشبّهاً »[٤] .

---

١ – المغرب في حلى المغرب : ٣٦٧/٢ .

٢ – بغية الملتمس : ١٩٨ .

٣ – المطرب : ١١١ .

٤ – التكملة : ١٧٦

ووصفه الحافظ الذهبيّ (ت ٧٤٨ هـ) بأنّه « شاعر وقته »[١] ، وله « النظم المفلق والنثر الرائق »[٢].

وقال ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) :

« هو للفضل نبعه وغربه ، وضبعه ومذهبه ، كان في الأندلس للأدب إبراهيمه الذي وفّى ، والذي أبرا هيمه بمورده الأصفى ، أجاد الصناعتين إتقاناً ، وسحر خيل الدراري إتقاناً ، وأحمّ قريحته فقذف بحره جماناً ، وأتى بفرائده خلجى وسلوكة ، وبجواره مجهولة ومسلوكة ، معين صباح ما أعذبه ، ومنير فجر ما أكذبه ، أخفى خفاجيّه سنا كلّ متقدّم ، وترك خفاجيّ حلب لا يعرّج عليه إلّا متندم »[٣].

أمّا تعليقات الإعجاب على ما استشهد من شعره أو وصف شعره ؛ فهي كثيرة كقول ابن دحية تعليقاً على مقطوعة لابن خفاجة : « هذه في غاية الرقّة ، رقّت وراقت ، وسادت كلّ نظم وفاقت ، ورفأت القلوب السليمة لما أصيبت فضاقت وأعيت النفوس القويّة لما أطاقت »[٤].

وكقول ابن خلّكان :« ومن شعره في عشيّة أنس ، وقد أبدع فيه »[٥].

---

١ – سير أعلام النبلاء : ٥٢/٢٠ .

٢ – تاريخ الإسلام : ٣٦ /٣١٣

٣ – مسالك الأبصار : ٧٩

٤ – خريدة القصر : ١٤٩/١ — ١٥٠ .

٥ – وفيات الأعيان : ٥٦/١ .

وقال الصفديّ : « ذكرت بالثالث قول ابن خفاجة وهو أحسن تخيّلاً »[1] .

وقال أبو الفتح العبّاسيّ: (ت ٩٦٣ هـ) « ومن أحسن ما ورد في مراعاة النظير قول ابن خفاجة يصف فرساً »[2].

وقال الشريف السبتي الغرناطي (ت ٧٦٠ هـ): « وما أحسن قول أبي إسحاق ابن خفاجة »[3].

وعلّق شهاب الدين المقّريّ على بيتين لابن خفاجة فقال : « وهو من بديع الشعر وكم لابن خفاجة من مثله » ، وقال أيضاً: « ولله درّ ابن خفاجة حيث يقول » ، وقال كذلك :« وما أحسن قول ابن خفاجة » ، وقال :« و ما أحلى ما كتب به أبو إسحاق ابن خفاجة من رسالة في ذكر منتزه »[4].

وقال الشهاب الخفاجيّ (ت١٠٦٩ هـ) : « ومن بدائع ابن خفاجة الأندلسي في ساق أحدب أسود » ، وقال أيضاً « ولله درّ ابن خفاجة في قوله »[5].

---

١ - الوافي بالوفيات : ١٥٤/٢ .

٢ - معاهد التنصيص : ٢٣٠/٢ .

٣ - رفع الحجب المستورة : ٥١/٢ .

٤ - نفح الطيب : ٦٠/٤ ، ٢١٠/١ ، ١٦٩/١ ، ٥٣٦/١ .

٥ - ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا : ٣٩/١ ، ٣١٧/١.

٢- نقد شعر ابن خفاجة

ثمّة لمحات نقديّة سريعة إلى شعر ابن خفاجة لا تقتصر على الثناء بل تحدّده وتصفه وتبيّن مكامن الجودة فيه، وتتجاوز ذلك لتبيّن أخذ ابن خفاجة من سابقيه ، وأخذ من تلاه عنه ، فقد قال صلاح الدين الصفدي عنه : « وهو ممّن أجاد الاستعارة »[١] .

وتطرّق حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) لمن له قوّة التشبيه في جميع كلامه من الشعراء أو في أكثره فقال : « ومن أئمّة هذا الصنف : الشريف ، ومهيار ، وابن خفاجة »[٢] .

وذكر حازم أنواع الشعراء وأنماطهم فرأى أن بعضهم يمشي على نهج غيره ، « ومنهم من اختصّ بمنزع يتميّز به شعره من شعر سواه ، نحو منزع مهيار ومنزع ابن خفاجة »[٣] .

ووصف ابن الزبير(ت ٧٠٨ هـ) شعر ابن خفاجة فقال : له « شعر سلس »[٤].

وأشار ابن الأبّار إلى أنّ ابن خفاجة استفاد من شعر من سبقه من

---

١ - الوافي بالوفيات : ٥٥/٦

٢ - منهاج البلغاء : ٣٤٣

٣ - المصدر نفسه : ٣٦٦ .

٤ - بغية الوعاة : ٤٢٢/١ .

الشعراء فقال : « وقال أبو عمر القسطلّيّ[1] :

وحـال المـوج بـين بـني سـبيل يطير بهـم إلى الغـول ابنُ مـاء

أغـرّ لـه جنـاح مـن صـباح يرقـرق فـوق جـنح مـن سمـاء

أخذه أبو إسحاق ابن خفاجة فقال :

وَجارِيَـةٍ رَكِبْـتُ بِهـا ظَلامـاً يَطيرُ مِنَ الصَّبَاحِ بِها جَناحُ[2]

وأمّا ما أخذ من صور ابن خفاجة ومعانيه فهو أكثر بكثير ، ومن ذلك قول صاحب النفح إنّ ابن زمرك (ت ٧٩٧ هـ) أخذ معنى طرديّة ابن خفاجة [3] .

وقال ابن حجّة الحمويّ (ت ٨٣٧ هـ) « وهذا المعنى مولّد من قول ابن خفاجة الأندلسي » [4].

وقال العبّاسيّ:« وكلّهم أخذوا الوجه والعذار من ابن خفاجة حيث يقول »[5]

وكذلك قال : « وهو مأخوذ من قول أبي إسحاق ابن خفاجة »[6].

---

١ – هو ابن درّاج (ت٤٢١ هـ) .

٢ – تحفة القادم : ١٧١، والبيت في الديوان : ١٣٨ .

٣ – نفح الطيب : ١٦١/٧ .

٤ – خزانة الأدب : ٥٠/١.

٥ – معاهد التنصيص : ١٥٨/٢ .

٦ – المصدر نفسه .

وقال المحبّي (ت ١١١١ هـ) :« أصل هذا المعنى لابن خفاجة الأندلسيّ في قوله »[١].

وجعل بعض النقّاد ابن خفاجة مقياساً للشعر الجيّد كقول ابن سعيد الأندلسي عن ابن قزمان الزجّال (ت ٥٥٥ هـ) : إنّه ترك نظم الشعر وانتقل منه إلى الزجل لأنّه رأى نفسه : « تقصّر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره »[٢].

وقال الصفديّ عن الشاعر الأندلسيّ محمّد بن أحمد البرتانيّ البلنسيّ (ت٥٣٣ هـ) : «كان من طبقة ابن خفاجة في الأندلس»[٣].

ووصف ابن الخطيب شعر ابن زمرك بأنّه « خفاجيّ النزعة ، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادّة»[٤].

وذكر ابن سعيد الأندلسيّ في أوّل كتابه الغراميّات أنّه التقى الشاعر البهاء زهير (ت ٦٥٦ هـ) بالقاهرة ، فقال له البهاء : « اعلم أنّك نشأت بأرض ولع شعراؤها بالغوص على المعاني وزهدوا في عذوبة الألفاظ والتلاعب بمحاسن صياغتها المكسوّة بأسرار الغرام ، فطريقة المغاربة مثل قول ابن خفاجة :

---

١ - نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة : ٥٥٦/٢.

٢ - المغرب في حلى المغرب : ١٠٠/١ .

٣ - الوافي بالوفيات : ٦٨/٢ .

٤ - الإحاطة : ٣٠٣/٢ .

وَعَشِــــيٍّ أُنــــسٍ أَضْــــجَعَتني نَشــــوَةٌ
فيـــهِ تُمَهِّـــدُ مَضـــجَعي وَتُـــدَمِّثُ

خَلَعَــتْ عَلَــيَّ بِــهِ الأَراكَــةُ ظِلَّهــا
وَالغُصــنُ يُصــغِي وَالحَمــامُ يُحَــدِّثُ

وَالشَّــمسُ تَجــنَحُ لِلغُــروبِ مَريضَــةً
وَالرَّعــدُ يَرقــي وَالغَمامَــةُ تَنفُــثُ

...

لا يشقّ فيها غبارهم ولا تلحق إلّا آثارهم »[1] .

وثمّة رأي غريب نقله ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عن شيوخه يعيب فيه كثرة معاني ابن خفاجة وازدحامها واستغلاق بعضها على الفهم ، مع اعترافه بكون ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس ، قال :

« ولا يكون الشعر سهلاً إلّا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ، ولهذا كان شيوخنا – رحمهم الله – يعيبون شعر أبي إسحاق ابن خفاجة – شاعر شرق الأندلس – لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد »[2].

ولعلّه مديح بما يشبه الذمّ ، إذ لا تذمّ كثرة المعاني بل قلّتها ، أو هو فهم قاصر في مرحلة معيّنة لطبيعة الشعر ووظيفته ، ساد فيها الاهتمام بالصبغ البديعي وطغى على ما سواه .

---

١ – الوافي بالوفيات : ١٤/ ١٥٧.

٢ – تاريخ ابن خلدون : ٧٩١/١ .

٣- ملامح نقديّة عند ابن خفاجة

ربّما علم ابن خفاجة أنّ بعض شعره يحتاج إلى شرح فقام بشرح بيت وضبط آخر وعلّق على ثالث ، وقدّم لجميع قطعه وقصائده بمقدمات توضّحها كما ذكرنا ، فقال ابن خفاجة شارحاً البيت الأخير من قصيدته في تهنئة القاضي ابن عصام بعوده إلى خطّة القضاء ، وتعريضه بحاسده :

« مـا غَـصَّ بِالدَّمْعَـةِ إلَّا هَفَـا　　　فَـانظُر تَجِـدْ ثَمَّ السِّـوَارَ والوِشَـاحْ

شأن حلية الأذرع والأسوُق أنْ توصف بالغَصَص والشَّرَق، كما أنّ حلية الآذان والخصور توصف بالجَولان والقَلَق. فالمعنى أنَّ هذا الحاسد قد جمع بين الشَّرَق والقَلَق، فهو كلّ واحد من هذين الموصوفين في حالة واحدة »[1] .

وقال ابن خفاجة معلّقاً على البيت الأخير من قطعة شعرية له، وهو:

فَرَغِبتُ عَن نَورِ الصَباحِ لِزَوْرَةٍ　　　أُغْـرَى لَهَـا بِبَنفسَـجِ الظَّلْمـاءِ

نَوْر الصباح في البيت الأخير من القطعة المهموزة ثبّت فيها مفتوحَ النون وسيُغيّر فينشد — لا محالة — مضموم النون ، فينقص رونق البيت »[2].

---

١ – الديوان : ١٦٧ .

٢ – الديوان : ١٥٤ .

فابن خفاجة ضبط البيت بالفتح ونبّه على ذلك ، خشية من تغييره، وذلك ليحافظ على الصورة الفنّيّة المتّسقة في طرفي البيت الشعريّ ، ولئلّا ينقص معنى البيت وتختلّ الصورة الفنّيّة فيه ، ممّا يدلّ على علم عميق بفنّ الشعر وصنعته ، فلا غرو – بعد ذلك – أن وضعه صدّيق القنّوجي في باب علماء الشعر[1]، وقد سبق أن وصفه الرشاطي « بالمعارف الجمّة والآداب »[2].

وعلّق ابن خفاجة على بعض أبياته الشعرية وبيّن مصدر بعض صوره، وناقش ونقد نقدَ أديب ولغويّ عارف متمكّن قال :

« قوله في هذه القصيدة: " وَنَزَلتُ أَعتَنِقُ الأَراكَ مُسَلِّما "

ينظر إلى قول أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً ... لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا

والقسم الآخر من هذا البيت من الكلام الموجز – وهو تضمين جميع معنى قول أبي الطَّيِّبِ في بيان المعنى بقوله «نزلتُ مُسَلِّمَا» – غنيّ بالإشارة عن العبارة. وهلْ نزل مسلّماً إلَّا إجلالاً للديار، وتكرمة للرسوم والآثار؟ ثمّ إنّه لمّا مشى في قصيدته شيئاً، عطف بنحوه، وأتى ببيتين مع زيادة وإفادة،

---

١ – أبجد العلوم : ٩٢/١ .

٢ – التكملة : ١٧٦ .

وهما قوله:

فِي مَنــــزِلٍ مـــا أَوطَأْتُــــهُ حَـــافِراً ... عُرْبُ الجِيادِ وَلا الـمَطَايَا مَنْسِما

أَكرَمتُــهُ عَــن أَن يُــذَالَ بِوَطْــأَةٍ ... وَلِمِثلِـهِ مِــنْ مَنــزِلٍ أَن يُكْرَمــا

فجمع بين المراكب من خيل وإبل. ولما فرغ من المعنى في صدر البيت الثاني، تمّمه بقوله: « وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما »

فإنّه قد يكرم غير كريم، ويجلّ غير جليل.

وفي بيت المُتَنَبِّي لفظة تغضّ من شرفه، وهي لفظة «من». وهي ها هنا مستجفاة، لا مستحلاة. ولو أنّه قال:

نَزَلْنَـا عَـنِ الأَكْـوَارِ نَمْشِـيْ كَرَامَـةً ... لِأَهْلِيْـهِ أَنْ نَغْشَـى رُسُـوْمَهُمُ رَكْبَـا

لجاء البيت أتمّ جلالة وجزالة، لكنّ أبَا الطَّيِّبِ إنّما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالألفاظ . وربّما قال قائل: للفظة «بان» معنى في البيت . فيقال له : إنّ لفظة الرسوم تعطي ما تعطيه لفظة «بان» من إقواء المنزل، فاللفظان متساويان هنا.

وربّما أنكر علينا منكر ما أوردناه في لفظة «من»، إمّا لاعتياده إنشاد البيت حسب ما وقع حتّى ألفته نفسه وطبعه، واستساغه لسانه وسمعه، وإمّا لجساوة في حسّه، وغباوة في نفسه، وذلك ما ليس في رفع أَوَدِه من

أمل، ولا عمل. والدليل على ما ذكرناه في لفظة «من»، أنّك تجد قولك « لقيت من ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت الذي ضرب زيداً»، وقولك «لقيت الذي ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت ضارب زيد». وكلّ ذلك إنّما ينزل في النفس عن مرتبة الجلالة لا عن المعنى.

وربّما حمل علينا حامل فقال: إنّ هذا الرجل يتعاطى رتبة في الشعر فوق رتبة المُتَنَبِّي. وليس الأمر كذلك، لأنّه لم يعترضه في جملة شعره، وإنّما اعترضه في لفظة، وهذا ليس بمستنكَر ولا بمستكبر »[1].

وحاسّة النقد لديه قديمة تبدّت منذ سنة (ت٤٨٠ هـ) في نقده لأبيات ابن رشيق القيروانيّ (ت٤٥٦ هـ)الذي لم يتمكّن من مقابلة الأفعال بأصحابها في مقطوعته ، فرأى ابن خفاجة أنّ الأستاذ ابن أبي تليد :

« قد أعجب بها جدّاً، وأثنى عليها كثيراً: أحسن ما في القطعة حسن سياقة الأعداد. فقلت له: هي حسنة، ولكنّها دون موقعها منك. وإلّا، ألست تراه قد استرسل، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فيُنزل بإزاء كلّ واحد منها ما يلائمها؟ وهل يحسن أن يُنزِل بإزاء قوله «وَإذَا نَطَقْ»، قوله «شَغَلَ الحَدَقْ» [2].

---

١ – الديوان : ٢٨٣ ، ٢٨٤، ٢٨٥ .

٢ – الديوان : ٣٥٨ .

وثمّة خبر آخر أورده ابن الأبّار في " معجمه " يدلّ على حسّ ابن خفاجة النقدي الثاقب النافذ ، وهو أنّه سمع بيتين لأبي الحسين العاصمي (ت٤٨٢ هـ) في الطواف يقول فيهما :

وحرّم غمضي والحجيج على منى غــزال رأينــاه بمكّــة محرمــا

رمـى وهـو يسـعى بالجمـار وإنّمـا رمى حبّة القلب المعذّب إذ رمى

فغيّر ابن خفاجة عبارة "حبّة القلب" إلى "جمرة القلب" فيما ذكره أستاذه عتيق بن أسد، فصارت النتفة تنشد كما أصلحها ابن خفاجة[1].

وتتجلّى رؤيته النقديّة للشعر عامة، في خطبة ديوانه حيث ذكر أجزاء الشعر :

«وَالشِّعْرُ، وَإِنِ اهْتُبِلَ بِهِ وَاعْتُمِلَ فِيهِ، لَيْسَ يَخْلُو جَيِّدُه مِنْ سَقَطٍ، وَانْقِسَامٍ إلى طَرَفَيْنِ وَوَسَطٍ، فَإِنَّ الأَذْهَانَ بِأَخْرَةٍ تَكِلُّ، وَالمَوَادَّ مِنْ أَلفَاظٍ وَقَوَافٍ

---

١ - المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٣٠٤ – ٣٠٥ .

وقد سبق أن رأينا ابن خفاجة يعلّل سبب إكثاره من شعر وصف الطبيعة (الديوان :٢٩٠) ، ورأيناه في رسائله يعلّل مزجه بين الرثاء والغزل ثمّ يردف بالمدح (الديوان : ٢٠٣ – ٢٠٤) ورأيناه يصف إرهافه لغزل قصيدته وتقويته لها بالأساليب الجزلة في المديح كما يقول (الديوان : ٢٩٦) .

تَقِلُّ. وَأَيْضاً، فَكُلُّ مَا يَنْشَأُ مِنْ أَجْزَاءٍ مُؤْتَلِفَةٍ، فَإِنَّمَا يَتَرَكَّبُ مِنْ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ.

وَالشِّعْرُ يَأْتَلِفُ مِنْ مَعْنىً ولَفْظٍ وَعَرُوضٍ وَحَرْفِ رَوِيٍّ، فَقَدْ يَتَعَاصَى فِي بَعْضِ الأَمْكِنَةِ جُزْءٌ مِنْ هذِهِ الأَجْزَاءِ أَوْ أَكْثَرُ، فَطَوْراً يُنْظَمُ البَيْتُ وَآوِنَةً يُنْثَرُ، حَتَّى يَنْتَظِمَ بِحَسَبِ المَأْمُولِ، أوْ يَنْشَأَ نَاقِصَ مَاءِ الحُسْنِ وَالقَبُولِ:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا   كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ[1]

ثمّ وضّح قضيّة جوهريّة في الشعر وهي أن المقصود من الشعر التخييل لا الصدق ولا الكذب ، قال :

« يُسْتَجَازُ فِي صِنَاعَةِ الشِّعْرِ، لا فِي صِنَاعَةِ النَّثْرِ، أَنْ يَقُولَ القَائِلُ فِيهِ "إِنِّي فَعَلْتُ" وَ "إِنِّي صَنَعْتُ" ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، فَإِنَّ الشِّعْرَ مَأْخَذٌ وَطَرِيقَةٌ ، وَإِذَا كَانَ القَصْدُ فِيهِ التَّخْيِيلَ، فَلَيْسَ القَصْدُ فِيهِ الصِّدْقَ، وَلَا يُعَابُ فِيهِ الكَذِبُ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَهَذَا السَّرْدُ مِنَ الكَلامِ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ أَهْلُهُ، وَمَنْ شَأْنُهُ عَقْدُهُ وَحَلُّهُ »[2].

---

١ – الديوان : ٩ .

٢ – الديوان : ١٠ .

ثانياً : آثاره

١- تأليف لغوي :

نقل جلال الدين السيوطيّ عن ابن الزبير في كتابه "صلة الصلة" أنّ لابن خفاجة « تآليف لغويّة »[١]، ولكنه لم يذكر لنا أسماءها ، ولم يشر إلى محتوياتها.

وذكر الحافظ الذهبي في ترجمته لابن خفاجة أنّه : « له تأليف في غريب اللغة »[٢]، وقال صلاح الدين الصفدي : « وله تأليف في اللغة غريب»[٣]، ولا نعرف عن هذه الكتب أو هذا الكتاب شيئاً ، بيد أنّ اهتمام ابن خفاجة باللغة واضح ، ومعرفته واسعة بها ، تبدّى في غنى مفرداته اللغويّة وسلامة تركيبه اللغويّ ،وظهر في تعليقاته النقدية[٤].

وثمّة رسالة لابن خفاجة فريدة في نوعها استعمل فيها المصطلحات النحوية والصرفية وبعض المصطلحات العروضيّة من أوّلها إلى آخرها :

« وكانت بينه وبين بعض إخوانه مقاطعة ، فاتّفق أن ولي ذلك الصديق حصناً ، فخاطبه أبو إسحاق برقعة منها :

١- بغية الوعاة : ٤٢٢/١ .

٢ - تاريخ الإسلام : ٣١٣/٣٦ .

٣ - الوافي بالوفيات : ٥٥/٦ .

٤ - الديوان : ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

أَطَـالَ اللهُ بَقَـاءَ سَـيِّدِي، النَّبِيهَـةِ أَوْصَـافُهُ النَّزِيْهَـةِ عَـنِ الاسْـتِثْنَاءِ، المَرْفُوعَةِ إِمَارَتُهُ الكَرِيمَةِ بِالابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمِّ.

كَتَبْتُ عَنْ وُدٍّ قَدُمَ هُوَ الحَالُ لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرُمَ هُوَ الفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ اعْتِلالٌ. وَاللهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الحُرُوفِ الجَازِمَةِ، وَإِنَّمَا أَسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ، إِلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ، بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الوَصْلِ وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الفَصْلِ، وَإِلَى عُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ القَطْعِ، إِلَى بَابِ أَلِفِ الوَصْلِ وَالجَمْعِ، حَتَّى تَسْقُطَ لِدَرْجِ الكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ، وَيَدْخُلَ الانْتِقَالَ حَالُ الصَّمْتِ.

فَلا تَتَخَيَّلْ– أَعَزَّكَ اللهُ– أَنَّ رَسْمَ إِخَائِكَ عِنْدِي ذُوْ حِسىً قَدْ دَرَسَ عَفَاءً، وَلَا أَنَّ صَدْرِي دَارُ مَيَّةَ أَمْسَى مِنْ وُدِّكَ خَلاءً، وَإِنَّمَا أَنَا فِعْلٌ إِذَا ثُنِّيَ بِوُدِّكَ ظَهَرَ مِنْ ضَمِيْرِ وُدِّهِ مَا بَطَنَ، وَبَدَا مِنْهُ مَا كَانَ كَمَنَ. وَهَنِيئاً– أَعَزَّكَ اللهُ– أَنَّ فِعْلَ وِزَارَتِكَ حَاضِرٌ لَا يَلْحَقُ رَفْعَهُ تَغْيِيرٌ، وَأَنَّ فِعْلَ سَيْفِكَ مَاضٍ مَا بِهِ لِلعَوَامِلِ تَأْثِيرٌ، وَأَنْتَ بِمَجْدِكَ جِمَاعُ أَبْوَابِ الظَّرْفِ، تَأْخُذُ نَفْسَكَ العَلِيَّةَ بِمُطَالَعَةِ بَابِ الصَّرْفِ، وَدَرْسِ حُرُوفِ العَطْفِ، وَتُدْخِلُ لَامَ التَّبْرِئَةِ عَلَى مَا حَدَثَ مِنْ عَتْبِكَ، وَتُوجِبُ بَعْدَ النَّفْيِ مَا سَلَفَ مِنْ قُرْبِكَ، وَتَدَعُ

أَلِفَ الأُلْفَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدُ مِنْ حُرُوفِ اللِّيْنِ، وَتَرْفَعُ بِالإِضَافَةِ بَيْنَنَا وُجُودَ التَّنْوِينِ، وَتَسُومُ سَاكِنَ الوُدِّ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَمُعْتَلَّ الإِخَاءِ أَنْ يَصِحَّ.

وَكِتَابِي هَذَا حَرْفُ صِلَةٍ فَلا تَحْذِفْهُ، وَلَا تَدُلَّ فِي اسْمِ الجَوَابِ عَلَى سَرْوِكَ فَاصْرِفْهُ. فِيْهِ الأُنْسُ- وَالأُنْسُ ثُلاَثِيٌّ- فَلا تُرَخِّمْهُ، وَفِعْلٌ مَاضٍ فَلا تَجْزِمْهُ، حَتَّى تَعُودَ الحَالُ الأُوْلَى صِفَةً، وَتَصِيرَ هَذِهِ النَّكِرَةُ مَعْرِفَةً، فَأَنْتَ- أَعَزَّكَ اللهُ- مَصْدَرُ فِعْلِ السَّرْوِ وَالنُّبْلِ، وَمِنْكَ اشْتِقَاقُ اسْمِ السُّؤْدَدِ وَالفَضْلِ. وَإِنَّكَ- وَإِنْ تَأَخَّرَ العَصْرُ بِكَ- كَالفَاعِلِ وَقَعَ مُؤَخَّراً، وَعَدُوَّكَ- وَإِنْ تَكَبَّرَ- كَالكُمَيْتِ لَمْ يَقَعْ إِلَّا مُصَغَّراً. وَللأَيَّامِ عِلَلٌ تَبْسُطُ وَتَقْبِضُ، وَعَوَامِلُ تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ، فَلا دَخَلَ عَرُوضَكَ قَبْضٌ، وَلَا عَاقَبَ رَفْعَكَ خَفْضٌ، وَلازِلْتَ مُرْتَبِطاً بِالفَضْلِ شَرْطُكَ وَجَزَاؤُكَ، جَارِياً عَلَى الرَّفْعِ سَرْوُكَ الكَرِيمُ وَسَنَاؤُكَ، حَتَّى يُخْفَضَ الفِعْلُ، وَتُبْنَى عَلَى الكَسْرِ بَعْدُ وقَبْلُ، إِنْ شَاءَ اللهُ »[1].

٢_ مقامة

في الديوان ما نصّه : « وقال من مقامة في صفة سيل حدث بالجزيرة سنة ثمانين وأربعمئة »[2]، بيد أنّه في بعض نسخ مخطوطاته : " مقالة " بدل " مقامة " .

---

١ - الديوان : ٣٢٦ .

٢ - الديوان : ٣٠٨ .

٣- رسائله النثرية

ثمّة قسم من رسائله الأدبيّة في ديوان شعره الذي جمعه ابن خفاجة وضمّ إليه « بعض ما اقترن به من نثره »[١]، وقسم آخر منها في بعض كتب التراث الأندلسيّ والمشرقي، ولاسيّما "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ثمّ "خريدة القصر وجريدة العصر"، و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" [٢].

٤- ديوان شعره

وصل إلينا ديوان شعريّ لابن خفاجة على قدر كبير من الأهمّيّة ، لأهمّيّة هذا الشعر ذاته ، ولأنّه من صنع مؤلِّفه وناظمه ، وقد جمعه في منتصف العقد السابع من عمره بناء على طلب بعض أصدقائه منه ذلك ،

قال : « وَلَمَّا ارْتَقَتْ بِي السِّنُّ مُرْتَقَاهَا، وَشَارَفَتِ الحيَاةُ مُنْتَهَاهَا، وَتَوَالَتْ رَغْبَةُ الإِخْوَانِ فِيهِ تَتَجَدَّدُ، وحِرْصُ الأَعْيَانِ عَلَيْهِ يَتَأَكَّدُ، تَوَخَّيْتُ أَنْ أَقْصُرَهُ، فِي مُجَلَّدٍ وَأَحْصُرَهُ، وَأَحْشُرَهُ جُمْلةً وَأَنْشُرَهُ. وَكَانَ قَدْ بَادَ، أَوْ كَادَ، لِدُثُورِ رِقَاعِ مُسْودَّاتِهِ، وَإِخْلاقِ حَوَاشِي تَعْلِيقاتِهِ. وَاقْتَضَى النَّظَرُ فِيمَا حَاوَلْتُهُ أَنْ أَتَعَهَّدَهُ ثَانِياً تَعَهُّدَ مُؤَلِّفٍ، وأَتَفَقَّدَهُ عَائِداً تَفَقُّدَ مُتَأَمِّلٍ مُثَقِّفٍ، فَمِنْهُ مَا

---

١ – الديوان : ٥ .

٢ – الذخيرة : ٣/٢/٥٤٢ – ٥٦٢ ، خريدة القصر – قسم المغرب والأندلس : ٢/٥٤٨ – ٥٥٢، مسالك الأبصار : ٩١ – ٩٣ .

تَعَهَّدْتُهُ فَقَيَّدْتُهُ، وَمِنْهُ مَا لَحَظْتُهُ فَلَفَظْتُهُ، وَمِنْهُ مَا تَصَفَّحْتُهُ فَأَصْلَحْتُهُ، إِمَّا لاسْتِفَادَةِ مَعْنىً، وَإِمَّا لاسْتِجَادةِ مَبْنىً. وَكَانَ قَدْ شَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَذَاعَ، فَمِنْ مُتَعَلِّقٍ بِنَفْسٍ، وَمِنْ مُعَلَّقٍ فِي طِرْسٍ. وَسَيَخْتَلِفُ وُجُودُهُ بِمَا عَاوَدْنَاهُ مِنْ مُفْتَقَدِهِ وَمُنْتَقَدِهِ، فَلا يَوجَدُ وَاحِداً، لا مِنْ طَرِيقِ صِيغَتِهِ، وَلا مِنْ جِهَةِ عَدَدِهِ » [1].

إذاً فهذا الديوان الذي جمعه ابن خفاجة بنفسه لا يحوي كلّ شعره الذي قاله ؛ بل قد حذف منه ما لم يرق له مستواه الفنّيّ أو ما لا يريد إظهاره لسبب من الأسباب ،كما أنّه عدّل بعضه ، وقد أشار إلى ذلك مرّة فقال : « وممّا قاله في الشبيبة ثمّ غيّره مع الكهولة » [2] ، وغيّر فيه كلمات وعبارات ، لذلك قد نرى بعض الاختلاف في نصّه في المصادر التي ذكرت شعره عمّا أثبته هو في ديوانه .

كما نصّ على أنّه أكثر من سرد قسم كبير من شعر عصر الشبيبة — حرصاً عليه وتعلّقاً به — في الديوان ؛ من باب الدعابة والظرف ، قال :

« ومِنْهُ ما كانَ قَدِ انْتَظَمَ فِي عَصْرِ الشَّبِيبَةِ، وَبِطَرِيقِ الدُّعَابَةِ وَالطِّيْبَةِ، وَلَمَّا لَمْ نُشِـــرْ فِي مَعْنَاهُ إلى نُكْرٍ، وَلَمْ نُلِمَّ فِي أَلَفَاظِهِ بِهُجْرٍ، أَثْبَتْنَاهُ فِي بَابِ

---

١ – الديوان : ٨–٩ .

٢ – الديوان : ١١٢ .

الفُكاَهَةِ وَالهَزْلِ، وَلَعَلَّ لَهُما مَوْقِعاً مِنْ نَفْسِ الفَتَى النَّدْبِ وَالسَّيِّدِ الجَزل.

وَإِنِّي اسْتَرْسَلْتُ فِي إِثْبَاتِ مَا صَدَرَ عَنِّي مِنْ ذَلِكَ فِي صَدْرِ عُمْرِي، وَمُبْتَدَأِ أَمْرِي، اسْتِرْسَالَ ثِقَةٍ بِإِغْضَاءِ أَهْلِ الفَضْلِ، وَحَمَلَةِ السِّيَادَةِ وَالنُّبْلِ» [1].

ثمّ وعد ابن خفاجة أن يجعل ديوانه مرتّباً على حروف الهجاء إن أطال الله تعالى عمره ، فقال: « ثُمَّ إِنِّي أَعُودُ فَأَقُولُ: إِنْ نَسَأَ اللهُ فِي الأَجَلِ، وَفَسَحَ فِي المَهَلِ، انْتَظَمَ هَذَا الكِتَابُ فِي نَسَقِ القَوَافِي غَيْرَ هَذَا المُنْتَظَمِ، وَثَبَتَ عَلَى تَرْتِيبِ حُرُوفِ المُعْجَمِ »[2]، ولكنّ النسخ المخطوطة التي حقّق عليها الديوان غير مرتّبة ، بيد أنّ ابن بشكوال قال : « جمع ذلك في جزء فائق على حروف المعجم »[3].

لذلك فإنّ هذا الديوان لا يحتوي على كثير من شعر ابن خفاجة الذي نظمه بعد صنعه حتى وفاته ، ويفصل بينهما نحو من (١٨) عاماً ، وقد ذيّله محقّق الديوان الباحث الفاضل الدكتور السيد مصطفى غازي بملحق بما وجده في المصادر الأندلسيّة فالمشرقيّة وأخلّت به مخطوطات الديوان الثلاث التي اعتمدها من شعر ابن خفاجة ، وإن لم يستقص شعره ولم يستوفه ،كما خلط بينه وبين ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦هـ).

---

١ – الديوان : ١٠ .

٢ – الديوان : ١١ .

٣ – الصلة : ٩٩ .

ثالثاً : رسائله

جمع ابن خفاجة أكثر شعره في ديوان ، وضمّ إليه شطراً من رسائله النثريّة المتعلّقة بهذا الشعر غالباً ، وصدّر ديوانه بخطبة نقديّة مطوّلة مهمّة تتحدّث عن مفهومه للشعر وتجربته الشعريّة المتفرّدة .

وقد وضع ابن خفاجة لأكثر مقطوعاته وقصائده التي جمعها في ديوانه مقدّمات نثريّة توضّحها وتذكر مناسبتها وغرضها ، وربّما علّق على بعضها تعليقاً نثريّاً نقديّاً أو لغويّاً ، وقد أورد ما أبدعه من شعر ونثر بحسب صدورهما عنه لينشّط ذهن القارئ ويروّح عنه ، ويبعد الملالة منه من توالي النظم ، فثمّة قصائد مفردة ، وقصائد مذيّلة بقطع نثريّة ، وثمّة قطع نثريّة موشاة بشعره أو شعر غيره ، وقطع نثريّة مفردة ، وإن كان الشعر هو الغالب على الديوان ؛ فلا تكاد تزيد قطعه النثريّة على السدس منه . قال ابن خفاجة :

« وَإنَّ مِنْ قَوْلِنَا مَا كُنَّا قَدِ افْتَتَحْنَاهُ بِمَنْثُورٍ، وَوَشَّحْنَاهُ بِفقَرٍ مُزْدَوَجَةٍ وَشُذُورٍ. وَهَا نَحْنُ قَدْ أَوْرَدْنَاهُ، كَمَا كُنَّا سَرَدْنَاهُ، وَنَقَلْنَاهُ، بِحَسَبِ مَا قُلْنَاهُ، تَعَلُّقاً بِحُرٍّ مِنَ النَّثْرِ يُسَاقُ خِلالَ النَّظْمِ، وَيَنْتَقِلُ مُطَالِعُهُ عَنْ قِسْمٍ مِنَ الكَلامِ إِلَى قِسْمٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ أَبْسَطُ لِلنَّفْسِ وَأَنْشَطُ، وَأَذْهَبُ مَعَ الأُنْسِ وَأَهْذَب»[1] .

---

١ - الديوان : ١٠ .

وذكر ابن فضل الله العمريّ (ت ٧٤٩ هـ) نثره فقال : « وله نثر كثير ، وآخى فيه نظمه ، وإن كان ما زاد عليه رونقاً ، وجرى لا تردّه القافية متدفّقاً ، ولا إخال الدرّ يؤاخيه ، ولا أراه في الحسن دون أخيه »[١] .

وقوّم الصفديّ نثر ابن خفاجة باختصار فقال : « وله نثر جيد »[٢] .

وقال الذهبيّ : له « النثر الرائق »[٣] .

أنماط رسائله :

١ – الرسائل الديوانيّة :

لم يكن ابن خفاجة كاتباً من كتّاب الإنشاء في ديوان أحد من الأمراء المرابطين أو الولاة أو الوزراء أو القضاة ، بل كان يرى نفسه فوق ذلك ، ولكن ثمّة بعض الرسائل شديدة الصلة بالرسائل الديوانيّة بل تعدّ فيها ، إذ جعلها ابن خفاجة لأغراض سياسيّة صرفة ، فهو في إحداها يبشر بدعوة المرابطين ويدعو للدخول في طاعة المرابطين، ويحاجج من يناصبهم العداء، وكأنّه أحد دعاتها :

« **فصل** : هَا أَنْتُمْ – أَيَّدَكُمُ اللهُ – قَدْ أَظَلَّتْكُمُ الدَّوْلَةُ المَيْمُونَةُ ، وَوَافَتْكُمُ الإِمْرَةُ المَأْمُوْنَةُ ، وَلَطَالَمَا وَرَدَتْنَا تَسِيْرُ بِهَا الرِّفَاقُ ، فَتَطَلّعتْ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ

١- مسالك الأبصار : ٩١ .

٢ – الوافي بالوفيات : ٥٥/٦ .

٣ – تاريخ الإسلام : ٣٠٣/٣٦ .

وامْتَدَّتِ الأَعْنَاقُ ، وَهَذِهِ كَتَائِبُ النَّصْرِ قَدْ طَلَعَتْ عَلَيْكُمْ بَشَائِرُ صَبَاحِهَا ، وَأَظَلَّتْكُمْ قَادِمَةُ جَنَاحِهَا ، وَإِنَّ مَنْ نَاصَبَهَا فَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ فِيْ صَدْرِهَا وَيُقَصِّرَ مِنْ تَطَاوُلِ عِنَانِهَا عَنْ شَانِهَا :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيَفْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

هَيْهَاتَ تَوَخَّى مِنَ الفَلَكِ أَلَّا يَسْتَدِيْرَ، وَابْتَغَى مِنَ الشَّمْسِ أَلَّا تَسْتَنِيْرَ، وَاعْتَرَضَ فِي مَطْلَعِ اللَّيْلِ يَأْمُلُ أَلَّا يُظِلَّ ، وَنَصَبَ رَاحَتَهُ تِلْقَاءَ الفَجْرِ يُحَاوِلُ أَلَّا يُطِلَّ »[1].

٢ – الرسائل الإخوانيّة :

وهي قسمان:

أ– الرسائل الإخوانيّة مع الأصدقاء:

وهي الرسائل التي تبادلها مع أصدقائه من الأدباء والعلماء والقضاة والوزراء في موضوعات كثيرة ؛ أهمّها التهنئة والشكر ، والتقريظ ، والحنين ، والعتاب ، والشكوى ، والتعزية ، والشفاعة ، والاستدعاء، والاستهداء ، والإهداء ، ومن الموضوع الأخير قوله في إهداء تفّاحة :

« مِثْلُكَ– أَعَزَّكَ اللهُ– مِمَّنْ كَرُمَتْ سَجِيَّتُهُ فَرَقَّتْ، وَحَسُنَتْ جُمْلَتُهُ فَرَاقَتْ، فَكَانَتْ كُلِّيَّة الظَّرْفِ مِنْهُ شُعْبَةً، وَجُمْلَةِ الذَّكَاءِ شُعْلَةً، عَلِمَ أَنَّ خَيْرَ الهَدَايَا، مَا جَرَى مَجْرَى التَّحَايَا، وَأَنَّ أَفْضَلَ سَفِيرٍ سَفَرَ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ، وَتَرَّدَدَ

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٥٥٩/٢/٣ ، ولم ترد في الديوان .

بَيْنَ عَشِيْقَيْنِ، سَفِيرٌ أَشْبَهَ المُحِبَّ خِفَّةَ رُوْحٍ، وَالمَحْبُوبَ عَبَقَ رِيْحٍ. وَلَمَّا طَالَ، يَا سَيِّدِي، العَهْدُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُجَدِّدَهُ، وَرَغِبْتُ أَنْ أُؤَكِّدَهُ، وَتَوَقَّيْتُ مِنْ رَقِيبٍ يَرْعَى فَيَسْعَى، وَيَشِي فَيُفْشِي، لَمْ أَرَ أَنْ أَجْعَلَ رَسُولِي، وَأُجَشِّمَ اقْتِضَاءَ سُولِي، مِثْلَ حَمْرَاءَ عَاطِرَةٍ، كَأَنَّهَا دَمْعَةُ صَبٍّ قَاطِرَةٌ، أَوْ جَمْرَةٌ تُصْطَلَى وَاقدَةٌ، أَوْ خَمْرَةٌ تُجْتَلَى جَامِدَةٌ، مُشْتَقٌّ مِنَ الأَرَجِ اسْمُهَا، حَمِيدٌ فِي السَّفَارَةِ بَينَ مُحِبَّيْنِ رَسْمُهَا، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا ذَهَباً يَنْفَحُ، وَلَا لَهَباً لَا يَلْفَحُ، قَدْ أَوْدَعَ حَشَاهَا الصُّبْحُ فَلَقَهُ، وَخَلَعَ عَلَيْهَا اللَّيْلُ شَفَقَهُ، فَهِيَ تَقِدُ كَأَنَّهَا نُشِّئَتْ فِي تُرْبَةٍ مِنْ نَارِ ضُلُوعِي، أَوْ سُقِيَتْ بِجَدْوَلٍ مِنْ حُمُرِ دُمُوعِي. وَلَمَّا وَجَدْتُهَا فِي الحُسْنِ حَيْثُ العُيُونُ تَرْمُقُهَا فَتَمِقُهَا، وَالنُّفُوسُ تَنْشَقُهَا فَتَعْشَقُهَا، بَعَثْتُ بِهَا بَيْنَ تَحِيَّةٍ لَكَ، وَرَسُولٍ إِلَيْكَ ، مُعْتَقِداً أَنَّهَا سَتُقْبَلُ، عِنْدَمَا تُقْبَلُ، وَتُفَدَّى ، حِيْنَ تَتَصَدَّى، فَوَدِدْتُ أَنْ أَكُونَهَا، وَأَحْظَى بِتِلْكَ الحَالِ دُوْنَهَا»[1].

ب – الرسائل الإخوانيّة مع الأمراء والوزراء:

لابن خفاجة بعض الرسائل النثريّة المتّصلة بقصيدة المديح ، وبما أنّ أماديحه للأمراء المرابطين كانت أقرب إلى الإخوانيّات لأنّه لم يتكسب بها لذلك فإنّ الرسائل الملحقة بها والمكملة لها تعدّ كذلك ، وقد تكون هذه الرسائل توضيحاً لأمر معيّن أو تأكيداً لطلب محدّد لمّح إليه في القصيدة كما رأينا سابقاً في قصائده للأمراء إبراهيم وتميم وابن تيفلويت[2].

---

١ – الديوان : ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

٢ – الديوان : ٢٩٦ ، ٩٤ ، ١٧٠ .

٣- الرسائل الأدبيّة :

هي الرسائل التي ألّفها ابن خفاجة لغرض فنّيّ لإشباع نزعته الوصفيّة، ولإثبات مقدرته الفنّيّة ، وغالباً ما تمتزج مع الرسائل الإخوانيّة ، ومن نماذجها المفردة وصفه النحلة والشهدة[١] ، ووصفه للرياض كقوله في إحدى نزهاته في أحضان الطبيعة مع ثلّة من أصحابه:

« وكتب في صفة متنزَّه:

وَلَمَّا أَكَّب الغَمَامُ إِكْبَاباً، لَمْ نَجِدْ مَعَهُ إِغْبَاباً، وَاتَّصَلَ المَطَرُ اتِّصَالاً، لَمْ نُلْفِ مَعَهُ انْفِصَالاً، ثُمَّ أَذِنَ اللهُ- تَعَالَى- لِلصَّحْوِ أَنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ، وَيَنْشُرَ صَحِيفَتَهُ، فَقَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ، كَمَا طَوَى السِّجِلُّ الكِتَابَ، وَطَفِقَتِ السَّمَاءُ تَخْلَعُ جِلْبَابَهَا، وَالشَّمْسُ تَحُطُّ نِقَابَهَا، وَتَطَلَّعَتِ الدُّنْيَا تَبْتَهِجُ كَأَنَّهَا عَرُوْسٌ تَجَلَّتْ، وَقَدْ تَحَلَّتْ- ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ مِنْ إِخْوَانِي نَسْتَبِقُ إِلَى الرَّاحَةِ رَكْضاً، وَنَطْوِي لِلتَّفَرُّجِ أَرْضاً، وَنَنْشُرُ أَرْضاً، فَلا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ، نَمِيرٍ، قَدِ اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةٍ سَمَاءٌ، سَحَائِبُهَا غَمَّاءُ، وَانْسَابَ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ حُبَابٌ، جِلْدَتُهُ حَبَابٌ. فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ الأَبَاطِحِ، نَتَهَادَى تَهَادِيَ أَغْصَانِهَا، وَنَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا، وَلِلنَّسِيْمِ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ المَنْظَرِ الوَسِيْمِ، تَرَاسُلُ مَشْيٍ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ، فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ

---

١ - الديوان : ٣٢٥ – ٣٢٦ .

دِرْعاً، وَأَحْكَمَهُ صُنْعاً، وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَبَ مِنْهُ نَصْلاً، وَأَخْلَصَهُ صَقْلاً، فَلا تَرَى إِلَّا بِطَاحاً، مَمْلُوءَةً سِلاحاً، كَأَنَّمَا انْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ، فَأَلقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ.

وفي فصل منها:

فَاحْتَلَلْنَا فِيْهِ خَضْرَاءَ، مَمْدُودَةَ أَشْطَانِ، الأَغْصَانِ، سُنْدُسِيَّةَ رِوَاقِ، الأَوْرَاقِ. وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهُ بِبَرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيْمٍ عَلِيْلٍ، وَنُجِيلُ النَّظَرَ فِي نَهْرٍ صَقِيْلٍ، صَافِي لُجَيْنِ المَاءِ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ، مُؤْتَلِقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الأَحْبَابِ. وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِي مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا، وَيُغَنِّي لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا، فَصِيحُ لِسَانِ النَقْرِ، يَشْفِي مِنَ الوَقْرِ، كَأَنَّهُ كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، تَمْشِقُ يُمْنَاهُ، وَتَعْقِدُ يُسْرَاهُ:

يُحَرِّكُ حِيْنَ يَشْدُو سَاكِنَات وَيَبْتَعِثُ الطَّبَائِعَ لِلسُّكُونِ»[1]

ومن هنا نجد أنّ أغراض النثر عنده لا تختلف كثيراً عن أغراض الشعر إلّا أنّنا لا نجد فيها غزلاً أو هجاء أو حكمة، وأنّها تزيد عليها بموضوعات اجتماعيّة تتّصل بالحياة اليوميّة والأمور الشخصيّة ؛ كالإهداء والاستدعاء إلى مجلس، والتهنئة والشكر ، وما إلى ذلك .

١ - الديوان : ٣١٧ ، ٣١٨ .

أمّا الخصائص الفنّيّة لرسائله فأهمّها :

١- الالتزام بالسجع والإكثار من السجع المركّب أي بلزوم ما لا يلزم بأكثر من حرف.

٢- قصر الجمل والاهتمام بالازدواج والتوازن فيها .

٣- الجمل الاعتراضيّة والدعائيّة.

٤- الإكثار من المحسّنات البديعيّة ولاسيّما الجناس .

٥- الولع بالصور الفنّيّة .

٦- ترصيع نثره بالأشعار بنصّها أو بمعناها أو بحلّها ، وتوشيته بالأمثال وبعض الحديث النبويّ الشريف ، واستخدام مصطلحات بعض العلوم كالنحو والعروض ، بيد أنّ مثل هذا التكلّف الشديد قليل في نثره، وقد لجأ إليه أحياناً لإثبات مقدرته عليه ومجاراة لذوق عصره وأقرب ما يعبّر عن أسلوبه وحياته في شبابه قوله في استدعاء مغنّ:

« إِنَّ لِلطَّرَبِ- أَعَزَّكَ اللهُ- جِسْماً وَنَفْساً، يُسَمَّيَانِ سَمَاعاً وَكَأْساً. وَقَدْ حَضَرَتْنَا خَمْرَةٌ، كَأَنَّهَا جَمْرَةٌ، قَدْ تَنَاسَبَتْ سَوْرَتُهُمَا، كَمَا تَضَارَعَتْ فِي الخَطِّ صُورَتُهُمَا:

لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيْدٍ قُلْتَ قَوْمٌ مِنْ قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا[1]

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْنِسَ، وَتُطْرِبَ المَجْلِسَ، فَتُجْرِيَ فِي ذَلِكَ الجِسْمِ الكَرِيْمِ رُوْحَهُ، وَتُحْضِرَهُ مِنْكَ مَسِيحَهُ، وَصَلْتَ، وَأَجْمَلْتَ »[2].

---

١ - البيت لأبي نواس ؛ ديوانه : ٣٠

٢ - الديوان : ٣١٦- ٣١٧

رابعاً– أغراضه الشعريّة

١: الغزل

لم يعرف ابن خفاجة بحبّ امرأة معيّنة في حياته ، ولا تغزّل بامرأة واحدة في شعره ، بل نجد في ديوانه أسماء متعددة كعفراء وميّ وميّة وسليمى وأمّ مالك ، ونعلم عنه أنّه لم يتزوّج مطلقاً ، مع أنّه كان على قدر من اليسار والوفر، وفّر له حياة هانئة، ولم يشغله بهموم الحياة اليوميّة وتأمين لقمة العيش ، بل يسّر له أجواء اللهو والحبور والتمتّع بمباهج الحياة ، والانغماس في حمأتها ولاسيّما زمن الشباب، ثمّ أقلع عن ذلك وعاش عيشة قويمة ، وإن ظلّت أطياف الماضي تطلّ من نافذة الذكريات في شعره الغزليّ، لذلك فإنّ غزله ينقسم أقساماً متعدّدة :

١– من حيث الشكل :

يقع بعض غزل ابن خفاجة في مقطّعات مفردة ، وبعضه يقع في مقدّمات قصائده المدحيّة بل إنّ بعضه بطلب الأمير نفسه كقول الوزير ابن الرقيق بعقب زيارته للأمير إبراهيم ، « السلطان يريد أن تقول فيه شعراً تفتحه بالغزل »[١] .

ومن نسيبه في إحدى مدائحه :

---

١ – الديوان : ١٠٦ .

أَلا لَيـتَ أَنفـاسَ الرِّيـاحِ النَّواسِـمِ يُحَيِّـينَ عَـنّي الواضِـحاتِ الـمَباسِمِ

وَيَـرمينَ أَكنـافَ العَقيـقِ بِنَظـرَةٍ تَـرَدَّدُ في تِلـكَ الرُّبَـا وَالـمَعالِمِ

وَيَلثِمنَ مـابَينَ الكَثيـبِ إِلى الحِمى مَـواطِئَ أَخفـافِ الـمَطِيّ الرَّواسِـمِ

فَما أَنسَهُ لا أَنسَ يَوماً بِذي النَّقى أَطَلنـا بِـهِ لِلوَجـدِ عَـضَّ الأَبـاهِمِ

وَقَفنا بِهِ نَشكو وَقَد لَوَتِ النَّوَى مَعاطِفَنـا لَيَّ الغُصـونِ النَّـواعِمِ

فَمَـنْ مُبلِـغٌ عَـنّي الشَـبيبَةَ أَنَّـني لَوَيـتُ عِنـاني عَـن طَرِيـقِ الجَـرائِمِ

وَمِلـتُ بِطَـرفي عَـن فَتـاةٍ وَقَهـوَةٍ وَعَطَّلـتُ سَمعي مِن مَـلامِ اللَّـوائِمِ

فَهَلْ ساءَ دَعْداً أَنْ كبرنا عن الصبا وَلُثْنَا على الأَحْلَامِ بِيْضَ العمائِمِ

صَحَوْنا وقَدْ أَصْحَتْ هناكَ سَماؤُنَا وكنَّا نَشَاوى تحتَ ظلِّ الغَمَائِمِ[1]

ومن الغريب النادر لديه أنّه قدّم لغرض الرثاء بمقدّمة غزليّة حماسيّة ، وقدّم لها بقوله: « وممّا تصرّف فيه من الغزل إلى الرثاء قوله :

أَفِي مَا تُـؤَدِّي الرِّيحُ عَرْفُ سَلامِ وَمِمَّـا يَشُـبُّ البَـرْقُ نـارُ غَـرَامِ

وَإِلَّا فَمَـاذَا أَرَّجَ الـرِّيحَ سُـحْرَةً فَأَذْكَى عَلَى الأَحْشَاءِ لَفْحَ ضِرَامِ

أَمَـا وَجُمَـانٍ مِـنْ حَـدِيثِ عَلاقَـةٍ يَهُـزُّ إِلَيْـهِ الشَّـيْخُ عِطْـفَ غُـلامِ

تَحَلَّتْ بِـهِ مَـا بَـيْنَ سَلْمَى وَمَنْعِجٍ سَـوَالِفُ أَيَّـامٍ سَـلَفْنَ كِـرَامِ

لَقَـدْ هَـزَّنِي فِي رَيْطَـةِ الشَّـيْبِ هِـزَّةً أَرَتْـنِي وَرَائِـي فِي الشَّـبَابِ أَمَـامِي

---

١ – الديوان : ٢٥٨ .

فَلوْلا دِفَاعُ اللهِ عُجْتُ مَعَ الهَوَى وَجُلْـتُ بِوَادِيـهِ أَجُـرُّ خِطَـامِي

ورُبَّ لَيَــالٍ بِــالغَمِيمِ أَرِقْتُهَــا لِمَرْضَــى جُفُــونٍ بِـالفُرَاتِ نِيَـامِ

يَطُـولُ عَلَـيَّ اللَّيْـلُ يَـا أُمَّ مَالِـكٍ وَكُـلُّ لَيَـالِي الصَّـبِّ لَيْـلُ تَمَـامِ

وَلَمْ أَدْرِ مَا أَشْجَى وَأَدْعَى إِلَى الهَوَى أَخَفْقَــةُ بَــرْقٍ أَمْ غِنَـاءُ حَمَـامِ

إِذَا مَــا اسْـتَخَفَّتْنِي لَهَـا أَرْيَحِيَّـةٌ عَثَـرْتُ بِـذَيْلَيْ لَوْعَـةٍ وَظَـلامِ

وَخَضْخَضْتُ دُونَ الحَيِّ أَحْشَاءَ لَيْلَةٍ يُخَفِّــرُنِي فِيهَــا وَمِــيضُ غَمَــامِ

فَقَضَّـيْتُهَا مَـا بَـيْنَ رَشْـفَةِ لَوْعَـةٍ وَأَنَّــةِ شَــكْوَى وَاعْتِنَــاقِ غَــرَامِ

وَأَحْسَـنُ مَـا التَفَّـتْ عَلَيْـهِ دُجُنَّـةٌ عِنَـاقُ حَبِيـبٍ عَنْ عِنَـاقِ حُسَـامِ[1]

ثمّ يتحدّث مع نسيم الريح ، ويطلب منه أن يعوج على دار لهوه ، ويسلّم على نداماه، وأن يخاطب الغمام ليظلّل الشاعر،ويبرّد مضجعه، ويبلّ ظمأه لفقد أترابه الكرام ، فينتقل بذلك إلى رثائهم[2] .

٢– من حيث الجنس :

ثمّة الغزل بالمؤنّث والغزل بالمذكّر ، فإن كان الأوّل طبيعيّاً فطريّاً ، فإنّ الثاني كان شائعاً ومعروفاً ، ولا يعدو عنده تقليداً حتّى إنّه ينصّ على ذلك كقوله يقدّم لقصيدة له : « وقال يتغزّل في غلام متلثّم ، ويصف ذؤابته

---

١ – الديوان : ٥٢ .

٢ – الديوان : ٥٣ .

وخضاب كفّه ، معارضاً في ذلك بعض الإخوان »[1]، وكقوله في مقدّمة ديوانه : « وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا فِي غُلامٍ قَدْ بَقَلَ عِذَارُهُ، وَإِنْ كَانَ مَقُولاً بِطَرِيقِ الفُكاهَةِ، وَالنَّادِرِ وَالدُّعَابَةِ، وَالشَّبَابُ يَوْمَئِذٍ بِرَيْعَانِهِ، وَسَوْرَةِ سُلْطَانِهِ:

أَيُّهَا التَّائِهُ مَهْلا ... سَاءَنِي أَنْ تِهْتَ جَهْلا

هَلْ تَرى فِيمَا تَرَى إلَّا - ... شَبَاباً قَدْ تَوَلَّى

وَغَرَاماً قَدْ تَسَرَّى ... وَفُؤَاداً قَدْ تَسَلَّى

أَيْنَ دَمْعٌ فِيكَ يَجْرِي ... أَيْنَ جَنْبٌ يَتَقَلَّى

أَيْنَ نَفْسٌ بِكَ تَهْذِي ... وَضُلُوعٌ فِيكَ تَصْلَى

أَيُّ مُلْكٍ كَانَ لَوْلا ... عَارِضٌ وَافَى فَوَلَّى

وَتَخَلَّى عَنْكَ إلَّا ... أَسَفاً لا يَتَخَلَّى

وَانْطَوَى الحُسْنُ فَهَلّا ... أَجْمَلَ الحُسْنُ وَهَلَّا[2]

٣- من حيث النوع

ثمّة الغزل العفيف والغزل اللاهي ، والنوع الأوّل قليل ، ولا يشي بأنّه عاش تجربة حبّ عميقة ، ومن نماذجه :

لا وَالَّذي تُجلَى الكُرو

بُ بِهِ وَتَنفَرِجُ الخُطُوبْ

---

١ – الديوان : ٩٩ .

٢ – الديوان : ١٣ ، ١٤ ، ١٢٩ .

لا بِـــــــتُّ إلَّا بَـــــــيْنَ دَمـــــــ

ـــع يَنْهَمــــي وَحَشـــاً يَـــذوبْ

حَــــــرّانَ أَنْتَشِـــــــقُ النَّسِيـــــــ

ــــمَ وَنِعـــمَ مَسْـــلاةُ الكُـــروبْ

لا تَلتَقِـــــــي الأَجْفَـــــانُ فِيْـــــ

ـــكَ وَلا الـــمَضَاجِعُ وَالجُنـــوبْ

أَبَــــداً أَحِـــــنُّ إِلَيْـــــكَ شَــــو

قـــاً كَالغَرِيْـــبِ مَـــعَ الغُـــرُوبْ

وَأَقُـــــوْلُ لِلِّـــــــرِيحِ الجَنُـــــو

بِ مَـعَ الأَصـيلِ صِـلِي الهُـبُوبْ

فَهَـــــلِ اســـــتَطَبتَ بِيَ الشَّـــــمَا

لَ كَمَـا اسـتَطَبتُ بِـكَ الجَنُـوبْ[1]

أمّا الغزل اللاهي الحسّيّ فهو الأغلب ، ويكون في مقطّعاته وقصائده وتتبدّى اللمحات الحسيّة من أوصاف دقيقة لجسد المرأة من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها ، ومن إشارات إلى الضمّ والعناق والتقبيل حتّى في مقدّمات قصائد المديح ، ويبدو أنّ ذلك كان مقبولاً لدى أمراء المرابطين منذ عهد الأمير عليّ بن يوسف بن تاشفين ؛ كقول ابن خفاجة في أولى قصائد الديوان في نسيب مدحته للأمير تميم :

---

١ – الديوان : ٢٥١ .

أَمَا وَالتِفَاتِ الرَّوْضِ عَنْ زَرَقِ النَّهْرِ وَإشْرَافِ جِيدِ الغُصْنِ فِي حِلْيَةِ الزّهْرِ

وَقَدْ نَسَمَتْ رِيحُ النُّعَامَى فَنبَّهَتْ عُيُونَ النَّدَامَى تَحْتَ رَيْحَانَةِ الفَجْرِ

وَخِـدْرِ فَتَـاةٍ قَـدْ طَرَقْـتُ وَإِنَّمَـا أَبَحْـتُ بِـهِ وَكْـرَ الحَمَامَـةِ لِلصَّـقْرِ

وَقَـدٍّ خَلَعْـتُ البُـرْدَ عَنْـهُ وَإِنَّمَـا نَشَرْتُ بِهِ طَيَّ الصَّحِيفَةِ عَنْ سَطْرِ

لَقَـدْ جُبْـتُ دُونَ الحَـيِّ كُـلَّ ثَنِيَّـةٍ يَحُومُ بِهَا نَسْرُ السَّمَاءِ عَلَى وَكْرِ

وَخُضْتُ ظَلامَ اللَّيْلِ يَسْوَدُّ فَحْمَةً وَدُسْتُ عَرِينَ اللَّيْثِ يَنْظُرُ عَنْ جَمْرِ

وَجِئْتُ دِيَارَ الحَيِّ وَاللَّيْلُ مُطْرِقٌ مُنَمْنَمُ ثَوْبِ الأُفْقِ بِالأَنْجُمِ الزُّهْرِ

أَشِـيمُ بِهَـا بَـرْقَ الحَدِيـدِ وَرُبَّمَـا عَثَـرْتُ بِـأَطْرَافِ الرُّدَيْنِيَّـةِ السُّـمْرِ

فَلَـمْ ألـقَ إِلَّا صَـعْدَةً فَـوْقَ لأمَـةٍ فَقُلْتُ قَضِيبٌ قَدْ أَطَلَّ عَلَى نَهْرِ

وَلا شِمْـتُ إِلَّا غُـرَّةً فَـوْقَ شُـقْرَةٍ فَقُلْتُ حَبَابٌ يَسْتَدِيرُ عَلَى خَمْرِ

وَدُونَ طُرُوقِ الحَيِّ خَوْضَةُ فَتْكَةٍ مُوَرَّسَـةِ السِّـرْبَالِ دَامِيَـةِ الظُّفْـرِ

تَطَلَّـعُ فِي فَـرْعٍ مِـنَ النَّقْـعِ أَسْـوَدٍ وَتُسْفِرُ عَنْ خَدٍّ مِنَ السَّيْفِ مُحْمَرِّ

فَسِرْتُ وَقَلْبُ البَرْقِ يَخْفِقُ غَيْرَةً هُنَاكَ وَعَيْنُ النَّجْمِ تَنْظُرُ عَنْ شَزْرِ

وَطَـارَ إِلَيْهَـا بِي جَنَـاحُ صَـبَابَةٍ فَطَـارَ بِهَا عَنِّي جَنَاحٌ مِـنَ الـذُّعْرِ

فَقُلْـتُ رُوَيْـداً لا تُرَاعِـي فَإِنَّنَـا لَتُطْوَى ضُلُوعُ اللَّيْلِ مِنَّا عَلَى سِرِّ

وَسكَّنْتُ مِنْ نَفْسٍ تَجِيشُ مَرُوعَةٍ وَمَسَّحْتُ عَنْ عِطْفٍ تَمَايَلَ مُزْوَرِّ

وَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيْلِ عَنْها وَإِنَّمَا رَفَعْتُ جَنَاحَ السِّتْرِ عَنْ بَيْضَةِ الخِدْرِ

وَقَبَّلْتُ مَا بَيْنَ المُحَيَّا إِلَى الطُّلَى وَعَانَقْتُ مَا بَيْنَ التَّرَاقِي إِلَى الخَصْرِ

وَأَطْرَبَ سَجْعُ الحَلْيِ مِنْ خَيْزُرَانَةٍ تَمِيلُ بِهَا رِيحُ الشَّبِيبَةِ وَالسُّكْرِ

غَزَالِيَّـةُ الأَلحَـاظِ رِيمِيَّـةُ الطُّلَـى		مُدَامِيَّـةُ الألـمَى حَبَابِيَّـةُ الثَّغْـرِ
تَـرَنَّحُ فِي مَوْشِـيَّةٍ ذَهَبِيَّـةٍ		كَمَا اشْتَبَكَتْ زُهْرُ النُّجُومِ عَلَى البَدْرِ
تَلاقَـى نَسِـيبِي فِي هَوَاهَـا وأدمُعِـي		فَمِـنْ لُؤْلُـؤٍ نَظْـمٍ ومِـنْ لُؤْلُـؤٍ نَثْـرِ
وَقَدْ خَلَعَتْ لَيْلاً عَلَيْنَا يَدُ الهَوَى		رِدَاءَ عِنَـاقٍ مَزَّقَتْـهُ يَـدُ الفَجْـرِ[1]

وربّما تجاوز ابن خفاجة هذا الحدّ من الوصف الحسّيّ ، فيتنصّل منه ويعتذر عنه ، كقوله : « وممّا تعلّق بصفة سويداء ، وأنا أستغفر الله منه، وإن لم يك إلّا قولاً »[2] ، ولست أدري لم يعتذر ممّا أثبته هو بنفسه في ديوانه ؟ لمَ لمْ يحذفه إن كان يتحرّج من ذكره ؟

هل لأنّ شعر الشاعر كأولاده لا يستطيع أن يفرّط بأحدهم ولو كان معتلّاً مشوّهاً ؟

لا أظنّ ذلك لأنّه نَصّ في خطبة الديوان على أنّه حذف بعض شعره ولفظه بعدما لحظه[3] ، ولعلّه أثبت القطعة لغرابتها ودقّة تصويرها ، واعتذر عنها بسبب الأوضاع الاجتماعيّة السائدة في ذلك الوقت ، وخوفاً من العقاب والجزاء، لذلك فإنّ ابن خفاجة كثيراً ما يلحّ على جانب العفّة في علاقاته والبعد عن الريبة يقول مصرّحاً بذلك :

---

١ – الديوان : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

٢ – الديوان : ١٥٧ .

٣ – الديوان : ٩ .

فَـإِنَّني وَالعَفـافُ مِـن شِـيَمي　　　آبى الـدَنايا وَأَعشَـقُ الحَسَــنا
طَــوراً مُنيــبٌ وَتـــارَةً غَــزِلٌ　　　أَبكـي الخَطايـا وَأَنـدُبُ الـدِّمَنا
إِذا اعتَرَت خَشيَةٌ شَكا فَبَكى　　　أَو انتَحَـت راحَـةٌ دَنـا فَجَـنى[1]

ولكنّ للعفّة عنده مفهوماً آخر، « قال يتغزّل :

وَلَيْـــلٍ طَرَقْـــتُ الـــمَالِكِيَّةَ تَحْتَـــهُ
أَجَـدَّ عَلَـى حُكْـمِ الشَّـبَابِ مَـزَارَا
فَخَالَطْـتُ أَطْـرَافَ الأَسِـنَّةِ أَنْجُمـاً
وَدُسْـــتُ بِهَـــالاتِ البُـــدُورِ دِيَـــارَا
وَلَمْ تَـــكُ إِلَّا رَشْـــفَةً وَاعْتِنَاقَـــةً
وَيُعْجِبُـــــنِي أَنِّي أَعِـــــفُّ إِزَارَا[2]

ويعجب ابن خفاجة بعفّته الخاصّة غير مرّة :

وَقَـدْ لُثْـتُ بُـرْدِي عَلَى عِفَّـةٍ　　　وَيُعْجِبُـــنِي أَنَّـــنِي عَفُّـــهُ[3]

---

١ – الديوان : ١٢٢ .

٢ – الديوان : ٨٤.

٣ – الديوان : ١٠٠.

٤- من حيث الزمن

ثمّة قسم من غزل ابن خفاجة قاله في زمن الصبا والشباب ، ونصّ على ذلك في التقديم لقطع من غزله كقوله: « وفي النحول ، من قوله في الصبا :

بَهَـــرتَ جَمَـــالاً فَرُعْـــتَ البَصَـــرْ
وَذُبـــتُ سَـــقاماً فَفُـــتُّ النَّظَـــرْ
فَصِـــــرْتُ إِذا أَمكَنَـــــتْ لُقيَـــــةٌ
أُريـــكَ السُّـــهَا وَتُـــريني القَمَـــرْ [1]

وهو ممّا لا شكّ فيه يختلف كثيراً عن غزله بعد أن تجاوز الخمسين ، إذ تتحوّل المغامرات إلى أمنيات :

وَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ ابْنَ عَشْرٍ وَأَرْبَعٍ فَلَمْ أَدْعُهَا بِنْتاً وَلَمْ تَدْعُنِي عَمَّا [2]

ويستمرّ توهّج جمرة الغزل بالانطفاء بعد الستّين ، ويستحيل الغزل إلى ذكريات ، وإن تكلّف صوغه إرضاء لأحد الأمراء قال ابن خفاجة في السنة (٥١٤ هـ) :

---

١ - الديوان : ١٩٠.

٢ - الديوان : ٨١.

قُل لِمَسرى الريحِ مِن إِضَمِ وَلَيالينا بِذي سَلَمِ
طالَ لَيلي في هَوى قَمَرٍ نامَ عَن لَيلي وَلَم أَنَمِ
وَأَبي حُسْنَاهُ مِنْ رَشَأٍ مُستَطابِ اللَّثْمِ وَالشَّبَمِ
لَتَساوى ما بِنَظرَتِهِ وَبِجِسمِي فيهِ مِن سَقَمِ
لا مَسَحتُ الجَفنَ مِن سَهَرٍ وَرَقَيتُ القَلبَ مِن لَمَمِ
وَلَئِن راوَدتُ مِن سِنَةٍ لَبِما أَرتادُ مِن حُلُمِ
وَخَيالٍ لَو سَرى لَخَبا ما بِصَدرِ الصَّبِّ مِن ضَرَمِ
فَسَقى اللَّهُ مَضاجِعَنا بَينَ طَلَحِ الجِزعِ وَالسَّلَمِ
وَبَكى باكي الغَمامِ بِها بَينَ مُنهَلٍّ وَمُنسَجِمِ[1]

وبعد أن يسهب في ذكر مغامراته ووصفها والاعتداد بها ، يذكر أنّه أخو السّتين ،فيبحث عمّا قضاه من لمم وأحرزه من أمل :

هَلْ لَدَيَّ اليَومَ مِنهُ سِوى طولِ قَرعِ السِنِّ مِن نَدَمِ[2]

٥- من حيث التقليد و التجديد

نصّ ابن خفاجة في خطبة ديوانه على أنّ شعره عامة وغزله خاصّة يسير شطر منه في ركاب بعض الشعراء المشارقة ، وأهمّهم عبد المحسن

١ - الديوان : ١٠٦ ، ١٠٧ .

٢ - الديوان : ١٠٨ .

الصوريّ ، والشريف الرضيّ ، وأبو الطيب المتنبّي، ومهيار الديلميّ ، ويذكر نماذج من شعره تشبه أشعارهم في خطبة الديوان ، ويخصّ عبد المحسن الصوريّ بالنصّ على النهج على أسلوبه خمس مرّاتٍ في متن الديوان كقوله « وقال في طريقة عبد المحسن الصوريّ يتغزّل :

أَلا ثَـلَّ مِـن عَـرشِ الشَّـبابِ وَثَلَّمَـا
مَشِـيبٌ تَصَـدّى هَـدَّ رُكْـنِي وَهَـدَّما

فَصِـرتُ وَقَـد أَعطَيـتُ شَيْبِي مَقـادَتي
أَرى صَـبوَتِي أَحلـى وَشَـيْبِيَ أَحلَمَـا

وَكُـلُّ امـرِىءٍ طاشَـتْ بِـهِ غِـرَّةُ الصِّبَا
إِذا مـا تَحَلّـى بِالـمَشيبِ تَحَلَّمَـا

فَهـا أَنـا أَلقـى كُـلَّ لَيـلٍ بِلَيلَـةٍ
مِـنَ الهَـمِّ تَسْتَجري مِـنَ الـدَّمعِ أَنجُمَـا

وَأَرَكَـبُ أَردافَ الرُّبـا مُتَسَـنِّمَا
فَأَنشَـقُ أَنفـاسَ الصَّـبَا مُتَنَسِّـما

وَأَرشُـفُ نَثـرَ الطَّـلِّ مِـنْ كُـلِّ وَردَةٍ
مَكـانَ بَياضِ الثَّغرِ مِن حُوَّةِ اللَّمَى[1]

ويتبدّى التقليد عن عمد في بعض الموضوعات المغرقة في القدم كالوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وقد ردّ في خطبة الديوان على من

---

١ – الديوان : ١٩٢– ١٩٣ ، وانظر كذلك : ٦٧ ، ١٢٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

ينعى عليه ذلك ويعترض على مثل هذه الموضوعات الخياليّة غير الواقعيّة ، قال ابن خفاجة : « أَمْ لَعَلَّ مَا يَنْعَاهُ وَيُنْكِرُهُ، إِنَّمَا هُوَ مَا نَحْنُ نَخْتَارُهُ وَنُؤْثِرُهُ، مِنْ ذِكْرِ التَّلَدُّدِ وَالتَّبَلُّدِ فِي الدِّيَارِ نُحَيِّيها، وَنَنْدُبُها تَارَةً وَنَبْكِيها، كَقَوْلِنَا:

وَتَلَـدَّدَتْ نَحْـوَ الحِمـى بِي نَظْـرَةٌ ... عُذْرِيَّـةٌ ثَنَـتِ العِنـاْنَ إِلَى الحِمَـى

فَلَوَيْـتُ أَعْنَـاقَ الـمَطِيِّ مُعَرِّجـاً ... وَنَزَلْـتُ أَعْتَنِـقُ الأَرَاكَ مُسَـلِّما

فِي مَنْـزِلٍ مَـا أَوْطَأَتْـهُ حَـافِراً ... عُرْبُ الجِيَادِ وَلا الـمَطَايا مَنْسِما

دَمَعَـتْ بِـهِ عَـيْنُ الغَمَـامِ صَـبابَةً ... وَلَرُبَّمَـا طَـرِبَ الجَـوَادُ فَحَمْحَمـا

مَـا أَذْكَـرتْنِي العَهْـدَ فِيـهِ أَيْكَـةٌ ... إِلَّا بَكَيْـتُ فَسَـالَ وَادِيهَـا دَمَـا

وَسَـجَعْتُ أَنْـدُبُ لَوْعَـةً وَلَرُبَّمَـا ... صَـدَحَ الحَمَـامُ يُجِيبُـنِي فَتَعَلَّمَـا[1]

ولعلّ اختيار ابن خفاجة لمثل هذا الموضوع وإيثاره له من باب الحنين إلى زمن الشعر الجميل .

أمّا تجديد ابن خفاجة في الشعر عامّة وفي الغزل خاصّة ، فيتبدّى في اختراعه المعاني الجديدة حتّى لو كان تعبيره عنها تعبيراً مباشراً من دون صور فنّيّة كقوله :

يَـــا مُنْفِـــداً مَـــاءَ الجُفُـــو ... نِ وَكُنْـــتُ أُنْفِقُـــهُ عَلَيْـــهِ

١ – الديوان : ١٥ ، وانظر : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

إِنْ لَمْ تَكُـــــنْ عَيْـــــنِي فَأَنْـــــ

ـــتَ أَعَـــزُّ مَـــا نَظَـــرَتْ إِلَيْـــهِ[1]

ويتجلّى إبداعه في مزجه بين الغزل وعناصر الطبيعة المتنوّعة ، فيرى في الطبيعة أنثى رائعة ، ويرى في الأنثى عناصر الطبيعة الرائعة ،فيصنع أجمل الصور الفنّيّة منهما ، كقوله في الغزل :

يَـــا رُبَّ لَيْـــلٍ بِتُّـــهُ ... وَكَأَنَّـهُ مِـن وَحْـفِ شَـعْرِكْ

تَنهَـــلُّ مُزنَـــةُ دَمعَـــتي ... فيـهِ وَيَنـدى نَـورُ ذِكْـرِكْ

أَتْبَعْـتُ فيـهِ وَقَـدْ بَكيــ ... ـتُ عَقيـقَ خَـدِّكِ دُرَّ ثَغْـرِكْ

وَشَـــرَقتُ فيـــكِ بِعَـــبرَةٍ ... قَـد وَرَّدَتهـا نـارُ هَجْـرِكْ

فَكَأَنَّمـــا يَـــنْفَضُّ عَـــن ... حَبَـبٍ لَهـا رُمّـانُ نَحْـرِكْ

وَلَـرُبَّ لَيـلٍ قَـد صَدَعْـ ... ـتُ ظَلامَـهُ بِجَبـينِ بَـدْرِكْ

وَلَهَـــوتُ فِيـــهِ بِـــدُرَّةٍ ... مَكنونَـةٍ في حُـقِّ خِـدْرِكْ

تَنـدى شَـقائِقُ وَجنَتَيـ ... ـكِ بِـهِ وَتَـنفَحُ ريـحُ نَشْـرِكْ

وَقَـدِ اسـتَدارَ بِصَـفحَتي ... سُوسَـانِ جِيـدِكِ طَـلُّ دُرِّكْ

حَيـثُ الحَبابَـةُ دَمعَـةٌ ... تَجـري بِوَجنَـةِ كَـأسِ خَمْـرِكْ

وَتَهُـزُّ مِنـكِ فَتَنثَـني ... بِقَضيبِ قَدِّكِ ريحُ سُكرِكْ

وَتُعَـبُّ مِـن رَجـرَاجِ رِدْ ... فِكِ مَوجَةٌ في شَطِّ خَصرِكْ[2]

---

١ – الديوان : ٣٦٤ .

٢ – الديوان : ١٢٢ ، ١٢٣ .

وابن خفاجة يعلم أنّه يصنع ذلك عن وعي واقتدار حتّى ليجعل من نسيبه وغزله روضة حقيقيّة « قال :

كَتَبْــتُ وَقَلْــبِي فِي يَــدَيْكَ أَسِــيْرُ
يُقِــيْمُ كَمَــا شَــاءَ الهَــوَى وَيَسِــيْرُ
وَلِيْ كُـلَّ حِـيْنٍ مِـنْ نَسِـيْبِي وَأَدْمُعِـي
بِكُــلِّ مَكَــانٍ رَوْضَــةٌ وَغَــدِيرُ[1]

ويمزج ابن خفاجة بين الطبيعة والغزل والخمر باقتدار ويسر بما يسمّى بالسهل الممتنع كقوله :

رُبَّمَــا اسْتَضْــحَكَ الحَبَــابَ حَبِيــبٌ
نَفَضَــتْ لَوْنَهَــا عَلَيْــهِ الــمُدَامُ
كُلَّمَــا مَــرَّ قَاصِــراً مِــنْ خُطَــاهُ
يَتَهَــادَى كَمَــا يَمُــرُّ الغَمَــامُ
سَــلَّمَ الغُصْــنُ وَالكَثِيــبُ عَلَيْنَــا
فَعَلَـى الغُصْـنِ وَالكَثِيـبِ السَّـلامُ[2]

يتعمّق هذا المزج بين الغزل والطبيعة والخمر في مغامرات ليليّة حماسيّة :

وَلَيــلٍ تَعاطَينــا الــمُدَامَ وَبَينَنــا حَـديثٌ كَما هَـبَّ النَّسيمُ عَلى الـوَردِ

---

١ – الديوان : ٣٦٠ .

٢ – الديوان : ٦٢ .

نُعــاوِدُهُ وَالكــأْسُ تَعبَــقُ مِسْــكَةً وَأَطيَبُ مِنْهَا مَا نُعِيدُ وَما نُبدي

وأَشْـــرَبُهَا مِـــنْ كَفِّـــهِ وكَأَنَّهَـــا سَـناً وصَـفَاءً مِـنْ سَـنَاهُ ومِـنْ وُدِّي

وَنَقْلِي أَقَاحُ الثَّغْرِ أَوْ سُوسَنُ الطُّلَى وَنَرجِسَـةُ الأَجْفَـانِ أَو وَرْدَةُ الخَـدِّ

إِلى أَن سَرَتْ في جسمِهِ الراحُ وَالكَرى وَمالا بِعِطْفَيهِ فَمالَ عَلى عَضْدي

فَأَقبَلتُ أَستَهدي لِما بَينَ أَضلُعي مِنَ الحَرِّ ما بَينَ الثَّنَايَا مِنَ البَرَدِ

وَعَانَقْتُهُ قَدْ سُلَّ مِن وَشْيِ بُردِهِ فَعانَقْتُ مِنهُ السَيفَ سُلَّ مِنَ الغِمْدِ

لَيــانَ مُجَــسٍّ وَاســتِقامَةَ قَامَــةٍ وَهِــزَّةَ أَعطــافٍ وَرَونَــقَ إِفْرِنْــدِ

أُغــازِلُ مِنــهُ الغُصــنَ في مَغــرَسِ النَّقَــى وَأَلْثُمُ وَجـهَ الشَّـمْسِ في مَطلَعِ السَّعْدِ

فَــإِنْ لَمْ يَكُنْهَــا أَوْ تَكُنْــهُ فَإِنَّــهُ أَخُوهَـا كَمَـا قُـدَّ الشِـراكُ مِـن الجِلْـدِ

تُسَــافِرُ كِلتَــا راحَــتَيَّ بِجِســمِهِ فَطَوْراً إِلى خَصْرٍ وَطَوْراً إِلى نَهْدِ

فَتَهبِطُ مِن كَشحَيهِ كَفٌّ تِهامَةً وَتَصعَدُ مِن نَهدَيهِ أُخرى إِلى نَجْدِ

وَقَدْ مِلْتُ مِنْ تَقْبِيلِ خَدٍّ إِلَى فَمٍ أَقُوْلُ بِتَفْضِيلِ القَرَاحِ عَلَى الوَرْدِ

وَغَيَّرْتُ بِالتَّجْمِيشِ كَافُورَ خَدِّهِ وَإِنِّي لَعَفٌّ مِئْزَرِي طَاهِرٌ بُرْدِي

وَلَــوْلَا ذُبُــولٌ مَسَّــنِي وَغَضَــارَةٌ عَلَيْهِ لَبَاتَ البَدْرُ يَحْسُدُنِي وَحْدِي

وَإِنِّي وَقَــدْ فَارَقْتُــهُ لَمُقَبِّــلٌ مَوَاقِعَ هَاتِيكَ السَّوَالِفِ مِنْ رَنْدِ

فَيَا صُبْحَةَ البَأْسَاءِ قُبِّحْتِ صُبْحَةً وَيَا لَيْلَةَ النَّعْمَاءِ هَلْ لَكِ مِنْ رَدِّ[1]

وأخيراً ؛ فإنّ غزل ابن خفاجة من التنوّع والإبداع ما يجعله من أهمّ أغراضه الشعريّة .

---

١ - الديوان : ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

٢ : المديح :

لقد مرّت نماذج كثيرة من المديح الخاصّ بالأمراء والخاصّ بالأصدقاء، هذا المديح الذي كان يجعله ابن خفاجة هديّة وحده :

وَقَدْ كُنْتُ أُهْدِي المَدْحَ وَالدَّارُ غُرْبَةٌ   فَكَيفَ بِإِهْدَائِي إِلَيْهِ المَراثِيا[١]

وذُكرت خصائص كثيرة له ، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن قصيدة المدح الرسميّة تميل إلى الطول عامّة ، وقد تشارف مئة بيت ، وأنّها قد تبدأ بالغزل أو تهجم على المديح مباشرة ، وأنّها قد تحتوي على عدد من الأغراض كالغزل والوصف والمديح والفخر معاً ، ونورد هنا قصيدة مديح كاملة لم ترد من قبل مطلقاً :

أَمـا وَخَيـالٍ قَـد أَطـافَ فَسَـلَّما   لَقَـدْ هـاجَني وَجْـدٌ أَنـاخَ فَخَيَّمـا

وَأَذكَـرَنِي عَهْـداً تَقـادَمَ بِـاللِّوى   وَعَصْراً خَلا بَينَ الكَثيبِ إِلى الحِمى

وَحَطَّ قِناعَ الصَّبْرِ وَاللَّيلُ عاكِفٌ   فَأَفصَحَ دَمعٌ كانَ بِالأَمسِ أَعْجَما

وَبِتُّ وَسِرِّي راكِبٌ ظَهْرَ مَدْمَعٍ   طَليقٍ إِذا ما أَنْجَدَ الرَّكْبُ أَتْهَما

أُناجي سَوَادَ اللَّيلِ فِيهِ بِلَوعَةٍ   تَحَدَّثَ عَنها الطَّيْرُ فَجراً فَهَيْنَما

وَأَسْحَبُ أَذْيالَ الدُّجَى فَيَهِيجُنِي   حَمامٌ تَداعى سُحْرَةً فَتَكَلَّما

وَكُنتُ عَلى عَهدِ السُلُوِّ يَشُوقُني   حُسامٌ تَغَنّى لا حَمامٌ تَرَنَّما

أُغازِلُ مِن عَضْبٍ طَرِيرٍ مُقَبَّلاً   وَمِنْ عَلَقٍ عَبْطٍ بِمَضْرِبِهِ لَمى

---

١ - الديوان : ٦٢ .

وَأَسْرِي فَأَستَصْفِي مِنَ السَّيفِ صَاحِباً ... وَأَرْكَبُ مِنْ ظَهرِ الدُجُنَّةِ أَدْهَما

وَأَصدَعُ أَحشاءَ الظَلامِ بِفِتيَةٍ ... تُواكِبُ مِنهُمْ أَنْجُمُ اللَّيلِ أَنْجُما

أَذَعتُ بِهِمْ سِرَّ الصَّباحِ وَإِنَّما ... سَرَرتُ بِهِمْ لَيْلَ السُّرَى فَتَبَسَّما

وَقَد كَتَمتْهُمْ أَضلُعُ البيدِ ضِنَّةً ... وَلَمْ يَكُ سِرُّ المَجدِ إِلَّا لِيُكتَما

فَبِتْنَا وَبحرُ اللَّيلِ مُلتَطِمٌ بِنا ... نَرى العيسَ غَرقى وَالكَواكِبَ عُوَّما

وَقَد وَتَرَتْ مِنها قِسِيّاً يَدُ السُّرَى ... وَفَوَّقَ مِنّا فَوقَها المَجْدُ أَسْهُما

فَجُبْتُ الدُّجَى مِنْها بِأَعْيَسَ ضامِرٍ ... رَمَيْتُ بِهِ رُكْنَ الدُّجَى فَتَهَدَّما

يُقَلِّبُ طَرفاً فِي الكَواكِبِ سَامِياً ... كَأَنَّ بِهِ تَحتَ الظَّلامِ مُنَجِّما

وَمِن عَجَبٍ أَنّي أَرى القَوْسَ مُنحَنىً ... بِهِ فِي يَدِ البَيْداءِ وَالسَّهْمَ مُرتَمى

يُجاذِبُني رَجْعَ الحَنينِ عَلى السُّرى ... كَأَنَّ لَهُ قَلْباً هُناكَ مُتَيَّما

وَيُطْرِبُهُ سَجْعُ الحَمامَةِ بِالضُّحَى ... فَيَلوي إِلَيها جِيدَهُ مُتَفَهِّما

وَما كانَ يَدري ما الحَنينُ عَلى النَّوى ... وَلَكِنَّني طَارَحْتُهُ فَتَعَلَّما

فَما عاجَ بي وَجدٌ عَلَى رَسْمِ مَنزِلٍ ... فَأَعوَلتُ إِلَّا حَنَّ شَوْقاً فَأَرزَما

وَما هاجَني إِلَّا تَأَلُّقُ بارِقٍ ... لَبِستُ بِهِ بُرْدَ الدُجُنَّةِ مُعلَما

تَلَوّى هُدُوّاً يَستَطِيرُ كَأَنَّما ... أَروعُ بِهِ مِن سُدْفَةِ اللَّيلِ أَرْقَما

إِذا خَطَّ سَطراً بَينَ عَينَيَّ مُذْهَباً ... تَدارَكَهُ قَطْرُ الدُّموعِ فَأَعجَما

حَمَلْتُ لَهُ قَلباً جَباناً وَمِدْمَعاً ... شُجاعاً إِذا ما أَحجَمَ الصَّبرُ صَمَّما

وَيا عَجَباً لِي كَيفَ أَجْبُنُ فِي الهَوَى ... وَإِنّي لَمِقْدامٌ إِذا الذِّمْرُ أَحْجَما

فَها أَنا أَغشى مَوقِفَ البَينِ وَالوَغى ... فَتَنْدَى جُفُونِي عَبرَةً وَيَدِي دَما

وَإلَّا فَهَـذا جَيْـبُ صَـدْرِي مُمَزَّقـاً بِكَفّـي وَهَـذا صَـدْرُ رُمحـي مُحَطَّمـا

فَيـا رُبَّ وَضّـاحِ الـمَحاسِنِ أَشـقَرٍ رَمَيـتُ بِـهِ الهَيجـا وَقَـد فَغَـرَتْ فَمـا

وَبَحْـرِ حَديـدٍ قَـد تَلاطَـمَ أَخضَـرٍ إِذا عَصَـفَتْ ريـحُ الجِيَـادِ بِـهِ طَمـا

أَبى عِـزُّ نَفـسٍ أَن يَجـولَ فَيُجتَلـى وإشْـرَافُ هـادٍ أَن يُنـالَ فَيُلجَمـا

جَـرى الحُسـنُ مـاءً فَوقَـهُ غَـيرَ أَنَّـهُ إذا مـا جَـرى نـارُ الغَضـا مُتَضَـرِّما

عَـدا فَاسـتَنارَ الـبَرقُ لَونـاً وَسُـرعَةً وَغَبَّـــرَ في وَجــهِ النَّهـــارِ فَغَيَّمـــا

بِيَـومٍ تَـراءَى الـمَوْتُ أَحْمَـرَ قانيـاً بِـهِ وَاسـتَطارَ النَّقـعُ أَربَـدَ أَقْتَمـا

تَرى الطِّرْفَ مِنهُ كُلَّما خاضَ هَبْوَةً مُحِلّاً وَتَلْقَى الصَّارِمَ العَضْبَ مُحْرِما

فَأُقْسِـمُ لـو أَهْـوَى إليَّ ابـنُ غابَـةٍ لَكَـــعَّ عَلَـــى أَعْقَابِــهِ مُتَـــذَمِّما

وَلَـوْ سَابَقَتْ رِيْحُ الشِّمَالِ ابْنَ جَعْفَرٍ لَجَـــاءَ عَلَـــى عِلاَّتِـــهِ مُتَقَـــدِّما

أَحَـبَّ إلى نَفْـسٍ وَأَنْـدَى عَلَـى حَشـا وَأَكْـــرَمَ آثَـــاراً وَأَوْسَـــعَ أَنْعُمَـــا

هَـزَزْتُ بِـهِ لِلْفَضْـلِ خُوْطَـةَ بَانَـةٍ هَـزَزْتُ بِهَا فِي الخَطْبِ أَبْيَضَ مِخْذَمَا

وَرُدْتُ بِـهِ رَوْضـاً مِـنَ البِشْـرِ مُونِقـاً وَرَدْتُ بِـهِ عَيْنـاً مِـنَ الجُـودِ عَيْلَمَـا

يَبِيـتُ بِـوادَي الفِكْـرِ يُطْـرِقُ حَيَّـةً وَيَغْشَى جَنَابَ الخَطْبِ يُقْدِمُ ضَيْغَمَا

وَيَحْمِـلُ دُوْنَ الـمَجْدِ حَمْلَـةَ فَاتِـكٍ تَخَايَـلَ مَـا بَـيْنَ الخَمِيْسَـيْنِ مُعْلَمَـا

بِرَأْيٍ كَصَدْرِ السَّيْفِ يَبْتَدِهُ العُلَا وَوَطْــأَةِ أَيْــدٍ تَسْـتَخِفُّ يَلَمْلَمَــا

أَشَـادَتْ بِـذِكْرَاهُ فَأَوْضَـعَ قَاطِنـاً وَقَامَــتْ بِعُلْيَــاهُ فَأَنْجَــدَ مُتْهِمــا

فَبَيْنَـا تَـرَى رَضْـوَى وَقَـارَ جَزَالَـةٍ وَهَيْبَــةَ إِشْــرَافٍ وَعِــزَّةَ مُحْتَمَــى

تَبِيـتُ تَـرَى الشِّـعْرَى جَلالَـةَ هِمَّـةٍ وَبَهْجَــةَ أَوْضَــاحٍ وَرِفْعَــةَ مُنْتَمَــى

خِــلاَلٌ كَمَــا مَــرَّ الغَمَــامُ بِتَلْعَــةٍ فَطَــرَّزَ أَثْــوَابَ الرَّبِيــعِ وَسَــهَّمَا
وَأَلقَى العَصَا بَيْنَ الأبَاطِحِ والرُّبَا فَـدَنَّرَ أعَطْـاَفَ الـمَجَانِي وَدَرْهَمَـا
وَقَلَّـدَ نَحْـرَ الـرَّوْضِ عِقْـداً مُفَصَّـلاً وَطَوَّقَ جِيْدَ الغُصْنِ وَشْياً مُنَمْنَمَا
أَمَــا إِنَّــهُ وَالحَــقُّ أَبْلَــجُ وَاضِــحٌ لَقَـدْ بَـاتَ مُغْـرىً بِالـمَكَارِمِ مُغْرَمَا
وَقَدْ أَفْصَحَتْ أَعْطَافُهُ عَنْ سِيَادَةٍ فَشَـاهَدْتُ مِنْـهُ صَـامِتاً مُتَكَلِّمَـا
وَطَـالَ رِجَـالَ الحَـيِّ طَـوْلاً وَنَجْـدَةً وَأَسْدَى يَدَ النُّعْمَى وَذَادَ عَنِ الحمى
فَهَا هُوَ إِنْ خَفَّتْ هِضَابُهُمْ جَثَا فَـأَبْلَى وَإِنْ طَشَّـتْ سَمَـاؤُهُمْ هَمَـى
وَإِنْ أَصْـلَدُوا أَوْرَى وَإِنْ أَسْـلَمُوا حَمَـى وَإِنْ نَسَـمُوا أَجْـرَى وَإِنْ سَـفُلُوا سَمَـا
فَلَـوْ وَصَـلُوا يَوْمـاً كُعُوبـاً لِأَسْمَـرٍ لَكَـانَ عَلَـى حُكْـمِ السَّـلامَةِ لَهْذَمَا
فَيَا رَاكِباً ظَهْرَ السُّرَى يَبْتَغِي النَّدَى وَيَمْـتَصُّ أَوْشَـالَ اللِّئَـامِ بِـهِ ظَمَـا
رُوَيْـدَكَ مَـا هَـذَا التَّـيَمُّمُ ضِـلَّةً وَجَهْلاً وَهَذاالبحْرُ قَدْ جَاشَ مُفْعَمَا
إِذَا عَـبَّ بَحْـرُ الجُـودِ فِي كَـفِّ خَالِـدٍ فَلَـيْسَ بِجَـازٍ عَنْـكَ أَنْ تَتَيَمَّمَـا
وَهَــاكَ فَأَقْبِلْهَــا إِلَيْــكَ خَرِيــدَةً تَهَـادَى عَلَـى الـدُّنْيَا مَحَاسِنُهَا لَمَى
صَـقِيلَةَ ثَغْـرِ الحُسْـنِ لَـوْ أَنَّ أَدْهَمـاً تَرَشَّــفَهَا لاَرْتَــدَّ أَلــمَظَ أَرْثَمَــا
مَـلأْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ وَنَـوَّرْتُ مَـا بَـيْنَ البَسِـيطَةِ وَالسَّـمَا
فَعِــشْ بَــيْنَ وَادٍ لِلمَكَــارِمِ مُمْــرِعٍ خَصِـيبٍ وَطَـوْدٍ لِلسِّـيَادَةِ أَيْهَمَـا
تَـرَى لِارْتِجَـازِ الرَّعْـدِ أَزْكَـى تَحِيَّـةٍ وَتَلْمَـحُ مِـنْ بَـرْقٍ بَنَانـاً مُسَـلِّمَا[1]

---

١ – الديوان : ١٧٢ – ١٧٦ .

٣ : الوصف

كان شعر ابن خفاجة انعكاساً لوجدانه ومشاعره ، وصدى لمراحل حياته ، ولمّا كانت الطبيعة الجميلة في بلدته شقر خاصّة ، وفي الأندلس عامّةً ، منى نفسه ومسرح أنسه في مختلف مراحل حياته ، كان وصفها وصفاً لشيء عزيز وعلق نفيس، وكان يمتزج بها وتمتزج به ، وكانت تحتضن أفراحه وتواسيه في أتراحه .

وللوصف عامّة حيّز كبير جدّاً من شعر ابن خفاجة ، فقد أفرد له القصائد والمقطّعات ، ونثره في أغراض شعره الأخر ، ولعلّه لم يترك شيئاً وقع عليه بصره ، وأعجب به قلبه إلّا وصفه ، وهو أقسام متعدّدة :

أ-الأوصاف العامّة :

١-وصف الأشخاص والأحوال

كوصف الأحدب والحسود والبخيل والأخوين والسابح والحالية والسويداء وذات الثوب المعصفر ووصف الخال والشيب والنحول، ووصف المغنّية كقول ابن خفاجة في الأخيرة :

« وقال يداعب مغنّية في زمن الصبا :

وَفَتَـــاةِ حُسْـــنٍ كُلُّهَـــا أَعْجَـــازُ
غَنَّـــتْ غِنَـــاءً كُلُّـــهُ إِعْجَـــازُ

لَـــذَّتْ أَغَانِيْهَـــا وَخَفَّـــتْ مَوْقِعـــاً

فَكَأَنَّمَـــــا تَطْوِيْلُهَـــــا إِيْجَـــــازُ[1]

٢- الأبنية و العمائر :

كوصف الدار والقصر والحمّام والجسر والزورق والسفينة كقوله :

وَجارِيَــةٍ رَكِبــتُ بِهــا ظَلامــاً — يَطيرُ مِنَ الصَّبَاحِ بِها جَناحُ

إِذا الماءُ اطمَـأَنَّ فَـرَقَّ خَصْـراً — عَـلا مِـن مَوجِـهِ رِدْفٌ رَداحُ

وَقَـد فَغَـرَ الحِمَـامُ هُنـاكَ فـاهُ — وَأَتلَـعَ جيْـدَهُ الأَجَـلُ الـمُتاحُ

فَمــا أَدري أَمَــوجٌ أَم قُلــوبٌ — وَأَنفــاسٌ تَصَــعَّدُ أَم رِيــاحُ[2]

٣- الآلات والأدوات

كوصف أدوات الكتابة كالقلم والنقس والقرطاس ، ووصف آلات التدفئة والإنارة ، كالموقد والشمعة والسراج ، وكوصف آلات الحرب وأدواتها كاللواء والقوس والدرع والرمح والسيف ؛ وفيه قال ابن خفاجة :

للهِ أَيُّ شِـــــهَابِ بَـــأْسٍ سَـــاطِعٍ

أَدْمَـــى ظُبَـــاهُ أَيُّ يَـــوْمِ عِـــرَاكِ

فَكَأَنَّـــهُ وَالنَّصْـــرُ يَخْضِـــبُ نَصْـــلَهُ

ثَغْـــرٌ عَلَيْـــهِ صُـــفْرَةُ المِسْـــوَاكِ[3]

---

١ - الديوان : ٣٥٢ .

٢ - الديوان : ١٣٨ .

٣ - الديوان : ٢٦٩ .

ب – وصف الطبيعة

١– الطبيعة الصائتة

ينقسم وصف ابن خفاجة للطبيعة الحيّة الصائتة أقساماً متعدّدة :

أً– وصف الحيوانات الأليفة والمتوحّشة :

كوصف الفرس والناقة والكلب والأرنب والكبش والنعجة والسمك والأسد والذئب ، ومن الأخير قوله :

سَرى تَرْتَمِي رَكضاً بِهِ كُلُّ مَوجَةٍ
تَرامى بِها بَحرٌ مِنَ اللَّيلِ أَخضَرُ
وَلا صاحِبٌ إلَّا طَريرٌ مُهَنَّدٌ
وَمُعتَدِلٌ لَدنُ المَهَزَّةِ أَسمَرُ
وَأَطلَسُ زَوّارٌ مَعَ اللَّيلِ أَغبَشٌ
سَرى خَلفَ أَستارِ الدُّجى يَتَنَكَّرُ
تَثاءَبَ مِن مَسِّ الطَّوى فَهْوَ يَشتَكي
فَيَعوِي وَقَدْ لَفَّتهُ نَكبَاءُ صَرْصَرُ
وَدُونَ أَمانِيهِ شَرارَةُ لَهذَمٍ
يُقَلِّبُ فيها مِثْلَها حينَ يَنظُرُ
فَمِن جَوْعَةٍ تُغريهِ بي فَهوَ يَدَّنِي
وَمِن رَوعَةٍ تُثنيهِ عَنِّي فَيُقْصِرُ[١]

---

١ – الديوان : ١٨٠ .

بً- وصف الطيور الأليفة والكاسرة

كوصف الحمام والمكّاء والعصفور والقطاة والبازي والنسر ، ومن وصف الحمام قوله:

وَما شاقَني إلّا حَفيفُ أَراكَةٍ ... وَسَجعُ حَمامٍ بِالغَمِيْمِ تَرَنَّما

وَسَرحَةُ وادٍ هَزَّها الشَّوقُ لا الصَّبَا ... وَقَد سَجَعَ العُصفورُ فَجراً فَهَينَما

أَطَفتُ بِها أَشكو إِلَيها وَتَشتَكي ... وَقَد تَرجَمَ المُكّاءُ عَنها فَأَفهَما

تَحِنُّ وَدَمعُ العَيْنِ يَسْجُمُ وَالنَّدَى ... وَقَرَّ بِعَينِي أَن تَحِنَّ وَيَسجُما

وَحَسبُكَ مِن صَبٍّ بَكَى وَحَمامَةٍ ... فَلَم تَدْرِ حَقّاً أَيُّما الصَّبُّ مِنهُما[1]

جً- وصف الزواحف والحشرات

كوصف النحل والحيّة ومن وصف الأخيرة قوله :

نَهرٌ كَما سالَ اللَّمى سَلسالُ ... وَصَباً بَليلٌ ذَيْلُها مِكْسَالُ

وَمَهَبُّ نَفحَةِ رَوضَةٍ مَطلولَةٍ ... في جَلْهَتَيها لِلنَّسِيْمِ مَجالُ

غازَلتُهُ وَالأُقحُوانَةُ مَبسِمٌ ... وَالآسُ صُدغٌ وَالبَنَفسَجُ خالُ

وَوَراءَ خَفَّاقِ النِّجادِ ضُبارِمٌ ... يَسري بِهِ خَلفَ الظَّلامِ خَيالُ

أَلقى العَصا في حَيثُ يَعثُرُ بالحصى ... نَهرٌ وَتَعبَثُ بِالغُصونِ شَمالُ

فكأنَّما بَينَ الغُصونِ تَنازُعٌ ... وكأنَّما بَينَ المِياهِ جِدالُ

وَأَربَّ يَبرُدُ مِن حَشاهُ مَكرَعٌ ... خَصِرٌ يَسُحُّ وَتَلعَةٌ مِخضالُ

---

١ - الديوان : ٢٣٦ .

مـا بَـينَ خَطَّـي جَـدوَلَينِ كَأَنَّمـا ... بُسِـطَت يَمـينٌ مِنهُمـا وَشِـمالُ

مَثَـلَ الحُبـابُ بِمُنحَنـاهُ ذُؤابَـةً ... خَفّاقَـةً حَيـثُ الرُّبـا أَكْفَـالُ

وَانسـابَ ثـاني مَعطِفَيـهِ كَأَنَّـهُ ... هَيمـانُ نَشـوانٌ هُنـاكَ مُـذالُ

أَو ظِـلُّ أَسمَـرَ بِـاللِّوى مُتَـأَطِّرٍ ... عَطَفَـت جَنـوبٌ مَتنَـهُ وَشَـمالُ

فَلَـم ادْرِ هَـل يُزهـى فَيَخطُرُ نَخـوَةً ... أَم لاعَبَـتْ أَعطافَـهُ الجِرْيـالُ

فَـإِذا اسـتَطارَ بِـهِ النَّجـاءُ فَنيـزَكٌ ... وَإِذا تَهـادى فَـالهِلالُ هِـلالُ

زُرَّت عَلَيـهِ حَبِـيرَةٌ مَوشِـيَّةٌ ... بِمَقيلِـهِ أُخـتٌ لَهـا أَسْـمالُ

مِـزَقٌ كَمـا يَنَقَـدُّ في يَـومِ الـوَغى ... عَـن لَبَّـتَي مُسْـتَلئِمٍ سِـربالُ

فكأَنَّمـا أَلقـى هُنالِـكَ دِرعَـهُ ... بَطَـلٌ وَجَـرَّدَ وَشـيَهُ مُختـالُ

بِيَـدِ الهَجـيرَةِ مِنـهُ سَـوطٌ خـافِقٌ ... وَبِسـاقِ لَيْلَـةِ قِـرَّةٍ خَلخـالُ

فَـدَلَفتُ يَقـدُمُ بي هُنـاكَ ضُـبارِمٌ ... ضـارٍ لَـهُ بِعَمايَـةٍ أَشـبالُ

شَـيحانَ لا أَرتـابُ مِـن هَلَـعٍ وَلا ... أَغتـابُ مِـن طَبَـعٍ وَلا أَغتـالُ

مُتَخـايِلاً أَمشـي الـبِرازَ وَدُونَـهُ ... مِـن أَرقَـمٍ سِـدرٌ أَلَـفُّ وَضَـالُ

فَتَوَعَّـدَتني نَظـرَةٌ وَقّـادَةٌ ... يُـذكَى بِهـا تَحـتَ الظَّـلامِ ذُبـالُ

وَهَـوى كَمـا أَهْـوَى أَتِيٌّ مُزبِـدٌ ... رَجَمَـتْ بِـهِ بَعـضَ الـتِّلاعِ تِـلالُ

يَهفُـو الضَّـراءَ أَمامَـهُ وَلَرُبَّمـا ... يَـذَرُ الكَثيـبَ وَراءَهُ يَنهـالُ

فَـدَرَأتُ بـادِرَةَ الشُّـجاعِ بِأَخضَـرٍ ... في رُقْشَـةٍ هُـوَ لِلشُّـجاعِ مِثـالُ

جَمَـدَ الغَـديرُ بِمَتنِـهِ وَلَرُبَّمـا ... أَعْشـاكَ إِفرِنـدٌ لَـهُ سَـيّالُ

وَجَمَعـتُ بَـينَ المَشرَفِـيِّ وَبَينَـهُ ... فَتَلاقَـتِ الأَشـباهُ وَالأَشـكالُ

وَتَساوَرا يَتَكافَحانِ كَما التَقى يَوْماً أَبو إِسحاقَ وَالرِّئْبالُ
وَكِلاهُما مِن أَسْوَدٍ وَمُهَنَّدٍ في ضِمْنِهِ الأَوجالُ وَالآجالُ[1]

٢- الطبيعة الصامتة

قال أ. د . محمّد رضوان الداية : « تهيّأت للشاعر ظروف متنوّعة ، من بيئة جغرافيّة خاصّة ، ووفرة في ذات اليد تسمح له بقسط من اللهو وافر ، دون الانشغال بالكدّ في سبيل العيش . وقد ألمحت إلى ما يتمتّع به من مواهب جمّة : الحسّ المرهف ، والذوق الفائق ، والذكاء اللمّاح ، والحبّ للحياة الجميلة . إنّ ابن خفاجة – في الحقيقة – أحبّ الطبيعة الجميلة التي كانت " شقر " مثالاً رائعاً لها ، وأسقط عليها مشاعره ، وسكب فيها ذاته ، وقد ظهر في شعره أثر ذلك التوفّر الدقيق الطويل كثرة في الشعر ووفرة ، وبدا فيه أثر المحبّة والألفة في الالتفات إلى نقاط الجمال والروعة ، وفي الركون إلى الطبيعة على كلّ حال . وفي قصائد ومقطوعات كثيرة مبثوثة في الديوان ظهر امتزاج الشاعر بالطبيعة وإسقاط ما في نفسه عليها ويحسّ قارئ شعره أنّه ابن الطبيعة ، يشكو إليها ويطرب لها ، ويرى فيها أجمل ما في الوجود ، وكان إذا استحلى أمراً حلا له في ظلالها وبين أفيائها ، وإذا تغزّل أو شهد مجالس الشراب ، وإذا أنس أو استوحش كان ذلك بمشاركة الطبيعة »[2].

---

١ – الديوان : ١١٩ –١٢١ .

٢ – ابن خفاجة : ٤٦ – ٤٧ .

ويستفيد ابن خفاجة من عناصر الطبيعة استفادة غير مسبوقة تدلّ على عمق محبّته لها أو محبّتها له ، يقول في قصيدة إخوانيّة :

فَـإِنْ أَنَـا لَمْ أَشْـكُرْكَ وَالـدَّارُ غُرْبَـةٌ
فَـلا جَـادَنِي غَـادٍ مِـنَ الـمُزْنِ رَائِـحُ
وَلا اسْتَشْـرَفَتْ يَوْمـاً إِلَيَّ بِهَـا الرُّبـا
جَـلالاً وَلا هَشَّـتْ إِلَيَّ الأَبَـاطِحُ[1]

أً- الطبيعة الكونيّة :

وصف ابن خفاجة كلّاً من الليل والنهار والشمس والقمر والرعد والبرق والريح والثلج والبرد والسيل والندى والمطر والسحاب :

« وقال في صفة الثلج :

للهِ نَـدْمَانُ صِـدْقٍ بَـاتَ مُصْـطَلِياً
نَـاراً مِـنَ القَـدَحِ الـمَلآنِ يَسْـتَعِرُ
وَالأَرْضُ فِضِّـيَّةُ الآفَـاقِ تَحْسَـبُهَا
شَمْطَـاءَ حَاسِـرَةً قَـدْ مَسَّـهَا الكِبَـرُ
فَكُـلُّ نَجْـدٍ وَوَهْـدٍ قَـدْ أَطَـلَّ بِـهِ
رَوْضٌ تَجَلَّـى بِنَـوْرٍ مَـا لَـهُ ثَمَـرُ

---

١ - الديوان : ٧٩ .

وَلِلأَقَــاحِي ثُغُــورٌ فِيْــهِ بَاسِمَــةٌ
لَهَـا مِـنَ الـثَّلْجِ رِيْـقٌ بَـارِدٌ خَصِـرُ
كَــأَنَّ فِي الجَــوِّ أَشْـجَاراً مُنَــوَّرَةً
هَـبَّ النَّسِـيمُ عَلَيْهَـا فَهِـي تَنْتَثِـرُ[1]

بً- العناصر الطبيعيّة :

وصف ابن خفاجة عدداً من عناصر الطبيعة الأرضيّة كالربا والبطاح والخرق والجبل، وقد تميّز كثيراً بوصف المسطّحات المائيّة كالأنهار والبحار :

« وقال يصف البحر:

وَلُجَّــةٍ تفــرَقُ أَو تَعْشَــقُ
فَمــا تَــني أَحشَــاؤُها تَخْفِــقُ
شَــارَفْتُهَا وَهْــيَ بِمَــا هاجَهــا
مِــنَ الصَّــبا مُزبِــدُةٌ تَقْلَــقُ
فَخِلتُــني في شَــطِّها فارِســاً
قُــرِّبَ مِنــهُ فَــرَسٌ أَبْلَــقُ[2]

١ - الديوان : ٣٧٢ .

٢ - الديوان : ١٣٧ .

وقد اشتهرت له قطعة في وصف النهر :

لِلَّـــهِ نَهـــرٌ ســـالَ في بَطْحَـــاءِ أَشـهَى وُروداً مِـن لَمَـى الحَسَـناءِ
مُتَعَطِّـفٌ مِثـلَ السِّـوَارِ كَأَنَّـهُ وَالزَّهْـــرُ يَكنُفُـــهُ مَجَـــرُّ سَمَـــاءِ
قَـدْ رَقَّ حَـتّى ظُـنَّ قَوْسـاً مُفرَغـاً مِـــن فِضَّـــةٍ في بُـــردَةٍ خَضـــراءِ
وَغَـدَت تَحُـفُّ بِـهِ الغُصونُ كَأَنَّهَا هُـــدْبٌ تَحُـــفُّ بِمُقلَـــةٍ زَرقـــاءِ
وَلَرُبَّمَـــا عاطَيـــتُ فيـــهِ مُدَامَـــةً صَـفَراءَ تَخْضِـبُ أَيـدِيَ النُّـدَماءِ
وَالـرِّيحُ تَعبَـثُ بِالغُصـونِ وَقَـد جَـرى ذَهَبُ الأَصِيلِ عَلى لُجَينِ المَاءِ[1]

جـ- الرياض والأشجار والثمار والأزهار :

وصف ابن خفاجة الأندلس بأنّها جنّة الخلد في الدنيا فقال :

يَـــا أَهْـــلَ أَنـــدَلُسٍ لِلَّـــهِ دَرُّكُـــمُ
مـــاءٌ وَظِـــلٌّ وَأَنهـــارٌ وَأَشـــجارُ
مـــا جَنَّـــةُ الخُلـــدِ إِلَّا في دِيـــارِكُمُ
وَهَـــذِهِ كُنْـــتُ لَـــوْ خُيِّـــرْتُ أَخْتَـــارُ
لا تَتَّقُـوا بَعْـدَ ذَا أَنْ تَـدْخُلوا سَـقَراً
فَلَـيسَ تُـدخَلُ بَعـدَ الجَنَّـةِ النَّـارُ[2]

---

١ – الديوان : ٣٥٦ – ٣٥٧ .

٢ – الديوان : ٣٦٤ .

ووصف الحجاريّ الأندلسيّين بأنّهم « هم أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم ، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس ، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن ، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار ، الحائز فيه قصب الرهان» [1] .

وقال الشقنديّ (ت ٦٢٩ هـ) في مفاخرته لابن المعلّم الطنجيّ :

« وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه ، وما يتعلّق بذلك فانتهى إلى راية السباق وفضح كلّ من طمع بعده في اللحاق ، وهو أبو إسحاق ابن خفاجة »[2] .

وقال المقّريّ :« وأبو إسحاق ابن خفاجة كان أوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين »[3] .

وقال أيضاً في مثل ذلك : « وكان صنوبريّ الأندلس أبو إسحاق ابن خفاجة ... وشهرته تغني عن الإطناب فيه – مغرىً بوصف الأنهار والأزهار وما يتعلّق بها وأهل الأندلس يسمّونه الجَنَّان ، ومن أكثر من شيء عرف به »[4] .

---

١ – نفح الطيب : ١٥٥/٣ .

٢ – المصدر نفسه : ٢٠٠/٣ .

٣ – المصدر نفسه : ٦٨١/١ .

٤ – المصدر نفسه : ٤٨٨/٣ .

وقال لسان الدين ابن الخطيب : « وممّن فتن بالأندلس فتنة هذا أبو إسحاق ابن خفاجة » [1].

وكان ابن خفاجة بإحساسه المرهف وفكره الثاقب ، يعرف هذا عن نفسه لذلك لا يرى بأساً في أن يقدّم تسويغاً لإكثاره من وصف الرياض عامّة وشجرها وزهرها ومائها ومكّائها خاصّة ، في ديوانه نفسه ، قال :

« إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماءٍ، ورنَّة طائر، ما هو إلّا لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِر عليها وجِبلَّة، وإمَّا لأنّ الجزيرة كانت داره، ومنشأَه وقراره، وحسبك من ماءٍ سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة، وأرض أرِيضة. فلم يعدمْ هنالك، من ذلك، ما يبعث مع الساعات أُنْسَه، ويحرّك إلى القول نفسَه، حتّى غلب عليه حبُّ ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ، لا تكلّفٍ، مع اقتناع، قام مقامَ اتساع، فأَغناه عن تبذُّل وانتجاع» [2].

ثمّ يردف بمثال على ذلك بقوله : « فمن قوله في ذلك ، يصف مكاناً صابته سماء ، وطلّته أنداء ، فَتَبَيَّضَ بنُوّاره ، وتفضّض ، وتذهّب بأزهاره،وتلهّب، ويندب إلى راح وارتياح، وينعت طائراً يولول هناك ويهدر، وشجرة يتساقط نُوَّارها عليه وينتثر :

---

١ - أعمال الأعلام : ٥ .

٢ - الديوان : ٢٩٠ .

أَذِنَ الغَمَــــامُ بِديمَــــةٍ وَعُقَـــارِ

فَـــامْزُجْ لُجَيناً مِنْهُمـــا بِنُضَـــارِ

وَارْبَـعْ عَلـى حُكْـمِ الرَّبِيـعِ بِـأَجْرَعٍ

هَـــزِجِ النَّـــدَامَى مُفصِـــحِ الأَطيـــارِ

مُتَقَسِّـــمَ الألحَـــاظِ بَـــيْنَ مَحَاسِـــنٍ

مِـــنْ رِدْفِ رَابِيَـــةٍ وَخَصْـــرِ قَـــرَارِ

نَثَـرَتْ بِحِجْـرِ الـرَّوْضِ فيـهِ يَـدُ الصَّبَا

دُرَرَ النَّـــدَى وَدَراهِـــمَ الأَنْـــوَارِ

وَهَفَـــتْ بِغِرِّيْـــدٍ هُنالِـــكَ أَيكَـــةٌ

خَفّاقَـــةٌ بِمَهَـــبِّ ريـــحِ عَـــرَارِ

هَـــزَّتْ لَـــهُ أَعْطَافَهَـــا وَلَرُبَّمَـــا

خَلَعَـــتْ عَلَيْـــهِ مُـــلاءَةَ النُّـــوَّارِ[1]

وإضافة إلى الإكثار وزيادة على التجسيد والتشخيص ، فإنّ عناصر الطبيعة تغدو هي التي تشبهه ، قال :

أَمُسْـتَمَعٌ مِـنْ سَـجْعِ أَوْرَقَ صَـادِحِ

وَمُرْتَبَـــعٌ فِي شَـــطٍّ أَزْرَقَ سَـــائِحِ

---

١ – الديوان : ٢٩١ .

يَسِـــيلُ فَيَحْكِيـــنِي صَـــفَاءَ سَـــرِيرَةٍ

وَجَــرِيَ دُمُــوعٍ وَاضْــطِرَابَ جَــوَانِحِ

وَلُوْعــاً بِــأَحْوَى مِــنْ جَــآذِرِ جَاسِــمٍ

شَــهِيِّ التَّحَايَــا وَاللَّمَــى وَالــمَلامِحِ

وَمَــا العَــيْشُ إِلَّا بَــيْنَ رِيْــحِ حَدِيْقَــةٍ

وَرَنَّـــةِ غِرِّيـــدٍ وَغُـــرَّةِ سَـــابِحِ

فَنَــلْ مِــنْ جَــنَى هَــذَا وَذَاكَ وَهَــذِهِ

وَجُـلْ بَـيْنَ هَاتِيـكَ الرُّبَـا والأَبَـاطِحِ[1]

إذاً فالحياة الجميلة لا تكون لدى ابن خفاجة إلّا بشمّ ريح حديقة ، وسماع رنّة طائر ، وركوب ظهر فرس ، ويجعل الحديقة في مقطوعة أخرى « أخت المنى »[2] ، كما أنّ ابن خفاجة لا يشبّه نفسه بالنهر بل النهر هو الذي يشبهه ، وهي مرحلة متقدّمة من التعاطف والتمازج مع الطبيعة ، ولا يقتصر ابن خفاجة على وصف الطبيعة بأوصاف إنسانيّة ومشاركتها وجدانيّاً ، فيحدّثها وتحدّثه ويبثّها أشواقه وأحاسيسه ومخاوفه وقلقه ، فتكون خير أنيس ونعم الجليس، بل يعبّر عن نفسه بعناصر الطبيعة ذاتها ، فلا

---

١ – الديوان : ٢٩١ ، ٢٩٢ .

٢ – الديوان : ٦٨ .

يقتصر على تشبيه نفسه بالطبيعة أو تشبيه الطبيعة بنفسه ، بل يكون هو الطبيعة ذاتها كقوله :

وَرُبَّ نَسـيمٍ مَـرَّ يَخْطِـرُ عـاطِراً ... رَقيـقِ الحَواشـي لا يُحَـسُّ دَبيبـا
وَجَدتُ بِـهِ مِـن ذَلِـكَ المـاءِ بَلَّـةً ... وَمِـنْ نَـوْرِ هاتيـكَ الأَبـاطِحِ طِيبـا
فَمَـا كـانَ إِلَّا أنْ هَتَفْـتُ حَمَامَـةً ... وسَاعَدْتُ شَوْقِي فاهْتَزَزْتُ قَضِيبا[1]

ففي الشطر الأوّل من البيت الأخير استحال ابن خفاجة حمامةً ، وفي الشطر الثاني منه استحال قضيباً وغصناً رطيباً مهتزّاً .

والطبيعة مسرح للأنس والخمر لدى ابن خفاجة ، وكثيراً ما يشير إلى ذلك مختصراً أو مطيلاً ، « وقال يصف متفرّجاً :

وَصَـقيلَةِ النُّـوَّارِ تَلْـوِي عِطفَهـا ... ريـحٌ تَلُـفُّ فُرُوعَهـا مِعْطَـارُ
عَـاطَى بِهَـا الصَّـهْبَاءَ أَحْـوَى أَحْـوَرٌ ... سَـحَّابُ أَذْيَـالِ الصِّـبَا سَـحَّارُ
وَالنَّـوْرُ عِقـدٌ وَالغُصُـونُ سَـوَالِفٌ ... وَالجِـزْعُ زَنْـدٌ وَالخَلِـيجُ سِـوَارُ
بِحَديقَـةٍ مَثَـلَ اللَّمَـى ظِـلاًّ بِهَـا ... وَتَطَلَّعَـتْ شَـنَباً بِهـا الأَنْـوَارُ

---

١ – الديوان : ١١٢ ، ١١٣ .

رَقَصَ القَضِيبُ بِهَا وَقَدْ شَرِبَ الثَّرَى

وَشَـــدَا الحَمَـــامُ وَصَـــفَّقَ التَّيّـــارُ

غَنّـاءَ أَلحَـفَ عِطفَهـا الـوَرَقُ النَّـدِيْ

وَالتَـــــفَّ في جَنَباتِهـــــا النُّـــــوّارُ

فَتَطَلَّعَـــتْ في كُـــلِّ مَوقِـــعِ لَحْظَـــةٍ

مِـنْ كُـلِّ غُصْـنٍ صَـفحَةٌ وَعِـذَارُ[1]

وكما يرى ابن خفاجة في المرأة عناصر طبيعيّة ، فكذلك يرى في الطبيعة عناصر أنثويّة ، حتّى إنّه ليتعذّر فصل كلّ واحدة عن الأخرى :

« وقال يصف شجرة منوّرة وماء سائحاً :

يـا رُبَّ مائِسَـةِ الـمَعاطِفِ تَزدَهـي

مِـن كُـلِّ غُصـنٍ خـافِقٍ بِوِشَـاحِ

مُهتَـــزَّةٍ يَـــرتَجُّ مِـــن أَعْطَافِهـــا

مـا شِـئتَ مِـن كَفَـلٍ يَمُـوجُ رَدَاحِ

نَفَضَـــتْ ذَوائِبَهـــا الرِيـــاحُ عَشِـــيَّةً

فَتَمَلَّكَتهـــــا هِـــــزَّةُ الـــــمُرتَاحِ

حَـطَّ الرَبيـعُ قِناعَهـا عَـن مَفـرِقٍ

شَمِـطٍ كَمَـا تَزْبَـدُّ كَـأْسُ الـرَّاحِ

---

١ - الديوان : ٢٨١ .

لَفَّـــاءُ حَـــاكَ لَهَـــا الغَمَـــامُ مُـــلاءَةً

لَبِسَـتْ بِهـا حُسْـناً قَمِـيصَ صَـبَاحِ

نَضَـــحَ النَّـــدَى نُوَّارَهـــا فَكَأَنَّمَـــا

مَسَـحَتْ مَعاطِفَهـا يَمِـينُ سَـمَاحِ

وَلَـوى الخَلـيجُ هُنـاكَ صَـفْحَةَ مُعْرِضٍ

لَثَمَـــتْ سَـــوالِفَهَا ثُغُـــورُ أَقَـــاحِ[1]

وقد يصف ابن خفاجة صنفاً محدّداً من الفاكهة كقوله في التين :

وَقَـدْ كُنْـتُ أُغْـرَى بِلُعْـسِ الشِّـفَاهِ

فَكَيْـــفَ بِـــهِ وَهْـــوَ كُـــلُّ لَعَـــسْ

وَهَـــا هُـــوَ يَبْسِـــمُ تَخْطِيطُـــهُ

وَقَـدْ كَـانَ بِـالأَمْسِ يَتْلُـوْ عَـبَسْ

وَقَـــدْ سَـــالَ مِـــنْ فَمِـــهِ شُـــهْدُهُ

كَمَـا سَـالَ رِيْـقُ حَبِيْـبٍ نَعَـسْ[2]

أو يصف نوعاً معيّناً من الشجر كقوله في وصف شجرة نارنج :

---

١ - الديوان : ٢٨١ - ٢٨٢ .

٢ - الديوان : ٣٧٤ .

أَلا أَفْصَـــحَ الطَّيْـــرُ حَـــتَّى خَطَـــبْ

وَخَــفَّ لَــهُ الغُصْــنُ حَــتَّى اضْــطَرَبْ

فَمِـــلْ طَرَبـــاً بَـــيْنَ ظِـــلٍّ هَفَـــا

رَطِيـــبٍ وَمَـــاءٍ هُنَـــاكَ انْثَعَـــبْ

وَجُـــلْ فِي الحَدِيقَـــةِ أُخْـــتِ الـــمُنَى

وَدِن بِالـــــــمُدَامَةِ أُمِّ الطَّـــــرَبْ

وَحَامِلَـــــةٍ مِـــــنْ بَنَـــاتِ القنـــا

أَمَالِيـــدَ تَحْمِـــلُ خُضْـــرَ العَـــذَبْ

تَنُـــوبُ مُوَرَّقَـــةً عَـــنْ عِـــذَارٍ

وَتَضْـــحَكُ زَاهِـــرَةً عَـــنْ شَـــنَبْ

وَتَنْـــدَى بِهـــا فِي مَهَـــبِّ الصَّـــبَا

زَبَرْجَـــــدَةٌ أَثْمَـــرَتْ بِالـــذَّهَبْ

تُفَـــاوِحُ أَنْفَاسَـــــهَا تَـــارَةً

وَطَـــوْراً تُغَازِلُهَـــا مِـــنْ كَثَـــبْ

فَتَبْسِـــمُ فِي حَالَـــةٍ عَـــنْ رِضـــاً

وَتَنْظُـــرُ آوِنَـــةً عَـــنْ غَضَـــبْ[1]

ولا يقتصر وصف ابن خفاجة للطبيعة على الوجه الضاحك المشرق من الطبيعة بل يصوّر الوجه العابس المتجهّم منها ؛ المشارك للشاعر في

---

١ – الديوان : ٦٨ .

عبوسه وتجهّمه ؛كقوله في مقدّمة قصيدة يعرّض فيها ببعض الأقوام ويهجوهم :

مِـن لَيْلَـةٍ لِلرَّعـدِ فِيْهـا صَـرْخَةٌ ... لا تُسْـتَطابُ وَلِلحَيَـا إيْقَـاعُ
خَلَعَـت عَلَـيَّ بِهـا رِداءَ غَمامَـةٍ ... ريـحٌ تُهَلهِلُـهُ هُنـاكَ صَـنَاعُ
وَالصُّبحُ قَدْ صَدَعَ الظَّلامَ كَأَنَّهُ ... وَجْـهٌ وَضـيءٌ شَـفَّ عَنْـهُ قِنَاعُ
فَرَفَلـتُ في سَمَـلِ الـدُّجى وَكَأَنَّمـا ... قَـزَعُ السَّـحَابِ بِجانِبَيـهِ رِقَـاعُ[1]

وقد تحلّ مقدّمات الطبيعة محلّ مقدّمات الغزل في بعض قصائد ابن خفاجة ليصل الشاعر إلى غرضه الأساسي بسرعة ويسر وإبداع ، كقوله في المديح :

يَـا نَشْـرَ عَـرْفِ الرَّوْضَـةِ الغَنَّـاءِ ... وَنَسِـيمَ ظِـلِّ السَّـرْحَةِ الغَيْنَـاءِ
هذَا يَهُبُّ مَعَ الأَصِيلِ عِنِ الرُّبَا ... أَرِجـاً وَذَلِـكَ عَـنْ غَـدِيرِ الـمَاءِ
عُوجَا عَلَى قَاضِي القُضاةِ غُدَيَّةً ... فِي وَشْـيِ زَهْـرٍ أَوْ حُلَـى أَنْـدَاءِ
وَتَحَمَّـلا عَـنِّي إِلَيْـهِ أَمَانَـةً ... مِـنْ عِلْـقِ صِـدْقٍ أَوْ رِدَاءِ ثَنَـاءِ
وَإِذَا رَمَـى بِكُمَـا الصَّـبَاحُ دِيَـارَهُ ... فَتَـرَدَّدَا فِي سَـاحَةِ العَلْيَـاءِ[2]

---

١ – الديوان : ٢٢٤ .

٢ – الديوان : ٤٠ .

بل إنّ ابن خفاجة يقدّم لغرض الرثاء بمقدّمة يستفيد فيها من عناصر الطبيعة استفادة كبيرة ، ويكثر منها – كما في الأغراض الأخر كما سوف نرى – فيقول في رثاء صديق له :

فِي كُــلِّ نــادٍ مِنــكَ رَوضُ ثَنــاءِ	وَبِكُــلِّ خَــدٍّ فيــكَ جَــدْوَلُ مــاءِ
وَلِكُلِّ شَخصٍ هِزَّةُ الغُصنِ النَدِي	تَحْــتَ البُكــاءِ وَرِنَّــةُ الــمُكّاءِ
يــا مَطلَــعَ الأَنــوارِ إِنَّ بِمُقلَــتي	أَسَــفاً عَلَيــكَ لَمَــطْلَعَ الأَنــواءِ[1]

ويستخلص د. إحسان عبّاس بعض خصائص شعر الوصف لدى ابن خفاجة بقوله : « وقد حاول ابن خفاجة أن يجمع في القصيدة الوصفيّة بين التدفّق والجزالة من ناحية ، والصور المحدثة من ناحية أخرى ، فخرج بضرب من الشعر في الطبيعة مثقل متزاحم بين الموسيقى القويّة والصورة البعيدة »[2].

ولا يقتصر وصف الطبيعة عند ابن خفاجة على الشعر وحده بل يشارك النثر في ذلك كقوله :

وكتب في استدعاء صديق له إلى مجلس أنس:

---

١ – الديوان : ١٧٨ .

٢ – تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين : ١١٧ .

« إِنَّ النَّبِيذَ بِسَاطُ مَوْضِعِ الرَّاحَةِ وَالانْبِسَاطِ، وَقَلَّمَا يَطِيبُ رِضَاعُ الكَأْسِ إِلَّا مَعَ الصَّدِيقِ الشَّفِيْقِ، الـمُشْتَبَهِ بِالأَخِ الشَّقِيقِ، فَهُوَ رِضَاعٌ ثانٍ تُرْعَى حُرْمَتُهُ، وَتُحْفَظُ ذِمَّتُهُ. وَهَذا يَوْمُنَا قَدْ ضُرِبَتْ بِهِ أَرْوِقَةُ الأَنْوَاءِ، وَأَعْرَسَتِ الأَرْضُ فِيْهِ بِالسَّمَاءِ؛ فَالغُصْنُ يَتَلَوَّى وَيَتَثَنَّى، وَالحَمَامَةُ تُرَجِّعُ وَتَتَغَنَّى، وَالمَاءُ يَرْقُصُ مِنْ طَرَبٍ وَيُصَفِّقُ، وَالزَّهْرُ يَشُقُّ جَيْبَ كِمَامِهِ وَيُمَزِّقُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكُونَ فِيْمَنْ شَهِدَ هَذَا الإِمْلاكَ، وَتَحْضُرَ فِيْمَنْ حَضَرَ هُنَاكَ، أَجَبْتَ مُنَعَّماً »[1].

وتتغلغل عناصر الطبيعة في نثر ابن خفاجة تغلغلاً شديداً ، ويعبّر بوساطتها عن أغراضه المتنوّعة ،كقوله في الرسالة الأولى في ديوانه يسأل وزيراً – لم يسمّه – من وزراء الدولة انتقل إلى العدوة المغربيّة أن يوصل قصيدة مدحيّة له إلى الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين عندما عاد إلى تلمسان في الجزائر ، فتكثر في هذه الرسالة استفادته من الطبيعة في التعبير عن شوقه إلى الوزير والثناء عليه ، ثمّ لا يكتفي بذلك حتّى يستطرد بوصف الجبل والذئب ثمّ يرجع — بعد ذلك – ليذكر غرضه الأساسي من الرسالة وهو إيصال المدحة إلى الأمير ، ثمّ يثني على وزير الدولة مرّة ثانية : قال :

« وكتب إلى وزير الدولة بما نسخته:

---

١ – الديوان : ٣١٩ –٣٢٠ .

يَا عِمَادِي الأَعْلَى، وَقِدْحِي الـمُعَلَّى نِدَاءً يَسْحَبُ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ رِدَاءً، وَيَطِيبُ إِعَادَةً فِيكَ وَإِبْدَاءً، وَيَمْلأُ سَامِعَتِي الغَوْرِ وَالنَّجْدِ، وَيَهُزُّ عِطْفَي السُّؤْدُدِ وَالـمَجْدِ، حَتَّى يَعْوَجَ عَلَيْهِ الكَرَمُ يُفَدِّيهِ، وَالقَلَمُ يُلَبِّيهِ إِنِّي -كُلَّمَا لَمَعَ مِنْ تِلْقَائِكَ بَارِقٌ، أَوْ طَلَعَ فِي رُوَائِكَ شَارِقٌ، أَوْ تَرَقَّتْ بِمَكَارِمِكَ غَمَامَةٌ، أَوْ نَطَقَتْ بِمَحَاسِنِكَ حَمَامَةٌ، أَوْ تَنَفَّسَتْ عَنْ نَفَحَاتِ أَخْلاقِكَ، وَكَرَمِ آدَابِكَ وأَعْرَاقِك، رَيْحَانَةٌ وَأَصِيلٌ، وَرِيحٌ بَلِيلٌ - لأَرَاكَ، بِمَا احْتَمَلْتُهُ مِنْ حُلاكَ، أَوِ انْتَحَلْتُهُ مِنْ عُلاكَ، فَمَا أَدْرِي - وَقَدْ طَرِبْتُ - أَأَرْتَاحُ، أَمْ غُصْنٌ بِي يُرَاحُ. فَلا اقْتِرَاحَ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا بِالفُسْحَةِ فِي بُقْيَاك، وَالـمَسْحَةِ مِنْ رُعْيَاكَ، وَاللَّمْحَةِ مِنْ لُقْيَاكَ، وَاللُّمْعَةِ مِنْ سُقْيَاكَ.

وَكَيفَ؟ وَأَيْنَ بِذَلِكَ الـمُتَمَنَّى؟ وَدُونَكَ كُلُّ عَلَمٍ بَاذِخٍ مَجَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رُضَابَهُ، وَصَافَحَتِ النُّجُومُ هِضَابَهُ، قَدْ طَمَحَ بِطَرْفِهِ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَسَالَ الوَقَارُ عَلَى عِطْفِهِ، فَهُوَ يَعْبِسُ، وَلا يَنْبِسُ، كَأَنَّمَا أَطْرَقَ بِهِ اعْتِبَارٌ، أَوِ احْتَبَى مِنْهُ جَبَّارٌ، قَدْ لاثَ مِنْ غَمَامَةٍ، عِمَامَةً، وَأَرْسَلَ مِنْ رَبَابَةٍ، ذُؤَابَةً، تُطَرِّزُهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ، وَتَهْفُو بِهَا الرِّيَاحُ العَوَاصِفُ، بِحَيْثُ مَدَّتِ البَسِيطَةُ بِسَاطاً، وَضَرَبَتِ السَّمَاءُ فُسْطَاطاً، وَخَلا الجِنُّ يَعْزِفُ، وَالحَمَامُ يَهْتِفُ، وَأَطْرَقَ الذِّئْبُ يَنْصُبُ سَامِعَتَيْهِ، وَيَنْفُضُ الرَّوْعُ جَانِحَتَيْهِ »[1].

---

١ - الديوان : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

٤ : الحنين

يأخذ الحنين عند ابن خفاجة أبعاداً متعدّدة ، فهو قد نأى عن الأندلس واضطرّ لمغادرتها والرحيل إلى المغرب وإفريقيّة ، فاضطرمت عاطفته واشتعل شوقه إلى وطنه الكبير الأندلس، فصرخ شعراً متشوّقاً إلى الأندلس، « وقال في التشوّق إلى الأندلس وهو بالعدوة :

إِنَّ لِلجَنَّــــــــةِ بالأَنــــــــــدَلُسِ
مُجتَلَـــى حُسْـــنٍ وَرَيّـــا نَفَـــسِ
فَسَـــنا صُـــبحَتِها مِـــن شَـــنَبٍ
وَدُجـــى لَيْلَتِهـــا مِـــنْ لَعَـــسِ
فَـــإِذا مـــا هَبَّـــتِ الـــريحُ صَـــباً
صِـــحْتُ وا شَـــوْقِي إِلى الأَنْـــدَلُسِ[1]

ويبتعد ابن خفاجة عن وطنه الأصغر ومسقط رأسه جزيرة شقر ، ويرتحل إلى مدائن كثيرة في الأندلس لأغراض متعدّدة ، فتنمو بذرة الحنين في قلبه ، ويسقيها من دموعه المدرارة ، فتزهر شوقاً جارفاً ، وتثمر شعراً رائعاً : « وقال في أثناء سفر ، يتشوّق إلى الوطن :

أَجَبـتُ وَقَـد نـادى الغَـرامُ فَأَسمَعـا   عَشِـيَّةَ غَنّـاني الحَمـامُ فَرَجَّعـا

---

١ – الديوان : ١٣٦ .

فَقُلتُ وَلي دَمعٌ تَرَقرَقَ فاهمى ... يَسيلُ وَصَبرٌ قَد وَهى فَتَضَعضَعا
أَلا هَل إِلى أَرضِ الجَزيرَةِ أَوبَةٌ ... فَأَسْكُنَ أَنفاساً وَأَهْدَأَ مَضْجَعا
وَأَغدو بِواديها وَقَد نَضَحَ النَّدى ... مَعاطِفَ هاتيكَ الرُّبا ثُمَّ أَقشَعا
أُغازِلُ فيها لِلغَزالَةِ سُنَّةً ... تَحُطُّ الصَّبا عَنها مِنَ الغَيمِ بُرقُعا
وَقَد فَضَّ عِقدَ القَطرِ في كُلِّ تَلعَةٍ ... نَسيمٌ تَمَشّى بَينَها فَتَضَوَّعا
وَباتَ سَقيطُ الطَّلِّ يَضرِبُ سَرحَةً ... تَرِفُّ بِواديها وَيَنضَحُ أَجرَعا
وَإِنْ تَنْأَ مِنْ دارٍ إِلَيَّ حَبيبَةٍ ... وَحَسبُكَ مُصطافاً وَناهيكَ مَربَعا
فَقَدْ تَرَكَتني بَينَ جَفنٍ جَفا الكَرى ... وَجَنبٍ تَقَلّى لا يُلائِمُ مَضجَعا
" أُقَلِّبُ طَرفي في السَّماءِ لَعَلَّني ... أَشيمُ سَنا بَرقٍ هُناكَ تَطَلَّعا[1]

ولا يقتصر الحنين على ابن خفاجة بل ينتقل إلى فرسه الذي يحثّ العدو ويسرع ليصل إلى هذه الجزيرة الرائعة الجمال الكريمة على الشاعر الذي لا يتمالك نفسه أن يستحيل حمامة تنشد ، وقضيب غصن يهتزّ :

وَحَنَّ إِلى شُقْرٍ فَخَفَّ على السُّرَى ... يَخُوضُ خَليجاً أَو يَجُوبُ كَثِيبا
يَؤُمُّ بِها أَرضاً عَلَيَّ كَريمَةً ... وَمُرْتَبَعاً فيها إِلَيَّ حَبيبا
وَنَهراً كَما ابيَضَّ المُقَبَّلُ سَلسَلاً ... وَجِزعاً كَما اخضَرَّ العِذارُ خَضِيبا
وَرُبَّ نَسيمٍ مَرَّ يَخْطِرُ عاطِراً ... رَقيقِ الحَواشي لا يُحَسُّ دَبيبا

---

١ – الديوان : ١٢٨ .

وَجَـدتُ بِـهِ مِـن ذَلِـكَ المـاءِ بَلَّـةً ... وَمِـنْ نَـوْرِ هاتيـكَ الأَبـاطِحِ طِيبـا
فَمَـا كـانَ إِلَّا أنْ هَتَفْـتُ حَمَامَـةً ... وسَاعَدْتُ شَوْقِي فاهْتَزَزْتُ قَضِيبا
وَقَـد قَلَّـدَ النُـوَّارُ جيـداً لِرَبـوَةٍ ... هُنـاكَ وَنحـراً لِلفَضـاءِ رَحيبـا
وَأَفصَـحَتِ الوَرقـاءُ في كُـلِّ تَلعَـةٍ ... نَشـيداً وَقَـد رَقَّ النَّسـيمُ نَسـيبا
وَكـانَ عَلـى عَهـدِ السُّـلُوِّ تَغَنِّيـاً ... يُهَـيِّجُ أطْـرَابِي فَعَـادَ نَحيبـا
دَعـا بِغُـروبِ الـدَّمْعِ وَالـدَّارُ غُربَـةٌ ... فَلَـم أَرَ إِلَّا داعِيـاً وَمُجيبـا[1]

ويرتبط حنينه إلى المكان بحنينه إلى الزمان فيجتمع شوق إلى شقر حيث معاهده مع ذكريات شبابه وتحسّره على فقدهما معاً ، فيذرف أجمل قصائد الحنين إليهما ، « وقال يتشوّق إلى معاهده بجزيرة شقر ويندب ماضي زمانه :

بَـيْنَ شُـقْرٍ وَمُلْتَقَـى نَهْرَيْهَـا ... حَيْثُ ألقَتْ بِنَا الأَمَانِي عَصَاهَا
وَيُغَـنِّي الـمُكَّاءُ فِي شَـاطِئَيْهَا ... يَسْتَخِفُّ النُّهَى فَحَلَّتْ حُبَاهَا
عِيْشَـةٌ أَقْبَلَـتْ يُشَـهَّى جَنَاهَـا ... وَارِفٌ ظِلُّهَـا لَذِيـذٌ كَرَاهَـا
لَعِبَـتْ بِـالعُقُولِ إِلَّا قَلِـيلاً ... بَـيْنَ تَأْوِيبِهـا وبَـيْنَ سُـرَاهَا
فَانْثَنَيْنَـا مَـعَ الغُصُـونِ غُصُـوناً ... مَرَحـاً فِي بِطَاحِهَـا وَرُبَاهَـا
ثُمَّ وَلَّـتْ كَأَنَّهَـا لَـمْ تَكَـدْ تَلْـ ... ـبَثُ إِلَّا عَشِـيَّةً أَوْ ضُـحَاهَا

---

١ – الديوان : ١١٢ – ١١٣ .

فَانْدُبِ الـمَرْجَ فَالكَنِيسَـةَ فَالشَّـطْ طَ وَقُــلْ آَهٍ يَــا مُعِيــدَ هَواهَـــا
آهٍ مِـــنْ غُرْبَـــةٍ تُرَقْــرِقُ بَثّــاً آهٍ مِـــنْ رِحْلَـــةٍ تَطُـــولُ نَوَاهَـــا
آهٍ مِـــنْ فُرْقَـــةٍ لِغَـــيْرِ تَـــلاقٍ آهٍ مِـــنْ دَارٍ لاَ يُجِيــبُ صَــدَاهَا
لَسْتُ أَدْرِي وَمَدْمَعُ الـمُزْنِ رَطْبٌ أَبَكَاهَـــا صَـــبَابَةً أَمْ سَـــقَاهَا
فَتَعَــالَي يَــا عَــيْنُ نَبْــكِ عَلَيْهَــا مِـنْ حَيَـاةٍ إِنْ كَـانَ يُغْـنِي بُكَاهَـا
وَشَــبَابٍ قَــدْ فَــاتَ إِلَّا تَنَاسِيــ ــهِ وَنَفْــسٍ لَمْ يَبْــقَ إِلَّا شَــجَاهَا
مَـا لِعَيْـنِي تَبْكِـي عَلَيْهَـا وَقَلْـبِي يَتَمَـــنَّى سَـــوَادُهُ لَـــوْ فَـــدَاهَا[1]

ويرتبط حنينه إلى المكان – كذلك – بحنينه إلى الأصدقاء والخلّان، وإلى أيام اللهو التي كانت تجمعهم معاً : « وقال يتشوّق إلى الوطن من قصيدة :

فَيـا لَشَـجا صَدْرٍ مِنَ الصَّبرِ فارِغٍ وَيـا لَـقَذَى طَـرفٍ مِـنَ الـدَّمعِ مَـلآنِ
وَنَفــسٍ إِلى جَـوِّ الكَنيسَـةِ صَـبَّةٍ وَقَلــبٍ إِلى أُفْــقِ الجَزيــرَةِ حَنّــانِ
تَعَوَّضـتُ مِن واهـاً بِآهٍ وَمِن هَـوىً بِهُـونٍ وَمِـن إِخـوانِ صِـدقٍ بِخُـوّانِ
وَمـا كُـلُّ بَيضـاءٍ تَـرُوقُ بِشَـحمَةٍ وَمـا كُـلُّ مَرعـىً تَرتَعيـهِ بِسَـعدانِ
فَيـا لَيـتَ شِـعري هَـل لِـدَهرِيَ عَطفَـةٌ فَتُجمَـعَ أَوطـاري عَلَـيَّ وَأَوطـاني
مَيــادينُ أَوْطَـارِي وَمَعْهَـدُ لَـذَّتي وَمَنشَــأُ تَهيــامِي وَمَلعَــبُ غِـزْلاني

١ – الديوان : ٣٦٤ – ٣٦٥ .

كَأَنْ لَمْ يَصِلني فِيْهِ ظَبيٌ يَقُومُ لِي   لَمَــاهُ وَصُــدْغَاهُ بِــراحٍ وَرَيحــانِ
فَسَـقياً لِـوادِيهِم وَإِنْ كُنـتُ إِنَّمَـا   أَبيــتُ لِــذِكراهُ بِغُلَّــةِ ظَمــآنِ
فَكَـمْ يَـوْمِ لَهْـوٍ قَـدْ أَدَرْنـا بِأُفقِـهِ   نُجـومَ كُـؤوسٍ بَـينَ أَقمـارِ نَـدْمَانِ
وَلِلقُضْـبِ وَالأَطْيَـارِ مَلهـىً بِجِزْعِـهِ   فَمَا شِئْتَ مِنْ رَقْصٍ عَلى رَجعِ أَلحانِ[1]

وقد يفرد ابن خفاجة الخلّان والإخوان بقصائد خاصّة في الحنين إليهم، ولاسيّما عندما يسافر الشاعر خارج الأندلس فيفصل البحر بينهم ، « وقال في الحنان إلى الإخوان بظهر البحر وصفة سفينة :

تَهَــادَى بِي لِــذِكرِكُمُ ارتيــاحُ   فَبِــتُّ وَكُــلُّ جانِحَــةٍ جَنــاحُ
وَدَمعــي جِريَــةً مَطَــرٌ تَــوالى   وَجِســمي هِــزَّةً غُصــنٌ يُـراحُ
أَإِخــواني وَلا إِخــوانَ صِــدقٍ   أُصــافي بَعــدَكُم إِلَّا الصِّـفاحُ
بِحُسـنِ الصَّـبرِ دونَكُـمُ حِـرانٌ   وَلِلعَــبَراتِ بَعــدَكُمُ جِمــاحُ
فَـدَيتُكُمُ بِنَفسـي مِـن كِـرامٍ   يَهُــزُّ بِهِــم مَعاطِفَــهُ السَّـماحُ
أَرى بِهِــمُ النُّجــومَ وَلا ظَــلامٌ   وَأَوضــاحَ النَّهــارِ وَلا صَــباحُ
تَخايَــلُ نَخــوَةً بِهِــمُ الـمَذاكي   وَتَعسِــلُ هِــزَّةً لَهُــمُ الرِّمــاحُ
لَهُـم هِمَـمٌ كَمـا شَمَخَـت جِبـالٌ   وَأَخـلاقٌ كَمـا دَمَثَـت بِطـاحُ[2]

---

١ – الديوان : ٣٤٥ .

٢ – الديوان : ١٣٨ .

٥ : الخمرة

كان للخمرة حيّز كبير من اهتمام ابن خفاجة في الشطر الأوّل من حياته فلا يرى الحياة من دونها، ولا يجد اللذّة من غيرها ، لذلك كثر ذكرها في شعره ، وزاد ورودها[1] في ثناياه حتّى ولو كان في شطر بيت من الشعر كقوله :

كَـأَنِّيَ لَمْ أَذْهَـبْ مَـعَ اللَّهْـوِ لَيْلَـةً وَلَمْ أَتَعَـاطَ البَـابِلِيَّ الـمُشَعْشَعَا[2]

أو في أقلّ من ذلك كقوله :

فِي لَيْلَةٍ خَصِرَتْ صَبَاهَا فَاصْطَلَى فِيهَـا أَخُـو التَّقْـوَى بِنَـارِ مُـدَامِ[3]

ويتّسع وصف الخمر في شعره – خلا ذلك – في قصائد ومقطّعات كثيرة **و ينقسم أقساماً متعدّدة :**

١ – استهداء الخمرة

قال ابن خفاجة : « في عصر الصّبا يستهدي خمراً في يوم برد :

كَتَبْـــتُ وَقَـــد خَصِـــرَت راحَـــتي

فَهَـل مِـن حَريـقٍ لِكـأسِ الرَّحيـق

---

١ – انظر الديوان : ٦٤–٦٨–٧٠–١٨١–١٨٤–٢١٠–٢١١–٢٢١–٢٢٤–٢٤٥–٢٨١–٢٨٩–٢٩١–٣٤٠–٣٥١–٣٥٥–٣٥٦–٣٦٧ .

٢ – الديوان : ٥٧ .

٣ – الديوان : ٨٤ .

وَقَـــد أَعـــوَزَت نارُهـــا جُملَـــةً

فَلَـــولاكَ شَـــبَّهتُها بِالصَّـــديق[1]

٢- وصف الساقي

كقوله :

وَأَهيَـــفٍ قـــامَ يَســـقِي وَالسُّـــكْرُ يَعْطِـــفُ قَـــدَّهْ

وَقَـــد تَـــرَنَّحَ غُصـــناً وَاحْمَـــرَّتِ الكَـــأسُ وُردَهْ

وَأَلهَـــبَ السُّـــكْرُ خَـــدّاً أَورَى بِـــهِ الوَجْـــدُ زَنـــدَهْ

فَكَـــادَ يَشـــرَبُ نَفسِـــي وَكِـــدْتُ أَشـــرَبُ خَـــدَّهْ[2]

وقد يطرف ويغرب ويبدع في وصف الخمرة وساقيها الأحدب الأسود

رُبَّ ابْـــنِ لَيْـــلٍ سَـــقَانَا وَالشَّـــمْسُ تَطْلُـــعُ غُـــرّهْ

فَظَـــلَّ يَسْـــوَدُّ لَوْنـــاً وَالكَـــأْسُ تَسْـــطَعُ حُمْـــرَهْ

كَأَنَّـــهُ كُـــدْسُ فَحْـــمٍ قَـــدْ أُوقِـــدَتْ مِنْـــهُ جَمْـــرَهْ

وَلِلْمُـــــدَامِ مُـــــدِيرٌ يَشُـــــبُّ جَمْـــرَة خَمْـــرَهْ

تَضَـاحَكتْ عَـنْ حَبَـابٍ يُقَبِّـــلُ المـــاءُ ثَغْـــرَهْ

فَظِلْـــتُ آخُـــذُ يَـــاقُو تَـــــةً وَأَصْـــــرِفُ دُرَّهْ

---

١ - الديوان : ١٣٤ .

٢ - الديوان : ٣٥٤ ، وانظر : ٨٣ ، ٢٧٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ .

حَـــتَّى تَثَنَّيْـــتُ غُصْـــناً   وَاصْـفَرَّتِ الشَّـمْسُ زَهْـرَهْ
وَارْتَــدَّ لِلشَّــمْسِ طَـرْفٌ   بِــهِ مِــنَ السُّــقْمِ فَتْــرَهْ
يَجُـــولُ لِلْغَــيْمِ كُحْــلٌ   فِيـــهِ وَلِلْقَطْـــرِ عَـــبْرَهْ[1]

٣- وصف الشاربين والندامى

قال ابن خفاجة يصف شجرة النارنج ويصف الشَّرْب تحتها في صورة فنّيّة فريدة :

أَنْعِـــمْ فَقَـــدْ هَبَّـــتِ النُّعَـــامَى
وَنَبَّهَـــــتْ رِيحُهَـــــا الخُـــــزَامَى
وَمِــــــلْ إِلَى أَيْكَـــــةٍ بَلِيـــــلٍ
تَهْفُـــو اهْتِـــزَازاً بِهَـــا قُـــدَامَى
تَهُـــــزُّ أَعْطَافَهَـــــا القَــــوَافِي
لَهَــــا وَأَكْوَاسَــــهَا النَّـــدَامَى
كَـــــأَنَّ أُمّـــــاً بِهـــــا رَؤُومـــــاً
تَحْضُـــنُ مِـــنْ شَـــرْبِهَا يَتَـــامَى[2]

---

١ - الديوان : ٧٣ ، وانظر : ٢١٠ ، ٣٧٥.

٢ - الديوان : ٦٩ ، وانظر : ٣٥٧ ، ٣٧٢.

٤- وصف الخمر

كقوله :

وَشَـــرِبْتُها عَـــذراءَ تَحْسَـــبُ أَنَّهـــا

مَعصـــورَةٌ مِـــن وَجنَـــتَي عَـــذراءِ

حَمـــراءُ صـــافِيَةٌ تَطيـــبُ بِنَفسِـــها

وَغَنَائِهـــا وَخَلائِـــقِ النُّـــدَماءِ[1]

وقال يصف صفرة الشراب وبياض الحباب :

خُـذها كَمـا اطَّلَعَـتْ عَلَيـكَ عَـرارَةٌ

مُفتَـــرَّةٌ عَـــنْ لُؤلُـــؤِ الأَنـــداءِ

صَـــفراءَ في بَيْضـــاءَ تَحْسَـــبُ أَنَّهـــا

شَمْـــسُ العَشَّـــيةِ في قَـــرَارِ الـــمَاءِ[2]

٥- وصف الخمر في مجالس اللهو

قال ابن خفاجة بعد أبيات في عرض حكمته الخاصّة ورؤيته للحياة :

وَابتَـعْ بِكَـيْسٍ كـأسَ مَشـمولَةٍ	وَاسحَبْ ذُيولَ اللَّهْوِ وَاخلَعْ وَهَبْ
وَاستَضحِكِ الـمَجلِسَ عَن قَهوَةٍ	نَبَّهَـتِ الصُّـبْحَ هُـدُوّاً فَهَـبْ

١ – الديوان : ٢٥٠.

٢ – الديوان : ٢٥٠.

نَارِيَّـــــةِ اللَّذْعَــــــةِ نُورِيَّـــــةٍ		فِي صُـــفرَةٍ فاقِعَـــةٍ أَو صَـــهَبْ

وَهُـزَّ مِـن عِطفَيـكَ عَـن نَشـوَةٍ		غُصناً إِذا ما نَفَسُ الصُّبْحِ هَبْ

بِــــأَبيَضٍ كَالمـــاءِ مُســـتَودَعٍ		مـا شِـئْتَهُ مِـن أَحْمَـرٍ كَاللَّهَـبْ

لَـــو ذابَ هَـــذا لَجَـــرى فِضَّـــةً		أَو جَمَدَتْ تِلْكَ لَكانَتْ ذَهَبْ[1]

٦- وصف الخمرة في أحضان الطبيعة :

يمزج ابن خفاجة عن عمد بين الطبيعة والخمرة مزجاً لا مثيل له ، فهو يرى في عناصر الطبيعة خمراً وفي الخمرة عناصر الطبيعة،«قال في صباه:

إِنَّمَـــا العَـــيشُ مُـــدامٌ أَحمَـــرُ
قـــامَ يَســـقيهِ غُـــلامٌ أَحـــوَرُ
وَعَلـــى الأَقـــداحِ وَالأَدواحِ مِـــن
حَبَـــبٍ نَثْـــرٌ ونَـــوْرٍ جَـــوْهَرُ
فَكَـــأَنَّ الـــدَوحَ كـــأسٌ أَزبَـــدَتْ
وَكَـــأَنَّ الكـــأسَ دَوحٌ يُزهِـــرُ[2]

وكثيراً ما يقتضي وصف الطبيعة وصف الخـــمرة عنده لأنّ الطبيعـــة مسـرح لـهوه ومرحه ، وجواؤهـا الرائعة تدعوه للشـرب ، فيلتقي الشـاعر

---

١ – الديوان : ٢٤٩ ، وانظر : ٢٤٢ ، ٣٦١.

٢ – الديوان : ١٣٥.

والخمر والساقي والندمان في حضن الطبيعة الدافئ ، قال :

حُـثَّ الـمُدامَةَ فَالنَّسـيمُ عَليـلُ   وَالظِّـلُّ خَفّـاقُ الـرِّواقِ ظَليـلُ
وَالنَّـوْرُ طَـرْفٌ قَـد تَنَبَّـهَ دامِـعٌ   وَالمـاءُ مُبتَسِـمٌ يَـروقُ صَـقيلُ
وَقَد انْتَشَى عِطْفُ الأَرَاكَةِ فَانْثَنَى   سُكْراً وَرَجَّعَ في الغُصُونِ هَـدِيلُ
وَتَطَلَّعَـت مِـن بَرْقَـةٍ وَغَمَامَـةٍ   في كُـلِّ أُفْـقٍ رايَـةٌ وَرَعيـلُ
حَـتّى تَهـادى كُـلُّ خوطَـةِ أَيكَـةٍ   رِيّـاً وَغَصَّـتْ تَلعَـةٌ وَمَسـيلُ
فَـالرَّوضُ مُهتَـزُّ الـمَعاطِفِ نِعْمَـةً   نَشـوانُ تَعْطِفُـهُ الصَّـبا فَيَميـلُ
رَيّـانُ فَضَّضَـهُ النَّـدَى ثُمَّ انجَلَـى   عَنـهُ فَـذَهَّبَ صَـفحَتَيهِ أَصـيلُ
وَارتَـدَّ يَنظُـرُ في نِقـابِ غَمامَـةٍ   طَـرفٌ يُمَرِّضُـهُ العَشِـيُّ كَليـلُ
سـاجٍ كَمـا يَرنُـو إلى عُـوّادِهِ   شـاكٍ وَيَلـتَمِحُ العَزيـزَ ذَليـلُ
فَالشَّمْسُ شَاحِبَةُ الجَبِينِ مَريضَةٌ   وَالرِّيْـحُ خافِقَـةُ الجَنَـاحِ بَلِيْـلُ
والـزِّقُّ مُنْجَـدِلٌ يَكُـبُّ لِوَجهِـهِ   وَيَمُـجُّ رُوْحَ الـرَّاحِ مِنْـهُ قَتِيْـلُ
وَالكَأسُ طِرفٌ أَشقَرٌ قَد جالَ في   عَـرَقٍ عَـلاهُ مِـن الحَبـابِ يَسـيلُ
يَسـعى بِهـا قَمَـرٌ لَـهُ وَلِكَأسِـهِ   وَجـهٌ أَغَـرُّ وَمَبسِـمٌ مَعسـولُ
شـاكِي السِّـلاحِ بِقَـدِّهِ وَبِطَرْفِـهِ   رُمـحٌ أَصَـمُّ وَصـارِمٌ مَسْـلُولُ
وَأَخٍ تَهُـزُّ لَـهُ العُـلا أَعطافَهـا   فَكَأَنَّـهُ رَيحانَـةٌ وَشَـمُولُ
راضَـعتُهُ كَـأسَ الـمُدامِ وَبَينَنـا   لِجَـنى الحَـديثِ حَديقَـةٌ وَقَبُـولُ[1]

---

١ – الديوان : ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، وانظر : ٨٣ ، ١٣٩، ٢٩٨ .

٧- المغامرات الخمريّة

ومنها في وصف معاطاته الخمرة مع الساقية ومغامرته العاطفيّة معها ، ومنها في وصف رحلته إلى الحانة وشربه الخمر كقوله :

أَلا قَلَّصَتْ ذَيْلَها لَيْلَةٌ ... تَجُرُّ الرَّبَابَ بِها هَيْدَبا

وَقَد بَرقَعَ الثَّلْجُ وَجهَ الثَّرَى ... وَأَلحَفَ غُصنَ النَّقَى فاحتَبى

فَشابَتْ وَراءَ قِناعِ الظَّلامِ ... نَوَاصِي الغُصونِ وَهامُ الرُّبَا

فَمَهما تَيَمَّمتُ خَمّارَةً ... رَكِبْتُ إِلى أَشقَرٍ أَشهَبا

وَحَيَّيتُ حَانَتَها طارِقاً ... فَقالَتْ تُجِيْبُ أَلا مَرْحَبا

وَقامَت بِأَجْيَدَ مِن كَأسِها ... لأَوقَصَ مِن دَنِّها أَحدَبا

فَجاءَتْ بِحَمراءَ وَقَّادَةٍ ... تَلَهَّبُ في كَأْسِها كَوكَبا

عَثَرْتُ بِذَيلِ الدُّجَى دونَها ... فَأَضحَكتُ ثَغراً لَها أَشنَبا

وَقَد مَسَحَ الصُّبحُ كُحلَ الظَّلامِ ... وَأَطلَعَ فَوْدَ الدُّجَى أَشيَبا[١]

٨- الإقلاع عن شرب الخمر

دخل ابن خفاجة «على قوم يشربون، وقد أقلع عن الشراب فقال :

ياحَبَّذا نادي النِّدَامِ وَمُجتَلى ... سِرِّ السُّرورِ بِهِ وَمَسْلَى الأَنفُسِ

---

١ – الديوان : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، وانظر : ٢٤٢ ، ٣٤٨ .

وَلَـئِنْ كَفَفـتُ عَـنِ الـمُدامِ فَـإِنَّ لي

نَفْسـاً تَهَـشُّ بِصَـدْرِ ذَاكَ الـمَجْلِسِ

لَـولا الحَيـاءُ مِـنَ الـمَشيبِ لَقَبَّلَـتْ

ثَغـرَ الحَبَـابِ بِـهِ وَعَـينَ النَّـرْجِسِ[1]

يبدو أنّ إقلاعه عن الشراب لم يكن سهلاً ، وأنّ حنينه إليه ظلّ يلحّ عليه زمناً غير يسير ، وقال وقد أقلع عن الشراب وخَلَق الشباب :

صَحا عَـنِ اللَّهـوِ صاحٍ عافَـهُ خُلُقـا

فَقـامَ يَخلَـعُ سِـرِبالاً بِـهِ خَلَقـا

وَعَطَّـلَ الكَـأسَ مِـنْ شَـقْرَاءَ سـابِحَةٍ

أَلا كَفاهـا بِرَيعـانِ الصِّـبا طَلَقـا

وَرُبَّ لَيْلَـةِ وَصْـلٍ قَـدْ لَهَـوْتُ بِهـا

مُغـازِلاً فَلَقـاً أَو شـارِباً شَـفَقا

لا يَنثُـرُ الـدُرَّ فيْمَـا بينَنـا كَلِمـاً

حَـتّى أُقَبِّلَـهُ مِـنْ مَبْسِـمٍ نَسَـقا

وَرُبَّ عَبْـرَةِ شَـكْرَى قَـدْ شَـرِقْتُ بِهـا

في مَوْقِـفٍ لِلنَّـوى أَضْـرَمتُهُ حُرَقـا

تَخـالُ مـا احْمَـرَّ مِـنْ خَدَّيـهِ مُلتَهِبـاً

بِهـا وَمـا اسْـوَدَّ مِـن صُـدْغَيهِ مُحتَرِقـا[2]

---

١ - الديوان : ٢٧٢.

٢ - الديوان : ١٦٣.

٦: الفخر و الحماسة

الفخر هو الحيّز الذاتيّ الأهمّ الذي تتنفّج فيه نفس الشاعر ، وتنتفخ لتعبّر عن ذاتها ، وتشير إلى مميّزاتها الخاصّة في الشجاعة والقوّة ، وفي الإبداع الشعريّ.

*– الفخر بالقوة والشجاعة

أ– من حيث الموضوعات :

١ – الفخر بالشجاعة والقوّة في الحروب ، قال ابن خفاجة « في الحماسة :

هَجَرْتُ لِبِيْضِ الشَّيْبِ بِيْضَ العَمَائِمِ
وَآلَيْـــــتُ لَا أَعْـــــتَمُّ إِلَّا بِفَـــــاحِمِ
فَلَـوْ كُنْـتُ أَسْتَسْـقِي الغَمَـامَ لِغُلَّـةٍ
لمـَا قُمْـتُ فَاسْتَسْـقَيْتُ غُـرَّ الغَمَـائِمِ
فَمَـــا أَرْتَـــدِيْ إِلَّا بِـــأَحْمَرَ قَـــانِئٍ
سَقَتْهُ الطُّلَى مِنْ نَصْلِ أَبْيَضَ صَارِمِ
بِحَيْثُ يُهَزُّ الـمَوْتُ مِنْ أَكْعُبِ القنا
غُصُـوناً وَيَجْـنِي مِـنْ ثِمَـارِ الجَمَـاجِمِ
وَيَنْظُـرُ عَـنْ طَـرْفٍ مِـنَ الـرُّمْحِ أَزْرَقٍ
وَيَضْحَكُ عَنْ ثَغْرٍ مِنَ السَّيْفِ بَاسِمِ

وَقَدْ فَاضَ بَحْرٌ لِلرَّدَى مِنْ دَمِ العدا

فَسَالَ حَيَاءً فِي وُجُوهِ الصَّوَارِمِ[1]

٢ – الفخر بالشجاعة في قطع الجرود والسير ليلاً وحيداً لا يرافقه إلّا حسامه وفرسه ، « وقال يصف ليلاً وينعت سَبُعاً :

وَمَفَازَةٍ لا نَجْمَ فِي ظَلْمَائِهَا ... يَسْرِي وَلا فَلَكٌ بِهَا دَوَّارُ

تَتَلَهَّبُ الشِّعْرَى بِهَا وَكَأَنَّهَا ... فِي كَفِّ زِنْجِيِّ الدُّجَى دِينَارُ

تَرْمِي بِيَ الغِيطَانُ فِيهَا وَالرُّبَا ... دُوَلاً كَمَا يَتَمَوَّجُ التَّيَّارُ

وَالقُطْبُ مُلْتَزِمٌ لِمَرْكَزِهِ بِهَا ... فَكَأَنَّهُ فِي سَاحَةٍ مِسْمَارُ

قَدْ لَقَّنِي فِيهَا الظَّلَامُ وَطَافَ بِي ... ذِئْبٌ يُلِمُّ مَعَ الدُّجَى زَوَّارُ

طَرَّاقُ سَاحَاتِ الدِّيَارِ مُغَاوِرٌ ... خَتَّالُ أَبْنَاءِ السُّرَى غَدَّارُ

يسرِي وَقَدْ نَضَحَ النَّدَى وَجْهَ الصَّبَا ... فِي فَرْوَةٍ قَدْ مَسَّهَا اقْشِعْرَارُ

فَعَشَوْتُ فِي ظَلْمَاءَ لَمْ تُقْدَحْ بِهَا ... إِلَّا لِمُقْلَتِهِ وَبَأْسِيَ نَارُ

وَرَفَلْتُ فِي خلَعٍ عَلَيَّ مِنَ الدُّجَى ... عُقِدَتْ لَهَا مِنْ أَنْجُمٍ أَزْرَارُ

وَاللَّيْلُ يَقْصُرُ خَطْوُهُ وَلَرُبَّمَا ... طَالَتْ لَيَالِي الرَّكْبِ وَهْيَ قِصَارُ

قَدْ شَابَ مِنْ طَوْقِ المَجَرَّةِ مَفْرِقٌ ... فِيهَا وَمِنْ خَطِّ الهِلَالِ عِذَارُ[2]

وتمتلئ هذه القطعة بصور نادرة رائعة تجعل منها لوحة فريدة .

---

١ – الديوان : ٣٥١ ، ٣٥٢ ، وانظر : ١٣١ ، ٢٢١ ، ٢٥٣ .

٢ – الديوان : ٨٥ ، ٨٦ ، وانظر : ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

٣- الفخر بشجاعته في مغامراته الغزليّة وتفتّيه والدخول إلى خدور الحبيبة الممنّعة ، كقوله :

وَسَحَبتُ أَردانَ الظَّلامِ عَلى السُّرى طُولاً وَمزَّقتُ الذُّيولَ عِثَارا

وَوَطِئتُ دونَ الظَّبيِ غابَةَ ضَيغَمٍ غَيرانَ أَنجَدَ في الوَعيدِ وَغارا

مُتَخَمِّطٍ أَذكى الدُّجى مُتَلَفِّتاً ولَرُبَّما هَزَّ الفَلا زَأّرا

فَصَمِمْتُ عَنهُ وَقَد سَمِعتُ حَمامَةً فَاغرَورَقَتْ عَيني لَها استِعبارا

هَزَّت بِهَزِّي نَصلَ سَيفي لَوعَةً فَرَقَقتُ حاشِيَةً وَرَقَّ غِرارا

وَمَلأتُ جَفنيَ عَبرَةً وَلَرُبَّما أَبكَيتُهُ فَجَرى دَماً مَوّارا

وَصَبا إِلَيها أَسمَرٌ أَعدَيتُهُ فَلَوى مَعاطِفَهُ لَها تَخطارا

وأَدَارَ في وَرقاءَ تسجَعُ مُقلَةً زَرقاءَ لَمْ يُطبِقْ لَها أَشفارا[1]

ب- من حيث الشكل :

١- يفرد ابن خفاجة مقطّعات خاصّة للفخر والحماسة ومن أجملها قوله :

وَظَلامِ لَيْلٍ لا شِهابَ بِأُفقِهِ إلَّا لِنَصْلِ مُهَنَّدٍ أَو لَهْذَمِ

لاطَمْتُ لُجَّتَهُ بِمَوجَةِ أَشْهَبٍ يَرْمِي بِها بَحْرَ الظَلامِ فَيَرتَمي

قَدْ سَالَ في وَجهِ الدُّجُنَّةِ غُرَّةً فَاللَّيلُ في شِيَةِ الأَغَرِّ الأَدْهَمِ

---

١ - الديوان : ١٤٣ ، وانظر : ٢٣ ، ٨٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

أَطلَعتُ مِنهُ وَمِنْ سِنانٍ أَزرَقٍ   وَمُهَنَّدٍ عَضْبٍ ثَلاثَةَ أَنجُمِ

إنْ يَعتَكِرِ لَيلُ العَجاجَةِ تَسْتَنِرْ   أَو يَعتَرِضْ شَيطانُ حَربٍ تَرْجُمِ

جاذَبتُهُ فَضلَ العِنانِ وَقَد طَغى   فَانْصَاعَ يَنْسَابُ انسِيابَ الأَرقَمِ

في خَصْرِ غَوْرٍ بِالأَراكِ مُوَشَّحٍ   أَو رَأسِ طَودٍ بِالغَمامِ مُعَمَّمِ

أَو نَحْرِ نَهْرٍ بِالحَبَابِ مُقَلَّدٍ   أَو وَجهِ خَرقٍ بِالضَّريبِ مُلَثَّمِ

حَتّى تَهَادَى الغُصنُ يَأطِرُ مَتنُهُ   طَرَباً لِشَدْوِ الطَّائِرِ المُتَرَنِّمِ

وَكَأَنَّ ضَوْءَ الصُبْحِ رايَةُ ظَافِرٍ   نَفَضَتْ بِهَا الهَيجاءُ نَضْحاً مِن دَمِ[1]

٢- يخصّص ابن خفاجة في ديوانه قصائد كاملة مطوّلة لغرض الفخر كقوله :

أَبى البَرقُ إِلّا أَن يَحِنَّ فُؤادُ   وَيَكحَلَ أَجفانَ المُحِبِّ سُهادُ

فَبِتُّ وَلي مِن قانِئِ الدَّمعِ قَهوَةٌ   تُدارُ وَمِن إِحدى يَدَيَّ وِسادُ

تَنوحُ لِيَ الوَرقاءُ وَهيَ خَلِيَّةٌ   وَيَنهَلُّ دَمعُ المُزنِ وَهْوَ جَمادُ

وَقَد كانَ في خَدّيَّ لِلشُّهْبِ مَلعَبٌ   فَقَد صارَ فيهِ لِلوِرادِ طِرادُ

وَلَيلٍ كَما مَدَّ الغُرابُ جَناحَهُ   وَسالَ عَلى وَجهِ السِّجِلِّ مِدادُ

بِهِ مِن وَميضِ البَرقِ والجَوُّ فَحمَةٌ   شَرارٌ تَرامى وَالغَمامُ زِنادُ

سَرَيتُ بِهِ أُحْيِيهِ لا حَيَّةُ السَّرى   تَموتُ وَلا مَيْتُ الصَّباحِ يُعادُ

يُقَلِّبُ مِنّي العَزمُ إِنسانَ مُقلَةٍ   لَها الأُفقُ جَفنٌ وَالظَّلامُ سَوادُ

---

١ - الديوان : ٢٤٤ ، ٢٤٥.

بِخَرقٍ لِقَلبِ البَرقِ خَفقَةُ رَوعَةٍ بِهِ وَلِجَفنِ النَّجمِ فيهِ سُهادُ
سَحيقٍ فلا غَيرَ الرِياحِ رَكائِبٌ هُناكَ وَلا غَيرَ الغَمامِ مَزادُ
كَأَنّي وَأَحشاءُ البِلادِ تُجِنُّني سَريرَةُ حُبٍّ وَالظَّلامُ فُؤادُ
أَجوبُ جُيوبَ البِيْدِ وَالصُبحُ صارِمٌ لَهُ اللَّيلُ غِمدٌ وَالمَجَرُّ نِجادُ
وَفي مُصطَلى الظَّلْمَاءِ جَمرُ كَواكِبٍ عَلاها مِنَ الفَجرِ المُطِلِّ رَمادُ
وَلَمّا تَفَرّى مِن دُجى اللَّيلِ طُحْلُبٌ وَأَعرَضَ مِن ماءِ الصَّباحِ ثِمادُ
حَنَنتُ وَقَد ناحَ الحَمامُ صَبابَةً وَشُقَّ مِنَ اللَّيلِ البَهيمِ حِدادُ
عَلى حينِ شَطَّت بالأَحِبَّةِ نِيَّةٌ وَحالَت فَيافٍ بَينَنا وَبِلادُ
وَبِيضٌ بَهاليلٌ تَلَفَّتُ دُونَهُمْ عُيُونٌ لِأَطرافِ الرِّماحِ حِدَادُ
عَشِيَّةَ لا مِثلَ الجَوادِ ذَخيرَةٌ وَلا مِثلَ رَقراقِ الحَديدِ عَتادُ
إِذا رابَ خَطبٌ خَفَّرَتني ثَلاثَةٌ سِنانٌ وَعَضْبٌ صارِمٌ وَجَوادُ
فَبِتُّ وَلا غَيرَ الحُسامِ مُضاجِعٌ وَلا غَيرَ ظَهرِ الأَعوَجِيِّ مِهادُ
مَعانِقَ خِلٍّ لا يُخِلُّ وَإِنَّما مَكانَ ذِراعَيْهِ عَلَيَّ نِجادُ[1]

٣- ويرد الفخر ضمن قصائد المديح ، واللافت أنّه يأتي في أوائل القصائد غالباً كقوله:

فَإِن غاضَتِ الأَيّامُ ماءَ شَبيبَتي وَمالَتْ بِغُصنٍ مِن قَوامِيَ ناعِمِ

---

١ – الديوان : ١٣١ – ١٣٣ ، وانظر : ١١٩ – ١٢١ ، ٢١٥ – ٢١٧ .

لَقَد طالَ صَدرُ الرُّمْحِ مِنّي ابْنُ هِمَّةٍ ... تَهُـزُّ بِهـا العَليـاءُ صَـفحَةَ صـارِمِ
لَيـاليَ نَصْـلُ السَّـيفِ ظُفْـري وَإِنَّمـا ... قَـوائِمُ أَبْنَـاءِ الجَـدِيلِ قَـوادِمي
أَسيرُ فَتَغْشَى بِيْ دُجى اللَّيلِ هِمَّةٌ ... تَهُـمُّ فَـأَعْرَورِي ظُهـورَ العَـزَائِمِ
فَرُبَّ ظَليمٍ قَد ذَعَرتُ عَلى السُّرَى ... بِجُـزْوَى وَظَـبْيٍ قَـدْ طَـرَدْتُ بِجاسِـمِ
فَلَـم أَدرِ أُمَّ الرَّأْلِ مِـن بِنـتِ أَعْـوَجٍ ... وَلا ظَبيَـةَ الوَعْسَـاءِ مِـن أُمِّ سَالِـمِ
وَإِن كُنتُ خَوَّارَ العِنانِ عَلى الهَوى ... فَإِنّي عَلى الأَعداءِ صَعبُ الشَكائِمِ
فَيا عَجَباً أَن أُعطِيَ الظَّبيَ مِقوَدي ... وَأَدراًَ عَنــهُ في نُحُــورِ الضَّــراغِمِ
وَأَدهَــمَ مِــن لَيــلِ السِّــرَارِ رَكِبتُــهُ ... فَأَودَعتُ أَسرارَ السُّرَى صَدرَ كَاتِمِ
عَلى حينَ أَرخى الدَّجْنُ فَضلَ لِثامِه ... عَلى كُلِّ أَقْنَى مِن أُنُوفِ المَخَارِمِ
وَقَـد كَمَنَـتْ بـيضُ السُّيُوفِ وَأَشـرَفَتْ ... طَلائِــعُ آذانِ الجِيــادِ الصَّــلادِمِ
وَكـاثَرتُ أَوضـاحَ النُّجـومِ عَلـى السُّـرى ... بِغُــرٍّ كِــرامٍ فَــوقَ غُــرٍّ كَــرَائِمِ
إِذا مـا تَـداعَوا لِلكَريهَـةِ حَطَّمُـوا ... صُدوْرَ العَوَالي في صُدُورِ المَلاحِمِ
وَكَرُّوا وَنَصْلُ السَّيفِ يَدْمَى فَثَلَّموا ... رِقاقَ الظُّبَا بَينَ الطُّلَى وَالجَمَاجِمِ[1]

٤- وقد يرد فخر ابن خفاجة في وسط[2] قصائد المديح، وقد يرد في أواخرها بقلّة [3].

---

١ – الديوان : ٢٥٩ – ٢٦٠ ، وانظر : ٢٣ ، ٥٧ ، ١٤٣ ، ١٧٢ – ١٧٤ ، ٢٢٨.

٢ – الديوان : ٥٠ .

٣ – الديوان : ٤٦ ، ٤٧ ، ٩٤ .

* : الفخر بأدبه

هو الشطر الثاني والأهمّ لفخره ، ومن الموضوعات الجزئيّة التي يحرص ابن خفاجة على ذكرها حتّى وهو عليل كقوله :

فَسَجَعتُ في قَيدِ الشَّكاةِ مُغَرِّداً ... طَرَباً وَلِلطِّرفِ الرَّبيطِ صَهيلُ
وَلَوَى العِنانَ عَنِ الإِطالَةِ أَنَّني ... نِضوٌ يُسَرُّ بِيَ الفِراشُ ضَئِيلُ
مادَ النُّحُولُ بِهِ فَلاعَبَ شَخصَهُ ... ظِلٌّ تَحَيَّفَهُ السَّقامُ نَحيلُ
فَبَعَثْتُهُ جَمَّ المَحاسِنِ ناقِهاً ... قَدْ كاثَرَ الأَمداحَ وَهْوَ قَليلُ
وَلَكَمْ قِصيرٍ مِن يَراعِكَ شاحِبٍ ... قَدْ فاتَ صَدْرَ الرُّمْحِ وَهوَ طَوِيلُ[1]

أ– من حيث الأغراض

يرد أكثر فخر ابن خفاجة بشعره في غرض المديح والثناء والإطراء، وقد اقتصر ابن خفاجة على الاحتفاظ بهذا الجزء المحبّب إلى نفسه من إحدى مدائحه ، فلم يبق من قصيدة المديح إلّا فخره بهذه القصيدة التي وجّهها إلى الممدوح :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَإِنَّهَا لَنَضِيرَةٌ
طَرَأَتْ عَلَيْكَ قَلِيلَةَ النُّظَرَاءِ
حَمَلَتْ وَحَسْبُكَ نَفحَةٌ فِي لَفْحَةٍ
عَبَقَ العَرُوسِ وَخِجْلَةَ العَذْرَاءِ

---

١ – الديوان : ٢٦٤.

مِـنْ كُـلِّ وَارِسَـةِ القَمِـيصِ كَأَنَّهَـا
نَشَـأَتْ تُعَـلُّ بِرِيقَـةِ الصَّـفْرَاءِ
نجَمَـتْ تَـرُوقُ بِهَـا نجُـومٌ حَسْـبُهَا
بِالأَيْكَـةِ الخَضْـرَاءِ مِـنْ خَضْـرَاءِ
وَأَتَتْـكَ تُسْـفِرُ عَـنْ وُجُـوهٍ طَلْقَـةٍ
وَتَنُـوبُ مِـنْ لُطْـفٍ عَـنِ السُّـفَرَاءِ
يَنْـدَى بِهَـا وَجْـهُ النَّـدِيِّ وَرُبَّمَـا
بَسَـطَتْ هُنَـاكَ أَسِـرَّةَ السَّـرَّاءِ
فَاسْتَضْحَكَتْ وَجْهَ الدُّجَى مَقْطُوعَةٌ
جَمُلَـتْ جَمَـالَ الغُـرَّةِ الغَـرَّاءِ
تَشْـدُو بِهَـا مَهْمُـوزَةً وَلَرُبَّمَـا
هَزِجَـتْ تَـدَفَّعُ فِي رَوِيِّ الـرَّاءِ[1]

ولم يرد فخره في غير ذلك الغرض إلّا مرّتين في غرض العتاب في عتابه للوزير ابن خاقان ، يقول في مطلعها :

خُـذْها يُـرِنُّ لَهـا الجَـوادُ صَـهيلا … وَتَسـيلُ مـاءً في الحُسـامِ صَـقِيْلا
بَسّـامَةً تُصْـبِي الأَرِيـبَ وَسَـامَةً … لَـوْلا الـمَشيبُ لَسُـمْتُها تَقبِـيْلا
حَمَّلتُهـا شَـوْقاً إِلَيـكَ تَحِيَّـةً … حَمَّلتُهـا عَتبـاً عَلَيْـكَ ثَقِـيْلا
مِـن كُـلِّ بَيـتٍ لَـو تَـدَفَّقَ طَبعُـهُ … مـاءً لَغَـصَّ بِـهِ الفَضـاءُ مَسِـيْلا[2]

١ - الديوان : ٧١.

٢ - الديوان : ٢٠٤ - ٢٠٥.

وورد فخره كذلك مرّة أخرى في غرض الرثاء في قصيدته التي عزّى بها القاضي ابن عصام في والدته ، وهو أمر غريب ، قال :

وَإِلَيكَ مِن حُرِّ الكَلامِ عَقيلَةً	قَصَرَتْ خُطَاها خِجْلَةُ العَذْرَاءِ
نَشَأَت وَشُقرٌ دارُها وَكَأَنَّما	وَرَدَتكَ زائِرَةً مِنَ الزَّوْرَاءِ
زُفَّتْ وَقَد عَلِمَتْ بِمَوضِعِ حُسنِهَا	فَأَتَتكَ تَمْشِي مِشْيَةَ الخُيَلاءِ[1]

ب – من حيث المرسل إليه :

إنّ أغلب فخر ابن خفاجة بشعره ورد في مدائحه التي وجّهها إلى أصدقائه الوزراء ، وليس ثمّة سوى أميرين ذيّل فخره بمدحتيهما ، وهما : تميم ابن يوسف ، وابن تيفلويت الذي يقول في أواخر مدحه له :

وَإِلَيْكَ مِنْ حَوْكِ البَدِيعِ قَوَافِياً	هَزَّ النَّشِيدُ بِهَا مُتُونَ شِفَارِ
زَفَّتْ أَبَا بَكْرٍ إِلَيْكَ مَحَاسِناً	جَاءَتْكَ تَحْمِلُ عُذْرَةَ الأَبْكَارِ
فَأَصِخْ إِلَى هَزَجِ المَدِيحِ فَإِنَّمَا	صَدَحَتْ بِأَغْصَانِ السُّطُورِ قُمَارِ
هَزَّتْ مَعَاطِفَ سَامِعِيهَا حِكْمَةً	كَادَتْ تَهُزُّ مَعَاطِفَ الأَسْطَارِ
مَسَحَتْ جُفُونَ الرَكْبِ مِنْ سِنَةِ الكَرى	وَلَوَتْهُمُ طَرَباً عَلَى الأَكْوَارِ
وَرَأَتْكَ كُفْؤاً فَانْتَحَتْكَ عَلَى النَّوَى	وَالبُعْدُ بُعْدُ الشِّبْهِ لا الأَقْطَارِ
فَاطْلَعْ لِرَوْضَتِهَا صَبَاحاً نَيِّراً	يَسْتَضْحِكُ الأَنْوَارَ لِلنُّوَّارِ[2]

---

١ – الديوان : ٢٧٥.

٢ – الديوان : ٣٩ ، وانظر : ٩٤.

ج- من حيث المكان :

إنّ أغلب ورود فخره بشعره كان في آخر قصائده على عادة الشعراء في قصائد المديح ، وقد خالف هذا مرّتين إحداهما في مطلع قصيدته في عتاب ابن خاقان إذ بدأ بالفخر مباشرة كما سلف ، وثانيتهما في مدح الوزير زهر ابن زهر إذ ورد فخره بشعره في وسط القصيدة ثمّ ختم قصيدته به :

لَكَ الخَيرُ شِحتُ سِوى مِقوَلٍ ... نَبيلٍ يُذَهِّبُ ما هَذَّبا
فَطَارَ بِذِكريَ ما شِئتُهُ ... كَلامٌ إِذا ما طَرَا أطرَبَا
كَلامٌ يَجُدُّ بِلُبِّ الفَتى ... ذَهاباً إِذا شاءَ أَن يَلعَبا
تَحَمَّلَ ما شاءَ مِن رِقَّةٍ ... فَحَيّا عَنِ المَشرِقِ المَغرِبا
وَكادَ بِما فيهِ مِن بَلَّةٍ ... يَسومُ الصَحيفَةَ أَن تُعشِبا
فَلِلَّهِ قَولِيَ ما أَهذَبا ... وَلِلَّهِ لَفظِيَ ما أَعذَبا

...

فَخُذهُ إِلَيكَ يَهُزُّ الفَتى ... وَمِن شيمَةِ الرَّاحِ أَن تُطرِبا
خَصَصتُ الأَخَصَّ بِه قُرْبَةً ... وَحَيَّيتُ بِالأَطيَبِ الأَطيَبا
وَسُمتُ البَراعَةَ أَن تَنكَفي ... وَذَلقَ اليَراعَةِ أَن يَكتُبا
وَأَجرَيتُ مِن مَدَّةٍ أَدهَماً ... وحَلَّيْتُ مِن مُهرَقٍ أَشهَبا
تَرَكتُ القُلوبَ لَهُ مَرْبِطاً ... وَصَدرَ النَدِيِّ بِهِ مَلعَبا[1]

---

١ - الديوان : ١١٧ - ١١٩.

د– من حيث الأسلوب :

فإن شطراً منها يبدأ بألفاظ مثل : إليك ، وإليكها ، ودونكها ، وهاك ، وخذها كقوله :

فَخُـذها كَمـا حَيَّـتْ بِهـا الهِنـدُ مِسـكَةً تُعَطِّـرُ أَنْفَـاسَ الـرُّواةِ فَتَعبَـقُ
وَعَنبَـرَةً شَـهباءَ تَحمِـلُ نَفحَـةً تَـنَفَّسُ في صَـدرِ النَّـدِيِّ فَتُنْشَـقُ
تَشَـبُّ لَهـا نَفـسُ الحَسُـودِ فَكُلَّمـا رَأَى هَـذِهِ تُـذكَى رَأَى تِلـكَ تُحْـرَقُ
أَسَـلتُ بِهـا في جَبهَـةِ البَـدْرِ غُـرَّةً جَـرى الحُسـنُ مـاءً فَوقَهـا يَتَرَقْـرَقُ
تُـرِنُّ بِهـا الرَّكْبَـانُ شَـرقاً وَمَغرِبـاً فَتُشـئِمُ طَـوراً بِالثَّنـاءِ وَتُعْـرِقُ
وَحَسبُكَ مِـن شِـعرٍ يَكـادُ لُدونَـةً يُغَـنَّى بِـهِ النَّبـتُ الهَشِـيمُ فَيُـورِقُ
فَيـا دَوحَـةَ العَليـاءِ حَيَّتـكَ رَوضَـةٌ عَلَيهـا رِداءٌ لِلرَّبيـعِ مُنَمَّـقُ
لَهـا مِـنْ صَـقيلِ النـورِ ثَغـرٌ مُفَلَّـجٌ يَشوقُ وَمِن سَجْعِ الحَمامَةِ مَنْطِقُ[1]

و كقوله :

وَإِلَيْكَهَـا فَـامْرَحْ بِهَـا مِـنْ خِلْعَـةٍ فِي عِـزَّةٍ تَطَـأُ الهِضَـابَ بِطَاحَـا
تَهْفُـو عَلَيْـكَ بِهَـا الثُّرَيَّـا رَايَـةً وَعَلَى العَرُوسِ مِنَ القَصِيدِ وِشَاحَا[2]

و كقوله :

وَهَـاكَ فَأَقْبِلْهَـا إِلَيْـكَ خَرِيـدَةً تَهَادَى عَلَى الدُّنْيَا مَحَاسِنُهَا لَمَى

---

١ – الديوان : ١٨٧ – ١٨٨ .

٢ – الديوان : ٢٨٨.

صَقِيلَةَ ثَغْرِ الحُسْنِ لَوْ أَنَّ أَدْهَماً		تَرَشَّفَهَا لاَرْتَدَّ أَلمَظَ أَرْثَمَا

مَلأْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ		وَنَوَّرْتُ مَا بَيْنَ البَسِيطَةِ وَالسَّمَا[1]

وقوله :

وَدُوْنَكَهَا تُصْبِي الحَلِيْمَ فَصَاحةً		فَيُرْسِلَ في أَعْطَافِهَا طَرْفَ هَائِمِ

تَغَنَّى بِهَا حُبّاً لَهَا فَكَأَنَّهَا		تَفُضُّ عَنِ النُّوَّارِ خُضْرَ الكَمَائِمِ

وَلَولا وَقَارُ الشّيْبِ خَفَّ بِهِ الهوى		فَمَدَّ إلى تقبيلِها فَمَ لَاثِمِ[2]

هـ- من حيث عدد أبياتها

لا يزيد أطولها على ثمانية أبيات فقط وقد سلفت نماذج من ذلك آنفاً ، وقد تقتصر على بيت واحد كقول ابن خفاجة في استدعاء صديق له من الوزراء :

فَعُجْ تَتَصَفَّحْ بَديعَ البَديعِ		وَتَلمَح سَلامَةَ شِعرِ السَّلامي [3]

---

١ - الديوان : ١٧٦.

٢ - الديوان : ٢٦١ (الحاشية) .

٣ - الديوان : ٢٤٦.

والبديع : هو بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ هـ) أحد أئمّة الكتّاب ومخترع المقامات .

والسَّلاميّ : هو محمّد بن عبد الله (٣٩٣ هـ) أحد أشعر أهل العراق في عصره.

ز– من حيث الخصائص الفنّيّة :

١– المبالغة : وهي سمة عامّة فيها كقوله :

وَإِلَيكَهـا غَـرَّاءَ لَـولا حُسْـنُها   لَمَ تُفتَـقِ الأَبْصَـارُ وَالأَسْـمَاعُ
عَبِقَـتْ بِهـا في كُـلِّ كَـفٍّ زَهْـرَةٌ   فُتِقَـتْ لَهـا مِـنْ حُسْنِها أَقْمَـاعُ[1]

٢– وصفها بالعناصر الطبيعيّة وهذا أمر شائع في فخره ،كأنْ يصف قصيدته بالزهر كقوله :

وَإِلَيكَهـا فَاهنَـأْ بِهـا مِـنْ مِدحَـةٍ   أَهـدَيتُها نَـوْراً إِلَيـكَ مُنَـوِّرا
فَـتَلألأتْ حُسـناً بِمَجـدِكَ حُلَّـةً   وَتَنَفَّسَتْ طيباً بِحَمدِكَ مِـجْمَرا[2]

٣– الإبداع والرقّة كقوله :

حَنانَيكَ فِي ناءٍ شَكا مَسَّ لَوعَةٍ   فَسَـفَّرَ مِـن شَـوقٍ إِلَيـكَ القَوافِيـا
وَحَيَّا بِها أَذْكَى مِنَ الرَّوضِ نَفحَةً   وَأَرْهَفَ مِنْ لَدْنِ النَّسيمِ حَوَاشِيا
وَقَـد نَـدِيَتْ حَـتَّى لَمَ اذْرِ أرُقعَـةً   أُنَمِّـقُ أَمْ دَمْعـاً أُرَقْـرِقُ جارِيـا[3]

---

١ – الديوان : ٢٢٥.

٢ – الديوان : ٢٥٧ ، ٢٥٨.

٣ – الديوان : ٢٠١ ، ٢٠٢.

ح- من حيث النوع :

لم يقتصر الفخر على الشعر فحسب بل شارك النثر في ذلك كقوله لبعض القضاة :

« وَلَوْلَا أَنَّني نَزَّهْتُ سَمْعَهُ عَنِ الشِّعْرِ، لأَرَيْتُهُ كَيْفَ حَوْكُ الطَّبْعِ المُهَذَّبِ، لِلْوَشْي المُذَهَّبِ، وَكَيْفَ لَفْظُ بَحْرِ الفِكْرِ، لِلْجَوْهَرِ البِكْرِ، وَلَأَطْلَعْتُ مِنْهُ فِي سَمَاءِ مَعَالِيْهِ نُجُوماً تُنِيرُ، وَرُجُوماً تُثِيرُ »[1].

واستطاع ابن خفاجة أن يطوّع النثر للفخر والمديح معاً في قوله للأمير إبراهيم أن يتقبّل قصيدته تحيّة منه إليه :

« وَهَا هِيَ تَتَلَهَّى بِالحِجَازِيَّةِ، أَوْ تَتَعَاطَى فَضْلَ مَزِيَّةٍ. وَقَدْ أَرْهَفْتُ فِي الغَزَلِ مِنْ حَوَاشِيهَا، حَتَّى خِفْتُ عَلَيْهَا مِنْ تَلاشِيْهَا، فَتَلافَيْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ بِأَوْصَافِ الجَزَالَةِ، وَألفَاظِ البَسَالَةِ وَالجَلالَةِ، تَلافِياً أَرْسَى قَوَاعِدَهَا، وَقَوَّى مَعَاقِدَهَا. فَهَلْ تُرَاهَا تَخَيَّلَتْكَ، فَتَقَيَّلَتْكَ، فِيْمَا وُهِبْتَهُ مِنْ رِقَّةِ أَنْفَاسٍ، فِي شِدَّةِ بَاسٍ؟ فَهِيَ جَارِيَةٌ عَلَى مِقْيَاسٍ، وَبَانِيَةٌ عَلَى أَسَاسٍ، فَاجْمَعْ إِلَى كَرَمِ ذَاتِهَا، وَشَرَفِ صِفَاتِهَا، أَنْ تَجْعَلَ المُعَلَّى مِنْ قِدَاحِهَا، وَتَرِيشَ بِالقَبُولِ فَضْلَ جَنَاحِهَا، فَتَسِيرَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَتَطِيرَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَتُنْشَدَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتُوجَدَ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ »[2].

---

١ - الديوان : ٣٣٠.

٢ - الديوان : ٢٩٦ ، ٢٩٧.

٧ – ٨ : العتاب و الشكوى

وهما من الأغراض الذاتيّة الاجتماعيّة التي تنجم عن وجود اختلال في السلوك الاجتماعيّ من تعدٍّ على حقّ أو تقصير في حقّ ؛ يؤلم فيستدعي الشكوى ، وقد يتطلّب تنبيه الفاعل على سوء ما فعل ، وعتابه عليه ، ليكفّ عنه أو يصحّحه ، وقد يصل الأمر إلى التهديد ، ومزج الوعد بالوعيد ، كما رأينا عتابه الصاحب لابن خاقان الذي كان قد تندّر بأخبار صبوة ابن خفاجة في قلائده[١] .

ويخصّص ابن خفاجة عتبه لطبقة محدّدة من أصدقائه الذين صاروا وزراء أو مقرّبين من الأمراء ، كأن يعاتب « بعض إخوانه وقد اجتاز إلى الجزيرة فلم يعرّج على مكانه حين ولي رسم الكتابة ودعي لخطّة الوزارة » ، فيرى أن " الوزارة تنقل الأخلاق" [٢] .

ويتّسم عتب ابن خفاجة بالعاطفيّة والمشاعر المتألّمة من انتقاص في حقٍّ أو تقصير في واجب ، فيصف المعاتب بالأخ ، ويمزج عتبه له بشيء من الثناء ، ويخلط ملامته له بشكره كعتابه للوزير ابن عامر [٣] .

وعرضت لابن خفاجة حاجة عند أمير المدينة فسأل أحد أصدقائه من حاشية البلاط أن يطلبها له من الأمير فمطله فعاتبه ابن خفاجة عتاباً

---

١ – الديوان : ٢٠٤ – ٢٠٧ .

٢ – الديوان : ١٦٢ .

٣ – الديوان : ٥٠ .

هادئاً ، قدّم ابن خفاجة لمقطوعته بقوله : « وعلق بجانب بعض الإخوان الأعيان ، بجِذم حاجة عرضت له عند السلطان ، فطال مطله ، والتوى مطلبه فقال يعاتبه :

أَأَدْعُــو فَــلَا تُلْــوِي وَأَنْــتَ قَرِيــبُ
وَأَشْـكُو فَـلَا تُشْـكِي وَأَنْـتَ طَبِيـبُ
وَمَـا كُنْـتُ أَخْشَـى أَنْ أَرَانِيَ ضَـاحِياً
وَأَثْلُـــكَ مَطْلُــولُ الفُــرُوعِ رَطِيــبُ
وَهَـلْ يَسْتَجِيزُ الـمَجْدُ أَنْ أَشْتَكِي الصَّدَى
وَأَنْـــتَ رِشَـــاءٌ مُحْصَـــدٌ وَقَلِيـــبُ
وَكَيْـفَ بِمَطْلُـوبِي إذَا شَـطَّتِ النَّـوَى
وَقَـدْ صـمَّ مِـنْ قُـرْبٍ فَلَـيْسُ يُجِيـبُ
فَهَلْ شِيبَ مِنْ تِلْكَ المُصَافَاةِ مَشْرَعٌ
وَهِيــلَ عَلَــى ذَاكَ الإِخَــاءِ كَثِيــبُ
سَــلَامٌ عَلَــى عَهْـدِ الوَفَــاءِ مُوَدَّعــاً
سَـــلَامُ فِــرَاقٍ مَــا أَقَــامَ عَسِــيبُ
سَــلَامٌ لَــهُ فَــوْقَ الــمَحَاجِرِ بَلَّــةٌ
وَطَــوْراً بِأَحْنَــاءِ الضُّــلوعِ لَهِيــبُ
وَقَــدْ كَــانَ يَسْــرِي وَالتَّنَــائِفُ بَيْنَنَــا
فتَنْــدَى بِــهِ رِيــحٌ وَيَــنْفَحُ طِيــبُ

وَتَفْتَــرُّ مِــنْ بِشْــرٍ هُنَالِــكَ زَهْــرَةٌ
وَيَهْفُــو لَــهُ مِــنْ مَعْطِفَــيَّ قَضِــيبُ

فما وردت حتّى أنجز وعده ، وأتبع غيثه رعده » [1] .

أمّا الشكوى فتنقسم عدّة أقسام :

١- الشكوى من الزمان :

ثمّة صورة فريدة لخفض الزمان عِلية الناس ، ورفعه لسفلتهم في قول ابن خفاجة :

مَـــا لِلزَّمَـــانِ يَجُـــورُ فِي أَبْنَائِـــهِ
حُكْمـــاً وَيَـــرْمُقُهُمْ بِعَـــيْنِ العَائِـــبِ
فَـــيَحُطَّ عُلْـــوَهُمُ وَيَرْفَـــعَ سُـــفْلَهُمْ
فَكَـــأَنَّهُمْ قَلَـــمٌ بِيُمْـــنَى كَاتِـــبِ [2]

٢- شكوى حقيقيّة من إنسان ظالم تعدّى عليه فشكاه إلى الأمير ابن تيفلويت كما سلف [3] .

---

١ - الديوان : ٧٢ ، ٧٣ .

٢ - الديوان : ٣٥٧ .

٣ - انظر الديوان : ١٧٠ ، وانظر صفحتي : ٩٣-٩٤ من هذا الكتاب .

٣- الشكوى من الأمراء :

قد سبق أن وجدنا ابن خفاجة يشكو للأمير تميم أمراً ، ويطلب منه كتاب شفاعة في أولى قصائد الديوان :

وَبِي مَسٌّ شَكْوَى لا أُطِيقُ لَهَا السُّرَى   فَإِنْ لَمْ أَطَأْ بَابَ الأَمِيرِ فَعَنْ عُذْرِ[1]

ثمّ وجدناه يشكو الأمير نفسه ، لمّا « تعسّف في أمر الحريّة ، وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة » فقال :

وَأَشْكُو لَوْ شَكَوْتُ إِلَى مُصِيخٍ   لَيَالِيَ لا تُوَقِّرُ مِنْ مَشِيبِي[2]

وثمّة شكوى أشدّ قسوة وأعلى صوتاً ، ممزوجة بعتب شديد أرسلها للأمير إبراهيم سنة (٥١٤ هـ) ، قال فيها :

أَمِثْلُكَ مَوْجُوْدٌ بِحِمْصَ مُؤَمَّراً   عَزِيزاً وَمِثْلِي بِالعِرَاقِ ذَلِيْلُ
أَيَجْمُلُ أَنِّي شِيْعَةٌ وَصَنِيْعَةٌ   وَيَبْهَظُنِي عِبْءٌ عَلَيَّ ثَقِيْلُ[3]

---

١ - الديوان : ٢٧ .

٢ - الديوان : ٩٣ .

٣ - الديوان : ٢٩٥ .

٤- الشكوى من الهرم :

بدأت شكوى ابن خفاجة من تقدّمه في السنّ وهو في الخمسين ، فرأى نفسه أنّه استعجل" طيّ المراحل "، وأنّه صار ينوء " بعبء السقم " كما سلف[1] ، وبعد الستّين من عمره وفي سنة (٥١٤ هـ) بالتحديد يصف نفسه بأنّه " ابن كبرة " ذو شحوب لا يستطيع الرحيل [2] ، وفي السنة نفسها يرى بأنّ الهرم هو سبب افتقاده للعيش الكريم :

مـالَ بي عَـنْ عِيشَـةٍ كَرُمَـتْ   عُمُــــرٌ أَدَّى إِلى الهَــــرَمِ[3]

ولم يتسبّب كبر السنِّ بفقد ابن خفاجة للحسناوات اللواتي صرن يقلن له يا عمّ وصار يقول لهنّ يا ابنتي فقط[4] ، بل أدّى إلى تراجع في عمل حواسّه الأساسية كالسمع والبصر[5].

وحينما بلغ الحادية والثمانين من العمر لم يبق له أي أنس أو متعة بغذاء أو هناءة بنومة[6].

---

١ - الديوان : ٢٦٢ .

٢ - الديوان : ٢٩٦ .

٣ - الديوان : ١٠٨ .

٤ - الديوان : ٨١ .

٥ - الديوان : ٢٣٧ .

٦ - الديوان : ٣٥٥ .

وأخيراً فإنّ الشيب الذي يشكو منه ويرغب عنه ، صار يرغب به، ويبقيه ليبقى حيّاً :

أَما وَشَبابٍ قَد تَرامَت بِهِ النَّوى ... فَأَرسَلتُ في أَعقابِهِ نَظرَةً عَبرى

لَقَد رَكِبَت ظَهرَ السُّرى بِيَ نَومَةٌ ... فَأَصبَحتُ في أَرضٍ وَقَد بِتُّ في أُخرى

فَها أَنا لا نَفسٌ تَخِفُّ بِها المُنى ... فَتَلهو وَلا سَمْعٌ تطوُرُ بِهِ بُشرى

أُقَلِّبُ جَفْناً لا يَجِفُّ فَكُلَّما ... تَأَوَّهتُ مِن شَكوى تَأَمَّلْتُ عَن شَكرى

وَإِنّي إِذا ما شاقَني لِحَمامَةٍ ... رَنينٌ وَهَزَّتني لِبارِقَةٍ ذِكرى

لأجمَعُ بَينَ الماءِ وَالنّارِ لَوعَةً ... فَمِن مُقْلَةٍ رَيّا وَمِن كَبِدٍ حَرّى

وَقَد خَفَّ خَطبُ الشَّيبِ في جانِبِ الرَّدى ... فَصارَت بِهِ الصُّغرى الَّتي كانَتِ الكُبرى

وَلِلشِّعرِ عِندي كُلَّما نَدَبَ الصِّبا ... فَأَبكى مَحَلٌّ أَلْحَقَ الشِّعْرَ بالشِّعْرى

فَلَيتَ حَديثاً لِلحَداثَةِ لَو جَرى ... فَأَسْلَى وَطَيفاً لِلشَّبيبَةِ لَو أَسرى[1]

٥- الشكوى من الأمراض :

يبدو أنّ المرض قد غزا شاعرنا منذ الخمسين من عمره مراراً وتكراراً فنجده يقدّم لعدد من قصائده ومقطّعاته بما يدلّ على ذلك ويؤكّده ،كقوله : « وقال في أثناء علّة »[2].

---

١ – الديوان : ١٤٨ – ١٤٩ .

٢ – الديوان : ٢٦٢.

و« قال وهو موعوك »[1].

و« قال وقد عاده أبو عبد الله بن عائشة رحمه الله »[2].

ويعتذر ابن خفاجة عن عدم الإطالة في مدح أحد أصدقائه بسبب المرض: « وقال وهو مضطجع »[3].

ويعتذر مرّة أخرى – في ذيل قصيدة ثانية ، ويقدّم لها بقوله :

« وقال في أثناء علّة طالت به يراجع الوزير أبا جعفر بن سعدون عن شعر له » فذكر أنّ شعر الوزير :

شَفَانِي وَقَدْ أَشْفَى الضَّنَى بي عَلى الرَّدى وَبَعضُ الكَلامِ الحُرِّ يُشْفَى بِهِ الكَلْمُ

ثمّ يقول في نهاية القصيدة القصيرة البالغة (١٨) بيتاً :

وَعُــذْراً إِلَى عُلْيَــاكَ إِنِّي بِحَالَــةٍ تَعَفَّى بِهَا رَسْمُ القَرِيضِ فَلا رَسْمُ

فَهَـا أَنَـا نَهْـبٌ لِلشَّـكَايَا كَأَنَّمَـا لِكُلِّ سَقَامٍ مِنْ قُوَى جَسَدِي قِسْمُ

وَأَعْلَـمُ أَنَّ الـمَرْءَ لـلأَرْضِ أُكْلَـةٌ فَيَـا عَجَبـاً أَنْ تَأْكُـلَ ابْنـاً لَهَـا أُمُّ

إِذَا اللهُ أَمْضَى الحُكْمَ فِيْنَا لِحِكْمَةٍ فَلا حُجَّةٌ تُدْلَى هُنَاكَ وَلا خَصْمُ

وَإِنِّي وَقَدْ جَفَّتْ دُمُوْعِي مِنَ الضَّنَى لَبَـاكٍ وَلا دَمْـعٌ وَشَـاكٍ وَلا جِسْـمُ

---

١ – الديوان : ١٤٥ .

٢ – الديوان : ٢٦٦ .

٣ – الديوان : ٢٦٣ .

أُقَطِّـبُ فِي وَجْـهِ الضُّـحَى وَلَرُبَّمَـا		أَبِيْتُ مَعَ الظَّلْمَاءِ يُؤْنِسُنِي النَّجْمُ[1]

وثمّة قصيدة أخرى له نظمها في أثناء حمّى أصابته فأرقصته هزّة ، وأنطقته بقصيدة فيها حكمة واعتراف ذاتيّ وذكريات جميلة ، « وقال في أثناء شكاية :

أَلا إِنَّهَـا سِـنٌّ تَزيْـدُ فَـأَنقُصُ		وَنفضَـةُ حُمَّـى تَعتَريـني فَـأَرقُصُ
فَهـا أَنـا أَمحـو مـا جَنيـتُ بِعَـبرَتي		وَأَنظُـرُ في مـا قَـد عَمِلـتُ أُمَحِّـصُ
وَأَلـمَحُ أَعقـابَ الأُمـورِ فَـأَرعَوي		وتَسْتَشْـرِفُ الـدُّنْيا إِليّ فَـأَحْرِصُ
أُقَلِّـبُ عَـيْنَ الـرأْيِ طَـوْراً فَـأَجْتَلي		وَيُعمى عَلَيَّ الأَمرُ طَوراً فَأَفحَصُ
وَيـا رُبَّ ذَيـلٍ لِلشَّـبابِ سَـحَبتُهُ		وَمـا كُنـتُ أَدري أَنَّـهُ سَـيُقَلَّصُ
وَلَمحَـةِ عَـيشٍ بَـينَ كَـأسٍ رَوِيَّـةٍ		تُـدارُ وَظَـبيٍ بِـاللِّوى يُتَقَـنَّصُ
أَلا بـانَ عَـيشٌ كـانَ يَندى غَضـارَةً		فَيالَيـتَ ذاكَ العَـيشَ لَـو كـانَ يَـنكُصُ
وَعِـزٌّ شَـبابٍ كـانَ قَـد هـانَ بُرهَـةً		أَلا إِنَّهَـا الأَعـلاقُ تَغلـو وَتَـرخُصُ
فَمَـن مُبلِـغٌ تِلـكَ اللَّيـالي تَحِيَّـةً		يَعُـمُّ بِهـا طَـوراً وَطَـوراً يُخَصِّـصُ
عَلـى حـينَ لا ذاكَ الغَمـامُ يُظِلُّـني		وَلا بَـردُ تِلـكَ الـريحِ يَسـري وَيَخلُـصُ
وَقَـد طَلَعَـتْ لِلشَّـيْبِ بـيضُ كَواكِـبٍ		أُقَلِّـبُ فيهـا نـاظِري أَتَخَـرَّصُ
كَأَنْ لَمَ أُقَبِّلْ صَفحَةَ الشَّمسِ لَيلَةً		وَلَمْ يَتَعِلْ لِي دُونَهَـا الـنَّجْمَ أَخْمَـصُ
وَلا بِـتُّ مَعشـوقاً تَطـيرُ بِأَضـلُعي		قَطـاةٌ لَهـا بَـينَ الجَـوانِحِ مَفْحَـصُ[2]

---

١ – الديوان : ٢٨٧ .

٢ – الديوان : ٢٧٨ .

٩ : الهجاء

وصف ابن عميرة الضبيّ ابن خفاجة بأنّه « خبيث الهجاء »[١] ولكنّنا لا نجد في ديوانه من هذا الهجاء الخبيث إلّا نتفة واحدة أفحش فيها[٢]، وهي لا تعدّ دليلاً كافياً على هذا الوصف ، ولعلّ ندرة هذا الفحش أنّ بعض رواة الديوان « استثنى ما فيه من هجاء » كما يقول ابن الأبّار[٣]، ويؤكّد ذلك وجود بعض مقطوعات الهجاء وغيره في بعض المصادر التي أوردت شعره ولم يستوفها محقّق الديوان في مستدركه الذي صنعه من المصادر الأندلسيّة والمشرقيّة في آن .

ولم يكن ذلك لأنّ ابن خفاجة كان عدوانيّاً بذيئاً هجّاءً فحّاشاً بل على العكس تماماً ، فقد كان إنساناً عاديّاً يحبّ الناس ويساعدهم ، ولكنّه كان يحيا حياة خاصّة به، لا تروق لبعضهم فناصبوه العداء ، وكان يرى أنّه لم يأخذ حقّه أو ما يستحقّه بقدراته الأدبيّة ومكانته الاجتماعيّة، وقد يكون هذا الوصف لأنّه هجا قطعاً من أفراد الجيش مهزومين ، وأقواماً لئاماً بأعينهم .

وينقسم هجاؤه قسمين اثنين :

---

١ – بغية الملتمس : ١٩٨ .

٢ – انظر الديوان : ٣٥٢ .

٣ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي : ٥٩ .

١- **ذمّ جماعي** فقد هجا ابن خفاجة جيش المرابطين الهارب المتقهقر[1]، وهجا ابن خفاجة – كذلك – أقواماً لم يحدّدهم من مبغضيه وحاسديه[2].

وهجا بعض اللئام الذين يتكشّفون عند الفحص ، قال :

دَعْ عَنْكَ مِنْ لَوْمِ قَوْمٍ لَسْتَ تَخْبُرُهُمْ
إلّا تَكَشَّفَ سِتْرُ الغَيْبِ عَنْ عَيْبِ

عُوجٌ عَلَى الدَّهْرِ هُوجٌ غَيْرَ أَنَّهُمُ
سُودٌ مِنَ الجَهْلِ بِيضَانٌ مِنَ الشَّيْبِ[3]

٢- ذمّ الأفراد

ذمّ ابن خفاجة أشخاصاً متعدّدين من ذكور وإناث ، وأحوالاً مختلفة غير سويّة للناس ؛ فذمّ البخيل والمتزمّت والجاهل والمنافس له ، والأسود والحسود ، والأسود البليد[4] . وذمّ ابن خفاجة شعر شاعر شعرور وخطّه ، « وقال في ذمّ خطّ واستبراد شعر:

---

١ – الديوان : ١٠٩ .

٢ – انظر الديوان : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

٣ – الديوان : ٧٧ .

٤ – انظر الديوان : ٢٣٥ ، ١٦٥ ، ٦٨ ، ١٤٥ – ١٤٦ ، ٧٧ ، ٢٧٤ .

لَحَـــى اللهُ أَبْيَاتـــاً بَعَثْـــتَ ذَمِيمَـــةً

فَلَـــوْ كُـــنَّ أَعْضَـــاءً لَكُـــنَّ مَخَارِجَـــا

مُعَوَّجَـــــةً أَسْـــــطَارُهَا وَحُرُوفُهَـــــا

كَـأَنَّ بِهَـا مِـنْ بَـرْدِ لَفْظِـكَ فَالِجَـا

وَلَا عَجَـــبٌ مِـــنْ سُـــخْفِهِنَّ فَإِنَّـــهُ

إِذَا سَـاءَ فِعْـلُ الـمَرْءِ سَـاءَ نَتَائِجَـا[1]

ووصف بخيلاً سئل فاعتذر بسبب رمحة فرس أصابته، فقال:

ما إِنْ دَرى ذاكَ الذَّميمُ وَقَدْ شَكا   مِـن نَيـلِ مُمتَـدِحٍ وَرَمْـحِ جَـوادِ

هَـل يَشْـتَكي وَجَعـاً بِـهِ في سُـرَّةٍ   بِالسِّـــينِ أَم في صُـــرَّةٍ بِالصَّـــادِ[2]

وذمّ من النساء ذات الخال، والحالية المتحلّية بالدرّ وهي لا تستحقّه قال في الأخيرة :

أَلا بَكَـــى الـــدُّرُّ فَـــوقَ حالِيَـــةٍ

حَلَّـى بِهـا العِقـدُ شَـرَّ مـا حَلَّـى

تَـرى بِهـا مـا يَمُـرُّ مِـن خُلُـقٍ

مُخَبَّـــأً تَحـــتَ مَنْظَـــرٍ يَحْلَـــى

١ – الديوان : ٣٥٣ .

٢ – الديوان : ٢٣٥ .

قَــــد راقَ مَــــرْأىً وَســــاءَ مُخْتَــــبَراً

فَهَــلْ تُــرى أَزْهَــرَتْ بِهــا دِفْلَــى[1]

وقد شارك النثر الشعرَ في غرض الهجاء والذمّ ، وقد رأيناه في خطبة الديوان يوسع من تعرّض لأدبه اتّهاماً وذمّاً وتجريحاً[2] .

وقد أورد ابن بسّام الشنتريني قطعة نثريّة مهمّة في تحذير ابن خفاجة لصديق له من شخص ذميم الخلق من طائفة معيّنة لم يسمّها قال فيها :

« فصل :

يُقَــــاسُ الــــمَرْءُ بِالــــمَرْءِ　　إِذَا مَــــا الــــمَرءُ مَاشَــــاهُ

وفِي الشَّــــيْءِ مِــــنَ الشَّــــيْءِ　　عَلَامَــــــاتٌ وَأَشْــــــبَاهُ

مَا أَنْتَ وَالعِتْرَةُ الفُلَانِيّةُ، إِنَّمَا هُمْ أَجْنَاسٌ ، كُلُّهُمْ أَنْجَاسٌ ، إِلَّا الشَّاذَّ فِيْهِمْ ، والنَّادِرَ مِنْهُمْ ، وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ ، وَأَمَّا فُلَانٌ مِنْهُمْ :

فَهْــوَ الخَبِيْــثُ عَيْنُــهُ فِــرَارُهُ

أَطْلَــسُ يُخْفِــي شَخْصَــهُ غُبَــارُهُ

فِي شِــــدْقِهِ شَفْــــرَتُهُ وَنَــــارُهُ

---

١ – الديوان : ١٥١ ، وانظر الديوان : ١١١ .

٢ – الديوان : ١٠ — ١٩ .

مَا شَبَّ حَتَّى سَبَّ ،وَلَا نَفَثَ حَتَّى رَفَثَ ،وَلَا زُرَّ لَهُ جَيْبٌ ،إِلَّا عَلَى عَيْبٍ ، وَلَا نِيْطَتْ بِهِ تَمِيْمَةٌ ، إِلَّا عَلَى نَمِيْمَةٍ ، فَهُوَ إِذَا حَضَرَ أُذُنُ وَعْيٍ ، وَعَيْنُ رَعْيٍ ، وَبِظَهْرِ الغَيْبِ إِنْسَانُ ظَنَّةٍ ، ولسانُ غيبةٍ ، لَا يَشْتَمِلُ ثَوْبُهُ إِلَّا عَلَى شَخْصِ نَقْصٍ ، وجَسَدِ حَسَدٍ ، لَا يَهْدَأُ شَرُّهُ وَلَا يُطْفَأُ شَرَارُهُ ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ لِيْنُ أَعْطَافِهِ ، وَلُدُوْنَةُ كَلِمَتِهِ ، فَإِنَّ الحَيَّةَ لَيِّنَةُ المَلْمَسِ ، لَدْنَةُ المِجَسِّ فَإِنْ لَحِظْتَهُ – عَافَاكَ اللهُ – فَلَحْظاً شَزْراً ، أَوْ جاذَبْتَهُ الحَدِيْثَ فَقَلِيْلاً نَزْراً

كَمَا يَمَسُّ بِظَهْرِ الحَيَّةِ الفَرِقُ

وَإِنَّهُ لَيَحْضُرُ النَّدِيَّ ، فَيَحْفَظُ مَا يُلْفَظُ ، وَيَلْتَقِطُ مَا يَسْقُطُ ، فَهُوَ كَاتِبُ الشِّمَالِ، غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ مَرَّتْ بِهِ فِي صَحِيْفَةِ ذِكْرِكَ حَسَنَةٌ سَامَهَا بَشْراً أَوْ عَثَرَ بِسيِّئَةٍ كَتَبَهَا عَشْراً ، لَا يُعْنَى إِلَّا بِعَرَضٍ غَرَضٍ ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَيْطَانِهِ ، وَتَوَقَّ مِنْ مُوْبِقَاتِ أَشْطَانِهِ »[1] .

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/٢/٥٦١ – ٥٦٢ .

١٠: الرثاء

يتسم رثاء ابن خفاجة بالعاطفيّة والذاتيّة والتنوّع ، وينقسم أقساماً متعدّدة :

١- رثاء المدن :

رثى ابن خفاجة مدينة بلنسية التي حرّرها المرابطون من نير السيّد القمبيطور سنة (٤٩٥ هـ) ، ولكنّه لم يخرج منها حتّى أحرقها ، « فقال يصف حال بلنسية بعد أن أحرقها النصارى عند خروجهم منها ، سنة خمس وتسعين وأربعمئة :

عَاثَــتْ بِسَــاحَتِكِ العــدا يَــا دَارُ
وَمَحَــا مَحَاسِــنَكِ البِلَــى وَالنَّــارُ

وَإِذَا تَــرَدَّدَ فِي جَنَابِــكِ نَــاظِرٌ
طَــالَ اعْتِبَــارٌ فِيْــكِ وَاسْــتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَــتِ الخُطُــوبُ بِأَهْلِهَــا
وَتَمَخَّضَــتْ بِخَرَابِهَــا الأَقْــدَارُ

كَتَبَــتْ يَــدُ الحَــدَثَانِ فِي عَرَصَــاتِهَا
«لَا أَنْــتِ أَنْــتِ وَلَا الــدِّيَارُ دِيَــارُ»[1]

---

١ - الديوان : ٣٥٤ ، وانظر قطعة في رثاء مصنع جميل : ١٣٧ .

٢- رثاء النفس :

وهو موضوع شجيّ تعرّض له نفر من الشعراء عند إحساسهم بدنوّ آجالهم ، وسبق أن ذكرنا أنّ ابن خفاجة صنع أبياتاً لتكتب على شاهدة قبره[١] .

٣- رثاء الأمراء :

لم يرث ابن خفاجة مؤسّس دولة المرابطين وأميرها الأوّل يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠ هـ) مع أنّه عاصره زمناً طويلاً ، بل إنّه لم يرث أحداً من أمراءِ المرابطين الذين عاصرهم والتقاهم سوى الأمير ابن تيفلويت (ت ٥١٠ هـ) الذي كان أقرب الأمراء إليه ، وكان قد مدحه بأطول قصيدة في ديوانه ، ورثاه بمقطوعتين عارض فيهما مقطوعة لابن باجة ، قال في إحداهما :

لا لَعَمــرُ الــمَجْدِ وَالكَــرَمِ   وَمَــزارِ البَيــتِ وَالحَــرَمِ
لا سَلَوتُ الـدَّهرَ عَـن مَلِـكٍ   طَلْـقِ وَجـهِ العُـرفِ وَالشِّـيَمِ
هَــذِهِ نُعمــاهُ مِــلءُ يَــدي   وَثَنَـا حُسْـناهُ مِـلءُ فَمـي[٢]

---

١ - انظر الديوان : ٣٦٣ .

٢ - الديوان : ١٠٦ .

٤- **رثاء الأقارب :**

رثى ابن خفاجة ابن أخته محمّداً الذي توفّي شابّاً في أغمات في المغرب :

أَرِقْتُ أَكُفُّ الدَّمْعَ طَوراً وَأَسفَحُ ... وَأَنضَحُ خَدِّي تارَةً ثُمَّ أَمْسَحُ
وَدُوْنَكَ طَمَّاحٌ مِنَ الماءِ مائِجٌ ... يَعَبُّ وَمُغبَرٌّ مِنَ البِيْدِ أَفيَحُ
وَإِنّي إِذا ما اللَّيْلُ جاءَ بِفَحمَةٍ ... لأوري زِنادَ الهَمِّ فيها فَأَقدَحُ
وَأُتبِعُ طِيْبَ الذِّكْرِ أَنَّةُ موجَعٍ ... فَيَنفَحُ هَذا حَيثُ هاتيكَ تَلفَحُ
وَأَلقى بَياضَ الصُّبحِ يَسوَدُّ وَحشَةً ... فَأَحسِبُني أُمسي عَلى حينِ أُصبِحُ

...

أَقولُ وَقَد وافى كِتابُ نَعيِّهِ ... يُجَمجِمُ في أَلفاظِهِ فَيُصَرِّحُ
أَرامٍ بِأَغماتٍ يُسَدِّدُ سَهمَهُ ... فَيَرمي وَقَلبٌ بِالجَزيرَةِ يُجرَحُ
فَيا لَغَريبٍ فاجأَتهُ مَنِيَّةٌ ... أَتَتهُ عَلى عَهدِ الشَّبابِ تُجَلِّحُ
كَأَنَّ لَهيباً بَينَ جَنبَيَّ واقِداً ... بِهِ وَرَكايا بَينَ جَفنَيَّ تُمتَحُ
جَلَستُ أَسومُ الدَّهرَ فيهِ مَلامَةً ... وَكُنتُ كَما قَد قُمْتُ أُثني وَأَمدَحُ
تَرى بي إِذا أَعوَلتُ حُزناً حَمامَةً ... تُرِنُّ وَطَوراً أَيكَةً تَتَرَنَّحُ
غَريقاً بِبَحرِ الدَّمْعِ وَالهَمِّ وَالدُّجى ... وَلَو كانَ بَحراً واحِداً كُنْتُ أَسبَحُ[1]

---

١ - الديوان : ٢٦٧، ٢٦٨ .

٥- رثاء الأصدقاء :

ذكر ابن خفاجة أسماء بعض أصدقائه الذين رثاهم بأعيانهم وأقربهم إلى قلبه قاطبة هو صديق طفولته وشبابه عبد الله بن ربيعة ،وقد رثاه بثلاث قصائد من روائع شعر الرثاء ، ورثا صديقاً آخر له في إشبيليّة هو عبد الله ولا نعرف عنه أكثر من ذلك :

أَلا لَيْـتَ لَمْـحَ البـارِقِ الـمُتَأَلِّقِ ... يَلُـفُّ ذُيُـوْلَ العـارِضِ الـمُتَدَفِّقِ

وَيَركَبُ مِن ريحِ الصَّبَا مَتْنَ سابِحٍ ... كَريمٍ وَمِنْ لَيْلِ السُّرَى ظَهْرَ أَبْلَقِ

فَيُهـدي إِلى قَـبْرٍ بِحِمْـصَ تَحِيَّـةً ... مَـتى تَحْتَمِلها راحَـةُ الـرِّيْحِ تَعْبَـقِ

فَعِنـدي لِحِمْـصٍ أَيُّ نَظْـرَةِ لَوْعَـةٍ ... وَلِلـنَّجْمِ وَهْنـاً أَيُّ نَظْـرَةِ مُطْـرِقِ

حَنانـاً إِلى قَـبْرٍ هُنالِـكَ نـازِحٍ ... وَشِـلْوٍ عَثا فيـهِ البِلـى مُتَمَـزِّقِ

وَكَيفَ بِشَكوى ساعَةٍ أَشتَفي بِها ... وَدوْنَ التَّلاقـي كُـلُّ بَيْـداءَ سَمْلَـقِ

فَهَل عِندَ عَبدِ اللَّهِ ما باتَ يَنطَوي ... عَلَيـهِ الحَشَـا مِـنْ لَوْعَـةٍ وَتَحَـرُّقِ

...

وَلَمّـا عَلَـتْ وَجْـهَ النَّهـارِ كَآبَـةٌ ... وَدارَتْ بِهِ لِلشَّمْسِ نَظْرَةُ مُشْفِقِ

عَطَفتُ عَلى الأَجداثِ أَجهَشُ تارَةً ... وَأَلـثُمُ طَـوراً تُرْبَهَـا مِـنْ تَشَـوُّقِ

وَقُلتُ لِمُغْفٍ لا يَهُبُّ مِنَ الكَرى ... وَقَدْ بِتُّ مِنْ وَجْدٍ بِلَيْلِ الـمُؤَرَّقِ

لَقَد صَدَعَتْ أَيدي الحَوادِثِ شَمْلَنا ... فَهَلْ مِنْ تَلاقٍ بَعْدَ هَذا التَّفَرُّقِ[١]

---

١ - الديوان : ٢٢٥، ٢٢٦ .

ورثى ابن خفاجة والدة صديقه القاضي ابن عصام شعراً ونثراً فقال :

وَلَـئِنْ جَزِعْـتَ لِيَـومِ أُمٍّ بَـرَّةٍ   نَشَـأَتْ تَطـولُ أَكـابِرَ الآبـاءِ
تَصِـلُ الـدُّعاءَ إِلى البُكـاءِ كَأَنَّمـا   تَرمـي السَّـماءَ بِمُقلَـةٍ مَرهـاءِ
فَلِمثلِـهِ مِـن يَـومِ خَطـبٍ نـازِلٍ   جَمَّـت دُمـوعُ أَفاضِـلِ الأَبنـاءِ
فَـاسمَح بِـأَعلاقِ الـدُّمُوعِ فَإِنَّمـا   تُقْـنَى دُمـوعُ العَـينِ لِلبُرَحـاءِ
وَاهتِـفْ بِمـا تَشـكو إِلَيهـا لَوعَـةً   إِن كـانَ يُصـغي هالِـكٌ لِنِـداءِ
وَاقـرَعْ لَهـا بـابَ السَّـماءِ بِـدَعوَةٍ   تَسـتَمطِرُ الخَضـراءَ لِلغَـبْراءِ
حَـتّى تَجـودَ بِكُـلِّ عـارِضِ رَحمَـةٍ   يَستَضـحِكُ الأَنـوارَ لِلأَنـواءِ
زَجِـلِ الرُّعُـودِ كَأَنَّمـا مَسَـحَتْ بِـهِ   كَـفُّ الصَّـبَا عَـن ناقَـةٍ عُشَـرَاءِ
فَبِمِثلِهـا مِـن تُربَـةٍ قَـد قُدِّسَـت   نَثَـرَ النَّسـيمُ قَلائِـدَ الأَنـداءِ
وَسَـرى يُمَـرِّغُ خَـدَّهُ قَمَـرُ الـدُّجى   وَيُـذيلُ فَضـلَ ضَـفيرَةِ الجَـوزاءِ
وَلَئِن صَبَرتَ وَصَبرُ مِثلِكَ حِسبَةٌ   فَلَقَـدْ أَخَـذْتَ بِشـيمَةِ النُّـبَلاءِ
مِن كُلِّ ماضي العَزمِ يُهوي بِالأَسى   عَـن هَضـبَةٍ مِـن صَـبرِهِ خَلقَـاءِ

... وأصحب هذه القصيدة رقعة نسختها :

كَتَبْتُهُ، وَالنَّفْسُ تَتَفَجَّعُ، وَحَصَاةُ القَلْبِ تَتَصَدَّعُ، عِنْدَمَا طَرَأَ النَّبَأُ الأَشْنَعُ، وَطَرَقَ الحَادِثُ الأَهْوَلُ الأَفْظَعُ، بِمَا سَفَرَ عَنْهُ الدَّهْرُ مِنْ وَجْهِ الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ، وَاْجْتَثَّهُ بِسَاحَتِكَ مِنْ دَوَحَةِ العَلْيَاءِ الغَيْنَاءِ، التِي كُنْتَ تَتَمَتَّعُ بِبَرْدِ أَفْيَائِهَا وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهَا، أَلحَفَهَا اللهُ جَنَاحَ عَفْوِهِ

وَغُفْرَانِهِ، وَتَغَمَّدَهَا بِنَفْحَةِ رَوْحِهِ وَرَيْحَانِهِ؛ فَلَقَدْ كَانَتْ نَسِيْجَةَ وَحْدِهَا فَضْلاً وَنُبْلاً، وَدِيَانَةً وَعَقْلاً. وَلا غَرْوَ أَنْ يَذِيعَ عَمَلُ الخَيْرِ وَالبِرِّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مَصُونَةٍ وَرَاءَ الحِجَابِ والسَّـتْرِ، فَالبَدْرُ يُضِيْءُ خِلالَ غَمَامِهِ، وَالمِسْـكُ يَنِمُّ وَرَاءَ خِتَامِهِ.. »[1]

وقد تكون مقطّعات الرثاء خالية من الأسماء ولكنّها عامرة بالمعاني ، كقوله « يرثي صديقاً له من أبيات :

تَـــيَقَّنَ أَنَّ اللَّـــهَ أَكـــرَمُ جِـــيرَةً
فَـــأَزمَعَ عَـــن دَارِ الحَيَـــاةِ رَحِـــيلا

فَـــإِنْ أَقفَـــرَتْ مِنـــهُ العُيـــونُ فَإِنَّـــهُ
تَعَـــوَّضَ مِنْهـــا بِـــالقُلوبِ بَـــدِيلا

وَلَمْ أَرَ أُنْســـاً قَبلَـــهُ عـــادَ وَحْشَـــةً
وَبَـــرْداً عَلَـــى الأَكْبَـــادِ عَـــادَ غَلِـــيلا

وَمَـــنْ تَـــكُ أَيّـــامُ السُّـــرُورِ قَصـــيرَةً
بِـــهِ كـــانَ لَيـــلُ الحُـــزنِ فيـــهِ طَـــوِيلا[2]

---

١ – الديوان : ٢٧٣ — ٢٧٦ .

٢ – الديوان : ٣٦٩ ، ٣٧٠.

ويبدو أنّ سبحة حياة أصدقاء ابن خفاجة قد انفرطت ، فتوالى فقد الأصدقاء والأخلّاء ، وكأنّه صار يوميّاً:

أَفِي كُــــلِّ يَــــومٍ رَجفَـــةٌ لِمُلِمَّـــةٍ
بِفَقــدِ خَليــلٍ يَمــلأُ العَــينَ مُــؤنِسِ
أَبيــتُ لَــهُ تَنــدى جُفــونيَ لَوعَــةً
كَما دَمَعَت تَحتَ الحَيا عَينُ نَرجِسِ
وَحَســبِي إِذا مــا أَوْحَشَــتْنِيَ كُربَــةٌ
بِمُــؤنِسِ يَعقــوبٍ وَمُنقِــذِ يُــونُسِ[1]

لذلك صار يندب أحبّته بالجملة بعد أن بانوا وكأنّهم ما كانوا ، وتارة يندب قبورهم الدوارس التي محاها السيل[2] ، بيد أنّ الغريب حقّاً أنّه يجمع في القصيدة بين أغراض غير متّسقة ، وقد تبدو متناقضة كجمعه بين الرثاء والمديح في مديح ابن زهر السالف [3] ، وأغرب منه بدؤه بالغزل في قصيدة الرثاء[4] .

---

١ – الديوان : ١٨٣ .

٢ – الديوان : ١٧٧ .

٣ – الديوان : ١٩٨ .

٤ – الديوان : ٥٢ – ٥٣ .

١١ : الزهد

لابن خفاجة بضع قطع في غرض الزهد وما يتعلّق به ، زهد فيها بحطام الدنيا بعد أن فارق الشباب، بل زهد حتّى في الصورة الفنّيّة التي تميّز بها في شعره ، وتساوى لديه كلّ ما فيها من حزن وسرور ، لأنّ مصير كلّ شيء هو الفناء قال :

لا العَطايــــا وَلا الرَّزايــــا بَــــواقٍ
كُـــلُّ شَــــيءٍ إِلى بِلـــىً وَدُثـــورِ
فَالْـهَ عَــن حــالَتَي سُــرورٍ وَحُــزنٍ
فَـــإِلى غايَـــةٍ مَجـــاري الأُمـــورِ
وَإِذا مــا انقَضَــت صُــروفُ اللَّيــالي
فَسَـــواءٌ لَيـــلُ الأَســـى وَالسُّـــرورِ[1]

و كما لبس ابن خفاجة القناعة حلّة أغنته عن كثير من الانتجاع ، فإنّ القناعة قد ترسّخت فيه حتّى صارت زهداً حقيقياً ودعوة إلى الزهد ، قال :

أَلا قـانِعٌ مِـن مُلْـكِ كِسـرى بِكِسـرَةٍ
فَما الوَجدُ إِلّا الخُلدُ لا ما حَبَا كِسرى

١ – الديوان : ١٥٧ .

فَمـا بالُنـا وَالمـالُ عُرضَـةُ حـادِثٍ
تَرَكْنَـا مَطايـا الـرِّيحِ في إِثْـرِهِ حَسْـرَى

وَمـا الغَـيُّ إِلَّا أَن يُعَبِّـدَنا الهَـوى
وَلَم نَـدْرِ جَهـلاً أَنَّنـا مَعْشَـرٌ أَسـرى

وَقَد لاحَ صُبحُ الشَّيبِ وَانسَلَخَ الصِّبَا
فَيا صُبْحَ ما أَجلى وَيا لَيْلَ ما أَسرى

فَيـا لَيـتَ أَنِّي ماخُلِقـتُ لِمَطعَـمٍ
وَلَم أَدرِ ما اليُسرى هُناكَ وَلا العُسرى

فَلَسـتُ أَراني وَالمَغَبَّـةُ خِسَّـةٌ
يَفي غَسْلِيَ اليُمْنى بِغَسْلِيَ اليُسْرى[1]

ويدعو ابن خفاجة للاستعداد للبعث والنشور والحساب بالعمل الصالح الذي يمهّد له منزله الأخير، دالّاً على إيمانه العميق بالبعث والنشور فليس عجيباً أن يتكوّن الإنسان ثانية بعد أن يغدو تراباً ، إذ إنّه رأى كيف يتكوّن أوّلاً :

كَفَـى حِكْمَـةً لِلَّـهِ أَنَّـكَ صـائِرٌ
تُرَابـاً كَمـا سَـوّاكَ قَبْـلُ فَعَـدَّلَكْ

وَلَـيْسَ بِخَـافٍ كَيْـفَ كَوْنُـكَ ثَانِيـاً
وهَـا أَنْـتَ رَاءٍ كَيْـفَ كَـوَّنَ أَوَّلَـكْ

---

١ – الديوان : ١٦٤ .

فَهَــل أَنــتَ فِي دارِ الفَنَــاءِ مُمَهِّــدٌ
مَحَلَّــكَ فِي دَارِ البَقَــاءِ وَمَنْزِلَــكْ[1]

ويفنى شباب ابن خفاجة ويرتحل أترابه وأهله وأحبّته ، ويعلم أنّه مهما طال عمره فإنّه سيلحق بهم ينظر فلا يرى لنفسه توبة نصوحاً فينوح على نفسه ، وليس هذا بكثير لمذنب قربت نهايته ، قال :

كَفَــى حَزَنــاً أَنْ لَا وُجُــوْدَ شَــبِيْبَةٍ
وَلا تَوْبَــةٌ تُرْضِــي الإِلَــهَ نَصُــوحُ
وَأَنِّ وَقَــدْ أَوْدَتْ لِــدَاتِي وَأُسْــرَتِي
سَــأَغْدُو وَرَاءَ القَــوْمِ أَوْ سَــأَرُوحُ
فَلَــمْ يُغْــنِ نُوحــاً وَالــمَنُوْنُ بِمَرْصَــدٍ
تُرَاقِبُــهُ أَنْ كَــانَ عُمِّــرَ نُــوْحُ
فَــذَرْنِي أَنُــحْ حُزْنــاً وَقَــلَّ لِمُجْــرِمٍ
تَــدَانَتْ خُطَــاهُ أَنْ يَكُــونَ يَنُــوحُ[2]

ويحثّ ابن خفاجة على العبادة والقيام وخشية الخالق والخضوع له من دون رياء ، ويثني على من يقوم بذلك ، ثمّ يتذكّر نفسه ويتحسّر على

---

١ – الديوان : ٢١٥ .

٢ – الديوان : ٣١٠ .

غوايتها وتفريطها زمن الشباب فيعضّ يديه ندماً ، ويتضرّع إلى الله سبحانه وتعالى أن يعامله بما هو سبحانه أهل له لا ما يستحقّه الشاعر :

طُــوْبَى لِعَبْــدٍ قَــامَ خِشْــيَةَ رَبِّــهِ
وَاللَّيْــلُ قَــدْ ضَــرَبَ الظَّــلامَ رِوَاقَــا
خَضِلِ المَدَامِعِ خَوْفَ عَرْضَةِ مَالِكٍ
خَضَــعَ الــمُلُوْكُ لَــهُ بِهَــا أَعْنَاقَــا
وَالنَّــاسُ مِــنْ كَــابٍ هُنَــاكَ وَسَــابِقٍ
قَــدْ أُلْزِمُــوا أَعْمَــالَهُمْ أَطْوَاقَــا
فَحَنَانَــكَ اللَّهُــمَّ فِي عَبْــدٍ غَــوَى
زَمَنــاً فَشَــدَّ إِلَى الفُسُــوقِ نِطَاقَــا
قَلِـقِ الـمَضَاجِعِ بَـاتَ يَقْـرَعُ سِـنَّهُ
نَــدَماً وَيُرْسِــلُ دَمْعَــهُ إِشْــفَاقَا
سَــحَبَ الشَّــبِيبَةَ فِي الغَوَايَــةِ ضِــلَّةً
حَــتَّى تَسَــرْبَلَ ثَوْبَهَــا أَخْلاقَــا
فَلَـئِنْ سَـطَوْتَ بِـهِ فَـلا ظُلْمـاً لَـهُ
وَلَـئِنْ صَـنَعْتَ لَـهُ فَـلا اسْـتِحْقَاقَا[1]

ويتبدى في مقطّعاته الزهديّة صدقه العميق ، وتوبته النصوح ، وحزنه الشديد على ما فرّط في جنب الله ، وتسليمه الأمر لله عزّ وجلّ .

١ – الديوان : ٢١٤ .

١٢ : الحكمة و الاعتبار

عاش ابن خفاجة حياة مديدة زادت على الثمانين من السنين ، وخبر الزمان وأهله، وانتقل من سلوك عابث لاهٍ إلى سلوك متعقّل متّزن، فصرنا نراه يتحدّث عن "العقل الوافر" والعمل "بمقتضى الشريعة والعقل" كما أنّ شعوره بالوَحدة والفقد أعطاه رؤية خاصّة للحياة والكون والمصير ، وأن يكون للحكمة والاعتبار حيّز واضح في شعره ، وزيادة على ما في بعض أغراضه الأخر كالرثاء والزهد والمديح من أبيات في الحكمة فإنّ له نتفاً ومقطّعات في الحكمة والتوجيه والاعتبار والتأمّل ، تنقسم ثلاثة أقسام:

أ- التعاليم الأخلاقية والسلوكيّة

١-كتم السرّ :

« وقال في صفة محكّ :

لا تُـــودِعَنَّ وَلا الجَمَـــادَ سَـــرِيرَةً
فَمِـنَ الصَّـوَامِتِ مَـا يُشِـيرُ فَيَنْطِـقُ
وَإِذَا الـــمَحَكُّ أَذَاعَ سِـــرَّ أَخٍ لَـــهُ
فَـانْظُرْ فَـدَيْتُكَ مَـنْ تَـرَاهُ يُوَثَّـقُ[1]

والواضح أنّ ابن خفاجة في هذه القطع يهتمّ بإبراز المعنى وتوضيحه

---

١ - الديوان : ٦٢ .

أكثر من عنايته بإخراجه في ثوب قشيب من الصور الفنّيّة، وهذا من نكد الشعر ، كما قال الأصمعي[1] .

٢- **حفظ اللسان** : قال ابن خفاجة :

قُــل مــا تَشــاءُ بِمَحفِــلٍ أَو مَجهَــلٍ
وَاخــزُن لِســانَكَ عَــن مَقــالٍ يُوْبِــقُ
إِنَّ الصَّــغيرَةَ قَــدْ تَجُــرُّ عَظيْمَــةً
وَلَرُبَّمَــا أَوْدى بِشــاهٍ بَيْــذَقُ[2]

٣- **تنبيه الأطفال والشباب بالزجر أو الكلام** :

ثمّة مقطوعتان لابن خفاجة في هذا الموضوع ، « وقال يحمل على تنبيه أفهام الشباب :

نَبِّــهْ وَلِيــدَكَ مِــنْ صِــبَاهُ بِزَجْــرَةٍ
فَلَرُبَّمَــا أَغْفَــى هُنَــاكَ ذَكَــاؤُهُ
وَانْهَــرْهُ حَــتَّى تَسْــتَهِلَّ دُمُوعُــهُ
فِي وَجْنَتَيْــهِ وَتَلْتَظِــي أَحْشَــاؤُهُ
فَالسَّــيْفُ لا تَــذْكُو بِكَفِّــكَ نَــارُهُ
حَــتَّى يَسِــيلَ بِصَــفْحَتَيْهِ مَــاؤُهُ

---

١ – الشعر والشعراء : ٣٠٥/١.

٢ – الديوان : ١٦٣ .

وقال في نحو منه، ملتزماً ما لا يلزم:

سَـــدِّدْ مَرَامِـــي الطِّفْـــلِ فِي شَـــأْنِهِ
بِلَفْظَـــــــةٍ تَشْـــــــدُدْ بِهَـــــا أَزْرَهْ
وَاكْتَـــفِ بِاللَّمْحَـــة مِـــنْ فَهْمِـــهِ
إِنَّ الـــــــمَبَادِي أَبَـــــــداً نَـــــــزْرَهْ
أَمـــا تَـــرَى البُرْكَـــانَ مِـــنْ شُـــعْلَةٍ
وَالدَّوْحَـــةَ اللَّفَّـــاءَ مِـــنْ بَـــزْرَهْ »[1]

ب- رؤيته العامّة للحياة

١ - الحثّ على اغتنام صفو الزمان :

قال:

أَيُّ زَمَـــانٍ جَـــادَ إِلَّا نَهَـــبْ ... أَم أَيُّ خَطبٍ جَاءَ إِلَّا ذَهَبْ
كُلّاً طَوى الدَّهْرُ فَلا ما وَهى ... بِجانِـــبٍ دامَ وَلا مـــا وَهَـــبْ
فَمـــا لِعَقـــلٍ وافِـــرٍ وَالـــمُنى ... وَمـــا لِـنَفسٍ حُـــرَّةٍ وَالـــذَّهَبْ
فَصُـلْ إِذا قارَعـتَ قِرنـاً وَصِـلْ ... خِدناً وَلا تَهْلَعْ إِذا السَّيفُ[2] هَبْ

١ - الديوان : ١٠١ .

٢ - الديوان : ٢٤٩ .

٢– الدعوة إلى المخاطرة في طلب الرزق : قال :

جَــرِّرْ مُــلاءَةَ كُـلِّ يَـومٍ شـامِسٍ ... وَاسْحَبْ ذُؤابَةَ كُلِّ لَيْلٍ دامِسِ

وَاطلُـعْ بِكُــلِّ فَــلاةِ أَرضٍ غُــرَّةً ... غَـرّاءَ في وَجـهِ الظَّـلامِ العَـابِسِ

وَانـزِلْ بِهـا ضَـيْفاً لِلَيـثٍ خـادِرٍ ... يَقرِيْـكَ أَو جَـاراً لِظَـبيٍ كـانِسِ

وَإِذا طَعِمـتَ فَمِـنْ قَنيصٍ فِلْذَةً ... وَإِذا شَـرِبْتَ فَمِـنْ غَمـامٍ راجِسِ

وَالـريحُ تَلْوي عِطْفَ كُلِّ أَراكَـةٍ ... لَيَّ السُّرَى وَهْناً لِعِطْفِ النَّاعِسِ

وَسَلِ الغِنى مِنْ ظَهْرِ طِرْفٍ أَشْقَرٍ ... يَطَأُ القَتيلَ وَصَدرِ رُمحٍ داعِسِ[1]

ج – النظر والتفكّر والاعتبار

في رسالة ابن خفاجة لأستاذه ابن صواب بعد أن أكمل الستّين من العمر ذكر ابن خفاجة أنّه أرق ليلة فتلدّد ينظر في أعقاب ما مضى من عمره ، فقال قطعة شعريّة ، ثمّ أعول وانتحب « وَحُقَّ لِمَنْ شَاهَدَ تَضَعْضُعَ أَرْكَانِـهِ، وَتَـدَاعِيَ بُنْيَانِـهِ، وَذَهَـابَ خِلّانِـهِ، وَإِدْبَـارَ عُمْـرِهِ وَزَمَانِـه، أَنْ يُطْـرِقَ هُنَالِكَ فِكْرَةً، وَيَمْلأَ جَفْنَيْهِ عَبْرَةً، وَيُرَدِّدَ الأَسَفَ جَمْرَةً، حَتَّى يَذُوبَ كَمَداً أَوْ يَقْضِيَ حَسْرَةً »[2] .

---

١ – الديوان : ٢٢٨ .

٢ – الديوان : ٦٥ .

وصار يعتزل الناس واللهو ويتفكّر ويتدبّر وقد سلف قوله :

وَشَــأْنُ مِثْلِــي أَنْ يُــرَى خَالِيــاً
بِنَفْسِــهِ يَبْحَــثُ عَــنْ نَفْسِــهِ[1]

غير أن أهمّ ما في حكمه هو الاعتبار الذي يبوح به في حديث ذاتيّ مع القمر ، وقدّم لهذه القطعة : « وقال ، وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره ، فجعل يطرق في معنى كسوفه وإقماره ، وعلّة إهلاله تارة وسراره ، ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره ، معتبراً بحسب قوّة فهمه واستطاعته ، ومعتقداً أنّ ذلك معدود في عبادة الله وطاعته ، لقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[2] فقال ، وقد أقام معاينة تلك النِّصبة ، واستشراف تلك الحالة والهيئة مقام المناجاة لمن خلا بنفسه يفكّر ، ونظر نظر الموفق يعتبر :

لَقَد أَصَخْتُ إِلى نَجواكَ مِن قَمَرٍ ... وَبِتُّ أُدلِجُ بَينَ الوَعْيِ وَالنَّظَرِ
لا أَجتَلي لَمَحاً حَتّى أَعي مُلَحاً ... عَدلاً مِنَ الحُكمِ بَينَ السَّمعِ وَالبَصَرِ
وَقَد مَلَأتَ سَوادَ العَينِ مِن وَضَحٍ ... فَقَرِّطِ السَّمعَ قُرْطَ الأُنسِ مِن سَمَرِ
فَلَو جَمَعتَ إِلى حُسنٍ مُحاوَرَةً ... حُزتَ الجَمالَينِ مِن خُبرٍ وَمِن خَبَرِ
وَإِن صَمَتَّ فَفي مَرآكَ لي عِظَةٌ ... قَد أَفصَحَت لِيَ عَنها أَلسُنُ العِبَرِ

---

١ - الديوان : ١٦٢ .

٢ - سورة آل عمران : ١٩٠ .

تَمُـرُّ مِـن نـاقِصٍ حَـوراً وَمُكتَمِـلٍ ... كَـوراً وَمِـن مُرتَـقٍ طَـوراً وَمُنحَـدِرِ

وَالنَّاسُ مِن مُعرِضٍ يَلْهَى وَمُلتَفِتٍ ... يَرعـى وَمِـن ذاهِـلٍ يَنسـى وَمُـدَّكِرِ

تَلهــو بِســاحاتِ أَقــوامٍ تُحَــدِّثُنا ... وَقَـد مَضَـوا فَقَضَـوا أَنَّـا عَلى الأَثَـرِ

فَإِن بَكَيتُ وَقَد يَبكي الجَليدُ فَعَنْ ... شَجوٍ يُفَجِّرُ عَينَ الماءِ في الحَجَرِ[1]

وأروع من هذا خطابه للجبل في أثناء ذرعه البلاد شرقاً وغرباً ، وسيره وحيداً في الليل البهيم ، وقدّم للقصيدة بقوله :

« وقال في الاعتبار :

بَعَيشِكَ هَل تَدْرِي أَهُوجُ الجَنَائِبِ ... تَخُبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُـورُ النَّجائِـبِ

فَمــا لُحْــتُ في أولَى الــمَشَارِقِ كَوكَبــاً ... فَأَشرَقتُ حَتّى جُبتُ أُخْرَى الـمَغَارِبِ

وَحِيْـدَاً تَهَـادَانِي الفَيَـافِي فَـأَجتَلِي ... وُجُـوْهَ الـمَنَايا فِي قِنَـاعِ الغَياهِـبِ

وَلا جَـارَ إِلَّا مِـنْ حُسَـامٍ مُصَـمَّمٍ ... وَلا دَارَ إِلَّا فِي قُتُــودِ الرَّكَائِــبِ

وَلا أُنْـسَ إِلَّا أَنْ أُضَـاحِكَ سَـاعَةً ... ثُغُورَ الأَمَـانِي فِي وُجُـوهِ الـمَطالِبِ

بِلَيلٍ إِذا ماقُلْـتُ قَدْ بَـادَ فَانْقَضى ... تَكَشَّـفَ عَـنْ وَعْـدٍ مِـنَ الظَّـنِّ كـاذِبِ

سَحَبتُ الدَّياجي فيهِ سُودَ ذَوائِبٍ ... لِأَعتَنِـقَ الآمــالَ بِـيضَ تَرَائِــبِ

فَمَزَّقتُ جَيبَ اللَّيلِ عَن شَخصِ أَطْلَسٍ ... تَطَلَّـعَ وَضّـاحِ الـمَضاحِكِ قَاطِـبِ

رَأَيـتُ بِـهِ قِطْعـاً مِـنَ الفَجْـرِ أَغْبَشـاً ... تَأَمَّــلَ عَــنْ نَجْــمٍ تَوَقَّــدَ ثَاقِــبِ

---

١ – الديوان : ١٣٠ ، ١٣١ .

وَأَرْعَـــنَ طَمَّـــاحِ الذُّؤابَـــةِ بَـــاذِخٍ   يُطَـاوِلُ أَعْنَـانَ السَّـمَاءِ بِغَـارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وُجْهَـةٍ   وَيَـزْحَمُ لَـيْلاً شُـهْبَهُ بِالـمَناكِبِ
وَقُـورٍ عَلَـى ظَهْـرِ الفَـلاةِ كَأَنَّـهُ   طِوالَ اللَّيـالي مُطْرِقٌ في العَواقِبِ
يَلُـوثُ عَلَيـهِ الغَـيمُ سُـودَ عَمَـائِمٍ   لَهَـا مِـنْ وَمِيضِ الـبَرْقِ حُمْـرُ ذَوائِـبِ
أَصَخْتُ إِلَيهِ وَهوَ أَخْرَسُ صامِتٌ   فَحَـدَّثَني لَيـلَ السُّـرَى بِالعَجَائِـبِ
وَقَـالَ أَلا كَـمْ كُنـتُ مَلجَـأَ فَاتِـكٍ   وَمَـــوطِنَ أَوّاهٍ تَبَتَّـــلَ تائِـــبِ
وَكَـمْ مَـرَّ بِي مِـن مُـدلِجٍ وَمُـؤَوِّبٍ   وَقَـالَ بِظِلِّـي مِـنْ مَطِـيٍّ وَراكِـبِ
وَلاطَـمَ مِـنْ نُكْبِ الرِّياحِ مَعَاطِفي   وَزاحَـمَ مِنْ خُضْرِ البِحَارِ جَوَانِبِي
فَمَا كانَ إِلَّا أَن طَوَتْـهُم يَـدُ الرَّدَى   وَطـارَتْ بِهِـمْ رِيْـحُ النَّـوَى وَالنَّوائِـبِ
فَما خَفْقُ أَيْكِي غَيرَ رَجفَةِ أَضْلُعٍ   وَلا نَـوْحُ وُرْقِـي غَيرَ صَرْخَةِ نادِبِ
وَمـا غَـيَّضَ السُّـلوَانُ دَمْعِـي وَإِنَّمـا   نَزَفْـتُ دُمُـوعِي فِي فِـرَاقِ الصَّـوَاحِبِ
فَحَتّى مَتَى أَبْقَى وَيَظعَنُ صَاحِبٌ   أُوَدِّعُ مِنـهُ راحِـلاً غَـيرَ آيِـبِ
وَحَـتّى مَـتى أَرعـى الكَواكِـبَ سَـاهِراً   فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرَى اللَّيالِي وَغارِبِ
فَرُحْمَـاكَ يـا مَـولايَ دَعْـوَةَ ضَـارِعٍ   يَمُـدُّ إِلى نُعْمَـاكَ رَاحَـةَ رَاغِـبِ
فَـأَسمَعَنِي مِـنْ وَعْظِـهِ كُـلَّ عِـبرَةٍ   يُتَرجِمُهَـا عَنْـهُ لِسَـانُ التَّجَـارِبِ
فَسَلّى بِمـا أَبكـى وَسَرّى بِمـا شَـجَا   وَكـانَ عَلى لَيْـلِ السُّرى خَيْرَ صَاحِبِ
وَقُلْـتُ وَقَـدْ نَكَّبْـتُ عَنـهُ لِطِيَّـةٍ   سَـلامٌ فَإِنّـا مِـنْ مُقِـيْمٍ وَذاهِـبِ[1]

١ – الديوان : ٢١٥ ، ٢١٦ .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة الماتعة في جنائن آداب ابن خفاجة الغنّاء ، وأشجارها اللفّاء ، وأزهارها الشذيّة ، وثمارها الشهيّة ، لا بدّ لنا من وقفة سريعة نستعرض فيها المراحل التي مررنا بها، والأشواط التي قطعناها، والثمار التي قطفناها في تلك البقعة الجميلة من الفردوس المفقود؛ أو الفردوس المعاد والمستعاد بإحياء تراثه وتحقيقه تحقيقاً علميّاً وطبعه في حلل قشيبة ، ومن ثمّ درسه وتعريفه وتعريف أعلامه .

ولقد كان هذا البحث للتعريف الموسّع بعلم من أعلام الأدب الأندلسي وهو أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة، وقد جعلنا هذه الترجمة الموسّعة للأديب الشاعر الناثر ابن خفاجة في فصلين اثنين ، خصصنا **الفصل الأوّل** منهما لتعريف هذا الأديب تعريفاً دقيقاً ، فبدأ البحث بذكر اسمه ونسبه كاملاً ، ثمّ بتحديد زمان ولادته ومكانها ، وتعريف مسقط رأسه ؛ جزيرة شقر.

ثمّ جعل مراحل حياته ثلاثة أقسام ؛ وشرع في القسم الأوّل منها أي حياته في عصر دويلات الطوائف فوضّح نشأته العلميّة وتحصيله الثقافيّ ، وذكر أهمّ أساتذته ، وبعض ما أخذ عنهم من علوم .

وتعرّض بعد ذلك لحياته الخاصّة في زمن الشباب ، وأخباره الأولى المؤرّخة ضمن تلك المرحلة .

ثمّ انتقل في القسم الثاني إلى عرض أحداث حياته في عصر دولة المرابطين المغربيّة الإسلاميّة العظيمة التي أنقذت الأندلس من السقوط النهائي المحتّم ، وحرّرت قسماً كبيراً منها بفضل الله تعالى ثمّ بعزيمة مؤسّس الدولة المرابطيّة وأمرائها ، وشدّة بأسهم ؛ إلّا أنّ الجيل الثاني من الأمراء لم يكن كسابقه، فبيّن البحث حقيقة علاقة ابن خفاجة بأمراء المرابطين البربر في الأندلس وطريقة معاملتهم له معرّفاً من اتّصل بهم ، مثبتاً ذلك بما قال فيهم من شعر ونثر .

ثمّ بيّن علاقة ابن خفاجة بمعاصريه من الأدباء والعلماء والقضاة ، الذين كان أغلبهم من أصدقائه الأندلسيّين ، وحدّد علاقته بهم واحداً واحداً ، وأشار إلى بعض أعدائه وحاسديه ، واستنتج – في أثناء ذلك – مدى اهتمام ابن خفاجة بقيم الصداقة ، وحرصه عليها ، ومدى تمسّكه بالصديق ، وارتباطه به ، حتى يبدوا كمعصم وذراع ؛ كما يصوّر ذلك ابن خفاجة ، ويبدع في تصويره .

ثمّ تابع البحث تصوير المرحلة الثالثة من حياته بعد انقضاء شبابه منذ الخمسين من عمره ، ورصد الخطّ البيانيّ لتنامي شخصيّة ابن خفاجة ، وإحساسه العميق المرهف بانقضاء الشباب ، ودبيب العلل والأمراض والضعف الطبيعي فيه ، ثمّ انعطافه الكبير نحو التديّن والتفكّر ، وقعوده للتدريس تارة ، وميله إلى العزلة تارة أخرى ، والأنس بالطبيعة الموحشة ، والراحة بزيارة القبور ، حتّى بلغ الثمانين من العمر ، ويئس من الحياة

واستعدّ للممات ، وأعدّ أبياتاً لتكتب على شاهدة قبره ليترحّم عليه من يمرّ على قبره ويقرؤها ، ثمّ توفّي في السادس والعشرين من شوّال سنة (٥٣٣ هـ) ، رحمه الله تعالى .

ثمّ عرّج البحث على استخلاص ما تبدّى له من صفات ابن خفاجة الخلقيّة والخلقيّة في شعره وأخباره ، وبيّن طبعه الحميد ، وسلوكه الرفيع مع الناس . وعرض – بعد ذلك – ما توصّل إليه من أسماء تلاميذه ومن أخذوا عنه علماً أو شعراً .

وقد خصصنا **الفصل الثاني** لتعريف أدب ابن خفاجة وعرض نماذج واسعة منه في أغراضه المتنوّعة ، ليكون مادّة موضّحة لدراسة أدبه دراسة فنّيّة . فاستهلّ البحث هذا الفصل بذكر شهرته الواسعة في حياته وبعد مماته وإسباغ المؤرّخين الأندلسيين الثناء عليه حتّى فضّلوه على من سواه في وصف الطبيعة خاصّة ، وعلّقوا على شعره تعليق إعجاب ، وأورد بعض اللمحات النقديّة التي خصّه بها بعض الأدباء والنقّاد في المشرق والمغرب في كنه شعره وبعض القضايا الأخرى كالأخذ من صوره وكثرة معانيه وتزاحمها، فضلاً عن بعض اللمحات النقديّة التي أبداها الشاعر نفسه في شعره وشعر غيره .

ثم عاج البحث على ذكر آثاره وحصرها ، فاكتشف أنّ لهذا الشاعر العالم– زيادة على شعره ورسائله النثريّة – مقامةً ، وتأليفاً لغويّاً لم يذكر اسمه المترجمون له.

ثمّ دلف إلى نثر ابن خفاجة فوجده مشتّتاً متفرّقاً في الديوان ولا يشمل جميع نثره ، فحاول البحث أن يستقصي النصوص النثريّة، ويستدرك على ما فات محقّق الديوان الفاضل منها ، وأن يرتّب هذا النثر بحسب أنواع النثر المعروفة في ذلك الوقت . ثمّ نظر فيه نظرة سريعة فوجده ينبض بإحساسه المرهف ، وتتجلّى فيه أفراحه وأتراحه وآماله وآلامه على نحو ذاتي دافئ حميم .

ورأى أنّه لا يزيد على السدس حجماً من ديوانه الشعريّ المطبوع ، وأنّه يمثّل أسلوب النثر في عصره من حيث الاهتمام الكبير بالمحسّنات البديعيّة والبيانيّة ، ولكنّه لا يلجأ إلى التكلّف الشديد إلّا أحياناً قليلة ؛ وذلك ليبيّن قدرته ، ويبرز تفوّقه على أدباء عصره وبلغاء مصره في استعمال فنون البديع التي يتنافسون في حشدها في رسائلهم .

ثمّ صنّف أنواع رسائله فوجدها تتجلّى في الرسائل الديوانيّة التي تصف فتوح أمراء المرابطين ، وتدعو بدعوتهم وتحذّر أعداءهم وتهدّدهم ، ثمّ في الرسائل الإخوانيّة المتعدّدة الموضوعات ، والرسائل الأدبيّة التي تجنح إلى الوصف والتصوير ، وأجمل بعدها الخصائص العامّة لنثره .

ثمّ انتقل البحث لتبيان أغراض شعره المتعدّدة الكثيرة ؛ من غزل، ومديح، ووصف، وحنين، وخمرة، وفخر، وعتاب، وشكوى، وهجاء، ورثاء، وزهد، وحكمة، واعتبار ، إذ لم يترك ابن خفاجة غرضاً شعريّاً مهمّاً من أغراض الشعر العربي إلّا استعمله ونظم فيه ، فقام بتصنيف هذه

الأغراض والنظر فيها نظرات متعدّدة ، مبدياً بعض الملاحظات النقديّة عليها ، مورداً نماذج مطوّلة ومتعدّدة منها ، تدلّ على إبداع ابن خفاجة وروعة أشعاره ، مبرزاً تفوّقه في غرض الوصف من حيث الكثرة والتنوّع والإبداع .

وبعد ؛ فهذه الدراسة التي بين أيديكم إنْ هي إلّا مقدّمة لدراسة أدب ابن خفاجة دراسة معمّقة، والاقتصار على أدبه لسبر أغواره واستكناه بنيته الأولى والنفوذ إلى وحداته التكوينيّة ؛ للوصول إلى جوهر شعره ونثره ، وسحر إبداعه وسرّ خلوده ، وهي خطوة أولى تتبعها خطوات إن شاء الله تعالى، فابن خفاجة أديب يستأهل أن يبذل في دراسة أدبه الوقت الوفير ، ويراق في الكتابة عنه المداد الكثير، إنّه أديب شاعر وناثر كبير ، جدير بهذا اللقب جدارة لا يختلف عليها ناقدان اثنان ، ويستحقّ كلّ إكبار وتقدير .



الملحق

مجموع نثره



أو لاً

النـثر الأدبـي

[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَر

قالَ الوزيرُ الفقيهُ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي الفَتْحِ بْنِ خَفَاجَةَ –أعزَّهُ اللهُ – يُصَدِّرُ بهذهِ الخُطبةِ جُملةً منْ شعرِه، وبعضَ مَا اقترنَ بهِ منْ نثرِه:

الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَمَّ بِفَضْلِهِ، ومَنَّ بِعَدْلِهِ، وَفَتَقَ اللِّسَانَ بِرَحْمَتِهِ، وَأَنْطَقَ الإِنْسَانَ بِحِكْمَتِهِ، وَسَدَّدَ فَأَرْشَدَ إِلَى الإِسْلامِ، وَعَرَّفَ بِنَفْسِهِ بَيْنَ الوَحْي وَالإِلهَامِ، ووَعَدَ وَأَوْعَدَ بِتَوَسُّطِ العُقُولِ وَالأَفْهَامِ، وَأَطْلَقَ بِتَوْحِيدِهِ وَتَمْجِيدِهِ أَلسِنَةَ الأَنَامِ، وَأَسِنَّةَ الأَقْلَامِ ، حَمْدَ مُعْتَرِفٍ بِمَا أَوْلاهُ وَآتَاهُ، مُغْتَرِفٍ مِنْ فَيْض نُعْمَاهُ وَرُحْمَاهُ، مُعْتَصِمٍ بِكِفَايَتِهِ مِنَ الفِتْنَةِ فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ، مُسْتَجيرٍ بِهِدَايَتِهِ مِنْ دَرَكِ الخَطَأِ وَالخَطَلِ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ مُصْطفاَهُ، وَمُجْتَبَاهُ ، وَخِيرَتِهِ مِنْ أَنْبِيائِهِ، وَصَفْوَتِهِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ ، صَلاةً تَتَرَادَفُ مَعَ الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ، وَتَسْتَدِرُّ أَخْلافَ النِّعَمِ وَالآلاءِ، وَتَسِطُ كَرَامَةً بَيْنَ النَّفْسِ وَالرَّجَاءِ، وَتَصِلُ كَثْرَةً مَا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَتُلْحِقُنِي بِالمَلَأِ الأَعْلَى طَاعَةً، وَتَحْسَبُنِي وَسِيلَةً وَتَسَعُنِي شَفَاعَةً.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ وَالشَّبَابُ يَرِفُّ غَضَارَةً، وَيَخِفُّ بِي غَرَارَةً، فَأَقُومُ طَوْراً وَأَقْعُدُ تَارَةً – قَدْ جَنَحْتُ إِلَى الأَدَبِ أَرْتَادُهُ مَرْتَعاً، وَأَرِدُهُ مَشْرَعاً. فَما تَصَفَّحْتُ مِثْلَ شِعْرِ الرَّضِيِّ، وَمِهيَارَ الدَّيْلَمِيِّ، وَعَبْدِ المُحْسِنِ الصُّورِيِّ، وَمَا حَذَا حَذْوَهُ وَأَخَذَ مَأْخَذَهُ – حَتَّى تَمَلَّكَنِي مِنْ تِلْكَ المَحَاسِنِ الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةِ، وَالألفَاظِ الشَّفَّافَة الشَّائِقَةِ، مَا يُنَاسِبُ بُرْدَ الشَّبَابِ رِقَّةً، وَبَرْدَ الشَّرَابِ رَيْقَةً. فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ مِلْتُ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ، أُرَوِّقُهُ وَأُرَوِّيهِ، وَأُحَاوِلُ التَّشَبُّهَ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ فِيهِ.

أَعْتَقِدُ أَنَّ الشِّعْرَ مِنْ خِلالِ الجِلَّةِ، وَحِلْيَةِ النُّبَلاءِ العِلْيَةِ. وَاتَّفَقَ أَنِ اسْتَخْدَمْتُهُ شُؤُونِي، وَجَشَّمْتُهُ فِي بَعْضِ الأَمْكِنَةِ شُجُونِي، فألفَيْتُهُ خَفِيفاً، عَلَى الفُضَلاءِ لَطِيفاً، وَشَفِيعاً، عِنْدَ النُّبَلاءِ رَفِيعاً، فَتَرَقَّيْتُ فِي مَرْتَبَةِ خِدْمَتِهِ خَلاعَةً، وَتَرَقَّلْتُ فِي العِنَايَةِ بِهِ أَكْلَفُ بِهَا صِنَاعَةً:

عَرَفْتُ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْبِي فَارِغاً فَتَمَكَّنَا [١]

وَلَمَّا انْصَدَعَ لَيْلُ الشَّبَابِ عَنْ فَجْرِهِ، وَرَغِبَ المَشِيبُ بِنَا عَنْ هَجْرِهِ، نَزَلْتُ عَنْهُ مَرْكَباً، وَتَبَدَّلْتُ بِهِ مَذْهَباً، فَأَضْرَبْتُ عَنْهُ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ طَوِيلَةً، إِضْرَابَ رَاغِبٍ عَنْهُ، زَاهِدٍ فِيهِ، حَتَّى كَأَنِّي ما سَامَرْتُهُ جَلِيساً، يُشَافِهُنِي

١ – ينسب البيت إلى يزيد بن الطثريّة ومجنون ليلى وغيرهما، انظر: شعر يزيد بن الطثريّة : ١٠٩ ، ديوان مجنون ليلى : ٢٨٢ وتخريجهما للبيت .

أَنِيساً، وَلا سَايَرْتُهُ أَلِيفاً، يُفَاوِهُنِي لَطِيفاً، وَرُبَّمَا نَشَأَ ذِكْرُهُ أَثْنَاءَ كَلامٍ، وَدَارَ بِهِ مَقَالٌ فِي مَقَامِ فِعَالٍ، نَسْتَعْطِفُ إِمَّا مِنْ خَطْرَةٍ بِبَالٍ، أَوْ زَوْرَةِ لِمَامٍ، أَوْ كُرْهِ حَالٍ، أَوْ بَعْثَةِ سَلامٍ:

كَأَنَّـكَ لَمْ تَكُـنْ إِلفِـي وَخِلِّـي وَلَمْ أَقْطَعْ بِـكَ اللَّيْـلَ الطَّـوِيْلا[1]

وَلَمَّـا دَخَـلَ جَزِيـرَةَ أَنْـدَلُسَ - وَصَـلَ اللهُ حِمَايَتَهَـا وَكِفَايَتَهَـا - الأَمِـيرُ الأَجَلُّ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ[2]، ابْنُ أَمِيرِ المُسْلِمِين، وَنَاصَرِ الدِّين - أَنْهَضَهُ اللهُ بِمَـا قَلَّـدَهُ، وَمَكَّـنَ أَمْـرَهُ وَخَلَّـدَهُ ، وَأَعَـزَّ نَصْـرَهُ وَأَيَّـدَهُ ، وَبَسَـطَ بِطَاعَتِـهِ خُطْوَتَهُ وَيَدَهُ - تَعَيَّنَ أَنْ أَفِدَ عَلَيْهِ مُهَنِّياً بِالوِلايَةِ مُسَلِّماً، وَأَغْشَى بِسَاطَهُ الرَّفِيعَ مُوَفِّياً حَقَّ الطَّاعَةِ مُعَظِّماً، فَمَا لَبِثَ أَنْ رَفَعَ وَأَسْنَى، وَاصْطَنَعَ فَأَدْنَى، وَشَفَعَ المَبَرَّةَ فَأَثْنَى، وَأَقْبَلَ إِقْبَالَ رِعَايةٍ وَتَكْرِمَةٍ فشَرَّفَ، وَاشْتَمَلَ بِوَارِفِ ظِلِّهِ وَعَوَاطِفِ طَلِّهِ، فاكْتَنَفَ، فَارْتَهَنَنِي بِرُّهُ وَإِجْمَالُهُ، وَارْتَبَطَنِي بِشْرُهُ وَإِقْبَالُهُ، وَمَنِ اغْتَبَطَ ارْتَبَطَ،« وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا »[3] ، فَعَطَفْتُ هُنَالِكَ

---

١ - ورد البيت في المغرب في حلى المغرب : ١١٢/٢

٢ - هو الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (٥٢٨ هـ) حكم عدّة مدائن في الأندلس حتّى سمّاه ابن سعيد الأندلسي " ملك شرق الأندلس " .

المغرب في حلى المغرب : ٢٥٣/٢ . وسبقت الترجمة له في هذا الكتاب ص : ٥٥.

٣ - عجز بيت شهير للمتنبّي ، وصدره : وقيّدت نفسي في ذراك محبّة

ديوانه (شرح العكبري) :٢٩٢/١ .

عَلَى نَظْمِ القَوَافِي عِنَانِي، وَسَنَنْتُهَا عِنْدَ ذلِكَ حُلَلاً عَلَى مَعَاطِفِ سُلْطَانِي، مُصْطَنِعاً، لا مُنْتَجِعاً، وَمُسْتَمِيلاً، لا مُسْتَنِيلاً، اكْتِفَاءً بِمَا فِي يَدَيّ مِنْ عَطَايَا مَنَّانٍ، وَعَوَارِفِ جَوَادٍ وَهَّابٍ، خَلَقَ فأَبْدَعَ، وَرَزَقَ فَتَبَرَّعَ، ثُمَّ أَتْبَعَ الطَّوْلَ طِوَلاً، فَوَهَبَ سَائِلَهُ، وَتَقبَّلَ وَسَائِلَهُ. أَحْمَدُهُ بِمَا أَسْدَى، وَأَرْشَدَ وَهَدَى، وَحَسَّنَ مِنْ طَوِيَّةٍ وَسَرِيرَةٍ، وَنَوَّرَ مِنْ بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ، أُشَاهِدُ بِذلِكَ ظَاهِرَ قُدْرَتِهِ، وَأُدْرِكُ بِهذِهِ بَاطِنَ حِكْمَتِهِ – حَمْداً يَقْتَضِي الاسْتِزَادَةَ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَالاسْتِدَامَةَ لِرَحْمَتِهِ.

وَلَمَّا ارْتَقَتْ بِي السِّنُّ مُرْتَقَاهَا، وَشَارَفَتِ الحيَاةُ مُنْتَهَاهَا، وَتَوَالَتْ رَغْبَةُ الإِخْوَانِ فِيهِ تَتَجَدَّدُ، وحِرْصُ الأَعْيَانِ عَلَيْهِ يَتَأَكَّدُ، تَوَخَّيْتُ أَنْ أَقْصُرَهُ فِي مُجَلَّدٍ وَأَحْصُرَهُ، وَأَحْشُرَهُ جُمْلةً وَأَنْشُرَهُ. وَكَانَ قَدْ بَادَ، أَوْ كَادَ، لِدُثُورِ رِقَاعِ مُسْوَدَّاتِهِ، وَإِخْلاقِ حَوَاشِي تَعْلِيقَاتِهِ.

وَاقْتَضَى النَّظَرُ فِيمَا حَاوَلْتُهُ أَنْ أَتَعَهَّدَهُ ثَانِياً تَعَهُّدَ مُؤَلِّفٍ، وأَتَفَقَّدَهُ عَائِداً تَفَقُّدَ مُتَأَمِّلٍ مُثَقِّفٍ، فَمِنْهُ مَا تَعَهَّدْتُهُ فَقَيَّدْتُهُ، وَمِنْهُ مَا لَحَظْتُهُ فَلَفَظْتُهُ، وَمِنْهُ مَا تَصَفَّحْتُهُ فَأَصْلَحْتُهُ، إِمَّا لاسْتِفَادَةِ مَعْنىً، وَإِمَّا لاسْتِجَادةِ مَبْنىً. وَكَانَ قَدْ شَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَذَاعَ، فَمِنْ مُتَعَلِّقٍ بِنَفْسٍ، وَمِنْ مُعَلَّقٍ فِي طِرْسٍ. وَسَيَخْتَلِفُ وُجُودُهُ بِمَا عَاوَدْنَاهُ مِنْ مُفْتَقَدِهِ وَمُنْتَقَدِهِ، فَلا يُوجَدُ وَاحِداً، لا مِنْ طَرِيقِ صِيْغَتِهِ، وَلا مِنْ جِهَةِ عَدَدِهِ.

وَالشِّعْرُ، وَإنِ اهْتُبِلَ بِهِ وَاعْتُمِلَ فِيهِ، لَيْسَ يَخْلُو جَيِّدُه مِنْ سَقَطٍ، وَانْقِسَامٍ إلى طَرَفَيْنِ وَوَسَطٍ، فَإِنَّ الأَذْهَانَ بِأَخْرَةٍ تَكِلُّ، وَالمَوَادَّ مِنْ أَلفَاظٍ وَقَوَافٍ تَقِلُّ. وَأَيْضاً، فَكُلُّ مَا يَنْشَأُ مِنْ أَجْزَاءٍ مُؤْتَلِفَةٍ، فَإِنَّمَا يَتَرَكَّبُ مِنْ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ.

وَالشِّعْرُ يَأْتَلِفُ مِنْ مَعْنىً ولَفْظٍ وَعَرُوضٍ وَحَرْفِ رَوِيٍّ، فَقَدْ يَتَعَاصَى فِي بَعْضِ الأَمْكِنَةِ جُزْءٌ مِنْ هذِهِ الأَجْزَاءِ أَوْ أَكْثَرُ، فَطَوْراً يُنْظَمُ البَيْتُ وَآوِنَةً يُنْثَرُ، حَتَّى يَنْتَظِمَ بِحَسَبِ المَأْمُولِ، أوْ يَنْشَأَ نَاقِصَ مَاءِ الحُسْنِ وَالقَبُولِ:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا	كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ[1]

وَإنَّ مِنْ قَوْلِنَا مَا كُنَّا قَدِ افْتَتَحْنَاهُ بِمَنْثُورٍ، وَوَشَّحْنَاهُ بِفقَرٍ مُزْدَوَجَةٍ وَشُذُورٍ. وَهَا نَحْنُ قَدْ أَوْرَدْنَاهُ، كَمَا كُنَّا سَرَدْنَاهُ، وَنَقَلْنَاهُ، بِحَسَبِ مَا قُلْنَاهُ، تَعَلُّقاً بِحُرٍّ مِنَ النَّثْرِ يُسَاقُ خِلالَ النَّظْمِ، وَيَنْتَقِلُ مُطَالِعُهُ عَنْ قِسْمٍ مِنَ الكَلامِ إِلَى قِسْمٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ أَبْسَطُ لِلنَّفْسِ وَأَنْشَطُ، وَأَذْهَبُ مَعَ الأُنْسِ وَأَهْذَبُ. ومِنْهُ ما كانَ قَدِ انْتَظَمَ فِي عَصْرِ الشَّبِيبَةِ، وَبِطَرِيْقِ الدُّعَابَةِ وَالطِّيْبَةِ. وَلَمَّا لَمْ نُشِرْ فِي مَعْنَاهُ إلى نُكْرٍ، وَلَمْ نُلِمَّ فِي أَلفَاظِهِ بِهُجْرٍ، أَثْبَتْنَاهُ فِي بَابِ الفُكَاهَةِ وَالهَزْلِ، وَلَعَلَّ لَهُما مَوْقِعاً مِنْ نَفْسِ الفَتَى النَّدْبِ وَالسَّيِّدِ الجَزْل.

---

١ – البيت لبشّار بن برد ، ديوانه : ٤٥ .

وَإِنِّي اسْتَرْسَلْتُ فِي إِثْبَاتِ مَا صَدَرَ عَنِّي مِنْ ذَلِكَ فِي صَدْرِ عُمْرِي، وَمُبْتَدَأِ أَمْرِي، اسْتِرْسَالَ ثِقَةٍ بِإِغْضَاءِ أَهْلِ الفَضْلِ، وَحَمَلَةِ السِّيَادَةِ وَالنُّبْلِ، وَلَمْ أَحْتَفِلْ بِنَقْدِ أَقْوَامٍ، فِي مَسَالِيخِ أَنْعَامٍ، يُرَاؤُونَ النَّاسَ ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلّا قَلِيلاً﴾[1] وَلا يَعْلَمُونَ، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّهُ يُسْتَجَازُ فِي صِنَاعَةِ الشِّعْرِ، لا فِي صِنَاعَةِ النَّثْرِ، أَنْ يَقُولَ القَائِلُ فِيهِ «إِنِّي فَعَلْتُ» وَ«إِنِّي صَنَعْتُ»، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، فَإِنَّ الشِّعْرَ مَأْخَذٌ وَطَرِيقَةٌ، وَإِذَا كَانَ القَصْدُ فِيهِ التَّخْيِيلَ، فَلَيْسَ القَصْدُ فِيهِ الصِّدْقَ، وَلَا يُعَابُ فِيهِ الكَذِبُ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَهَذَا السَّرْدُ مِنَ الكَلَامِ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ أَهْلُهُ، وَمَنْ شَأْنُهُ عَقْدُهُ وَحَلُّهُ.

ثُمَّ إِنِّي أَعُودُ فَأَقُولُ: إِنْ نَسَأَ اللهُ فِي الأَجَلِ، وَفَسَحَ فِي المَهَلِ، انْتَظَمَ هَذَا الكِتَابُ فِي نَسَقِ القَوَافِي غَيْرَ هَذَا المُنْتَظَمِ، وَثَبَتَ عَلَى تَرْتِيبِ حُرُوفِ المُعْجَمِ.

وَإِنَّ جَمِيعَ الكَلَامِ- مِنْ مُرْتَجَلٍ بَدِيهِيٍّ، وَمُنَقَّحٍ حَوْلِيٍّ، مُتَقَدِّماً كَانَ سَابِقاً، أَوْ تَالِياً لاحِقاً - مُسْتَهْدَفٌ لِمَطْعَنِ طَاعِنٍ، إِمَّا بِوَجْهٍ صَحِيحٍ يُعْقَلُ وَيُقْبَلُ، وإِمَّا لِخُبْثِ سَرِيرَةٍ، وَضَعْفِ بَصِيرَةٍ، وَخُطْوَةٍ فِي الإِدْرَاكِ قَصِيرَةٍ. وَلِوُجُودِ هذَيْنِ القِسْمَيْنِ الأَخِيرَيْنِ، أَوْ وُجُودِ أَحَدِهِمَا فِي أَحَدِ أَهْلِ هَذَا العَصْرِ، بِذلِكَ المِصْرِ، مَا بَلَغَنَا أَنَّهُ لا يَرَى لأَحَدٍ مِنْ حَاكَةِ الشِّعْرِ فِي حَالٍ

---

١ - سورة النساء :١٤٢.

مِنْ أَحْوَالِهِ، وَقَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِ، إِلَّا أَنْ يَتَجَزَّلَ، مَدَحَ أَوْ تَغَزَّلَ، وجَدَّ أَوْ هَزَلَ، وَيَسْتَهْجِنُ فِي بَابِ الغَزَلِ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ الأَنِيقَةَ، وَيَسْتَبْرِدُ تِلْكَ الأَلفَاظَ المُرْهَفَةَ الرَّقِيقَةَ. وَلا نَعْلَمُ : هَلْ مَا يَنْعَاهُ، وَلَيْسَ يَرْضَاهُ، هُوَ فِي مِثْلِ مَا نُلِمُّ بِهِ مِنْ طَرِيقَةِ عَبْدِ المُحْسِنِ الصُّورِيِّ تَشَبُّهاً بِهِ، كَقَوْلِنَا:

يَا بَانَةً تَهْتَزُّ فَيْنانَةً ... وَرَوْضَةً تَنْفَحُ مِعْطَارا
للهِ أَعْطَافُكِ مِنْ خُوطَةٍ ... وَحَبَّذَا نَوْرُكِ نُوَّارا
عَلِقْتُ طَرْفاً فَاتِناً فَاتِراً ... فِيكِ وَغِرّاً مِنْكِ غَرَّارا
وَنَابِلاً مُسْتَوْطِناً بَابِلاً ... نَفَّاثَ لَحْظِ العَيْنِ سَحَّارا
إِذَا رَنَا يَجْرَحُنِي طَرْفُهُ ... لَحَظْتُهُ أَجْرَحُهُ ثَارا
فَيَصْبغُ الدُّرَّ عَقِيقاً بِهِ ... وَأَصْبغُ النُّوَّارَ أَزْهَارا
مَنْ يَلْقَ مِنْ لاعِجِ وَجْدٍ بِهِ ... رِيحاً فَقَدْ لاقَيْتُ إِعْصَارا
تَخْفِقُ أَحْشَائِي بِهَا دَوْحَةً ... وَتُنْثَرُ الأَدْمُعُ نُوَّارا
يُدِيرُ لِلأَعْيُنِ مِنْ وَجْهِهِ ... كَعْبَةَ حُسْنٍ حَيْثُمَا دَارا
فَلِي بِهِ عَيْنٌ مَجُوسِيَّةٌ ... تَعْبُدُ مِنْ وَجْنَتِهِ نَارا[1]

وكَقَوْلِنَا:

تَعَلَّقْتُهُ رَيَّانَ مِنْ خَمْرِ رِيقَةٍ ... لهُ رَشْفُهَا دُونِي وَلِي دُونَهُ السُّكْرُ
تَرَقْرَقُ مَاءً مُقْلَتَايَ وَوَجْهُهُ ... وَيُذْكَى عَلَى قَلْبِي وَوَجْنَتِهِ الجَمْرُ

---

١ – القطعة ٧٥ (ديوان ابن خفاجة): ١٢٥ – ١٢٦ .

فَلِـي وَلَـهُ مِـنْ حُسْـنِهِ وَمَـدَامِعِي عَلَى وَجْهِهِ رَوْضٌ وَفِي وَجْنَتِي نَهْرُ
وَلا عَجَبٌ أَنْ طابَ نَشْراً وَهذِهِ مَحَاسِـنُهُ فِي غُصْـنِ قَامَتِـه زَهْـرُ
أَرَقَّ نَسِــيبِي فِيــهِ رِقَّــةَ حُسْـنِهِ فَلَمْ أَدْرِ أَيُّ قَبْلَهَا مِنْهُمَا السِّحْرُ
وَطِبْنَـا مَعـاً ثغْـراً وَشِـعْراً كأَنَّمَـا لَـهُ مَنْطِقِـي ثَغْـرٌ وَلِي ثَغْـرُهُ شِعْرُ[1]

وَمِنْ ذَلِكَ:

يَـا نُزْهَـةَ الـنَّفْسِ يَـا مُنَاهَـا يَـا قُـرَّةَ العَـيْنِ يَـا كَرَاهـا
أَمَـا تَـرَى لِي رِضَـاكَ أَهْـلاً وَهــذِهِ حَــالتي تَرَاهــا
فَاسْـتَدْرِكِ الفَضْـلَ يَـا أَبَـاهُ فِي رَمَـقِ الـنَّفْسِ يَـا أَخَاهـا
قَسَـوْتَ قَلْبـاً وَلِنْـتَ عِطْفـاً وَعِفْـتَ مِـنْ تَمْـرَةٍ نَوَاهـا[2]

وَمَـنْ ذَلِـكَ قَوْلُنـا فِي غُـلامٍ قَـدْ بَقَـلَ عِـذَارُهُ، وَإِنْ كَـانَ مَقُـولاً بِطَرِيـقِ الفُكاهَةِ، وَالنَّادِرِ وَالدُّعَابَةِ، وَالشَّبَابُ يَوْمَئِذٍ بِرَيْعَانِهِ، وَسَوْرَةِ سُلْطَانِهِ:

أَيُّهَــا التَّائِــهُ مَهْــلا سَـاءَنِي أَنْ تِهْـتَ جَهْـلا
هَـلْ تَـرى فِيمَـا تَـرَى إِلَّا - شَــبَاباً قَــدْ تَــوَلَّى
وَغَرَامــاً قَــدْ تَسَــرَّى وَفُــؤَاداً قَــدْ تَسَــلَّى
أَيْــنَ دَمْــعٌ فِيـكَ يَجْـرِي أَيْــنَ جَنْــبٌ يَتَقَلَّــى
أَيْـنَ نَفْـسٌ بِـكَ تَهْـذِي وَضُــلُوعٌ فِيــكَ تَصْــلَى

---

١ - القطعة ٢٨٣ (ديوان ابن خفاجة): ٣٥٣ .

٢ - القطعة ١٧ (ديوان ابن خفاجة): ٦٧ — ٦٨ .

أَيُّ مُلْـــكٍ كَـــانَ لَـــوْلا عَـــــارِضٌ وَافَى فَــــــوَلَّى
وَتَخَلَّـــــى عَنْـــــكَ إِلَّا أَسَـــــفاً لا يَتَخَلَّـــــــى
وَانْطَــوَى الحُسْــنُ فَهَــلَّا أَجْمَــلَ الحُسْــنُ وَهَــلَّا[1]

أَمْ لَعَلَّ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَا نَحُومُ عَلَيْهِ، وَنَحِنُّ إِلَيْهِ، مِنْ مَسْلَكِ الـمُوسَوِيِّ الرَّضِيِّ، كَقَوْلِنَا مِنْ قَصِيدَةٍ:

أَلا لَيْـتَ أَنْفَـاسَ الرِّيَـاحِ النَّوَاسِـمِ يُحَيِّـينَ عَـنِّي الوَاضِـحَاتِ المبَاسِـمِ
وَيَلْثِمْنَ مَا بَيْنَ الكَثِيبِ إِلَى الحِمَى مَـوَاطِئَ أَخْفَـافِ الـمَطِيِّ الرَّوَاسِـمِ
وَيَــرْمِينَ أَكْنَـافَ العَقِيــقِ بِنَظْـرَةٍ تَــرَدَّدُ فِي تِلْـكَ الرُّبَـا وَالــمَعَالِمِ
فَمَا أَنْسَهُ لا أَنْسَ يَوْماً بِذِي النَّقَى أَطَلْنَا بِـهِ لِلْوَجْـدِ عَـضَّ الأَبَـاهِمِ[2]

أَمْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَا نَقْتَفِيهِ، مِنْ طَرِيقَةِ مِهيْارَ وَنَحْتَذِيهِ، كَقَوْلِنَا:

وَيَـا بَانَـةَ الـوَادِي بِمُنْعَـرَجِ اللِّـوَى أَتُصْغِي عَلَى شَحْطِ النَّوَى فَأَقُولُ
وَيَا نَفَحَاتِ الرِّيحِ مِنْ بَطْنِ لَعْلَعٍ أَلا جَـادَ مِـنْ ذَاكَ النَّسِيمِ بَخِيـلُ
وَيَـا خَـيْمَ نَجْـدٍ دُونَ نَجْـدٍ تِهَامَـةٌ وَنَجْــدٌ وَوَخْــدٌ لِلسُّــرَى وَذَمِيــلُ
وَيَــا رِيْمَ نَجْــدٍ وَالعَــوَادِي كَثِـيرَةٌ بِحُكْـمِ اللَّيَــالِي وَالوَفَــاءُ قَلِيــلُ
أَلا رَجَعَـتْ تِلْـكَ الشَّـمَالُ تَحِيَّـةً تَمَشَّــتْ بِهـا عَـنِّي إِلَيْـكَ قَبُـولُ
وَجَــاذَبَنِي رَيَّــا العَــرَارَةِ نَاسِــمٌ يُجَــاذِبُنِي فِيــكَ النُّحُــولَ عَلِيــلُ

---

١ – القطعة ٧٩ (ديوان ابن خفاجة): ١٢٩.

٢ – القطعة ١٩٩ (ديوان ابن خفاجة): ٢٥٨ .

وَهَلْ بَيْنَ هَاتِيكَ التِّلاعِ مُعَرَّسٌ وَفِي مُلْتَقَى تِلْكَ الظِّلالِ مَقِيلُ
وَهَلْ يَلْتَقِي عِنْدِي خَيَالُكَ لَيْلَةً وَرِيحٌ بِبَطْنِ الوَادِيَيْنِ بَلِيلُ[1]

أَمْ لَعَلَّ مَا يَنْعَاهُ وَيُنْكِرُهُ، إِنَّمَا هُوَ مَا نَحْنُ نَخْتَارُهُ وَنُؤْثِرُهُ، مِنْ ذِكْرِ التَّلَدُّدِ وَالتَّبَلُّدِ فِي الدِّيَارِ نُحَيِّيها، وَنَنْدُبُهَا تَارَةً وَنَبْكِيها، كَقَوْلِنَا:

وَتَلَدَّدَتْ نَحْوَ الحِمى بِي نَظْرَةٌ عُذْرِيَّةٌ ثَنَتِ العِنَانَ إِلَى الحِمَى
فَلَوَيْتُ أَعْنَاقَ المَطِيِّ مُعَرِّجاً وَنَزَلْتُ أَعْتَنِقُ الأَرَاكَ مُسَلِّما
فِي مَنْزِلٍ مَا أَوْطَأْتُهُ حَافِراً عُرْبُ الجِيَادِ وَلا المَطَايَا مَنْسِما
دَمَعَتْ بِهِ عَيْنُ الغَمَامِ صَبَابَةً وَلَرُبَّمَا طَرِبَ الجَوَادُ فَحَمْحَما
مَا أَذْكَرَتْنِي العَهْدَ فِيهِ أَيْكَةٌ إِلَّا بَكَيْتُ فَسَالَ وَادِيهَا دَمَا
وَسَجَعْتُ أَنْدُبُ لَوْعَةً وَلَرُبَّمَا صَدَحَ الحَمَامُ يُجِيبُنِي فَتَعَلَّمَا[2]

وَمِنْ ذَلِكَ المَنْزَعِ:

وَمَا شَاقَنِي إِلَّا حَفِيفُ أَرَاكَةٍ وَسَجْعُ حَمَامٍ بِالغَمِيمِ تَرَنَّمَا
أَطَفْتُ بِهَا أَشْكُو إِلَيْهَا وَتَشْتَكِي وَقَدْ تَرْجَمَ المُكَّاءُ عَنْهَا فَأَفْهَمَا
تَحِنُّ وَدَمْعُ الشَّوْقِ يَسْجُمُ وَالنَّدَى وَقَرَّ لِعَيْنِي أَنْ تَحِنَّ وَيَسْجُمَا
وَحَسْبُكَ مِنْ صَبٍّ بَكَى وَحَمَامَةٍ فَلَمْ تَدْرِ جَهْلاً أَيُّ الصَّبُّ مِنْهُمَا
وَلَمَّا تَرَاءَتْ لِي أَثَافِيُّ مَنْزِلٍ أَرَتْنِي مُحَيَّا ذَلِكَ الرَّبْعِ أَشْأَمَا

---

١ – القطعة ٢٣٣ (ديوان ابن خفاجة): ٢٩٣ – ٢٩٤ .

٢ – القطعة ٢٢٣ (ديوان ابن خفاجة): ٢٨٢ – ٢٨٣ .

تَـرَنَّحَ بِي لَـذْعٌ مِـنَ الشَّـوْقِ مُوجِـعٌ ... نَسِيتُ لَـهُ الصَّـبْرَ الجَمِيـلَ تَأَلُّـمَا
فَأَسْلَمْتُ قَلْباً بَاتَ يَهْفُو بِهِ الهَوَى ... وَقُلْتُ لِدَمْعِ العيْنِ شَأْنَكَ فَانْهَمَى
وَخَلَّيْـتُ جَفْـنِي وَالـدُّمُوعَ هُنَيْهَـةً ... فَأَفْصَـحَ سِـرٌّ مَـا فَغَـرْتُ بِـهِ فَمَـا
وَعُجْتُ المطَايَا حَيْثُ عَاجَ بِيَ الهَوى ... فَحَيَّيْتُ مَا بَيْنَ الكَثِيبِ إِلَى الحِمَى
وَقَبَّلْـتُ رَسْـمَ الـدَّارِ حُبّـاً لأَهْلِهَـا ... وَمَـنْ لَمْ يَجِـدْ إِلَّا صَـعِيداً تَيَمَّمَـا
فَحَنَّتْ رِكَابِي وَالهَوى يَبْعَثُ الهَوَى ... فَلَـمْ أَرَ فِي تَيْمَـاءَ إِلَّا مُتَيَّمَـا[1]

أَمْ ذَلِكَ فِيمَا يَشُوقُ، وَيَهُزُّ وَيَرُوقُ، مِنْ لَفِّ الغَزَلِ بِالحَمَاسَةِ، وَهِيَ مِنْ أَسَالِيبِ أَبِي الطَّيِّبِ، فَمِنْ قَوْلِنَا فِي ذَلِكَ:

وَرُبَّ لَيَـالٍ بِـالغَمِيمِ أَرِقْتُهَـا ... لِمَرْضَـى جُفُـونٍ بِـالفُراتِ نِيَـامِ
وَلَمْ أَدْرِ مَا أَشْجَى وَأَدْعَى إِلى الهَوَى ... أَخَفْقَـةُ بَـرْقٍ أَمْ غِنَـاءُ حَمَـامِ
إِذَا مَـا اسْـتَخَفَّتْنِي لَهَـا أَرْيَحِيَّـةٌ ... عَثَـرْتُ بِـذَيْلَيْ لَوْعَـةٍ وَظَـلامِ
وَخَضْخَضْتُ دُونَ الحَيِّ أَحْشَاءَ لَيْلَةٍ ... يُخَفِّرُنِـي فِيهَـا وَمِـيضُ غَمَـامِ
فَقَضَّـيْتُهَا مَـا بَـيْنَ رَشْـفَةِ لَوْعَـةٍ ... وَأَنَّـةِ شَـكْوَى وَاعْتِنَـاقِ غَـرَامِ
وَأَحْسَـنُ مَـا التَفَّـتْ عَلَيْـهِ دُجُنَّـةٌ ... عِنَاقُ حَبِيبٍ عَنْ عِنَاقِ حُسَامِ[2]

وَمِنْ ذَلِكَ البَابِ قَوْلُنَا:

وَسَحَبْتُ أَرْدَانَ الظَّلامِ عَلَى السُّرَى ... طُـولاً وَمَزَّقْـتُ الـذُّيُولَ عِثَـارَا

---

١ – القطعة ١٧٨ (ديوان ابن خفاجة): ٢٣٦ – ٢٣٧ .

٢ – القطعة ٧ (ديوان ابن خفاجة): ٥٢ .

وَوَطِئْتُ دُونَ الظَّبْيِ غَابَةَ ضَيْغَمٍ   غَيْـرَانَ أَنْجَـدَ فِي الوَعِيـدِ وَغَـارَا
فَصَمَمتُ عَنْهُ وَقَدْ سَمِعْتُ حَمَامَةً   فَاغْرَوْرَقَـتْ عَيْـنِي لَهَـا اسْـتِعْبَارَا
هَـزَّتْ بِهَـزِّي نَصْـلَ سَـيْفِي لَوْعَـةً   فَرَقَقْــتُ حَاشِـيَةً وَرَقَّ غِــرَارَا
وَمــلأْتُ جَفْــنِي عَبْــرَةً ولَرُبَّمَــا   أَبْكَيْتُــهُ فَجَــرَى دَمــاً مَــوَّارَا[١]

وَمِنْ ذَلِكَ:

يَغْشَى رِمَاحَ اللَّحْظِ أَوَّلَ مُقْبِلٍ   وَيَكُـرُّ يَـوْمَ الحَـرْبِ آخِـرَ مُـدْبِرِ
فَتَــرَاهُ بَــيْنَ جِـرَاحَتَيْنِ لِلَحْظَـةٍ   مَكْسُــورَةٍ وَلِعَامِــلٍ مُتَكَسِّــرِ[٢]

وَمِنْ ذَلِكَ:

وَإِنِّي لأَغْشَى مَوْقِفَ البيْنِ وَالوَغَى   فَتَنْدَى جُفُونِي عَبْرَةً وَيَدِي دَمَا
وَإِلَّا فَهـذَا جَيْـبُ صَـدْرِي مُمَزَّقـاً   بِكَفِّي وَهذَا صَدْرُ رُمْحِي مُحَطَّما[٣]

وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مَأْخَذٌ طَرِيفٌ، لَطِيفٌ، يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ النُّفُوسِ، وَيُطَرِّزُ حَوَاشِيَ الطُّرُوسِ،وَيَسِطُ بَيْنَ النَّدَامَى وَالكُؤُوسِ، وَيَلْعَبُ بِالأَحْلامِ وَيَرْقُصُ بِالرُّؤُوسِ.

وَبَعْدُ، فَلْنَقُلْ لِهذَا النَّاعِي عَلَيْنَا مَا ذَكَرْنَاهُ: جِئْنَا بِمَقْطُوعَيْنِ، أوْ ثَلاثَةٍ فِي هـذَا الأُسْلُوبِ السَّخِيفِ، وَاللَّفْظِ الـمُشْتَرَكِ الضَّعِيفِ، بِزَعْمِـكَ، فَإِنْ

١ – القطعة ٩٩ (ديوان ابن خفاجة): ١٤٣.
٢ – القطعة ٦ (ديوان ابن خفاجة): ٤٨ .
٣ – القطعة ١٣٠ (ديوان ابن خفاجة): ١٧٤ .

تَشَبَّهَ بِمَنْ ذَكَرْنَاهُن وَاسْتَقَلَّ بِمَا سِمْنَاهُ، ثُمَّ عَدَلَ عَنْهُ يَخْتَارُ مَا سِوَاهُ، عُدَّ مِمَّنِ انْفَرَدَ بِرَأْيٍ فَائِلٍ يَرَاهُ. وَلا مَحَالَةَ أَنَّ الشُّذُوذَ عَنِ الإجْمَاعِ، لَشُذُوذٌ فِي الطِّبَاعِ، أَوِ اسْتِيَلاءُ وَهْنٍ، قَدْ غَلَبَ عَلَى ذِهْنٍ. فَإِنْ كَانَ لَيْسَ مِمَّنْ يَرْكُضُ فِي ذَلِكَ المَيْدَانِ، وَلا يَجْرِي فِي هذا العِنَانِ، فَلْنَقُلْ لَهُ:

أَيُّهَا العَائِبُ سَلْمَى ... أَنْتَ عِنْدِي كثُعَالَهْ
رَامَ عُنْقُوداً فَلَمَّا ... أَبْصَرَ العُنْقُودَ طَالَهْ
قَالَ هذَا حَامِضٌ لَمْـ ... ـمَا رَأَى أَلَّا يَنَالَهْ[1]

وللهِ دَرُّ الوَزِيرِ الكَاتِبِ الأَجَلِّ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ المُرْخِي[2]، فَمَا أَحْسَنَ نَصَفَتَهُ، وَأَكْرَمَ فِي هذَا البَابِ صِفَتَهُ، لَقَدْ شَهِدْتُ لهُ فِي نَحْوٍ مِنْ هذَا مَقَاماً حَمَدْتُهُ، وَكَلاماً اسْتَجَدْتُهُ ، أَمْتَعَ اللهُ السِّيَادَةَ بِجَلالِهِ وَشَرَفِ خِلالِهِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَشِيمَةُ كُلِّ مَنْ كَمُلَ فِي ذَاتِهِ، وَنَبُلَ فِي أَدَوَاتِهِ، وَهَلْ يَغُضُّ وَيَتَنَقَّصُ، وَيَبْحَثُ عَنِ العَثَرَاتِ وَيَفْحَصُ، إِلَّا مُزْجَى البِضَاعَةِ، فِي تِلْكَ

---

١ – لم يشر محقّق ديوان ابن خفاجة إلى صاحب هذه القطعة ، ولكنّه جعلها في فهرس شعر ابن خفاجة على أنّها له . وهي ليست من شعر ابن خفاجة وسابقة لزمن وفاته (ت ٥٣٣هـ) ، فقد أوردها الثعالبي (ت ٤٢٩) في التمثيل والمحاضرة : ٣٥٨ ، وكذلك في جمهرة الأمثال : ٧٦ ، وانظر : مجمع الأمثال ٥٣/٢ ، المستقصى في الأمثال : ٢٣٥/١ ، محاضرات الأدباء : ٧٠٦/٤.

٢ – سبقت الترجمة له في هذا الكتاب ص :١٣٠ .

الصِّناعَة، مُتَخَلِّفٌ، فِي تِلْكَ البَابَةِ[1] مُتَكَلِّفٌ، مُسِفٌّ، فِي تِلْكَ المِهْنَةِ مُسَفْسِفٌ[2]، قَدْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِفُسُولِ[3] الفَهَمِ، وَسُفُولِ القَدَمِ، وَعَجَزَ عَنْ تَسَنُّمِ تِلْكَ الـمَرْقَبَةِ، وَإِحْرَازِ تِلْكَ الـمَنْقَبَةِ، فَهُوَ يَلْقُطُ، مَا لا يَسْقُطُ، بَيْنَ سُوءِ طَوِيَّةٍ وَاعْتِقَادٍ، وَتَأَخُّرٍ فِي بَابِ الانْتِقَادِ، وَرَجَاءَ تَسَاوِي الأَقْدَامِ فِي الـمَرَاتِبِ، وَمُطاوَلَةِ الرُّؤُوسِ بِالـمَنَاكِبِ، وَالنَّاسُ أَحَدُّ أَبْصَاراً، وَالحَقُّ أَعَزُّ أَنْصَاراً، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَ .

وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ لَغْوِ الكَلامِ، وَأَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِمَا يُحْظِي بِدَارِ السَّلامِ، وَأَخْتِمُ القَوْلَ بِتَجْدِيدِ شُكْرِهِ وَحَمْدِهِ، وَتَرْدِيدِ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ، وَعَلَى عِتْرَتِهِ الأَطْيَبِينَ، وَأُسْرَتِهِ الأَكْرَمِينَ، عَدَدَ مَا سَبَحَ فِي فَلَكٍ، وَ[4] سَبَّحَ مِنْ مَلَكٍ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٥-١٩. (وسأذكر أهمّ فروق الروايات للنصوص التي تكرّر ورودها في أكثر من مصدر، وأشير لما نقلته من فروق روايات مخطوطات الكتب التي ذكرت نصوصه بالرمز: *).

---

١ – في : ل :البانة *، والبابة : الغاية ، والخصلة .

٢ – المسفسف : الذي لا يحكم عمله .

٣ – الفسول : فَسُلَ فُسُولَةً : صار رذلاً لا مروءة له .

٤ – في : ل، ب : أو سبّح* .

[٢-٣]

فصل[١] في صفة متنزَّه:

وَلَمَّا أَكَبَّ[٢] الغَمَامُ إِكْبَاباً، لَمْ أَجِدْ[٣] مَعَهُ إِغْبَاباً، وَاتَّصَلَ المَطَرُ اتِّصَالاً، لَمْ أُلْفِ[٣] مَعَهُ انْفِصَالاً،[٤] أَذِنَ اللهُ- تَعَالَى- لِلصَّحْوِ أَنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ، وَيَنْشُرَ صَحِيفَتَهُ، فَقَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ، كَمَا طَوَى السِّجِلُّ الكِتَابَ[٥]، وَطَفِقَتِ السَّمَاءُ تَخْلَعُ جِلْبَابَهَا، وَالشَّمْسُ تَحُطُّ نِقَابَهَا، وَتَطَلَّعَتِ الدُّنْيَا تَبْتَهِجُ كَأَنَّهَا عَرُوْسٌ تَجَلَّتْ، وَقَدْ تَحَلَّتْ- ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ مِنْ الإِخْوَانِ[٦] نَسْتَبِقُ إِلَى الرَّاحَةِ رَكْضاً، وَنَطْوِي لِلتَّفَرُّجِ أَرْضاً، وَنَنْشُرُ أَرْضاً، فَلا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ، نَمِيرٍ، قَدِ اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةٍ سَمَاءٌ، سَحَائِبُهَا غَمَّاءُ[٧]، وَانْسَابَ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ حُبَابٌ[٨]، جِلْدَتُهُ[٩] حَبَابٌ[١٠].

فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ الأَبَاطِحِ، نَتَهَادَى تَهَادِيَ أَغْصَانِهَا، وَنَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا، وَلِلنَّسِيْمِ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ المَنْظَرِ الوَسِيْمِ، تَرَاسُلُ مَشْيٍ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ، فَإِذَا مَرَّ بِغَديرٍ نَسَجَهُ دِرْعاً، وَأَحْكَمَهُ صُنْعاً، وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَبَ مِنْهُ نَصْلاً، وَأَخْلَصَهُ صَقْلاً، فَلا تَرَى إِلَّا بِطَاحاً، مَمْلُوءَةً سِلاحاً، كَأَنَّمَا انْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ، فَأَلقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ.

وفي[11] فصل منها[12]:

فَاحْتَلَلْنَا قُبَّةً[13] خَضْرَاءَ، مَمْدُوْدَةَ أَشْطَانِ[14]، الأَغْصَانِ، سُنْدُسِيَّةَ رِوَاقِ، الأَوْرَاقِ. وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهَا[15] بِبَرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيْمٍ عَلِيْلٍ، وَنُجِيلُ النَّظَرَ[16] فِي نَهْرٍ صَقِيْلٍ[17]، صَافِي لُجَيْنِ الماءِ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ، مُؤْتَلِقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الأَحْبَابِ.

وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِي مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا، وَيُغَنِّي لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا، فَصِيحُ لِسَانِ النَقْرِ، يَشْفِي مِنَ الوَقْرِ[18]، كَأَنَّهُ كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، تَمْشِقُ[19] يُمْنَاهُ، وَتَعْقِدُ[20] يُسْرَاهُ:

يُحَرِّكُ حِيْنَ يَشْدُو سَاكِنَاتٍ وَيَبْتَعِثُ الطَّبَائِعَ لِلسُّكُونِ[21]

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/٥٤٣ — ٥٤٤

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ١/ ٥٣٦

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) (عن الذخيرة طبعة مصر): ٣١٧ – ٣١٨.

الشروح وفروق الروايات :

١- في نفح الطيب : "وما أحلى ما كتب به أبو إسحاق ابن خفاجة من رسالة في ذكر متنزّه" .

وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- أكبّ على الشيء : أقبل يعمله ولزمه.

٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : نجد...نلف .

٤- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ثمّ .

٥- من قوله تعالى :﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ سورة الأنبياء : ١٠٤ .

٦- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : إخواني .

٧- في الذخيرة : سحابيه غمّاء .

وسحاب غمّاء : ليس فيه فرجة .

٨- الحُباب : حيّة ليست من ذوات العرام .

٩- في النفح : جلده .

١٠- الحَباب : نفاخات الماء التي تعلوه .

١١- في النفح : ومن .

١٢- قال محقّق الذخيرة ؛ د. إحسان عبّاس :" بهذا العنوان تكون هذه الرسالة جزءاً من السابقة ، ولكنّ عنوانها في : ط، د، س : فصل في مثله *.

١٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : فيه .

١٤- الأشطان : جمع شطن ، وهو الحبل ، أو الحبل الطويل الشديد الفتل .

١٥- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : منه .

١٦- في النفح : الطرف .

١٧- في الذخيرة : [فسيح] .

١٨- الوقر : ثقل في الأذن ، أو ذهاب السمع كلّه .

١٩- مشق الخطَّ : مدّ حروفه وأسرع فيه . ومشق الوتر : مدّه ليلين .

٢٠- عقد الحاسب : حسب .

٢١- في النفح : تنبعث .

والبيت منسوب إلى أبي نواس في أخبار أبي نواس : ١٣٩

زهر الآداب :٦٦٤/٣ ، جمع الجواهر :٣١٨

وهو ليس في ديوانه.

[٣]

وفي فصل من أخرى[١]:

وَلَوْ أَنَّنِي شِئْتُ اسْتِدْرَارَ[٢] أَخْلافِ[٣] العَيْشِ، وَقَرَعْتُ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، لَكَدَدْتُ[٤] وَجَدَدْتُ[٥]، وَحَثَثْتُ[٦] الرَّكْضَ وَجَهَدْتُ، وَجُبْتُ السَّبَاسِبَ[٧] أَرْدِيَةً، وَخُضْتُ[٨] النَّوَائِبَ أَوْدِيَةً، وَرُعْتُ الكَوَاكِبَ أَنْدِيَةً، حَتَّى أُخَيِّمَ حَيْثُ السَّمَاءُ دَارٌ، وَالسِّمَاكُ[٩] جَارٌ، وَأَرْفُلُ حَيْثُ العِزَّةُ حُلَّةٌ، وَالثَّرْوَةُ حِلْيَةٌ.

وَلَكِنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ قَلْباً هِمَّتُهُ مَا هِمَّتُهُ، فَهُوَ يَرَى الصَّبْرَ أَيْمَنَ رَفِيقٍ يَصْحَبُهُ، وَالقَنَاعَةَ أَكْرَمَ ذَيْلٍ يَسْحَبُهُ.

وَعَلامَ يَبْتَذِلُ الوَجْهُ مَصُونَ مَائِهِ، وَيُلْقِي عَنْهُ قِنَاعَ حَيَائِهِ، وَإِنَّمَا الدُّنْيَا- وَبِئْسَ الطَّمَعُ- "سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيْبٍ[١٠] تَقَشَّعُ"[١١].

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٨

مسالك الأبصار :٩٣

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٢٩

الشروح وفروق الروايات :

١-في مسالك الأبصار : ومنه قوله، وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب من رقعة .

٢- في مسالك الأبصار : أستدرّ .

واستدرّ الحالبُ الناقةَ : مسح ضرعها بيده ليدرّ اللبن .

٣- الأخلاف : جمع خِلْف ، ضرع الناقة وأشباهها ، أو ما يقع عليه كفّ الحالب منه .

٤-كددت : سعيت واجتهدت .

٥-جددت : اجتهدت وحقّقت .

٦- حثّه : أعجله في اتّصال .

٧- السباسب : القفار والصحارى ، والأرض البعيدة المستوية .

٨- في مسالك الأبصار : لوجدت .

٩- السماك : نجم معروف .

١٠-في مسالك الأبصار : قليل .

١١- أي هي سريعة الزوال .

وهو عجز بيت شعر لابن شُبْرُمة ، وصدره :

أراها وإن كانت تُحبّ فإنّها

البيان والتبيين : ١٤٦/٣ مجمع الأمثال : ٣٤٤/١

[٤]

وفي فصل من أخرى :

مُحَـارُ[١] الفَـتَى شَـيْخُوْخَةٌ أَوْ مَنِيَّـةٌ وَمَرْجُوْعُ وَهَّاجِ الـمَصَابِيْحِ رِمْدِدُ[٢]

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ كَوْنٍ وَفَسَادٍ ، وَسُوْقُ نَفَاقٍ وَكَسَادٍ ، وَالعُمْرُ بِالإِنْسَانِ مُضْطَرِبٌ ، وَالمَرْءُ مَوْجٌ مَعَ الأَيَّامِ مُنْقَلِبٌ ، وَإِنَّ لِلشَّبِيْبَةِ صَبْوَةً ، وَلِلْحَدَاثَةِ هَفْوَةً ، وَقُصَارَى الطَّيْشِ رَكَانَةٌ[٣] وَوَقَارٌ ، وَأَوَّلُ قُرَّحِ الخَيْلِ المِهَارُ[٤] ، وَلَمْ أَرَ كَالشَّبَابِ مَطِيَّةً لِلْجَهْلِ ، وَلَا كَالـمَشِيْبِ فِطْنَةً لِلْعَقْلِ :

وَإِنَّ نَهَـارَ الـمَرْءِ أَهْـدَى لِرُشْـدِهِ وَلَكِـنَّ ظِـلَّ اللَّيْـلِ أَنْـدَى وَأَبْـرَدُ[٥]

فَإِنْ يَكُنِ الصِّبَا حِلْيَةً تَرُوْعُ[٦]، فَإِنَّ الكَبْرَةَ[٧] عُطْلَةٌ[٨] أَوْ إِمْرَةٌ[٩] تَرُوْقُ[١٠] :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّـا عَـلَاهُ قَـالَ لِلْبَاطِـلِ ابْعُـدِ[١١]

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٨

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- المحار : المرجع .

٢- الرمدد :الرماد المتناهي في الاحتراق .

والبيت لابن الرومي ، ديوانه :٥٨٧.

٣- الركانة : الرزانة .

٤- في الذخيرة : المعار .

وهو مثل: انظر المستقصى في الأمثال : ١/٤٤١

وهو في شعر المتنبي :

لعلّ بنيهم لبنيك جند   فأوّل قرّح الخيل المعار

ديوانه بشرح العكبري : ٢/ ١١٢

٥- البيت لابن الرومي ، ديوانه :٥٨٦.

٦- تروع : تعجب .

٧- الكبرة : التقدّم في السنّ .

٨- العُطلة : البقاء بلا عمل .

٩- الإمرة : الولاية .

١٠- تروق : تعجب .

١١- البيت لدريد بن الصمّة ، ديوانه :٦٩ .

[٥]

وقال نظماً ونثراً، يداعب غلاماً قد بَقَل عِذارُه[١] :

أَيُّهـــا التائِـــهُ[٢] مَهـــلا   ســاءَني أَن تِــهْتَ جَهــلا

هَـلْ تَـرى في مـا تَـرى إلّا   –   شَـــباباً قَـــد تَـــوَلّى

وَغَرامـــاً قَـــد تَسَـــرّى[٣]   وَفُـــؤاداً قَـــد تَسَـــلّى

أَيـــنَ دَمـــعٌ فيـــكَ يَجـــري   أَيـــنَ جَنـــبٌ يَتَقَلّـــى

أَيـنَ نَفـسٌ بِـكَ[٤] تَهـذِي   وَضُـلوعٌ فيـكَ تَصْـلَى[٥]

أَيُّ مُلْـكٍ[٦] كـانَ لَـولا   عـــارِضٌ وافى فَـــوَلّى

وَتَخَلّـــى[٧] عَنـــكَ إلّا   أَسَـــفاً لا يَتَخَلّـــى

وَانطَـوى الحُسـنُ فَهَـلّا   أَجمَـــلَ الحُســـنُ وَهَـــلّا

---

١ – بقل : طلع ونبت .

والعذار : استواء شعر الغلام ، وهو خطّ اللحية .

٢ – في : أ : السائل *.

٣ – تسرّى : نزع وأزيل .

٤ – في ب : فيك .

٥ – تصلى : تقاسي حرّ نارها .

٦ – في نفح الطيب : باك .

٧ – سقط البيت من الذخيرة .

أَمَّا بَعْدُ،

أيُّهَـا النَّبِيْـلُ النَّبِيْـهُ، فَإِنَّـهُ لا يَجْتَمِـعُ العِـذَارُ والتِّيْـهُ[1] ، كَـانَ ذَلِـكَ وَغُصْـنُ[2] الشَّـبِيبَةِ رَطْـبٌ، وَمَنْهَـلُ ذَلِـكَ الـمُقَبَّلِ عَـذْبٌ. وأمَّـا والعِـذَارُ قَـدْ بَقَـلَ، والزَّمَـانُ قَـدِ انْتَقَـلَ، والصَّـبُّ قَـدْ صَـحَا فَعَقَـلَ، فَقَـدْ رَكَـدَتْ رِيَـاحُ الأشْـوَاقِ، وَرَقَـدَتْ عُيُـونُ العُشَّـاقِ. فَـدَعْ عَنْـكَ مِـنْ نِظْـرَةِ التَّجَـنِّي، وَمِشْـيَةِ التَّثَـنِّي، وَغُـضَّ مِـنْ عِنَانِـكَ ، وَخُـذْ فِي تَرَضِّـي[3] إِخْوَانِـكَ، وَهَـشَّ عِنْـدَ اللِّقَـاءِ هَشَّـةَ أَرْيَحِيَّـةٍ[4] ، وَاقْنَـعْ بالإِيمَـاءِ رَجْـعَ تَحِيَّـةٍ، فَكَأَنِّي بِفِنَائِكَ مَهْجُوراً، وَبِزَائِرِكَ مَأْجُوراً . والسَّلام.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي) : ١٢٩- ١٣٠.

الذخيرة :٦٤٧/٢/٣

نفح الطيب :٤٦٠/٣

---

١ - التِّيْه : الكِبْر والصَّلَف .

٢ - في نفح الطيب : تلك الشبيبة .

٣ - في ب : تراضي * .

٤ - الأريحيّة : الهشّة للشيء والاتّساع والانبساط له .

[٦]

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي يصف شُهْدة، بعث بها إليه بعض أصدقائه: [المجتث]

للهِ رِيْقَـــــــــةُ[١] نَحْـــــــلٍ	رَعَـــى الرُّبـــا وَالشِّـــعَابَا
وَجَـــابَ أَرْضـــاً فَأَرْضـــاً	يَغْشَـــى مَصَـــاباً مَصَـــابَا
حَتَّى ارْتَـوَى مِـنْ سِـقَاءٍ[٢]	يَمُـــجُّ مِنْـــهُ رُضَـــابَا
إِنْ شِـئْتَ كَـانَ طَعَامـاً	أَوْ شِـئْتَ كَـانَ شَـرَابَا

وكتب مع هذه الأبيات نثراً ؛ جاء منه[٣] :

وَكَفَى النَّحْلَةَ فَضِيْلَةَ ذَاتٍ، وَجَلالَةَ صِفَاتٍ، أَنَّهَا أَوْحَى[٤] إِلَيْهَا، وَأَثْنَى الكِتَابُ[٥] عَلَيْهَا. تَعْلَمُ بِمَسَاقِطِ[٦] الأَنْدَاءِ، وَرَاءَ البَيْدَاءِ، فَتَقَعُ هُنَاكَ عَلَى نُـوَّارَةٍ [٧]عَبِقَـةٍ، وَبَهَـارَةٍ[٨] أَنِقَـةٍ، ثُمَّ تَصْـدُرُ عَنْهَـا بِمَـا تَطْبَعُـهُ شَـمْعَةً، وَتُبْدِعُـهُ صَنْعَةً [٩]، وَتَرْشِفُ مِنْهُما [١٠] مَا تَحْفَظُهُ رُضَاباً، وَتَلْفظُهُ شَرَاباً، وَتَتَجَافَى بَعْدُ مِنْهُ عَنْ أَكْرَمِ مُجْتَنَى، في[١١] أَحْكَمِ مُبْتَنَى.

التخريج :

مناهج الفكر ومباهج العبر : ٢/٢٣٠

نهاية الأرب في فنون الأدب : ١٠/ ٢٨٨ - ٢٨٩

ذيل الديوان (طبعة د.غازي): ٣٧٥ – ٣٧٦ [عن نهاية الأرب]

الشروح وفروق الروايات :

١- في مناهج الفكر : رفقة.

٢- في نهاية الأرب : شفاء .

٣- في نهاية الأرب : رسالة جاء منها .

٤- في نهاية الأرب : أُوحي إليها .

٥- في نهاية الأرب : وأثني في الكتاب عليها، وهي إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُوْنَ﴾ : سورة النَّحل :٦٨

٦- في نهاية الأرب : مساقط .

٧- النوّارة : الزهرة ، أو الزهرة البيضاء أو الصفراء ، جمعها : نُوّار ، وأنوار .

٨- البهارة : النرجس أو نوع منه ،

قال عبد الملك بن إدريس الجزيري :

أنا نرجس حقّاً بهرت عقولهم   ببديع تركيبي فقيل بهار

شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي : ١٢٧.

٩- في مناهج الفكر : يطبعه سمعه ويبدعه صنعه .

١٠- في نهاية الأرب : ترتشف منها .

١١- في نهاية الأرب : وأحكم .



ثانياً

النـثر الديوانـي

[١]

فصل :

هَا أَنْتُمْ – أيَّدَكُمُ اللهُ – قَدْ أَظَلَّتْكُمُ الدَّوْلَةُ المَيْمُونَةُ ، وَوَافَتْكُمُ الإِمْرَةُ المَأْمُوْنَةُ ، وَلَطَالَمَا وَرَدَتْنَا تَسِيْرُ بِهَا الرِّفَاقُ ، فَتَطَلّعتْ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ وامْتَدَّتِ الأَعْنَاقُ ، وَهَذِهِ كَتَائِبُ النَّصْرِ قَدْ طَلَعَتْ عَلَيْكُمْ بَشَائِرُ صَبَاحِهَا ، وَأَظَلَّتْكُمْ قَادِمَةُ جَنَاحِهَا ، وَإِنَّ مَنْ نَاصَبَهَا فَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ فِيْ صَدْرِهَا وَيُقَصِّرَ مِنْ تَطَاوُلِ عِنَانِهَا عَنْ شَانِهَا :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيَفْلِقَهَا	فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ[١]

هَيْهَاتَ تَوَخَّى مِنَ الفَلَكِ أَلَّا يَسْتَدِيْرَ، وَابْتَغَى مِنَ الشَّمْسِ أَلَّا تَسْتَنِيْرَ، وَاعْتَرَضَ فِي مَطْلَعِ اللَّيْلِ يَأْمُلُ أَلَّا يُظِلَّ ، وَنَصَبَ رَاحَتَهُ تِلْقَاءَ الفَجْرِ يُحَاوِلُ أَلَّا يُطِلَّ .

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٩

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- البيت للأعشى الكبير ، ديوانه : ١١١ .

[٢]

وله من كتاب جاوب به العدوَّ :

فَتَخَيَّلْ حَالَكَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِكَ تِلْكَ الأَجْنَادُ المُتَكَاثِفَةُ، وَالأَعْدَادُ المُتَرَادِفَةُ، بَحْرٌ مُتَلَاطِمٌ مَوْجُهُ، بَعِيْدٌ سَاحِلُهُ، يَرْتَمِيْ مِنْ رِعَالِهِ، وَكَرَادِيْسِ أَبْطَالِهِ، بِمَوْجٍ لُجِّيٍّ قَدْ نَثَلَتْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةُ الأَزْرَادِ ، بَدَلَ الأَزْبَادِ، فَيَغْشَاكَ مِنْهُ مَا يُعِيْدُ بَحْرَكَ وَشَلاً، وَعَزْمَكَ فَشَلاً، وَيُعِيْدُ بَأْسَكَ خَوراً، فَلَا تَزَالُ غَرِيْقَ تِلْكَ البِحَارِ، وَحَرِيْقَ تِلْكَ النَّارِ، وَلَوْ صَدَقَتْ فِي حَالٍ طَيْرُكَ لَأَنْبَأَتْكَ أَنَّ جَدَّكَ نابٍ، وَحَدَّكَ كَابٍ، وَأَنَّكَ عَمَّا قَرِيْبٍ قَدْ جُدِلْتَ فَفَلَلْتَ، وَأُسْلِمْتَ فَاصْطَلَمْتَ ، وَكَأَنِّيْ بِكَ فِي القَيْدِ، وَوَثَاقَ القَدِّ، قَدْ خُيِّرْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ : إِمَّا أَنْ تُسْلِمَ فَتَسْلَمَ، أَوْ تُشْرِكَ فَتَهْلَكَ، وَلَمْ يَكُنِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيَهْدِيْكَ سَبِيْلَ مَنْ تَابَ وَأَنَابَ[1]، فَيَجْمَعَ لَكَ بَيْنَ العَيْثِ فِي أُمَّتِهِ، وَالمُنْقَلَبِ إِلَى رَحْمَتِهِ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٩

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشرح :

١ – في القرآن الكريم :﴿وَاتَّبِعْ سَبِيْلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾:سورة لقمان:١٥.

[٣]

وفي فصل من أخرى:

إِنَّهُ تَأَكَّدَ بِإِلْحَاحِ العَدُوِّ عَلَى فُلَانَةَ[١] مَا لَمْ تَنْفَكَّ مَعَهُ مِنْ مُغَارِهِ، وَاصْطِلَاءِ نَارِهِ، مَعَ تَدَانِي دَارِهِ، وَاقْتِرَابِ جِوَارِهِ، فَمَا مِنْ غُدُوٍّ[٢]، إِلَّا وَمَعَهُ طُلُوْعُ عَدُوٍّ، وَمَا مِنْ رَوَاحٍ[٣]، إِلَّا وَمَعَهُ وُقُوْعُ اجْتِيَاحٍ، وَلَمَّا عَلِمَ اللَّعِيْنُ[٤] مِنْ أَخْلَاقِهَا مَا عَلِم ﴿ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾[٥] .

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٩ – ٥٦٠

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- فلانة : كناية عن اسم مدينة .

٢- الغدوة : ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

٣- الرواح : نقيض الغدوّ ، وهو وقت من زوال الشمس إلى الليل .

٤- لعلّ المقصود السيد القمبيطور الذي احتلّ بلنسية وأحرقها .

٥- سورة النجم : ٨-٩ .

[٤]

قال ابن عبد الغفور في فصل (المضارع) من السجع :

وهو كقولهم صرّ وصلّ من كلام أبي إسحاق ابن خفاجة :

" وكأنّكم بسيف النصر مضى فصلّ ، وبقلم الفتح كتب فصرّ ".

التخريج :

إحكام صنعة الكلام :٢٣٦

ولم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح :

١- صلّ السيف : سُمع له طنين عند القراع ، وصوت الحديد عليه.

٢- صرّ القلم : صوّت .



ثالثاً

النثر الإخواني

[١]

وكتب في هذا الأمر عن أهل البلد[١] إلى أمير المسلمين[٢] وناصر الدين، يشكره على ذلك، أيّده الله ونصره:

كِتَابُنَا هَذَا مِنَ الـمَسْجِدِ الجَامِعِ – عَمَّرَهُ اللهُ بِذِكْرَاهُ – وَقَدْ حَضَرَهُ[٣] الـمَلأُ – أَكْرَمَهُمُ[٤] اللهُ بِتَقوَاهُ– تَطَلُّعاً إلى مَا وَرَدَ بِهِ الكِتَابُ العَزِيزُ في جِهَةِ قَاضِي القُضَاةِ[٥] –وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَهُ– فَمِنْ أَسْمَاعٍ تُنْصَبُ وَتُؤَلِّلُ[٦]، وَمِنْ أَوْجُهٍ تَسْتَشْعِرُ المسَرَّةَ فَتُهَلِّلُ، فَمَا تُلُقِّيَ مُفْتَتَحاً بِمَا يَلْزَمُ مِنَ الإجْلالِ والاهْتِبَالِ[٧] ، حَتَّى قُفِّيَ مُخْتَتَماً بِمَا يَتَعَيَّنُ مِنَ الدُّعَاءِ والابْتِهَالِ. فَمَا شِئْتَ مِنْ بَاسِطٍ إلى اللهِ كَفَّهُ ، وَرَافِعٍ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، يَدْعُو لأَمِيْرِ الـمُسْلِمِينَ دُعَاءً مَوْصُولاً ، خَلِيقاً أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ مَقْبُولاً ، وَإِلَى الإجَابةِ مَنْسُوباً ، وَفِي عَمَلِ البِرِّ مَحْسُوباً.

---

١ – المقصود بلنسية .

٢ – هو أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين .

٣ – في ل : حضر * .

٤ – في ل : أيّدهم * .

٥ – هو القاضي ابن عصام ، انظر الصفحة : ١٤٧ من هذا الكتاب وما بعدها .

٦ – تؤلّل : تجتهد وتحافظ عليه .

٧ – الاهتبال : الاستعداد والاغتنام .

فالحَمْدُ للهِ عَلَى نُعْمَى شَمِلَتْ، وَرُحْمَى نَزَلَتْ، فَوَقَعَتْ وُقُوعَ القَطْرِ، وَطَلَعَتْ طُلُوْعَ هِلال الفِطْرِ، وَأَطْلَقَتِ الأَلْسِنَةَ بِثَنَاءٍ، لا تَعْثُرُ فِيهِ باسْتِثْنَاءٍ، فَهِيَ بَيْنَ إِعَادَةٍ لَهُ وَابْتِدَاءٍ، وَاشْتِمَالٍ[1] بِهِ وَارْتِدَاءٍ.

وَالرَّبُّ – عَزَّ وَجَلَّ[2]– يَذْخَرُ[3] لِأَمِيْرِ المُسْلِمِيْن، وَناصِرِ الدِّيْن، مَا سَدَّ مِنْ ثَلَمٍ[4]، وَطَبَّ مِنْ كَلَمٍ[5]، وَأَقَامَ مِنْ أَوَدٍ[6]، وَنَظَمَ مِنْ بَدَدٍ[7]، وَيَخْضِدُ[8] بِهِ شَوْكَةَ الأَعْدَاءِ، وَيَحْصِدُ، وَيَشْرَحُ صُدُورَ الأَوْلِياءِ، وَيَفْسَحُ، وَيَقْمَعُ عَبَدَةَ الأَصْنَامِ، وَيَرْدَعُ، بِقُدْرَتِهِ البَاهِرَةِ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ١٦٩–١٧٠.

---

١ – اشتمل بالثوب : أداره على جسده ،كلّه حتّى لا تخرج منه يده .

٢ – في ب ، ل : سبحانه *.

٣ – ذخر الشيء: خبّأه لوقت الحاجة وأبقاه .

٤ – الثلم : المكسور حرفه ، والثلمة : الموضع المكسور والمهدوم .

٥ – الكلم : الجراح .

٦ – الأود : الاعوجاج .

٧ – في ل : برد *.

والبدد : المفرّق .

٨ – في ب : تخضد* . وخضد الشوك : نزعه .

[٢]

وقال يمدح الأمير أَبَا إسْحَاقَ[١]، ابن أمير المسلمين، ويذكر محاصرته لحصن الـمُورِيلَّة في طروقه للثغر لظهور العدوّ به. وورد خلال ذلك عهد من أمير المسلمين – أيّده الله– بولاية أَبِي إسْحَاقَ كورة إشْبِيلِيَّة عوضاً من مُرْسِيَة. فقال، وكتب بها إليه:

أَرَأْيُكَ أَمْضَى أَمْ حُسَامُكَ أَقْطَعُ ... وَمَرْآكَ أَبْهَى أَمْ حَدِيثُكَ أَسْمَعُ

...[٢]

الأَمِيرُ الأَجَلُّ –أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ فِي[٣] مَرَاتِبِ السَّعَادَةِ ارْتِقَاءَهُ[٤]– خَلِيقٌ بِمَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ شَرَفِ المَحْتِدِ[٥]، وَكَرَمِ المَوْلِدِ، أَنْ تَتَطَلَّعَ إِلَيْهِ الأَقْطَارُ النَّائِيَةُ تَشَوُّقاً، وَتَتَنَافَسَ فِيهِ الأَمْصَارُ الدَّانِيَةُ تَعَشُّقاً. وَحِمْصُ[٦]، وَإِنْ كَانَتْ مِنَ البِلادِ الشَّرِيفَةِ قَدْراً ، وَالأَعْمَالِ النَّبِيهَةِ[٧] ذِكْراً ، فَإِنَّهَا لَتَنْزِلُ عَنْ مَكَانِهِ ،

---

١ – هو الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين .

٢ – سأقتصر على البيت الأوّل فقط في كلّ قطعة نثريّة مسبوقة بقصيدة شعريّة مطوّلة .

٣ – في ل : إلى*.

٤ – في ل : مرتقاه *.

٥ – في ل : المحمد *. والمحتد : الأصل .

٦ – حمص : إشبيليّة.

٧ – في ب : المنيفة ، وفي ل : المتتبعة *.

وَتَدِقُّ[1] فِي مِيزَانِهِ، وَتَخِفُّ مَعَ رُجْحَانِه، وَتَصْغُرُ عَنْ عِظَمِ سُلْطَانِهِ. فَحَقُّهَا أَنْ تَتَشَوَّفَ[2] إِلَى جَلالِهِ، وَتَتَشَرَّفَ بِخِلالِهِ، وَتَهْنَأَ بِمُلْكِهِ، وَتَتَهَيَّأَ لِمِلْكِهِ[3]. فَشَرَفُهَا بِهِ -وَصَلَ اللهُ تَأْيِيدَهُ- شَرَفُ الجُثْمَانِ بِالنَّفْسِ، وَالحَيَوَانِ بِالحسِّ. وَأَمَّا شَرَفُهُ – وَصَلَ اللهُ سَعَادَتَهُ، وَأَخْدَمَ الزَّمَانَ إِرَادَتَهُ – فَبِطَرِيفِ مَجْدِهِ وَتِلَادِهِ، لا بِاتِّسَاعِ كُوَرِهِ وَبِلادِهِ، كَمَا أَنَّ شَرَفَ السَّيْفِ بِمَضَاءِ حَدِّهِ وَلألاءِ فِرِنْدِهِ[4]، لا بِجَوْدَةِ حِلْيَتِهِ وَجِدَّةِ غِمْدِهِ. وَرُبَّ حَلْيٍ أَنْفَسُ مِنْهُ مُحَلَّاهُ، وَعِقْدٍ أَحْسَنُ مِنْهُ طُلاهُ. وَالرَّبُّ – عَزَّ وَجَلَّ- يَقْرِنُ التَّوْفِيقَ بِسُكُونِهِ وَحَرَكَتِهِ، وَيُنْهِضُنَا إِلَى تَشَكُّرِ[5] ما عَرَفْنَاهُ مِنْ يُمْنِهِ وَبَرَكَتِهِ، وَيَصِلُ مَا[6] أَوْلاهُ مِنْ ظُهُورِ جَدِّهِ، وَوُفُورِ[7] سَعْدِهِ، فَذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي) : ٩٠-٩١.

---

١ – في ل : ترق*.

٢ – في ل : تتشوّق*.

٣ – في ل : لمملكه*.

٤ – في ل : بفرنده*.

٥ – في ل ، ب : الشكر بما*.

٦ – في ل : بما*.

٧ – في ل ، ب : وفور*.

[٣]

وكان أبو بَكرِ بنُ الحَاجِّ– رحمه الله– جليلاً ، وكان بينه وبين ابنِ خَفَاجَةَ اتصال اقتضى مخاطبته خلال كونه خارج بَلَنْسِيَةَ، فقال: وكتب بها إليه ، عِند صرف أبِي مُحَمَّدِ بنِ فَاطِمَةَ عنها– رحمه الله– وولاية أبيه إيّاها:

لِـذِكْرِكَ مـا عَـبَّ الخَلـيجُ يُصَـفِّقُ وَبِاسمِكَ ما غَنّى الحَمامُ المُطَوَّقُ

...

[أَطَـالَ اللهُ –أَيُّهَـا السَّـيِّدُ الأَوْحَـدُ– بَقَـاءَكَ، كَمَـا وَصَـلَ عِزَّتَـكَ وَارْتِقَاءَكَ، وَأَسْمَى مَرَاتِبَكَ وَعُلاكَ[١]، كَمَا أَسْنَى مَنَاقِبَكَ وَحُلاكَ[٢]، وَأَخْلِقْ بِهَا مِنْ دَعْوَةٍ هَتَكَتْ حِجَابَ الظَّلْمَاءِ، وَقَرَعَتْ بَابَ السَّمَاءِ أَنْ تَثْبُتَ هُنَالِكَ مَعَ المَجَرَّةِ[٣] سَطْراً، وَتُكْتَبَ فِي دِيْوَانِ القَبُولِ صَدْراً، فَإِنَّهَا عَنْ[٤] قَلْبٍ كَرُمَ فِي مُشَايَعَتِكَ سِيرَةً[٥]، وَخَلُصَ فِي جِهَتِكَ عَقِيدَةً وَسَرِيرَةً، حَتَّى لَسْتُ أَدْرِي أَضَمِيرٌ، أَمْ مَاءٌ نَمِيْرٌ، وَهَلْ مِنْ مَحِيدٍ، عَنْ هَوَى أَرْوَعَ وَحِيدٍ؟،

---

١ – في خريدة القصر: أسنى مرتبتك وأعلاك .

٢ – في خريدة القصر: خلاك .

٣ – في خريدة القصر: التوحيد .

٤ – في خريدة القصر: من .

٥ – في خريدة القصر: سرّه .

أَرَى بِهِ الفَضْلَ قَدْ مَثَلَ صُورَةً، وَالنُّبْلَ قَدْ أُنْزِلَ سُوْرَةً[1]، وَالصُّبْحَ يَتَبَلَّج بَاسِماً، والرَّوْضَ يَتَأَرَّجُ[2] نَاسِماً .

فَهَنِيئاً لِتِلْكَ الدَّوْلَةِ المَيْمُونَةِ أَنَّكَ عَلَمُ[3] رِدَاءٍ، ذَلِكَ الرُّوَاءِ، وَوُسْطَى قِلادَةٍ، تِلْكَ السِّيَادَةِ. وَأَحْرِ بِمُلْكٍ خَلَعَ عَلَيْكَ نِجَادَهُ، وَأَوْطَأَ عَقْبَكَ أَمْجَادَهُ[4]، وَأَتْبَعَ رَأْيَكَ وَرَايَتَكَ أَنْجَادَهُ، أَنْ تَنْثَنِيَ[5] أَعْطَافُهُ عِزَّةً، وَتَحْتَمِيَ أَطْرَافُهُ نَجْدَةً، وَيَسْتَقِلَّ عَلَى قَدَمٍ بِهِ النَّصْرُ، وَيَبْتَسِمَ عَنْ ثَغْرٍ إِلَيْهِ الثَّغْرُ، وَيَطْلُعَ مِنْ تُجَاهِهِ الفَتْحُ؛ يَنْدَى جَبِينُهُ عَرَقاً، وَيَمِينُهُ عَلَقاً، وَقَدْ قَامَ عَلَى قَدٍّ مِنَ الرُّمْحِ رَطِيبٍ، وَسَفَرَ عَنْ خَدٍّ مِنَ السَّيْفِ خَضِيبٍ، وَخَفَقَ جَنَاحُ العَلَمِ سُرُوراً، وَنَطَقَ لِسَانُ القَلَمِ صَرِيراً. وَهُوَ- تعالى- يَنْقَعُ بِكَ ظَمَاءهُ، وَيَرْتَجِعُ بِيُمْنِكَ ذَمَاءهُ، لا حَوْلَ إِلَّا بِهِ، وَلَا طَوْلَ إِلَّا لَهُ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) :١٨٨-١٨٩ .

خريدة القصر :٥٥١/٣

---

١ - في خريدة القصر: صوره ...سوره .

٢ - في خريدة القصر: قد تبلّج...قدتأرّج .

٣ - في خريدة القصر: تلك السعادة .

٤ - في خريدة القصر: عقبيك أنجاده .

٥ - في خريدة القصر: إنجاده أن تسمو .

[٤]

وقال يستنجز ميعاداً تكرّر في جهته ، من الأمير أبِي إِسْحَاقَ، ابن أمير المسلمين- أيّده الله- يحمله في جميع شؤونه على الأفضل الأجمل، وكتب بها إليه بإِشْبِيْلِيَّة ، في شوَّال سنة أربع عشرة وخمسمئة:

أَلا تَلْعَـــةٌ مَطْلُولَـــةٌ وَقَبُـــولُ   فَيَنْـدَى صَبَاحٌ أَوْ يَـرِقَّ أَصِـيْلُ

...

الأَمِيْرُ الأَجَلُّ الأَوْحَدُ- أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَفَسَحَ للأَكَارِمِ أَعْطَانَهُ! [1] وَعَمَرَ بِاتِّسَاقِ السَّعَادَةِ وانْتِسَاقِ الإِرَادَةِ أَوْطَانَهُ- يَتَقَبَّلُ هَذِهِ الكَلِمَةَ عَلَى النَّأْيِ تَحِيَّةً، وَيَهُزُّ لَهَا مِنْ مَعَاطِفِ سُؤْدَدِهِ أَرْيَحِيَّةً.

وَهَا هِيَ تَتَلَهَّى بِالحِجَازِيَّةِ، أَوْ تَتَعَاطَى فَضْلَ مَزِيَّةٍ. وَقَدْ أَرْهَفْتُ فِي الغَزَلِ مِنْ حَوَاشِيهَا، حَتَّى خِفْتُ عَلَيْهَا مِنْ تَلاشِيْهَا، فَتَلافَيْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ بِأَوْصَافِ الجَزَالَةِ، وَألفَاظِ البَسَالَةِ وَالجَلالَةِ، تَلافِياً أَرْسَى قَوَاعِدَهَا، وَقَوَّى مَعَاقِدَهَا.

فَهَلْ تُرَاهَا تَخَيَّلَتْكَ، فَتَقَيَّلَتْكَ، فِيْمَا وُهِبْتَهُ مِنْ رِقَّةِ أَنْفَاسٍ، فِي شِدَّةِ بَاسٍ؟ فَهِيَ جَارِيَةٌ عَلَى مِقْيَاسٍ، وَبَانِيَةٌ عَلَى أَسَاسٍ فَاجْمَعْ إِلَى كَرَمِ ذَاتِهَا،

---

١ - الأعطان: مبارك الإبل ، ويقال : هو رحب العطن أي كثير المال ، وواسع الرحل ، رحب الذراع.

وَشَرَفِ صِفَاتِهَا، أَنْ تَجْعَلَ الـمُعَلَّى[1] مِنْ قِدَاحِهَا، وَتَرِيشَ بِالقَبُولِ فَضْلَ جَنَاحِهَا فَتَسِيرَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَتَطِيرَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَتُنْشَدَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتُوجَدَ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ. وَالرَّبُّ- تَعَالَى – يَنْهَضُ بِالـمُتْعَيَّنِ مِنْ خِدْمَتِكَ، وَيُضْفِي عَلَى الجَمِيْعِ سِتْرَ حُرْمَتِكَ، وَظِلَّ نِعْمَتِكَ، لا إِلَهَ سِوَاهُ.

وَمِثْلُ الأَمِيْرِ الأَجَلِّ- وَصَلَ اللهُ سَعْدَهُ- اعْتَقَدَنِي عَلَى نَأْيِ الدَّارِ أَحَدَ مَنِ انْتَظَمَ فِي جَمَاعِتِه، أَوِ اعْتَصَمَ بِهِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، فَحَمَلَنِي مَحْملَ هَذَا أَوْ ذَلِكَ، وَاشْتَمَلَ عَلَيَّ هُنَا مِنْ هُنَالِكَ. وَأَنَّى كَانَ، فَإِنَّهُ مِنْهُ إِجْمَالٌ، وَبِالدَّوْلَةِ السَّعِيْدَةِ جَمَالٌ، لَا زَالَتْ حَالِيَةً بِحُلَاهُ، رَائِقَةً بِمُجْتَلَاهُ، وَلَا بَرِحَتْ مَطَامِحُ آمَالِهِ بَعِيدَةً، وَمَطارِحُ أَعْمَالِهِ سَعِيدَةً، وَلَا مِصْرَ إِلَّا مَوْجُودٌ مِنْ أَمْصَارِهِ، وَلَا سَعْدَ إِلَّا مَعْدُودٌ فِي أَنْصَارِهِ، بِحَوْلِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، لا رَبَّ سِوَاهُ.

وَأُبْلِغُ التَّحِيَّةَ الزَّكِيَّةَ، حَضْرَتَهُ البَهِيَّةَ العَلِيَّةَ، لا زَالَتْ بِمَرْآهُ بَهِجَةً، وَبِرَيَّاهُ أَرِجَةً، بِمَشِيئَةِ اللهِ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٩٦-٢٩٧.

---

١ – المعلّى : سابع قداح الميسر ؛ له غنم سبعة أنصبة إن فاز ، وعليه غرم سبعة إن لم يفز.

[٥]

ولمّا ولي مُرْسِيَةَ – حماها الله [تعالى] [١] – الأمير الأجلّ، أَبُو الطَّاهِرِ تَمِيمٌ[٢] –أيّده الله[تعالى] [٣] – تعسّف في أمر الحريّة، وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة، فقال يشير إلى حال الثغر – تلافاه الله[به] [٤] – وإلى العدول به عن رسمه، وعن حمله فيما تقبّل باسمه، وكتب بها إليه. فأمر لذلك –أيّده الله– برعايته في جميع أعماله، وحمله على أتمّ البرّ فيما حقّ من أحواله:

عَدَلْتُ إِلَى الـمَدِيحِ عَنِ النَّسِيبِ   بِمِثْلِ عُلَاكَ مِنْ مَلِكٍ حَسِيبِ

...

الأَمِيْرُ الأَوْحَدُ، الأَمْجَدُ –أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَمَهَّدَ بِالسَّعَادَةِ أَعْطَانَهُ[٥]– يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ مُتَرَتِّبُونَ[٦] بَيْنَ عُلْوٍ وَسُفْلٍ، وَمُتَقَسِّمُونَ[٧] إِلَى نَبِيهٍ وَغُفْلٍ، وَأَنَّ

---

١ – زيادة من ل* .

٢ – هو الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين . وقد سبق أن ترجم له في الكتاب :٨٠.

٣ – زيادة من ل* .

٤ – زيادة من ل* .

٥ – في أ : أوطانه *.

٦ – في ل ، ب : مرتبون* .

٧ – في ل : منقسمون * .

لِكِلَيْهِمَا مَكَانَةً مِنَ السِّيَاسَةِ مَرْسُومَةً، وَمَرْتَبَةً مِنَ الرِّيَاسَةِ مَعْلُومَةً. عَلَى هذَا مَضَتِ الدُّوَلُ، وَانقَرَضَتِ القُرُونُ الأُوَلُ.

وَإِنِّي –وَالحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ لِكُلِّ مُنْعِمٍ غَمَرَ بِحُسْنَاهُ، وَبَسَطَ بِالفَضْلِ يُمْنَاهُ – مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ، مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُؤَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا. وَهَا أَنَا – وَقَدْ أَخْلَقَ[1] رِدَاءُ الشَّبَابِ، وَلَحِقَ بِالتُّرَابِ، أَكْثَرُ الأَتْرَابِ – أَلْيَقُ بِذَلِكَ المَأْخَذِ الكَرِيمِ، وَأَخْلَقُ بِوُجُودِ[2] بَرْدِ ذَاكَ[3] النَّسِيمِ، وَرَأْيُ الأَمِيرِ – أَيَّدَهُ اللهُ– أَجْمَلُ، وَبَاعُ طَوْلِهِ أَطْوَلُ. وَهُوَ بِشَرَفِ مَوْلِدِهِ، وَكَرَمِ مَحْتِدِهِ، يُنْعِمُ بِإِقْبَالِهِ، وَيَسِمُ بِإِجْمَالِهِ، وَيَكْتَنِفُ بِإِحْسَانِهِ، وَيُشْرِفُ بِسُلْطَانِهِ – لا زَالَ شَامِلاً بِالبِرِّ، مُشْتَمِلاً بِالنَّصْرِ[4]، سَعِيدَ الجَدِّ، حَمِيدَ القَصْدِ[5]، بِحَوْلِ اللهِ.

فما فرغ من قراءته، حتّى عهد بما هو أهله، أيّده الله.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي) : ٩٤–٩٥.

---

١ – أخلق الثوب : بلي ، وأخلق الشبابُ : ولّى .

٢ – في أ : لوجود* .

٣ – في ل ، ب : ذلك* .

٤ – في ب : بالنضر* .

٥ – في أ : العصر ، وفي ل ، ب : العضد * .

[٦]

وكتب إلى الأمير أبي بكر بن إبرَاهِيمَ ، رحمه الله:

أَوَجْهُــكَ بَسّــامٌ وَطَــرْفِيَ بــاكِ وَعَــدْلُكَ مَوْجــودٌ وَمِثلِــيَ شــاكِ
وَتَــأبى اهتِضــامي في جَنابِــكَ هِمَّــةٌ تَهُــزُّكَ هَــزَّ الــريحِ فَــرْعَ أَراكِ
وَقَــدْ نــالَ مِــنّي ظالِــمٌ لِيَ ذاعِــرٌ فَيــا هَبَّــةَ السَّــيْفِ الحُسَــامِ دَراكِ

عَدْلُ الأَمِيْرِ الأَجَلِّ -أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ بِالنَّجْمِ ارْتِقَاءَهُ- أَقْرَبُ دَرَكاً وَرَجَاءً، وَأَفْسَحُ أَكْنَافاً وَأَرْجَاءً، مِنْ أَنْ يَكُونَ أُفْقِي يُظْلِمُ، وَمِثْلِي فِي طَاعَتِهِ يُظْلَمُ. وَإِنِّي دُهِيتُ بِشيْطَانٍ لا يُغْنِي فِيْهِ أَنْ يُتَلَقَّى بِعَزِيمَةٍ، وَيُتَوَقَّى بِتَمِيْمَةٍ. وَقَدْ سَجَنهُ مِرَاراً بِسَبَبِي «فُلانٌ»- وَفَّقَهُ اللهُ- فَمَا كَفَّ ذَلِكَ مِنْ خَطْوِهِ، وَلا قَصَّرَ مِنْ شَأْوِهِ، وَلا غَضَّ مِنْ جِمَاحِهِ، وَلا قَصَّ مِنْ جَنَاحِهِ. وَلَنْ يَصِلَ بِحَوْلِ اللهِ إلى أَنْ أهِنَ، أَوْ أُمْتَهَنَ، وَهذِهِ رِيْحُ السُلْطَانِ تَهُبُّ، وَبَحْرُهُ يَعُبُّ، وَالحَقُّ مُفْتَقِرٌ إِلَى عَضُدِ أَمْرِهِ، وَشَدِّ أَزْرِهِ. فَإِنْ رَأَى -أَدامَ اللهُ مَا بِيَدِهِ- أَنْ يُوَقِّعَ إلى «فُلَانٍ» فِي أَنْ يُحْسِنَ عَوْنِي، وَيُجْريَ إلى صَوْنِي، فَعَلَ مُنَعَّماً. والرَّبُّ -جَلَّ وَعَزَّ- يُفْسِحُ لِلْفَضْلِ أَمَدَهُ، وَيَبْسُطُ بِالفَوَاضِلِ يَدَهُ، وَيَجْعَلُ خَيْرَ يَوْمَيْهِ غَدَهُ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ .

فوقّع – رحمه الله – بما هو أهلُه.

التخريج : الديوان (طبعة د.غازي) : ١٧٠-١٧١.

[٧]

ومن أخرى:

مِثْلُ الأَمِيْرِ – مِمَّنِ المَجْدُ مِنْ أَعْدَادِهِ، وَالبَأْسُ مِنْ أَجْنَادِهِ، وَالفَهْمُ مِنْ طَلَائِعِهِ، وَالحِلْمُ مِنْ طَبَائِعِهِ، وَالكَرَمُ مِنْ حُلَاهُ، وَالسُّؤْدُدُ مِنْ عُلَاهُ، وَالعَزْمُ مِنْ خَدَمِهِ، وَالحَزْمُ مِنْ شِيَمِهِ، وَالإِقْدَامُ وَالإِكْرَامُ وَالإِنْعَامُ مِنْ صِفَاتِهِ، وَالرِّيَاسَةُ وَالنَّفَاسَةُ وَالسِّيَاسَةُ مِنْ سِمَاتِه، وَالفَضْلُ مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَالشَّرَفُ مِنْ أَعْرَاقِهِ، وَالمَحَامِدُ مِنْ أَرْدِيَتِه، وَالنَّصْرُ مَعْقُوْدٌ بِأَلْوِيَتِهِ – جَدِيْرٌ أَنْ تَهُزَّ نَحْوَهُ الآمَالُ ذَوَائِبَهَا، وَحَقِيْقٌ أَنْ تُعْمِلَ إِلَيْهِ الآمَالُ رَكَائِبَهَا.

ولَمَّا أَقبَلْتَ – أيَّدَكَ اللهُ – كَمَا ابتَسَمَ الصَّارِمُ الذَّكَرُ ، وحَلَلْتَ كَمَا وافَى المَحْلَ المَطَرُ ، نَشَأَتْ لِي هِمَّةٌ بالكَوْنِ فِي جَنَابِكَ ، وتَحْتَ مُمْطِرِ سَحَابِكَ . وأَنَا أَرْغَبُ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَزِيْدَ أَوْضَاحِيَ امْتِدَاداً ، ويَقْدَحَ مِنْ تَنْبِيْهِي زِنَاداً، بِأَنْ يَخُصَّنِي بِصَكٍّ كَرِيْمٍ أُحْيِيْ بِهِ مَعَالِمَ شَرَفِي، وأُبَاهِي بِمَحَاسِنِهِ فَارِطَ سَلَفِي، وأَلْتَحِفُ مِنْهُ رِدَاءَ العَرُوْسِ، وأَشْتَمِلُ مِنْ تَنْوِيْهِهِ حُلَى الطَّاوُوْسِ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٦٠ – ٥٦١

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

[٨]

قالَ، وكتبَ بها إلى الأميرِ الأجلِّ أَبِي الطَّاهِرِ تَمِيْمِ ابْنِ أَميرِ المسلمين، وناصرِ الدين – أيّدَه الله، وعضدَه بتقواه – يمدحه، ويسأله مخاطبة القائد الأعلى أَبِي عَبْدِ الله مُحَمَّدِ بنِ عَائِشَةَ[١] – شفاه اللهُ – متشكّراً له على رعاية جانبه، وتسنّي أوطاره عنده ومآربه. كتب بها إليه بِتِلِمْسان – حرسها الله–:

أَمَا وَالتِفَاتِ الرَّوْضِ عَنْ زَرَقِ النَّهْرِ وَإِشْرَافِ جِيدِ الغُصْنِ فِي حِلْيَةِ الزَّهْرِ

...

وكتب إلى وزير الدولة بما نسخته:

يَا عِمَادِي الأَعْلَى، وَقِدْحِي الـمُعَلَّى نِدَاءً يَسْحَبُ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ رِدَاءً، وَيَطِيبُ إِعَادَةً فِيكَ وَإِبْدَاءً، وَيَمْلأُ سَامِعَتَي الغَوْرِ وَالنَّجْدِ، وَيَهُزُّ عِطْفَي السُّؤْدُدِ وَالـمَجْدِ، حَتَّى يَعوجَ عَلَيْهِ الكَرَمُ يُفَدِّيهِ، وَالقَلَمُ يُلَبِّيهِ، إِنِّي –كُلَّمَا لَمَعَ مِنْ تِلْقَائِكَ بَارِقٌ، أَوْ طَلَعَ فِي رُوَائِكَ شَارِقٌ، أَوْ تَرَقَّتْ بِمَكَارِمِكَ غَمَامَةٌ، أَوْ نَطَقَتْ بِمَحَاسِنِكَ حَمَامَةٌ، أَوْ تَنَفَّسَتْ عَنْ نَفَحَاتِ أَخْلاقِكَ، وَكَرَمِ آدَابِكَ وأَعْرَاقِك، رَيْحَانَةٌ وَأَصِيلٌ، وَرِيحٌ بَلِيلٌ – لأَرَاكَ، بِمَا احْتَمَلْتُهُ مِنْ

---

١ – سبق أن ترجم له في الكتاب : ٨٠.

حُلاكَ، أَوِ انْتَحَلْتُهُ مِنْ عُلاكَ، فَمَا أَدْرِي - وَقَدْ طَرِبْتُ - أَأَرْتَاحُ، أَمْ غُصْنٌ بِي يُـرَاحُ، فَـلا اقْـتِرَاحَ عَلَـى الـدَّهْرِ إِلَّا بِالفُسْـحَةِ فِي بُقْيَـاك، وَالـمَسْحَةِ مِـنْ رُعْيَاكَ، وَاللَّمْحَةِ مِنْ لُقْيَاكَ، وَاللُّمْعَةِ مِنْ سُقْيَاكَ.

[وَكَيـفَ؟[1] وَأَيْنَ بِذَلِكَ الـمُتَمَنَّى؟ وَدُونَـكَ كُـلُّ عَلَـمٍ بَاذِخٍ مَـجَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رُضَابَهُ، وَصَافَحَتِ النُّجُومُ هِضَابَهُ، قَدْ طَمَحَ[2] بِطَرْفِهِ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَسَالَ الوَقَارُ عَلَى عِطْفِهِ، فَهُوَ يَعْبِسُ، وَلا يَنْبِسُ، كَأَنَّمَا أَطْرَقَ بِهِ اعْتِبَارٌ، أَوِ احْتَبَى مِنْهُ[3] جَبَّارٌ، قَدْ لاثَ مِنْ غَمَامَةٍ،عِمَامَةً، وَأَرْسَلَ مِنْ رَبَابَةٍ، ذُؤَابَةً، تُطَرِّزُهَا البُرُوقُ الخَواطِفُ، وَتَهْفُو بِهَا الرِّيَاحُ العَوَاصِفُ، بِحَيْثُ مَدَّتِ البَسِيطةُ بِسَـاطاً، وَضَـرَبَتِ السَّـماءُ فُسْـطَاطاً]، وَخَـلا الجـنُّ يَعْزِفُ، وَالحَمَـامُ يَهْتِـفُ، وَأَطْرَقَ الذِّئْبُ يَنْصُبُ سَامِعَتَيْهِ، وَيَنْفُضُ الرَّوْعُ جَانِحَتَيْهِ، يَخْشَى، حَتَّى مِنَ اللَّيْلِ يَغْشَى، وَيتَوَجَّسُ، حَتَّى مِنَ الصُّبْحِ يَتَنَفَّسُ، فَمَا يُحِيطُ مِنْ جَفْنٍ عَلَى مُقلَةٍ، فَيُطْفِئُ بِهَا مِنْ شُعْلَةٍ، حَتَّى يُذْكِيَ نَظْرَةً، يَشُبُّ بِهَا جَمْرَةً، فَرِقاً بِأَرْضٍ لا تُعْبَرُ، فَتَرْفَعَ بِهَا مِنْ نَغَمِهَا الحُداةُ، وَلا تُعْمَرُ، فَتَرْتَعَ فِيهَا بِنَعَمِهَا البُدَاةُ ، فَهِيَ خَلاءٌ، قَوَاءٌ، لا ضَالَّةَ بِهَا تُنْشَدُ، وَلا صُعْلُوكَ فِيهَا يُنْشِدُ:

---

١ - في خريدة القصر : وكيف لي بقربك .

٢ - في خريدة القصر : نأى .

٣ - في خريدة القصر : واجتنى منها .

تَعَـالَ فـإِنْ عَاهَـدْتَنِي لا تَخُـونَنِي   نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ[1]

حَتَّى إِذَا طَوَى كَشْحَهُ الطَّوَى، وَتَلَوَّى يَتضَوَّرُ بِاللِّوَى، وَنَضَحَ فَرْوَتَهُ النَّدَى، وَخَصِرَ بِمَهَبِّ الصَّبَا، تَلَفَّعَ فِي شَمْلَةِ الدُّجَى، وَفَرَعَ أَسْنِمَةَ الرُّبَا، يَسْأَلُ أَنْفَاسَ الشَّمَائِلِ وَالجَنَائِبِ، عنْ مُنَاخِ الرَّكْبِ وَرَذَايَا الرَّكَائِبِ، فَأَقْعَى لا يكْتَحِلُ بِهُجُوعٍ، وَعَوَى يَسْتَطْعِمُ مِنْ جُوعٍ، بِحَيْثُ تطَامَنَتِ الوِهَادُ تَهَيُّباً، وَأَشْرَفَتِ النِّجَادُ تَرَقُّباً ، وَهَفَتِ الغَيْضَةُ وَالأَجَمَةُ خَوَراً، وَتلبَّبَتِ القَتَادَةُ وَالسَّلَمَةُ حَذَراً، وَحَسْبُكَ مِنَ انْفِسَاحٍ، فِي انْتِزَاحٍ، أَنْ تَضِلَّ القَطَا فِي سَاحَتِهِ، وَتَكِلَّ الرِّيحُ دُونَ مِسَاحَتِهِ،[فَلا حَظَّ مِنْكَ إِلَّا ذِكْرٌ يَجْرِي، وَطَيْفٌ يَسْرِي، وَعَسَى، أَنْ يَلِينَ مِنْ جَانِبِ الدَّهْرِ مَا عَسَا، فَيَجْذِبَ بِضَبْعِي جَاذِبٌ مِنْ سَنَائِكَ، إلى سَمَائِكَ، حَتَّى أَرْتَقِي، إِلَى حَيْثُ نَلْتَقِي[2] ، وَالمَجَرَّةُ مِنْ مَجَرِّ أَذْيَالِكَ، وَمَوَاطِئِ نِعَالِكَ]، وَالسِّمَاكُ مِنْ مَرَاقِي أَحْوَالِكَ، وَمَرَامي آمَالِكَ، بِمَشِيئَةِ اللهِ.

وَبَعْدُ، فَمِثْلُكَ مِمَّنِ اضْطَرَمَتْ لَهُ صُدُورُ السَّادَةِ، بِنَارِ الحَسَادَةِ، وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ أَيْدِي القَادَةِ، بِفَضْلِ المَقَادَةِ - حَفِظَ الصَّدِيقَ فِي أَمَانَتِهِ، وَخَدَمَهُ فِي لُبَانَتِهِ، وَوَطَّأَ لَهُ فِي أَعْطَانِ، ذَلِكَ السُّلْطَانِ، تَوْطِئَةً يَسْتَقِلُّ لَهَا الغَبْرَاءَ مِهَاداً،

---

١ - البيت للفرزدق ، شرح ديوانه : ٢/٥٩٠ .

٢ - في خريدة القصر : السها .

وَالجَوْزَاءَ وِسَاداً، وَشَرْحُ هَذِهِ الجُمْلَةِ الَّتِي سَطَّرْتُهَا وَصَدَّرْتُ بِهَا، أَنِّي أَصْحَبْتُ خِطَابِيَ هَذَا كَلِمَةً فِي الأَمِيرِ الأَجَلِّ أَبِي الطَّاهِرِ - أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَعَمَّرَ بِالعَدْلِ أَوْطَانَهُ – [قَدْ كُنْتُ صُغْتُهَا[١] فيهِ مُنْذُ الزَّمَانِ الأَطْوَلِ، فَأَفْرَغْتُهَا[٢] إِبْرِيزاً، وَفَرَغْتُ مِنْهَا تَطْرِيزاً، ثُمَّ أَنْسَأْتُ، مَا أَنْشَأْتُ، لِعِلَلٍ شَغَبَتْ، وَشَغَلَتْ، غَيْرَ أَنَّ إِرْجَاءَهَا، لَا يَقْطَعُ رَجَاءَهَا، وَإِمْهَالَهَا، لا يُوجِبُ إِهْمَالَهَا.

وَقَدِ اسْتَنَبْتُ[٣] مَجْدَكَ فِي جَلائِهَا، وَاسْتَنْهَضْتُ سَرْوَكَ لِزِفَافِهَا وَإِهْدَائِهَا[٤] ، عِلْماً أَنَّ مَا أُوتِيتَهُ فِي البَلاغَةِ مِنَ امْتِدَادِ عِنَانٍ، وَانْفِسَاحِ مَيْدَانٍ، يُطْلِعُهَا هُنَالِكَ فِي مُلَحٍ مِنَ البرَاعَةِ تَتْرَى، وَيُبْرِزُهَا فِي صُوَرٍ مِنَ المَلاحَةِ شَتَّى[٥] ، فَلا تُنْشَرُ[٦] بِهَا حُلَّةٌ حَتَّى تُجْلَى عَرُوسٌ، وَلا يُسْمَعُ مِنْهَا بُلْبُلٌ حَتَّى يُجْتَلَى طَاوُوسٌ، فَصَاحَةً، تَخْطُبُ بِالدُّرِّ مَلاحَةً، وَبَيَاناً، يُشَافِهُ بِالسِّحْرِ عَيَاناً، كُلَّمَا ضَرَبَ لِشَيْءٍ مِثَالاً، وَنَصَبَ لَهُ خَيَالاً. وَمَعْذِرَةً

---

١ – في خريدة القصر : صنعتها .

٢ – في خريدة القصر : فأفرعتها وفرغت منها .

٣ – في خريدة القصر : استثبتّ ، وفي الديوان : اسْتَنْبَتُّ.

٤ – في خريدة القصر : هدائها .

٥ – في خريدة القصر : ترى .

٦ – في خريدة القصر : فلا تنشرها .

فِي[1] العَجْزِ عَنْ إِنْصَافِ، تِلْكَ الأَوْصَافِ،] فَمَا فِي مُنَّةِ اللَّسَنِ، وَجَوْدَةِ الطَّبْعِ الحَسَنِ، أَنْ يَصُوغَا لِصُدُورِ تِلْكَ المَحَاسِنِ العلِيَّةِ، مَا تَسْتَوْجِبُهُ مِنَ الحِلْيَةِ، وَلَوْ أَنَّهُ بَرَزَ فِي لَفْظٍ رِوَاقٍ دِفَاقٍ، بِمَاءِ الحُسْنِ رَقْرَاقٍ، وَتَشَبَّهَ بِنَصْلِ السَّيْفِ رِقَّةَ مَاءٍ، وَهبَّةَ مَضَاءٍ. وَحَسْبُكَ مِنْ طَلاقَةٍ، فِي ذَلاقَةٍ، وَلُدُونَةٍ، فِي خُشُونَةٍ، تَسْتَنْزِلُ بِهذِهِ الأَرْوَى، وَتُزَلْزِلُ بِتِلْكَ رَضْوَى.

[وَأَمّا وَالبَحْرُ لِكَرَمِكَ ، وَالسِّحْرُ لِقَلَمِكَ[2] ، إِنَّهُ لَيَقِلُّ[3] لَهُ مِنْ قَلَمٍ ، عَلَمٍ، مَشْهُورٍ بِالسِّيَاسَةِ، وَخِدْمَةِ الرِّيَاسَةِ، بَيْنَ اكْتِسَابٍ، وَانْتِسَابٍ[4] ،

وَرِثَ السِّيَادَةَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ كَالرُّمْحِ أُنْبُوباً عَلَى أُنْبُوبِ][5]

أَنْ يَمْلِكَ أَعِنَّةَ الأَهْوَاءِ ، وَيَذْهَبَ كَيْفَ شَاءَ بِالآرَاءِ ، فَيَسْتَمِيلَ القَصِيّ

---

١ – في خريدة القصر : ميدان العجز .

٢ – في خريدة القصر : من كرمك ...من قلمك .

٣ – في أصول خريدة القصر : ليقلّ وقد غيّرها محقّقو الكتاب إلى "لينقل" ، وهو وهم جليّ .

٤ – في خريدة القصر : من انتساب واكتساب .

٥ – البيت للبحتري ، ديوانه : ٢٤٧/١، وروايته فيه :

شرف تتابع كابراً عن كابر

والعجز في خريدة القصر : موصولة الأسناد بالإسناد

وَيَسْتَلِينَ العَصِيَّ، فَإِنَّهُ مَا اسْتَفْتَحَ الكَلامَ بِيُمْنِكَ، وَقَدْ تَرَقَّى مِنبَرَ يُمْنَاكَ، إِلَّا أَفْصَحَ عَنْ خَطِيبٍ أَيَّادٍ، لَمْ يَخْطُبْ مِثْلُهُ بِإِيَادَ، وَسَارَ مَعَ التَّوْفِيقِ، سَيْرَ الرَّفِيقِ، يَمْشُقُ كَاتِباً، وَيَرْشُقُ صَائِباً، مَا هَدَرَ، فَهَذَرَ، وَلا خَطَبَ، فَحَطَبَ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَاناً، أُوتِيهِ لِسَاناً، ثُمَّ اسْتَعْتَبَ الزَّمَانَ، لَلَانَ، أَوِ اسْتَرْجَعَ الشَّبَابَ، لآبَ، أَوِ اسْتَنْبَعَ الحَجَرَ، لانْفَجَر.

[لا زِلْتَ تُخَيِّمُ[1] مِنْ كَنَفِ، ذَلِكَ الشَّرَفِ، وَسَمَاءِ، ذَلِكَ السَّنَاءِ، بِحَيْثُ تُطِيفُ النِّعَمُ بِكَ نُجُوماً، وَتَنْقَضُّ النِّقَمُ دُونَكَ رُجوماً]، وَتَنْكَسِفُ الشَّمْسُ إِزَاءَكَ وُجُوماً، وَالأَقْضِيَةُ تُظَاهِرُ أَوَامِرَكَ، وَالأَثْنِيَةُ تُضَافِرُ مَحَامِرَكَ، بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى.

وَاقْرَأْ عَلَى عِمَادِي الأَعْلَى[2] سَلاماً عَمِيماً، تَقَسَّمَ رَوْضَةً وَنَسِيماً، فَرَفَّ نَضْرَةً وَعَبَقَ شَمِيماً. وَالأَوْفَى، الأَحْفَى، عَلَيْكَ مِنْهُ مَعَاداً، مَا سَبَّحَ السَّحَابُ إِرْعَاداً، وَأَبْرَقَ الغَمَامُ وَعْداً وَالحُسَامُ إِيعَاداً، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٧-٣٢.

خريدة القصر : ٣/٥٥١ (الأجزاء التي بين الأقواس فحسب) .

---

١ - في خريدة القصر : تحتلي .

٢ - المقصود الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين .

[٩]

وقال يرثي جملة من الإخوان الأعيان، تلاحقوا في أقصر مدّة من الزمان، ويندب ريعان الشباب، ومعاهد أولئك الأتراب الأحباب، ويمدح أبا العَلاءِ ابنَ زُهْر– أعزّه الله– وكتب بها إليه، منتصف محرّم سنة أربع عشرة وخمسمئة:

كَفانِيَ شَكوى أَن أَرى الـمَجْدَ شاكِيا   وَحَسْبُ الرَّزايا أَن تَرانِيَ باكِيا

...

الوَزِيْرُ الأَعْلَى –أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ فِي مَرَاتِبِ السِّيَادَةِ وَالسَّعَادَةِ ارْتِقَاءَهُ، وَيَسَّرَ عَلَى أَغْبَطِ الأَحْوَالِ وَأَبْسَطِ الآمَالِ لِقَاءَهُ،– مَرْمُوقُ صُوْرَةِ الفَضْلِ، مَوْمُوْقُ سِيْرَةِ النُّبْلِ.

فَإِنْ طَالَعْنَاهُ بِمَا يَتَعَيَّنُ مِنْ بِرِّهِ، فَلِذَاتِ جَلالِهِ، أَوْ نَلْقَاهُ بِمَعْهُوْدِ بِشْرِهِ، فَلِشَرَفِ مَحْتِدِهِ وَخِلالِهِ. وَاللهُ – تَعَالَى– يُفْسِحُ فِي أَمَدِهِ، كَمَا رَفَعَ فِي المَكَارِمِ مِنْ عَمَدِهِ، بِمَنِّهِ.

وَإِنِّي كَتَبْتُهُ عَنْ نَصَبٍ يَتَّصِلُ، وَتَعَبٍ لَا يَنْفَصِلُ، بِمَا اتَّفَقَ فِي هَذِهِ الجِهَةِ مِنْ تَثَاقُلِ الأَعْمَالِ، بِتَدَاوُلِ العُمَّالِ، فَمَا تَتَمَهَّدُ مِنْ حَالَةٍ حَتَّى تَتَهَدَّمَ، وَلا تُوْجَدُ بِهَا مِنْ رَاحَةٍ حَتَّى تُعْدَمَ.

وَمَنْ عَهِدَ الـمَطِيَّ الوَطِيَّ، وَأَلِفَ الأَمْرَ السَّنِيَّ الهَنِيَّ ، شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ ذَلِكَ الـمَرْكَبِ مَرْكَباً ، وَيُعَرِّيَ مِنْ رِدَاءِ ذَلِكَ السَّنَاءِ مَنْكِباً ، لاسِيَّمَا وَقَدِ انْتَقَلَتْ بِنَا السِّنُّ مِنْ شَبِيْبَةٍ إِلَى شَيْبَةٍ.

وَلَسْتُ إِخَالُ الدَّوْلَةَ العَزِيزَةَ –لا زَالَتْ خَافِقَةَ الأَعْلامِ، رَائِقَةَ الأَيَّامِ– تَسْتَجِيْزُ أَنْ أَكُوْنَ مَعَ الطُّفُوْلَةِ أَجْمَلَ، وَمَعَ الكُهُولَةِ أَخْمَلَ. مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَرْتَضِيَ تِلْكَ سِيْرَةً، فِيْمَنِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ شَابّاً وَكَهْلاً، وَوَجَدَتْهُ لِلْيَدِ الكَرِيْمَةِ أَهْلاً، فَحَلَّتْ بِهِ مَنْزِلاً رَحْباً وَجَنَاباً سَهْلاً، وَقَالَتْ لِلْعَاذِلِ فِيْهِ وَلِلعَادِلِ بِهِ مَهْلاً. فَجَزَى اللهُ أُوْلِي السِّيَاسَةِ، وَذَوِي الفَهْمِ وَالنَّفَاسَةِ، أَفْضَلَ جَزَاءٍ مَلِيٍّ، عَنْ مَبَرَّة وَلِيٍّ، وَكَفَى بِهَا حَالاً أَتَقَلَّى لَهَا وَأَتَقَلَّبُ، وَأَتَشَعَّبُ بِمُعَانَاتِهَا وَأَتَشَعَّبُ، إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ تَوَلِّي أَيَّامٍ، وَتَوَالي آلامٍ، بِفِقْدَانِ إِخْوَانٍ، أَعْيَانٍ، كَانُوا، فَبَانُوا.

وَبَعْدُ، فَلَعَلَّ قَائِلاً يَقُوْلُ: مَا لِرَبِّ هَذَا الشِّعْرِ مَا رَثَى حَتَّى تَغَزَّلَ، وَلا جَدَّ حَتَّى هَزَلَ، ثُمَّ قَفَّى بِالمَدْحِ، فَأَتَى بِالمَفَاخِرِ فِي الآخِرِ؟

فَالجَوَابُ عَنْهُ: إِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَيْنَ المَادِحِ وَالـمَمْدُوحِ اشْتِرَاكٌ، فِي مَعْنَى هَذَا الرِّثَاءِ وَاشْتِبَاكٌ، ولاجْتِمَاعِهِمَا فِي خِلَّةِ، بَعْضِ تِلْكَ الجِلَّةِ، افْتَتَحَ الشِّعْرَ بِالرِّثَاءِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الـمُسَاهَمَةِ وَالتَّعْزِيَةِ، ثُمَّ أَرْدَفَ بِالـمَدْحِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ

التَّأْنِيسِ وَالتَّسْلِيَةِ ، وَلَمَّا أَشَارَ إِلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مُصَابٍ ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ أَوْصَابٍ ، انْكَفَأَ عَلَيْهِ الكَلَامُ فِي ذَلِكَ انْكِفَاءً، فَانْهَرَقَ عَنْهُ كَرَمَ عِشْرَةٍ وَوَفَاءً.

وَأَمَّا أَسْمَاءُ تِلْكَ البِقَاعِ، ومَا انْقَسَمَتْ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةِ نَجْدٍ أَوْ قَاعٍ، فَإِنَّمَا جَاءَ بِهَا عَلَى أَنَّهَا خَيَالاَتٌ تُنْصَبُ، وَمِثَالاتٌ تُضْرَبُ، تَدُلُّ عَلَى مَا يَجْرِي مَجْرَاهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَرَّحَ بِذِكْرِاهَا، تَوَسُّعاً فِي الكَلامِ، يُكْتَفَى بِهَا دَلَالَةً عَلَيْهَا وَعِبَارَةً، وَيُسْتَحْسَنُ إِيْمَاءَةً إِلَيْهَا وَإِشَارَةً.

فَإِنْ قَصَّرْتُ، أَوِ اخْتَصَرْتُ، فِيْمَا بَسَطْتُ مِنْ ثَنَاءٍ وَنَشَرْتُ، أَوْ أَوْمَأْتُ إِلَيْهِ مِنْ سَنَاءٍ وَأَشَرْتُ، فَبِحُكْمِ اسْتِغْرَاقِ النَّفْسِ، واسْتِغْلاقِ الأُنْسِ.

فَلْيُعْفِهِ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَهُ- مِنْ خَطَرَاتٍ تَقِدُ، وَنَظَرَاتٍ تَنْتَقِدُ، يَتَأَجَّجُ عَنْهَا اللَّهَبُ، وَيَتَبَهْرَجُ[1] عَلَيْهَا الذَّهَبُ، وَلْيُعِدْهُ نَظَراً لَمْحاً سَمْحاً، يَمُرُّ بِهِ صَفْحاً، كَأَنَّهُ هَفْوَةُ لَبِيبٍ، أَوْ غَفْوَةُ رَقِيبٍ، أَوْ خَطْرَةُ ذِيبٍ، أَوْ نَظْرَةُ مُرِيبٍ، مُنَعَّماً، إِنْ شَاءَ اللهُ، تَعَالَى.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٠٢-٢٠٤.

---

١ - البهرج : الزائف من الدراهم والرديء والباطل (معرّب).

[١٠]

وكتبَ إلى الأستاذ أَبِي إسْحَاقَ ابْنِ صَوَابٍ بِالعُدْوَةِ –رحمه الله– وكانا مدّةَ كونه بِالأَنْدَلُسِ على أتمّ ما يكون الأصفياء اصطحاباً. ولمّا فصل إلى العُدْوَةِ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ عَائِشَةَ –رحمه الله– كتب معه إلى الأستاذ هناك يجدّد العهد بمخاطبته، ويستريح إلى مساهمته:

ما أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى شَحَطٍ مَنْ دَارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُولُ(١)

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ، وَيَسَّرَ لِقَاءَكَ، وَحَمَى أَرْجَاءَكَ، وَدَرَّكَكَ أَمَلَكَ وَرَجَاءَكَ. كَتَبْتُهُ عَنْ شَوْقٍ لَوْ خَامَرَ الحَجَرَ، لانْفَجَرَ، أَوْ بَاشَرَ الجُلْمُودَ، لَفَارَقَ الجُمُودَ. مَا غَضَضْتُ مِنْهُ مُتَعَلِّلاً بِحَدِيثٍ، أَوْ أَمَلٍ حَدِيثٍ، إلّا تَزَيَّدَ، وَتَأَكَّدَ، فَقَدْ بَاضَ عَلَى الدَّهْرِ وَفَرَّخَ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَاعِدُهُ فَرَسَخَ، فَهَا هُوَ يَنْبُو السِّنَانُ، وَهُوَ حَدِيدٌ، وَيَبْلَى الزَّمَانُ، وَهُوَ جَدِيدٌ. وَلا تَذَكَّرْتُ مَا رَاقَ مِنْ عِشْرَةٍ، وَرَقَّ عَنْهَا مِنْ قِشْرَةٍ، إلَّا تَمَلَّكَ جَفْنِيَ الاسْتِعْبَارُ، وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي النَّهَارُ. فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الأَيَّامِ، المُتَخَيَّلَةِ مِنَ الأَحْلامِ؟ وَأَيْنَ مَنْ قَدْ

---

١ – البيت لجُنْدُج بن جُنْدُج المرّي : حماسة أبي تمّام (رواية الجواليقي) :٦١٣ ، حماسة أبي تمّام (ترتيب الشنتمري) : ٣/ ٢٥٦ ، شرح الحماسة للمرزوقي:١٨٣١/٣ ، معجم البلدان :٤٣٥/٣ ، أمالي القالي: ٩٩/١ ، تاج العروس: صول .

عَرَفْنَا وَأَلِفْنَا مِنَ الإِخْوَانِ؟ بَانُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا، وَفُقِدُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا وُجِدُوا. فَهَا أَنَا لا أَسْتَرِيحُ فِيهِمْ إِلَّا إِلَى شَكْوَى، تُقِضُّ المَضْجَعَ، وَتَفُضُّ الأَضْلُعَ، وَلا أَنْطَوِي إِلَّا عَلَى ذِكْرَى، تُصَدِّعُ حَصَاةَ القَلْبِ، وَتُؤْذِنُ بِالظَّعْنِ فِي أَعْقَابِ ذَلِكَ الرَّكْبِ. فَآهٍ ثُمَّ آهٍ عَلَى شَبَابٍ قَدِ انْقَلَبَ، وَذَهَابٍ قَدِ اقْتَرَبَ، فَلَا تَنَاجِيَ إِلَّا بِعَمَلٍ يُتَعقّبُ، وَأَجَلٍ يُتَرَقَّبُ.

وَعَلَى ذِكْرِ ذَلِكَ، أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيَال قَدْ أَرِقْتُ، فَتَلَدَّدْتُ أَنْظُرُ فِي أَعْقَابِ مَا مَضَى، مِنْ عُمْرِي فَانْقَضى، وَأَتَوَقَّى، عَلَى شَفَافَةِ مَا غَبَرَ مِنْهُ وَتَبَقَّى، فَسَنَحَ لِي أَنْ قُلْتُ:

أَلا سَاجِلْ دُمُوعِي يَا غَمَامُ	وَطَارِحْنِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ
فَقَدْ وَفَّيْتُهَا سِتِّينَ حَوْلاً	وَنَادَتْنِي وَرَائِي هَلْ أَمَامُ
وَكُنْتُ وَمِنْ لُبَانَاتِي لُبَيْنَى	هُنَاكَ وَمِنْ مَرَاضِعِيَ المُدَامُ
يُطَالِعُنَا الصَّبَاحُ بِبَطْنِ حُزْوَى	فَيُنْكِرُنَا وَيَعْرِفُنَا الظَّلامُ
وَكَانَ بِهِ البَشَامُ مَرَاحَ أُنْسٍ	فَمَاذَا بَعْدَنَا فَعَلَ البَشَامُ
فَيَا شَرْخَ الشَّبَابِ أَلَا لِقَاءٌ	يُبَلُّ بِهِ عَلَى يَأْسٍ أُوَامُ
وَيَا ظِلَّ الشَّبَابِ وَكُنْتَ تَنْدَى	عَلَى أَفْيَاءِ سَرْحَتِكَ السَّلَامُ

فَمَا كَانَ إِلَّا أنْ صَرَخْتُ عَوِيلاً، وَانْتَحَبْتُ طَوِيلاً، حَتَّى أَيْقَظْتُ مَنْ كَانَ إِلَى جَانِبِي ضَجِيْعاً، وَزِدْتُ فَكِدْتُ أُحِيلُ الدَّمْعَ نَجِيْعاً. وَحُقَّ لِمَنْ

شَـاهَدَ تَضَعْضُـعَ أَرْكَانِـهِ، وَتَـدَاعِيَ بُنْيَانِـهِ، وَذَهَـابَ خِلّانِـهِ، وَإِدْبَـارَ عُمْـرِهِ وَزَمَانِـه، أَنْ يُطْرِقَ هُنَالِكَ فِكْـرَةً، وَيَمْـلأَ جَفْنَيْـهِ عَبْـرَةً، وَيُـرَدِّدَ الأَسَـفَ جَمْـرَةً، حَتَّى يَذُوبَ كَمَداً أَوْ يَقْضِيَ حَسْرَةً.

هذِهِ – جَمَعَ اللهُ بِكَ – جُمْلَةُ حَالِي؛ فَلَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ حَالُكَ وَمَا آمَالُكَ وَفِـيمَ اعْتِمَالُـكَ وَبِمَ اشْـتِغَالُكَ؟ وَإِلَى مَـنْ تَسْـتَرِيحُ مُفاوِضـاً، أَوْ مَـنْ تُجَـادِلُ مُعَارِضاً ؟، وَالخَلِيلُ، قَلِيلٌ، بَلْ لَيْسَ بِغَرِيبٍ،أَنْ تَقُولَ مَا بِالدَّارِ مِنْ غَرِيبٍ!.

فَأَمَّـا أَنَـا، فَـإِنِّي كُنْـتُ فِي هـذِهِ الـمُدَّةِ الفَارِطَـةِ، قَـدْ سَـكَنْتُ إِلَى مَـنْ خَبَرْتُـهُ، فَوَثَّقْتُـهُ، وَسَـبَرْتُهُ، فَوَمَقْتُـهُ، وَمَـا زِلْنَـا بِحَـالِ ارْتِبَـاطٍ، وَاغْتِبَـاطٍ، حَـتَّى اسْتُدْعِيَ مِنَ العُدْوَةِ، فَلَبَّى تَلْبِيَةَ الإِجَابَةِ، وَانْتَقَلَ بِاسْمِ تَقَلُّدِ رَسْمِ الكِتَابَةِ. وَانْصَـدَعَ مَـا بَيْنَنَـا لا لالتِئَـامٍ، وَانْتَثَـرَ لا لانْتِظَـامٍ. وَأَيُّ بِنَـاءٍ لِغَيْرِ انْهِدامٍ؟ أَوْ ضِيَاءٍ لِغَيْرِ ظَلامٍ؟ وَكُنْتُ قَدِ اسْتَرَحْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِكَ، وَسَدَدْتُ بِمَوْضِعِهِ مِنْ خَلَّةٍ بَعْدَكَ، فَنَكَأَ – لَعَمْرُ اللهِ – بِقُرْحٍ قُرْحاً، وَذَرَّ عَلَى جُرْحٍ مِلْحاً. وَأَيُّ طَمَعٍ فِي لِقَاءٍ، أَوْ بَقَاءٍ؟، وَالسِّنُّ –كَمَا قَدْ عَلِمْتَ – السِّنُّ، وَمَا مِنَّا –وَإِنْ تَنَفَّسَ– إِلَّا شَنٌّ ، وَاللهُ تَعَالَى أَسْأَلُهُ مَغَبَّةً تُوسِعُ رُحْمَاهُ، وَرِضَاهُ، لا إِلهَ سِوَاهُ.

وَمِمَّا أَخَلَّ بِعَهْدِ الـمُطَالَعَةِ، أَنَّ الجَزِيرَةَ –حَرَسَهَا اللهُ– بِحَيْثُ لا يُسَافَرُ عَنْهَا، وَلا يُورَدُ عَلَيْهَـا، هـذَا إِلَى مَـا أَنَـا بِسَبِيلِهِ مِنْ ضَعْفٍ طَبِيعِيٍّ، وَكَسَلٍ

يَتَشَـبَّهُ بِعـيٍّ، وَكِلاهُمَـا مُقْـتَضٍ لِلْمُطَاوَلَـةِ، وَالـمُمَاطَلَةِ. فَانْـدَرَجَتِ الأَيَّـامُ، وَانْقَرَضَتِ الشُّهُورُ وَالأَعْوَامُ، وَالمُخَاطَبَةُ هَمَلٌ، وَالمُطَالَعَةُ أَمَلٌ، لا عَمَلٌ.

وَلَمَّا تَحَرَّكَ فُلانٌ – أَبْقَاهُ اللهُ – تَحَرَّكْتُ بِحَرَكَتِهِ، وَتَيَمَّنْتُ بِاسْمِهِ وَبَرَكَتِهِ، وَكَتَبْتُ مُطْلِعاً، وَمُسْتَطْلِعاً، وَحَمَّلْتُهُ شَرْحَ حُلْوِي وَمُرِّي مُسْتَوْدِعاً. وَهُوَ جَارِي بَيْتَ بَيْتَ، وَعِنْدَهُ مِنْ أَمْرِي كَيْتَ وَكَيْتَ. فَإِنْ تطَوَّلْتَ وَعَيْتَ، وَآنَسْتَهُ هُنَالِكَ وَرَعَيْتَ، آخِذاً بِالمَعْهُودِ مِنْ طَوْلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمَا تَخَيَّلْتُ أَنِّي قَادِمٌ فِي أُولئِكَ السَّفْرِ، وَطَالِعٌ مِنْ ثَنِيَّةٍ عَلَى ذلِكَ القُطْرِ، إِلَّا وَجَدْتُنِي أَنْتَفِضُ ارْتِيَاحاً، وَأَكَادُ أَخْفِقُ جَنَاحاً. وَلَوَدِدْتُ، أَنِّي كَمَا عَهِدْتُ، قُوَّةً مُرْتَاضَةً، وَنَفْساً نَهَّاضَةً، فَأَرِدَ مُجَدِّداً لِلْعَهْدِ وَلَوْ بِلَفْظَةٍ، وَمُتَزَوِّداً قَبْلَ الفَوْتِ وَلَوْ بِلَحْظَةٍ:

مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ الـمُنَى
وَإِلَّا فَقَـدْ عِشْـنَا بِهَـا زَمَنـاً رَغْـدا[١]

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٦٣-٦٧.

---

١ - نسب البيت لابن ميّادة أو لرجل من بني الحارث أو لآخر ، ديوان ابن ميّادة : ٢٤٥ -٢٤٦ وانظر تخريجه ثمّة .

[١١]

وله من أخرى:

إِنْ كَانَ التَّنَازُحُ[١] - أَعَزَّكَ اللهُ - لَمْ يَمْتَدَّ بَيْنَنَا فِيْهِ يَدٌ لِلتَّصَافُحِ إِلَّا مِنَ الجَوَانِحِ، وَلَا قَامَ خَطِيْبٌ لِلْقُرْبِ، إِلَّا فِي نَأْيِ القَلْبِ، وَلَا نَطَقَ لِسَانُ الوُدِّ، إِلَّا دُوْنَ سِتْرِ البُعْدِ، وَلَا لَمَعَ بَرْقٌ لِلاسْتِطْلَاعِ، إِلَّا فِي حُجُبِ السَّمَاعِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يُعْرِبَ ذَلِكَ النُّطْقُ، وَيَسْتَطِيْرَ[٢] ذَلِكَ البَرْقُ، فَقَدْ تَقُوْمُ البَصِيْرَةُ مَقَامَ البَصَرِ، وَتَكُوْنُ الأُمْنِيَّةُ أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ، وَمَا أَتَنَسَّمُ دَائِباً مِنْ ثَنَائِكَ العَاطِرِ، وَأُرْتِعُ فِيْهِ سَمْعِي مِنْ صِفَةِ خَلْقِكَ الظَّاهِرِ الطَّاهِرِ، قَمِيْنٌ[٣] أَنْ يَكُوْنَ لِلْمُدَاخَلَةِ سَبَباً، وَخَلِيْقٌ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ وَجْهِ المُرَاسَلَةِ حُجُباً.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٦٠

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- التنازح : التباعد عن الديار .

٢- استطار البرق : انتشر وتفرّق .

٣- قمين : جدير به .

[١٢]

وممّا تعلّق برسالة في وصف كلب مطوّق العنق بالبياض، وصفة طائر:

وَأَخْطَـلَ[١] لَـوْ تَعَـاطَى سَـبْقَ بَـرْقٍ

لَطَـــارَ مِـــنَ النّجَـــاحِ بِـــهِ جَنَـــاحُ

يَسُـوفُ الأَرْضَ[٢] يَسْـأَلُ عَـنْ بَنِيهَـا

فَتُخْــــبِرُ أَنْفَـــهُ عَنْهَـــا الرِّيَـــاحُ

أَقَـــبُّ[٣] إِذَا طَـــرَدْتَ بِـــهِ قَنِيصـــاً

تَنَكَّـــبَ قَوْسَـــهُ الأَجَـــلُ الـــمُتَاحُ

أَضَـــــلَّ بِرَأْسِــــهِ لَيْـــــلٌ بَهِـــيْمٌ

فَشَــــدَّ عَلَـــى مُخَنَّقِـــهِ صَـــبَاحُ

وَلَمَّـا عَلِمْـتُ رَغْبَتَـهُ -أَيَّـدَهُ اللهُ- فِي التِمَـاسِ الطُّيُـورِ اللَّيْلِيَّـةِ وَاقْتِنَائِهَـا، وَتَحَقَّقْـتُ هِمَّتَـهُ فِي انْتِخَابِهَـا وَانْتِقَائِهَـا، تَهَمَّمْـتُ[٤] بِـالفَحْصِ عَـنْ أَفْرَهِهَـا، وَأَشْرَفِهَا صِفَةً وَأَشْرَهِهَا. فَسَنَحَ مِنْهَا طَائِرٌ يُسْتَدَلُّ بِظَاهِرِ صِفَاتِهِ، عَلَى كَرم

١ – الأخطل : العجل الخفيف السريع .

٢ – يسوف الأر ض : يشمّها ويدنو منها.

٣ – الأقبّ : الضامر الخميص .

٤ – في مسالك الأبصار : همّت .

ذَاتِهِ، طَوْراً يَنْظُرُ نَظَرَ الخُيَلاءِ فِي عِطْفِهِ[١]، كَأَنَّمَا يُزْهَى بِهِ[٢] جَبَّارٌ، وَتَارَةً[٣] يَرْمِي نَحْوَ السَّمَاءِ بِطَرْفِهِ، كَأَنَّمَا لَهُ هُنَالِكَ اعْتِبَارٌ. وَأَخْلِقْ بِهِ أَنْ يَنْقَضَّ عَلَى قَنَصِهِ شِهَاباً، وَيُلْوِيَ بِهِ ذَهَاباً، وَيَحْرِقَهُ تَوَقُّداً وَالتِهَاباً.

وَقَدْ[٤] بَعَثْتُ بِهِ سَابِغَ الذُّنَابَى وَالجَنَاحِ، كَفِيلاً[٥] فِي مَطَالِبِهِ بِنَيْلِ النَّجَاحِ[٦]، حَمِيدَ العَيْنِ وَالأَثَرِ، حَدِيْدَ[٧] السَّمْعِ وَالبَصَرِ، يَكَادُ يُحِسُّ بِمَا يَجْرِي بِبَالٍ، وَيَسْرِي مِنْ خَيَالٍ، قَدْ جَمَع بَيْنَ عِزَّةِ مَلِيكٍ[٨]، وَطَاعَةِ مَمْلُوكٍ. فَهُوَ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ بِمُقْتَضَى الخِدْمَةِ، مُؤَهَّلٌ لإِحْرَازِ مَا تَقْتَضِيهِ شَمَائِلُهُ، وَإِنْجَازِ مَا تَعِدُ بِهِ مَخَائِلُهُ، وَمُزْمِعٌ بِحُكْمِ[٩] تَأْدِيبِهِ،

---

١ – في مناهج الفكر : عطفيه .

٢ – في الذخيرة : به منه .

٣ – في الذخيرة: طوراً .

٤ – في مناهج الفكر : قد أقيم له .

٥ – في مناهج الفكر : كفيلين .

٦ – في الذخيرة: بالنجاح .

٧ – في مسالك الأبصار :قد حاز

وفي مناهج الفكر : حميل .

٨ – في مناهج الفكر : ملك .

٩ – في مناهج الفكر : وخليق بمحكم .

وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهِ، أَنْ يَكُونَ لَوْ مَثَلَ[1] لَهُ النَّجْمُ قَنَصاً، أَوْ جَرَى بِذِكْرِهِ البَرْقُ قَصَصاً، لاخْتَطَفَهُ أَسْرَعَ مِنْ لَحْظَةٍ، وَأَطْوَعَ مِنْ لَفْظَةٍ، وَانْتَسَفَهُ أَمْضَى مِنْ سَهْمٍ، وَأَجْرَى مِنْ وَهْمٍ، وَيَخْدُمُكَ فِيمَا يَعُودُ بِأُنْسِكَ، وَيَبْسُطُ نَفْسَكَ، مِنَ التَّهَامِّ بِجِهَةِ سَعَادَتِكَ، وَالاهْتِمَامِ بِجَانِبِ إِرَادَتِكَ.

فَقَدْ أَقْسَمَ بِشَرَفِ جَوْهَرِهِ، وَكَرَمِ عُنْصُرِهِ، لا تَوَجَّهَ[2] مُسَفَّراً، إِلَّا غَادَرَ[3] قَنِيصَهُ مُعَفَّراً، وَآبَ إِلَى يَدِ مُرْسِلِهِ مُظَفَّراً، مُوَرَّدَ[4] المِخْلَبِ وَالمِنْقَارِ، كَأَنَّمَا اخْتَضَبَ بِحِنَّاءٍ أَوْ كَرَعَ فِي عُقَارٍ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٥٤-٥٥.

الذخيرة : ٣/٢/٦٤٥-٦٤٦.

مناهج الفكر :٢/١٦٥.

مسالك الأبصار : ٩١.

---

١ - في الذخيرة: سلك .

٢ - في مناهج الفكر : يوجّه .

٣ - في مناهج الفكر : عاد .

٤ - في مسالك الأبصار :مورّس .

فصل[١] في إهداء تفاحة:

مِثْلُكَ- أَعَزَّكَ اللهُ- مِمَّنْ كَرُمَتْ سَجِيَّتُهُ فَرَقَّتْ، وَحَسُنتْ جُمْلَتُهُ فَرَاقَتْ، فَكَانَتْ كُلِّيَّةُ [٢] الظَّرْفِ مِنْهُ شُعْبَةً، وَجُمْلَةُ الذَّكَاءِ شُعْلَةً، عَلِمَ أَنَّ خَيْرَ الهَدَايَا، مَا جَرَى مَجْرَى التَّحَايَا[٣] ، وَأَنَّ أَفْضَلَ سَفِيرٍ سَفَرَ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ، وَتَرَدَّدَ بَيْنَ عَشِيْقَيْنِ، سَفِيرٌ أَشْبَهَ المُحِبَّ خِفَّةَ رُوْحٍ، وَالمَحْبُوبَ عَبَقَ رِيْحٍ. وَلَمَّا طَالَ، يَا سَيِّدِي، العَهْدُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُجَدِّدَهُ، وَرَغِبْتُ[٤] أَن أُؤَكِّدَهُ، وَتَوَقَّيْتُ مِنْ رَقِيْبٍ يَرْعَى فَيَسْعَى، وَيَشِي فَيُفْشِي، لَمْ أَرَ أَنْ أَجْعَلَ رَسُولِي، وَأُجَشِّمَ فِي[٥] اقْتِضَاءِ سُولِي[٦]، مِثْلَ حَمْرَاءَ عَاطِرَةٍ، كَأَنَّهَا دَمْعَةُ صَبٍّ قَاطِرَةٌ، أَوْ جَمْرَةٌ تُصْطَلَى وَاقِدَةٌ، أَوْ خَمْرَةٌ تُجْتَلَى جَامِدَةٌ، مُشْتَقٌّ مِنَ الأَرَجِ اسْمُهَا، حَمِيدٌ فِي السَّفَارَةِ بَينَ مُحِبَّينِ رَسْمُهَا، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا ذَهَباً يَنْفَحُ، وَلَا لَهَباً لَا يَلْفَحُ، قَدْ أَوْدَعَ حَشَاهَا الصُّبْحُ فَلَقَهُ[٧]، وَخَلَعَ عَلَيْهَا اللَّيْلُ شَفَقَهُ[٨]، فَهِيَ تَقِدُ كَأَنَّهَا نُشِّئَتْ فِي تُرْبَةٍ مِنْ نَارِ ضُلُوعِي، أَوْ سُقِيَتْ بِجَدْوَلٍ مِنْ حُمْرِ دُمُوعِي. وَلَمَّا وَجَدْتُهَا فِي الحُسْنِ حَيْثُ العُيُونُ تَرْمُقُهَا فَتَمِقُهَا[٩]، وَالنُّفُوسُ تَنْشَقُهَا فَتَعْشَقُهَا، بَعَثْتُ بِهَا بَيْنَ تَحِيَّةٍ لَكَ، وَرَسُولٍ إِلَيْكَ، مُعْتَقِداً أَنَّهَا سَتُقْبَلُ، عِنْدَمَا تُقْبِلُ، وَتُفَدَّى، حِيْنَ تَتَصَدَّى[١٠]، فَوَدِدْتُ أَنْ أَكُونَهَا، وَأَحْظَى بِتِلْكَ الحَالِ دُوْنَهَا.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٤ — ٥٤٥

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٥ -٣٢٦

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكليلة ، وكذلك في النسخ المخطوطة للذخيرة "ط ، د ، س" *.

٣- التحيّة : العمارة من الريحان يزيّن بها مجلس الشراب .

٤- وفي الذخيرة : وذهبت أن .

٥- سقطت من الذيل.

٦- سولي : مسهّلة الهمز من سؤلي ، والسؤل والسؤلة : ما سألته وطلبته من شيء.

٧- الفلق : ما انفلق من عمود الصبح وبان .

٨- الشفق : بقيّة ضوء الشمس وحمرتها من أوّل الليل إلى العشاء الآخرة ، أو إلى قربها .

٩- تمقها : تحبّها .

١٠- تتصدّى : تتعرّض له .

[١٤]

وكتب يستهدي [١] ماء ورد:

إِنَّ لِلْمَكَـارِمِ شَـرِيْعَةً قَضَـتْ أَنْ يَكُـوْنَ الـبِرُّ عَلَيْـكَ فَرْضـاً، وَالشُّـكْرُ قَرْضاً[٢]، وَإِنِّي وَجَّهْتُ رُقْعَتِي هَذِهِ خَاطِبَةً إِلَى صَفْوِ وُدِّكَ، كَرِيمَةً مِنْ بَنَاتِ مَاءِ وَرْدِكَ. وَقَدْ سُقْتُ الشُّكْرَ إِلَيْهَا مَهْراً، وَأَنْفَذْتُ الإِنَاءَ لِلزِّفَافِ خِدْراً. وَالطَّوْلُ[٣] لَكَ فِي قَبُولِ نَقْدِ الثَّنَاءِ، وَتَعْجِيلِ الجَلاءِ[٤] وَالهِدَاءِ[٥]، مُوَفَّقاً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٥ – ٥٤٦

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٤ –٣٢٥

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : في استهداء .

٢- القرض : الجزاء ، ما يتجازى به الناس .

٣- الطَّول : الفضل والقدرة والمنّة .

٤- الجلاء : عرض العروس مجلوّة في أبهى منظر .

٥- الهداء :زفّ العروس إلى زوجها .

[١٥]

فصل من أخرى[١] :

إِنَّ النَّبِيذَ بِسَاطُ مَوْضِعِ الرَّاحَةِ وَالانْبِسَاطِ[٢]، وَقَلَّمَا يَطِيبُ رِضَاعُ الكَأْسِ[٣] إِلَّا مَعَ الصَّدِيقِ الشَّفِيْقِ، المُشْتَبَهِ[٤] بِالأَخِ الشَّقِيقِ، فَهُوَ رِضَاعٌ ثَانٍ تُرْعَى حُرْمَتُهُ، وَتُحْفَظُ ذِمَّتُهُ. وَهَذا يَوْمٌ[٥] ضُرِبَتْ فِيْهِ[٦] أَرْوِقَةُ[٧] الأَنْوَاءِ[٨]، وَأَعْرَسَتِ[٩] الأَرْضُ فِيْهِ بِالسَّمَاءِ؛ فَالغُصْنُ يَتَلَوَّى وَيَتَثَنَّى، وَالحَمَامَةُ تُرَجِّعُ[١٠] وَتَتَغَنَّى، وَالمَاءُ يَرْقُصُ مِنْ طَرَبٍ وَيُصَفِّقُ، وَالزَّهْرُ يَشُقُّ جَيْبَ كِمَامِهِ[١١] وَيُمَزِّقُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكُونَ فِيْمَنْ شَهِدَ هَذَا الإِمْلاكَ[١٢]، وَتَحْضُرَ فِيْمَنْ حَضَرَ هُنَاكَ، أَجَبْتَ مُنَعَّماً.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٦

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣١٩ -٣٢٠

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : " وكتب في استدعاء صديق له إلى مجلس أنس".

٢- بسط فلاناً : سرّه فانبسط وجهه واستبشر .

٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : الكأس.

٤- في " ب، م : المشبّه " * .

٥- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : يومنا قد.

٦- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : به.

٧- الأروقة : جمع رواق ؛ وهو ستر يمدّ دون السقف ، أو هو سقف مقدّم البيت .

٨- الأنواء: جمع نوء ، النجم إذا مال للمغيب .

وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق . وكان العرب في الجاهليّة ينسبون كلّ غيث إلى ذلك النجم ، فيقولون : مطرنا بنوء الثريّا مثلاً . وقال ابن الأعرابي : لا يكون نوء حتّى يكون معه مطر ، وإلّا فلا نوء .

٩- في ب ، م : واعترضت *.

١٠- رجّعت الحمامة : ترنّمت وردّدت هديلها.

١١- الكِمّ : وجمعه كمام وأكمّة وأكمام ، وهو وعاء الطلع وغطاء النَّوْر .

١٢- الإملاك : عقدة الزواج .

[١٦]

فصل[1] في استدعاء مغنّ:

إِنَّ لِلطَّرَبِ[2]- أَعَزَّكَ اللهُ- جِسْماً وَنَفْساً، يُسَمَّيَانِ سَمَاعاً وَكَأْساً، وَقَدْ حَضَرَتْنَا خَمْرَةٌ، كَأَنَّهَا جَمْرَةٌ، قَدْ تَنَاسَبَتْ سَوْرَتُهُمَا [3]، كَمَا تَضَارَعَتْ[4] فِي الخَطِّ صُورَتُهُمَا[5]:

لَوْ تَرَى الشَّرْبَ[6] حَوْلَهَا مِنْ بَعِيْدٍ   قُلْتَ قَوْمٌ مِنْ قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا[7]

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْنِسَ، وَتُطَرِّزَ[8] المَجْلِسَ، فَتُجْرِيَ فِي ذَلِكَ الجِسْمِ الكَرِيْمِ رُوْحَهُ، وَتُحْضِرَهُ مِنْكَ مَسِيْحَهُ[9]، وَصَلْتَ، وَأَجْمَلْتَ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٢ — ٥٤٣

مسالك الأبصار : ٩٣

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) ٣١٦-٣١٧

الشروح وفروق الروايات :

١- في مسالك الأبصار: ومنه قوله .

وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- سقطت من مسالك الأبصار ، وفي النصوص التي ذكرها صاحبها ابن فضل الله العمري اختصار وسقط كثير ممّا لا داعي لذكره كلّ مرّة .

وفي النسخة المخطوطة " د : للظرف " *.

٣- السورة : الحدّة والشدّة .

٤- ضارعه : شابهه وقاربه وماثله .

٥- وفي النسخة المخطوطة " سورتهما...صورتهما " *.

٦- الشَّرْب : القوم يجتمعون على الشراب .

٧- البيت لأبي نواس ، ديوانه : ٣٠ .

والقِرَّة : البرد، وما أصابك من قُرّ ، والقُرّ : البرد عامّة ، أو برد الشتاء خاصّة .

واصطلى حرّ النار : استدفأ بها .

٨- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : تطرب .

٩- المقصود معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام في إحياء الموتى بإذن الله ، أي يحيي المغنّي المستدعى المجلس ويحرّكه بالغناء والطرب .

[١٧]

وكتب يستدعي[١] عود غناء:

انْتَظَمَ مِنْ إِخْوَانِكَ- أَعَزَّكَ اللهُ [تعالى][٢]- عِقْدُ شَرْبٍ يَتَسَاقَوْنَ فِي وُدِّكَ، وَيَتَعَاطَوْنَ رَيْحَانَةَ شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَرِهُ الـمَسَامِعِ إِلَى رَنَّةِ حَمَامَةِ نَادٍ، لَا حَمَامَةِ بَطْنِ وَادٍ. وَالطَّوْلُ لَكَ فِي صِلَتِنَا[٣] بِجَمَادٍ نَاطِقٍ، قَدْ اسْتَعَارَ مِنْ بَنَانٍ لِسَاناً، وَصَارَ لِضَمِيْرِ صَاحِبِهِ[٤] تَرْجُمَاناً، وَهُوَ عَلَى الإِسَاءَةِ وَالإِحْسَانِ لَا يَنْفَكُّ مِنْ إِيْقَاعٍ بِهِ، فِي[٥]غَيْرِ إِيجَاعٍ لَهُ،فَإِنْ هَفَا عُرِكَتْ أُذُنُهُ وَأُدِّبَ وَإِنْ تَأَتَّى وَاسْتَوَى بُعِجَ بَطْنُهُ وَضُرِبَ. لَازلْتَ مُنْتَظِمَ الجَذَلِ، مُلْتَئِمَ الأَمَلِ

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٩

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ١/ ٥٣٨

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣١٩

الشروح وفروق الروايات :

١- في نفح الطيب:وكتب رحمه الله.وفي ذيل الديوان: في استدعاء.

٢- زيادة من نفح الطيب .

٣- في نفح الطيب : صلتها .

٤- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :حامله .

٥- في نفح الطيب : من .

[١٨]

وفي فصل يشفع لرجل كحَّال[١]:

وَمُؤَدِّيْهِ أَبُو فُلَانٍ الكَحَّالُ[٢] وهو- وَإِنْ كَرُمَتْ أكحَالُهُ[٣]، وَأُحْمِدَتْ فِي الصَّنْعَةِ حَالُهُ- لَمْ تَبْلُغْ قُوَّةُ كُحْلِهِ إِلَى أَنْ تَجْلُوَ[٤] البَصَرَ، حَتَّى تَرَى[٤] الغَيْبَ وَتُشَاهِدَ[٤]القَدَرَ، وَقَدْ وَرَدَكَ[٥]يَخْبِطُ مِنْ نَهَارِهِ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ، وَيُقَلِّبُ مُقْلَةً صَحِيحَةً عَمْيَاءَ ، وَلَا غَرْوَ فَالعَيْنُ هِيَ العَيْنُ[٦]، وَلَعَلَّهُ وَعَسَاهُ، أَنْ يَكُوْنَ عِيْسَاهُ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٠

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٢-٣٢٣

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي): "وكتب في شفاعة لرجل كحَّال" .

٢- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : والكحَّال أبو فلان .

٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : خلاله .

٤- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :يجلو، يرى، يشاهد .

٥- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :ورد .

٦- العين : الحياة للناس ، وكلّ ما فيه نفع وخير لهم .

[١٩]

وفي فصل[١] :

هُوَ أَشْهَرُ غُرَّةَ مَجْدٍ وَعَلاءٍ، وَتَقَدُّمَ فَضْلٍ وَسَنَاءٍ، مِنْ أَنْ أُومِيَ إِلَيْهِ، وَأُنَبِّهَ عَلَيْهِ، وَقَدِ اسْتَظَلَّ مِنْ حَرِّ النَّوَائِبِ بِبَرْدِ ظِلِّكَ، وَاسْتَنَارَ مِنْ ظُلَمِ المَطَالِبِ[٢] بِسِرَاجِ عَدْلِكَ. لَا زِلْتَ كَعْبَةَ فَضْلٍ، وَقِبْلَةَ عَدْلٍ.

"هُوَ نَثْرُ[٣] أَمْجَادٍ أَفْرَادٍ ، وَأَعْلَامٍ كِرَامٍ ، مَا مِنْهُمْ إِلَّا مُشْرِفُ العَلَمِ فِي الهِمَمِ، مُتَقَدِّمُ القَدَمِ فِي الكَرَمِ"[٤] .

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٩ – ٥٥٠

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٤

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب في غيره .

٢- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : المصائب .

٣- نثر الولد : أكثره ، أي هو من سلالة أمجاد .

٤- قال محقّق الذخيرة د .إحسان عبّاس :" يبدو أنّ هذه بداية قطعة جديدة، وقد انفردت بها :م، ب، ولم ترد في الديوان"

[٢٠]

فصل[١] في شفاعة:

وَمَا عَرَفْتُهُ مُذْ[٢] كَوْنِهِ عِنْدَنَا إلَّا عَلَى أَقْوَمِ طَرِيقَةٍ، وَأَحْسَنِ سَجِيَّةٍ[٣] وَخَلِيقَةٍ، فَاسْتَدْلَلْتُ بِمَا عَلَنَ، عَلَى مَا بَطَنَ، وَبِمَا بَدَا، عَلَى مَا انْطَوَى، ﴿وَللهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٤] فَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَضَعَ عَارِفَةً[٥] عِنْدَهُ، يَجْنِي ثَمَرَتَهَا[٦]، فَعَلَ مَأْجُوراً، وَمَشْكُوراً.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٠

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٠

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :وكتب .

٢- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :مدّة .

٣- السجيّة : الخُلُق والغريزة والملكة الراسخة في النفس .

٤- سورة هود :١٢٣ .

٥- العارفة : المعروف تبذله وتعطيه .

٦- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :ثمرتها عنده .

[٢١]

وكتب في مثله[١]:

لِلمُتوسَّـمِينَ[٢]- أَعَـزَّكَ اللهُ- مَنَـازِلُ، وَفِي الأَيَـادِي فُـرُوضٌ وَنَوَافِـلُ، وَخَيْـرُ الـمَعْرُوفِ، مَـا وُضِـعَ عِنْـدَ الشَّـرِيفِ لَا الـمَشْرُوفِ. وَإِنَّ أَبَـا فُـلَانٍ الهَاشِمِيَّ، لَفَـرْعٌ مِـنْ أَشْـرَفِ نَبْعَـةٍ[٣]، نَمَـتْ فِي أَكْـرَمِ بُقْعَـةٍ. وَمَـنْ حَـلَّ مِـنَ الشَّرَفِ مَحَلَّتَهُ، وَلَبِسَ مِنَ الفَضْلِ حِلْيَتَهُ، فَقَدْ غَنِيَ عَنِ الإِطْرَاءِ وَالثَّنَاءِ، غِنَى الغَزَالَةِ[٤] عَنِ الذُّبَالَةِ[٥].

وَهُـوَ مُجْتَـازٌ عَلَـى أُفُقِـكَ، وَنَـازِلٌ بِـكَ ضَـيْفاً، كَمَـا تَتَغَشَّـاكَ السَّـحَابَةُ صَيْفاً، وَهُوَ رَاحِلٌ بَعْدُ، تَخِدُ بِهِ[٦] الرَّكَائِبُ، وَتُثْنِي عَلَيْكَ الحَقَائِبُ[٧]. وَأَنْـتَ أَجْـدَرُ مَـنْ تَلَقَّـاهُ بِالبِشْـرِ، وَأَقْبَلَـهُ[٨] وَجْـهَ الـبِرِّ، فَعِنْـدَ أَهْـلِ الفَضْـلِ يُوْضَـعُ الفَضْلُ، وَفِي مَغَارِسِهَا تُغْرَسُ النَّخْلُ[٩].

لَا زِلْتَ غَمَامَ نُعْمَى وَرُحْمَى، وَلَا نَزَلْتَ إِلَّا بِمَنْزِلِ رُعْيَا وَسُقْيَا.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥١

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢١

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب في مثله .

٢- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :للمتوسّلين .

وتوسّمت فيه الخير : تفرّست وتخيّلت .

٣- النبعة:شجرة من أشجار الجبال تتّخذ منها القسيّ والسهام.

٤- الغزالة : الشمس ، أو الشمس عند طلوعها .

٥- الذبالة : الفتيلة .

٦- في ب، م :تحدو به .*

٧- من قول نصيب بن رباح :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

شعر نصيب بن رباح : ٥٩.

والحقائب : جمع حقيبة ، الرفادة أوالزيادة في مؤخّر القتب كالبردعة.

٨- أقبله : ولّاه قبل وجهه . ضد أدبر.

٩- من قول زهير بن أبي سلمى :

وهل ينبت الخطّي إلّا وشيجه وتغرس إلّا في منابتها النخل

شرح شعر زهير : ٩٥ .

[٢٢]

وقال يراجع ذا الوزارتين الكاتب أبَا عَبْدِ اللهِ ابنَ أَبي الخِصَالِ– أعزّه الله– عن مخاطبته نظماً ونثراً. وكتب بها إلى الحضرة:

أَمُقَــامُ وَصْــلٍ أَمْ مَقــامُ فِــراقِ   فَالقُضْــبُ بَــيْنَ تَصــافُحٍ وَعِنــاقِ

...

هَـا هُـوَ – أَدَامَ اللهُ عِـزَّ عِمَـادِي– قَـدْ تَجَـافَى لَـهُ عَـنْ صَـدْرِ مَيْدَانِـهِ، وَتَشَرَّفَ بِلَثْمِ أَرْدَانِهِ. وَاكْتَتَبَ فِي جُمْلَةِ عُبْدَانِهِ، فَاسْتَقْبَلَ فُسْطَاطَهُ اسْتِقْبَالَ إهْلالٍ، وَقَبَّلَ بِسَاطَهُ تَقْبِيْلَ إِجْلالٍ. وَأُقْسِمُ لَوْ تَحَمَّلَ حَجْماً، وَتَمَثَّلَ نَجْماً، لَمْ أَرْضَهُ، حتَّى يَهْبِطَ أَرْضَهُ، وَيَقْضِيَ فَرْضَهُ، جَوَاباً عَنْ نَثْرٍ تَرَدَّدْتُ فِيْهِ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَغَدِيرٍ، وَتَلَدَّدْتُ مِنْهُ بَيْنَ أَرَاكَةٍ وَهَديْرٍ، لا أَعْدَمُ هُنَاكَ نَسِيْماً رَطْباً، وَمَـوْرِداً عَـذْباً،﴿ وَحَـدَائِقَ غُلْبـاً وَفَاكِهَـةً وَأَبّـاً ﴾[١]، وَنَظْـمٍ قَـدْ أشْـرَف فِي نَضْرَةٍ، تِلكَ الحَضْرَةِ، يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الأَهْـوَاءِ، ويَمْتَزِجُ لَطَافَـةً بِالهَـوَاءِ، ويَجْمَعُ بَيْنَ أَحْسَنِ مُزْدَوجٍ، مِنْ أَرَجٍ فِي ثَلَجٍ، وَأَطْيَبِ مُنْتَشَقٍ، مِنْ عَبَقٍ فِي لَثَقٍ، كَأَنَّ ذُيُولَ سَحَابَةٍ هُنَاكَ تُسْحَبُ، وعُيُونَ حَديقَةٍ تُحْدِقُ. وَحَسْبُكَ مِنْ شِعْرٍ يُضَاهِي الشِّعْرَى إِشْرَاقاً، وَالشَّمْسَ إِبْرَاقاً، وَيُبَاهِي القَمَرَ اتِّسَاقاً، وَعِقْدَ

---

١ – سورة عبس : ٣٠ –٣١ .

الجَوْزَاءِ انْتِسَاقاً، يَتَغَنَّى بِهِ الشَّرْبُ، وَيَتَرَنَّمُ الرَّكْبُ، فَطَوْراً يُنْتَشَقُ مَعَ العَرَارِ بِتِلْكَ الخَمَائِلِ، وَتَارَةً يُعْتَنَقُ مَعَ الطَّيْفِ اعتناقَ الحَمَائِلِ.

وَمَا ضَرَّهُ- وَهَا هُوَ أَنْدَى مِنْ ظِلِّ الغَمَامَةِ، وأَحْلَى مِنْ سَجْعِ الحَمَامَةِ[1]، فَقَدْ طَابَ نَفَساً، وانْسَابَ سَلَساً، وَكَرُمَ نِسْبَةً، وَشَرُفَ نِصْبَةً، وَأَلَّفَ بَيْنَ رِقَّةِ السِّحْرِ، وَنَفَسِ عَنْبَرِ الشِّحْرِ- أَلَّا يكُونَ فِي أَكْنَافِ العِرَاقِ يُوْلَدُ، وَفِي أَرْضِ الحِجَازِ يُوجَدُ .

لا زِلتَ تشتَمِلُ عَلَى كُلِّ مَنْقَبَةٍ لِلْمَجْدِ شَرِيفَةٍ، وَتَحْتَلُّ بِكُلِّ مَرْقَبَةٍ لِلسِّيَادَةِ مُنيفَةٍ، تَعَشَّقَ هذِهِ السُّها فَنَحَلَ، وَتَعَلَّقَ بِتِلْكَ زُحَلُ فَزَحَلَ، والأَمْرُ للهِ، تَقَدَّسَ اسْمُهُ.

وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ -أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ- سَلاماً تَنْدَى بِهِ الرَّمْضَاءُ، وَتَتَنَافَسُ فِيْهِ الأَعْضَاءُ، فَتَوَدُّ المَعَاطِسُ لَوْ فُتِقَ مِسْكاً فَيُتَنَشَّقُ، وَتَتَمَنَّى السَّوَالِفُ لَوْ نُسِقَ سِلْكاً فَيُتَطَوَّقُ، ثُمَّ المُعادُ المُرَدَّدُ المُوَالَى مِنْهُ عَلَيْكَ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي) : ١٦٠-١٦٢.

---

١ - سجع الحمامة : موالاتها صوتها على طريق واحد .

[٢٣]

وقال يجاوب ويداعب فتى[١] شابّاً من أهل النُّبل، عن نظم ونثر له، وقد ورد ضيفاً :

يَــا لِــيْنَ عِطْفِــي وَاخْضِــرَارَ جَنَــابِي

لِرَفيـــــفِ آدابٍ وَمـــــاءِ شَـــــبَابِ

...

ثمّ إنّه جاوبه عن رقعة وردت له بما نسخته:

يَا سَيِّدي الأَعْلَى، وَعِلْقِيَ الأَغْلَى – تَحَلَّى[٢] بِكَ وَطَنُكَ، وَلا تَخَلَّى[٣] مِنْكَ عَطَنُكَ – كَتَبْتُهُ[٤]، وَالوُدُّ عَلَى أُولاهُ، وَالعَهْدُ بِحُلاهُ، تَرِفُّ زَهْرَةُ ذِكْرَاهُ، وَيَمُجُّ الرِّيَّ ثَرَاهُ، مُنْطَوِياً عَلَى لَذْعَةِ حُرْقَةٍ، بَلْ لَدْغَةِ فُرْقَةٍ، أَبِيتُ لَهَا بِلَيْلٍ لا يَنْـدَى جَنَاحُـهُ، وَلا يَتَـنَفَّسُ صَبَاحُهُ. فَهَـا أَنَـا، كُلَّمَـا تَنَاوَحَـتِ[٥] الرِّيَـاحُ أَصِـيلاً، وَتَنَفَّسَـتْ نَفَسـاً بَلِـيْلاً[٦]، أُصَـانِعُ البُرَحَـاءَ تَنَشُّـقاً ، وَأَتَـنَفَّسُ

---

١ – هو ابن خاقان .

٢ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: حلي .

٣ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: ولا خلا .

٤ – في قلائد العقيان : كتبت .

٥ – في خريدة القصر: تنسّمت الريح .

٦ – في قلائد العقيان :عليلاً .

الصُّعَدَاءَ[1] تَشَوُّقاً. فَهَلْ تَجِدُ عَلَى الشِّمَالِ نَفْحَةً، كَمَا أَجِدُ عَلَى الجَنُوبِ لَفْحَةً[2]؟ أَمْ هَلْ تُحِسُّ لِذَلِكَ الوَهْجِ ألماً، كَمَا أُحِسُّ[3] لِهَذَا الأَرَجِ لَمَماً؟ وَأَمَّا وَحَقِّكَ قَسَماً، يَشْتَمِلُ عَلَى الأَيْمَانِ كَرَماً[4]، إِنَّ فِي أَدْنَى هَذِهِ اللَّوَاعِجِ، مَا يَقْتَضِي إِنْضَاءَ[5] النَّوَاعِجِ، وَيَحْمِلُ عَلَى خَرْقِ، جَيْبِ الخَرْقِ، وَجَرِّ ذَيْلِ، بُرْدِ اللَّيْلِ، حَتَّى أَهْبِطَ أَرْضَ ذَلِكَ الفَضْلِ فَأَغْتَبِطَ[6]، وَأَرِدَ مَشْرَعَ ذَلِكَ الأُنْسِ فَأَبْتَرِدَ. وَعَسَى اللهُ بِلُطْفِهِ أَنْ يَنْظِمَ هَذَا البَدَدَ[7]، وَيُعِيدَ ذَلِكَ الدَّدَ[8]، فَيُبَرِّدَ الأَحْشَاءَ، كَيْفَ شَاءَ[9].

وَإِنَّ خِطَابَكَ[10] الكَرِيمَ وَافَى[11]، فَأَنْهَى تَحِيَّةً، هَزَّتْنِي أَرْيَحِيَّةً، هَزَّ المُدَام

---

١ – في قلائد العقيان: تنفس الصعداء.

٢ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: لفحة ...نفحة .

٣ – في قلائد العقيان : أجد لذلك .

وخريدة القصر: أجد لهذا .

٤ – في قلائد العقيان : لزماً .

٥ – في قلائد العقيان : هذه .

٦ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: النبل ، فأرتبط .

٧ – في خريدة القصر: البرد .

٨ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: الود.

٩ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: بمنّه .

١٠ – في قلائد العقيان وخريدة القصر: كتابك .

١١ – في خريدة القصر: وافاني .

تَتَمَشَّى، وَالحَمَامَةِ تَتَغَنَّى، فَلَوْلا أَنْ يُقَالَ صَبَا، لالتَزَمْتُ[1] سُطُورَهُ، وَلَثَمْتُ مَسْطُورَهُ. وَمَا أَنْطَقَتْنِي صَبْوَةٌ اسْتَفَزَّتْنِي، فَهَزَّتْنِي، وَلَكِنْ سُؤْرٌ فِي كَأْسِ الشَّبَابِ تَنَاوَلْتُهُ[2]، فَكُلَّمَا شَرِبْتُ، طَرِبْتُ. فَلَوْلا تَوَقُّعُ تَغَامُزِ[3] الشَّيْبِ، لابْتَدَرْتُ شَقَّ الجَيْبِ، ثُمَّ صِحْتُ: وَاطَرَبَاهُ، وَنَادَيْتُ: « وَاحَرَّ قَلْبَاهُ »[4] .

وَبَعْدُ، فَإِنِّي وَقَفْتُ مِنْ جُمْلَتِهِ عَلَى مَا وَقَعَ مَوْقِعَ القَطْرِ، وَحَسْبُكَ ثَلَجاً، وَطَلَعَ طُلُوعَ هِلالِ الفِطْرِ، وَكَفَاكَ مُبْتَهَجاً. وَمَا أَغْرَبَ فِيمَا أَعْرَبَ عَنْهُ مِنْ تَفْسِيرِ حَالِكَ، وَتَفْصِيلِ حِلِّكَ وَتَرْحَالِكَ. وَلا غَرْوَ أَنْ تَتَجَاذَبَكَ[5] الرَّوَاحِلُ، وَتَتَهَادَاكَ المَرَاحِلُ، فَمَا لِلنَّجْمِ أَخِيكَ مِنْ دَارٍ، وَلا[6] فِي غَيْرِ الشَّرَفِ مِنْ مَدَارٍ .فَقَعْ أَنَّى شِئْتَ وَارْبَعْ[7] ، أَوْ طِرْ ، حَيْثُ أَحْبَبْتَ

---

١ – في قلائد العقيان : للزمت .

٢ – في قلائد العقيان وخريدة القصر : فضلة راح في كأس العلا تناولتها .

٣ – في قلائد العقيان : وقوع غمرات الشيب.

وفي خريدة القصر: غمرات الشيب.

٤ – من مطلع شهير للمتنبّي : واحرّ قلباه ممّن قلبه شبم ، ديوانه :٣٦٢/٣ .

٥ – في قلائد العقيان : تجذبك

وفي خريدة القصر: أن تجد بك .

٦ – في قلائد العقيان : له .

٧ – في خريدة القصر : فحلّ ... وارتع.

وَطُرْ[١]،فَمَا انْتَضَتْكَ يَدُ المَغْرِبِ[٢]،إلَّا مَاضِيَ المَضْرِبِ[٣]، وَلا تَعَاطَتْكَ أَقْطَارُ البِلادِ، إلَّا طَيِّبَ المِيْلادِ، فَمَا ضَارَ أَنْ نَعَقَ بِبَيْنِكَ غُرَابٌ، وَخَفَقَ بِرَحْلِكَ سَرَابٌ، إِذَا لَمْ يَغُضَّ مِنْ فَضْلِكَ اغْتِرَابٌ، وَلَمْ يُخِلَّ[٤] بِنَصْلِكَ ضِرَابٌ.

لازِلْتَ مُخَيِّماً بِمَنْزِلَةِ عِزٍّ[٥]، تَجْمَعُ مِنَ اتِّسَاعٍ فِي ارْتِفَاعٍ، وَإِمْتَاعٍ فِي امْتِنَاعٍ، مَا بَيْنَ إِمْرَةِ بغدانَ، وَمَنَعَةِ غُمْدَانَ، بِمَشِيْئَةِ اللهِ[٦]، تَعَالَى.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٤٠-٢٤٢.

قلائد العقيان : ٥٧١- ٥٧٣

خريدة القصر :٥٤٨/٣-٥٤٩

---

١ - في خريدة القصر : أو قع .

٢ - في خريدة القصر : المغارب .

٣ - في قلائد العقيان : الأماضي المضارب .

وفي خريدة القصر : المضارب .

٤ - في قلائد العقيان وخريدة القصر : ولا أخلّ .

٥ - في قلائد العقيان وخريدة القصر: مجد .

٦ - في قلائد العقيان : بحول الله تعالى وبركاته والسلام .

وفي خريدة القصر: بحول الله ومنّه .

[٢٤]

وفي فصل[١] :

كُلُّ أَيَادِيكَ- أَعَزَّكَ اللهُ- غَمَامٌ، وَكُلُّ النَّاسِ سَجْعاً بِشُكْرِكَ وَطِيْبِ ذِكْرِكَ حَمَامٌ، قَدْ لَبِسُوا نِعَمَكَ أَطْوَاقاً، وَتَحَلَّوا بِهَا أَعْنَاقاً، فَمَا يَقْرَؤُونَ فِيْكَ إِلَّا سُوْرَةَ الحَمْدِ، وَلَا يَتَطَلَّعُونَ مِنْكَ إِلَّا إِلَى سُوْرَةِ[٢] المَجْدِ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا لِسَانُ شُكْرٍ غَيْرَ أَنَّهُ فَصِيحٌ، وَعَبْدُ رِقٍّ إِلَّا أَنَّهُ نَصِيْحٌ ، وَكَفَى بِحُسْنِ السِّيَرَةِ، اسْتِصْفَاءً لِلسَّرِيرَةِ ، فَلا زِلْتَ لِنَهْجِ الفَضْلِ سَالِكاً ، وَلِسَمَاءِ المَجْدِ سَامِكاً[٣].

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٩

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٢

الشروح وفروق الروايات :

١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب في غيره .

٢- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : صورة .

وسورة المجد : أثره وارتفاعه وعلامته .

٣- سامكاً : رافعاً .

[٢٥]

فصل :

إِنَّ مَنْ شَهِدَهُ – أَدَامَ اللهُ رِفْعَتَهُ – يَشْهَدِ القَمَرَ مُنِيْراً، والسَّحَابَ مَطِيْراً، والمَاءَ نَمِيْراً، وَالرَّوْضَ نَضِيْراً؛ وَلَاذَ بِهِ فَوَجَدَ الكَهْفَ[١] مَنِيْعاً، وَالشَّرَفَ رَفِيْعاً، والمرَادَ مَرِيْعاً[٢]، وَالزَّمَانَ رَبِيْعاً، تَعَلَّقَ حَبْلُهُ قَاطِناً دَانِياً، وَتَشَوَّقَ فَضْلُهُ ظَاعِناً نَائِياً .وَلَمَّا انْتَزَحَتِ الدَّارُ، وَبَعُدَ المَزَارُ، اعتَضْتُ بِالكِتَابِ مِنَ الرِّكَابِ، وَإِنْ لَمْ يَنُبِ الطَّلُّ عَنِ الوَبْلِ[٣]، وَإِنِّي بِحَيْثُ أَقَمْتَ أَوْ خَيَّمْتَ لَخَادِمُكَ خَاتَمُكَ، طَوْعاً لَدَيْكَ، وَجَرْياً عَلَى رَسْمِكَ وَحَدِّكَ، لَا زِلْتَ نِظَامَ الحَمْدِ، وَقِوَامَ الفَضْلِ وَالمَجْدِ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٧

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- الكهف : الملجأ والوزر .

٢- المراد: اسم مكان من الارتياد، والمريع : الخصيب .

٣- الطلّ: المطر الضعيف ، والوبل :المطر الشديد الضخم القطر.

[٢٦]

ومن أخرى:

وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ كَارِعاً مِنَ القِسْمِ فِي حَوْضٍ لَا يُخَلِّلُ الزَّمَانُ نَمِيْرَهُ، وَلَا يَغْدِرُ الصَّفَاءَ غَدِيْرَهُ، رَاتِعاً مِنَ النِّعَمِ فِي رَوْضٍ تُسَاجِلُ النُّجُوْمُ أَزْهَارَهُ، وَيَمُجُّ نَدَى السُّرُوْرِ جَثْجَاثَهُ وَعَرَارَهُ؛ كَتَبْتُهُ وَوُدِّي صِدْقُ الصَّفَاةِ، نَبْعِيُّ القَنَاةِ، لَا يَهُزُّهُ مَعَ تَرَاخِي العَهْدِ رِيْحُ انْحِرَافٍ، وَلَا يَرُضُّهُ مِنَ الغَضِّ عَضُّ ثِقَافٍ؛ بَعْدَ أَنْ وَرَدَنِي كِتَابُكَ الأَثِيْرُ يُذْهِلُ بِنَتَائِجِ طَبْعِكَ البَاهِرِ، وَيَنِثُّ بِعَرْفِ نَفَسِكَ الطَّاهِرِ، وَيُعْجِزُ بِبَدِيْعِ نِظَامِهِ فَيُؤْنِسُ، وَيُطْمِعُ بِمَطْبُوْعِ كَلَامِهِ فَيَنْفسُ، فَمَا حَدِيْقَةٌ تَفَقَّأَ فَوْقَهَا القُلَعُ، وَشَكَّلَتْ عَلَيْهَا الرِّيَاحُ الأَرْبَعُ، دِيْمَةً يُصَلْصِلُ الرَّعْدُ فِي أَرْجَائِهَا، وَيَضْحَكُ البَرْقُ خِلَالَ بُكَائِهَا، أَلَظَّتْ تَنْدِفُهَا بِأَدْمُعِ مَشُوْقٍ، حَتَّى كَسَتْهَا لِبْسَةَ مَعْشُوْقٍ ...(١)

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٦١

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- قال المحقّق أ.د. إحسان عبّاس :[كذا] ورد غير تامّ * .

[٢٧]

وقال يهنّئ الفقيهَ الأجلّ، قاضي القضاةِ، أبا أُمَيَّةَ – وصل اللهُ توفيقَه– بعوده إلى خُطَّة القضاء بعد صرفه:

بُشْرَى كَما أَسْفَرَ وَجْهُ الصَّباحْ وَاسْتَشْرَفَ الرَّائِدُ بَرْقاً أَلَاحْ

...

وكتب مع هذه القصيدة بما نسخته:

إِنَّهُ لا فَرْقَ بَيْنَ الحُسَامِ، وَبَيْنَ القَضِمِ الكَهَامِ[1] ، حَتَّى يُبْتَلَى هَذَا وَذَلِكَ، وَتُعْلَمَ حَقِيْقَةُ مَا هُنَالِكَ. وَلَيْسَ بِمَعْدُودٍ في المِحَنِ، مَا وَاصَلَ بَيْنَ المِنَنِ، وَفَاءَ بِجميلِ الذِّكْرِ، وَجَزيلِ الشُّكْرِ، فَمَا تُخُيِّل مِحْنَةً حَتَّى تَحَوَّلَ مِنْحَةً. وَلَعلَّه مَعَ ذَلِكَ قَدْ أَفَادَ تَجرِيباً، واقْتَضَى حُنْكَةً وتَهْذِيباً، بِمَا أَجْرَى مِنَ العِبَرِ وَالغِيَرِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ الأَوِدَّاءِ وَالأَعْدَاءِ.

فَكَثِيراً مَا يُخْطِئُ الظَّنُّ وَيُصِيبُ، وَيَكُونُ هُنَالِكَ مِنَ التُّهْمَةِ نَصِيْبٌ. فَالحَمْدُ للهِ كَثِيراً عَلَى مَا يَسَّرَ مِنْ نَجَاحٍ، وَجَبَرَ مِنْ جَنَاحٍ، وَأَوْسَعَ مِنْ صَلاحٍ، وَأَطْلَعَ مِنْ صَبَاحٍ ، حَمْداً يَمْلأُ فِيْكَ مَا بَيْنَ الأَرْضِ والسَّمَاءِ، وَيَقْتَضِي لَكَ المَزِيدَ مِنَ السَّنَاءِ.

---

١ – القَضِم : السيف تكسّر حدّه وتثلّمت مضاربه .

والكَهَام من السيوف : الكليل عن الضربة .

وَإيَّاهُ -تعالى- أَسْأَلُ أَنْ يُنْهضَكَ بِهَا نُهُوضَ الأَيِّد[1] ، كَمَا أشَارَ بِمَقْعدِكَ إلى مكانِ السَّيِّدِ، فَهُوَ أَهْلُ ذَلِكَ، تَقَدَّسَ اسْمُهُ.

وَبَعْدُ، فَإِنِّي - وَإِنْ عَاقَنِي عَنْ مُفْتَرَضِ المَزَارِ، تَظَاهُرُ الأَعْذَارِ، مَعَ شَحْطِ[2] المَنَازِلِ وَتَنَائِي الدِّيَارِ- لَتَحْتَ شَوْقٍ يُسْرِجُ وَيُلْجِمُ، وَيَكَادُ يُقْدِمُ فَيُهْجِمُ.

وَبَسْطُ العُذْرِ مِمَّا أَسْأَلُهُ، وَمِثْلُكَ -دَامَ عِزُّكَ- يَقْبَلُهُ . لا زِلْتَ مَغْمُورَ الأَرْجَاءِ، بِوَابِلِ الرَّجَاءِ، تَسْتَقِلُّ بالأَعْبَاءِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى النُّبَلاءِ، وَالعَوَائِدُ مِنْ مَغَارِسِكَ، وَالمحَامِدُ مِنْ مَلابِسِكَ، والسُّعُودُ مِنْ خُدَّامِكَ، وَالصِّعادُ[3] مِنْ أقْلامِكَ، بِمَنِّ اللهِ.

وأَقْرَأُ عَلَى مَنْ أَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ سَلاماً، فَتَقَ بِهِ الرَّوْضُ وَرْدَهُ، وَلاعَبَ النَّسِيمُ رَنْدَهُ، فَفَاوَحَ ثَنَاءَهُ وَحَمْدَهُ، وَضَمَّخَ رِدَاءَهُ وَبُرْدَهُ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ١٦٧-١٦٨.

---

١ - الأيّد : القوي .

٢ - الشحط : بعد المزار .

٣ - الصعاد : جمع صَعْدة ؛ وهي القناة أو القناة المستوية .

[٢٨]

فصل[١] في التهنئة بالقضاء وتثنية الوزارة:

بَدْءُ كَوْنِ الثَّمَرِ- أَعَزَّكَ اللهُ - زَهْرٌ، وَأَوَّلُ مَتُوْعِ[٢] الضُّحَى فَجْرٌ، وَإِنَّمَا تَنْمِي الأَشْيَاءُ عَلَى تَدْرِيجٍ وَتَرْتِيبٍ، كَمَا نَشَأَ[٣] الإِنْسَانُ مِنْ نُطْفَةٍ وَالدَّوْحَةُ مِنْ قَضِيْبٍ. وَمِثْلُكَ مَنْ شَهِدَتْ لَهُ مَخَايِلُ الوِلَايَةِ بِاكْتِهَالِ السِّيَادَةِ، وَاكْتِمَالِ السَّعَادَةِ[٤]. وَإِنَّ القَضَاءَ- وَإِنْ شَرُفَ مَرْتَبَةً، وَكَرُمَ مَأْثُرَةً وَمَنْقَبَةً- لَيَضِيقُ عَنْ نَصْلِ فَضْلِكَ غِمْدُهُ، وَيَغْرَقُ فِي بَحْرِ فَخْرِكَ مَدُّهُ، وَيَزْدَانُ بِنَحْرِ مَجْدِكَ عِقْدُهُ، وَيَبْتَهِجُ بِعَطْفِ سَرْوِكَ بُرْدُهُ. فَلْيَهْنِهِ أَنْ تَسَرْبَلْتَ طَوْقَهُ، وَتَحَمَّلْتَ أَوْقَهُ[٥]، وَلْيَهْنِئِ الوِزَارَةَ أَنْ شُدَّتْ بِجِيدِكَ عُرَاهَا، وَنِيطَتْ بِنَحْرِكَ حُلاهَا، وَشَفَعَ لَهَا فَضْلُكَ فَأَصَارَ وِتْرَهَا شَفْعاً، وَجَمَعَ إِلَى بَصَرٍ بِهَا سَمْعاً.

وَإِنَّهُمَا فِي تَظَافُرِهِمَا لك وَحُسْنِهِما بِكَ لَعِقْدٌ ثُنِّيَ بِعِقْدٍ، وَعَلَمَانِ رُقِمَا فِي بُرْدٍ. وَإِنَّ الدِّينَ لَمُشْتَدٌّ بِكَ أَزْرُهُ، فَعِنَانُهُ عَلَى الرَّائِضِ صَعْبٌ، وَعُوْدُهُ عَلَى الغَامِزِ[٦] صَلْبٌ. وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَى تَقَارُبٍ مِنْ سِنِّكَ، وَلُدُونَةٍ فِي غُصْنِكَ، تُقَلِّبُ طَرْفَ الجَارِحِ، وَتَجْرِي فِي عِنَانِ القَارِحِ[٧]، فَضْلاً عَنْكَ، وَقَدْ سَامَتِ اللَّيَالِي ذَاتَكَ تَجْرِيباً وَتَهْذِيباً، وَقَوَّمَتْ قَنَاتَكَ أُنْبُوباً فَأُنْبُوباً، حَتَّى خَلَصْتَ خُلُوصَ الذَّهَبِ[٨]، عَلَى اللَّهَبِ، وَالدِّيْنَارِ، عَلَى النَّارِ.

وَإِنَّ أُفُقاً أَنْتُ بَدْرُ تَمَامِهِ لَيَنْطَحُ السَّمَاءَ مَنْكِبُهُ ، وَيَزْحَفُ تَحْتَ رَايَةِ الفَتْحِ وَالفَلْجِ مَوْكِبُهُ فَلا عَرِيَ الفَضْلُ مِنْ ظِلِّكَ ، وَلَا حَطَّ رِكَابُ الشُّكْرِ إِلَّا فِي مَحَلِّكَ، وَلَا زِلْتَ تَتَقَلَّدُ الحَمْدَ عِقْداً، وَتَلْبَسُ السَّعْدَ بُرْداً، إن شاء الله[٩].

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٥ - ٥٥٦

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٣٤ - ٣٣٥

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :وكتب .

٢- في ذيل الديوان: منزع والمتوع :بلوغ آخر غايته .

٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :ينشأ .

٤- في م ، ب :بإكمال السيادة ، واكتمال السعادة ، وفي د : باكتمال السيادة والسعادة* .

٥- أوقه : الثقل .

٦- غمز : كسر وعصر بيده .

٧- القارح : الفرس استتمّ الخامسة من سنيه ودخل في السادسة.

٨- في د : الذهب النضار ، والدينار...*

٩- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :بمنّه .

[٢٩]

وقال يرثي والدة الفقيه الأجلّ قاضي القضاة أبِي أُمَيَّةَ وصل الله توفيقه:

في مِثلِـــهِ مِـــن طـــارِقِ الأَرزاءِ جـــادَ الجَمـــادُ بِعَـــبرَةٍ حَمـــراءِ

...

وأصحب هذه القصيدة رقعة نسختها:

كَتَبْتُـهُ، وَالـنَّفْسُ تَتَفَجَّـعُ، وَحَصَـاةُ القَلْـبِ تَتَصَـدَّعُ، عِنْـدَمَا طَـرَأَ النَّبَـأُ الأَشْـنَعُ، وَطَـرَقَ الحَـادِثُ الأَهْـوَلُ الأَفْظَـعُ، بِمَـا سَـفَرَ عَنْـهُ الـدَّهْرُ مِـنْ وَجْـهِ الدَّاهِيَـةِ الـدَّهْيَاءِ، واْجْتَثَّـهُ بِسَـاحَتِكَ مِـنْ دَوْحَـةِ العَلْيَـاءِ الغَيْنَـاءِ، الـتِي كُنْـتَ تَتَمَتَّـعُ بِبَـرْدِ أَفْيَائِهَـا وَتَسْـتَنْزِلُ الرَّحْمَـةَ بِبَرَكَـةِ دُعَائِهَـا، أَلحَفَهَـا اللهُ جَنَـاحَ عَفْـوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَتَغَمَّدَهَا بِنَفْحَةِ رَوْحِهِ وَرَيْحَانِهِ؛ فَلَقَدْ كَانَتْ نَسِيْجَةَ وَحْدِهَا فَضْلاً وَنُـبْلاً، وَدِيَانَـةً وَعَقْـلاً. وَلا غَـرْوَ أَنْ يَـذِيعَ عَمَـلُ الخَـيْرِ وَالـبِرِّ، وَإِنْ كَـانَ مِـنْ مَصُـونَةٍ وَرَاءَ الحِجَـابِ والسِّـتْرِ، فَالبَـدْرُ يُضِـيْءُ خِـلالَ غَمَامِـهِ، وَالمِسْـكُ يَـنِمُّ وَرَاءَ خِتَامِـهِ. وَمَـا قَضَـتْ-وَكُلُّنَـا سَيَقْضِـي، وَيَحُتَـثُّ رَاحِلَـةَ عُمْـرِهِ فَيُنْضِـي-إِلَّا زَاكِيَةَ المَسَاعِي وَالأَعْمَالِ، حَائِزَةً بِكَ وَفِيْكَ غَايَةَ الأَمَانِي وَالآمَالِ ، فَسَقَى اللهُ ذَلِـكَ الأَصْـلَ كُـلَّ هَـامِرٍ،مِنْ غَمَـامِ الرَّحْمَـةِ هَامِـلٍ، وَوَقَـى هَـذَا الفَـرْعَ كُـلَّ عَاصِـفٍ مِـنْ رِيَـاحِ الحَـوادِثِ قَاصِـفٍ، وَأَمْتَعَنَـا بِكَـرِيمِ ظِلِّـهِ وَثَمَرَتِـهِ، كَمَـا أَمْتَعَـهُ بِطِيبِ مَغْرِسِهِ وَتُرْبَتِهِ.

وَبَعْدُ، فَإِنْ جَزِعْتَ لِهَذَا الحَادِثِ الكَارِثِ، فَبِحُكْمِ البُنُوَّةِ وَالفَضْلِ، وَإِنْ صَبَرْتَ، فَبِمُقْتَضَى الشَّرِيْعِة وَالعَقْلِ. فَأَيّاً أَتَيْتَ، فَلا مَلامَةٌ تَتَعَلَّقُ بِكَ، وَلا حُجَّةٌ تَتَوَجَّهُ عَلَيْكَ، فَخَطْبُكَ أَشْنَعُ، وَعُذْرُكَ أَوْسَعُ. غَيْرَ أَنَّ الصَّبْرَ أَخْلَقُ بِمِثْلِكَ مِنْ أَهْلِ الجَزْالَةِ، وَأُولِي الرَّجَاحَةِ والجَلالَةِ. وَمَا كَتَبْتُ- أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكَ - أُذَكِّرُ وَأُبَصِّرُ، فَأَنْتَ بِمَا مَنَحَكَ اللهُ أَذْكَى، وَأَحْضَرُ فَهْماً وَأَزْكَى، وَلَكِنِّي لـمَّا قَامَ بِي فَادِحُ الرُّزْءِ يُحَرِّكُنِي، ثُمَّ قَعَدَ بِي اسْتِيلاءُ الضَّعْفِ يُمْسِكُنِي، كَتَبْتُ أُجْلِي وَجْهَ العُذْرِ فِي التَّوقُّفِ، وَأَشْرَحُ سَبَبَ التَّأَخُّرِ وَالتَّخَلُّفِ. وَمِثْلُكَ- وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَكَ- مَنْ تَصَفَّحَهُ وَتَأَمَّلَهُ، وَأَنْعَمَ عَلَى عَادَتِه فَتَقَبَّلَهُ وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنِّي لا أَكَادُ أُفْلِتُ مِنْ إِسَارِ شَكْوَى، إِلَّا رَسَفْتُ فِي قَيْدِ أُخْرَى، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ نُعْمَى، وَتَذْكِرَةٌ مِنْ غَفْلَةٍ وَرُحْمَى. وَقَدْ حَمَّلْتُ مِنْ ذَلِكَ فُلاناً- أَعَزَّهُ اللهُ - مَا سَيَبْسُطُهُ مُجْمِلاً، وَتَعِيهِ مُنَعَّماً مُتَطَوِّلاً.

حَفِظَ اللهُ عَلَيْنَا بِكَ مَا عَرَفْنَاهُ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَوْسَعْنَاهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَعْلَقْنَاهُ مِنْ حَبْلِ كَلاءَتِهِ وَعِصْمَتِهِ، وَلا زِلْتَ تَبْقَى وَتَرْقَى، وَتُلَقَّى كُلَّ أُمْنِيَّةٍ وَتُوَقَّى ، وَعِقْدُ مَجْدِكَ فِي انْتِظَامِهِ ، وَبَدْرُ سَعْدِكَ فِي تَمَامِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٧٦-٢٧٧.

[٣٠]

فصل[١] :

كِتَـابٌ قَـدْ أَظْلَـمَ بَيَاضُـهُ فِي عَيْـنِي وَسَـوَادُهُ، حَـتَّى تَسَـاوَى طِرْسُـهُ[٢] وَمِدَادُهُ. فَيَا لَهُ كِتَاباً، مُلِئَ اكْتِئاباً، وَقِرْطَاساً، لَبِسَ بَدَلَ الحِدَادِ أَنْقَاساً[٣]، فَلَوْ أَنَّ الجَمَادَ أَمْكَنَهُ البُكَاءُ لَبَكَى، وَأَعْلَنَ بِالعَوِيْلِ[٤] وَشَكَا.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٣

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٣١ –٣٣٢

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- الطرس :الصحيفة ، الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد الكتابة عليه .

٣- الأنقاس : جمع نقس ؛ مداد الدواة .

٤- العويل : رفع الصوت بالبكاء ، أو الصياح والبكاء ، ويقال : يكون صوتاً من غير بكاء .

[٣١]

وفي فصل[١] :

وَلَقَد اُخْتُضِرَ[٢] عَلَى حِيْنِ تَطَلُّعٍ إِلَى الدُّنْيَا وَارْتِقَابٍ، وَنَضْرَةٍ فِي عُوْدِهِ لِمَاءِ الشَّبَابِ، فَكَأَنَّهُ- رَحِمَهُ اللهُ – وَقَدِ افْتَرَشَ بَطْنَ الثَّرَى، وَخَيَّمَ بِمَنْزِلَةِ البِلَى، مَا اشْتَمَلَ بِظِلٍّ مِنَ العَيْشِ مَدِيدٍ، وَلَا رَفَلَ فِي بُرْدٍ مِنَ الأَمَلِ جَدِيدٍ. وَمَا أَوْشَكَ لَحَاقَ البِطَاءِ بِالعِجَالِ ، وَأَسْرَعَ طَيَّ اللَّيَالِي، لِصُحُفِ الآجَالِ[٣]. فَأُفٍّ لِدَهْرٍ لا يَزَالُ يَسْتَرْجِعُ مُعَارَهُ ، وَيَشُنُّ مُغَارَهُ ، وَيُقَوِّضُ مَا بَنَى، وَيَنْقُضُ مَا سَنَّى، وَمَا خَيْرُ دُنْيَا أَرَى كُلَّ يَوْمٍ ثَوْبَهَا يُطْوَى، وَوَجْهَهَا يُزْوَى[٤]، وَسِهَامَ الأَمَلِ فِيْهَا تُشْوِي[٥]، وَنُجُوْمَ الإِخْوَانِ[٦] بِهَا تَنْكَدِرُ[٧] فَتَهْوِي؟

وَعَسَى اللهُ أَنْ يَمْسَحَ عَنِ العَيْنِ سِنَةَ الكَرَى، وَيَسْرِيَ بِنَا فَنَحْمَدَ عِنْدَ الصَّبَاحِ السُّرَى[٨]، وَيَرْغَبَ بِنَا عَمَّنْ تَثَاقَلَ فَأَلقَى رَحْلَهُ وَحَطَّ[٩]، وَنَامَ لَيْلَهُ فَغَطَّ[١٠].

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٤

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٣٢ –٣٣٣

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : احتضر .

(وفي النسخ والديوان :احتضر)* .

واختضر : الشابّ مات فتيّاً ، وهي قراءة جيّدة للدكتور إحسان عبّاس .

٣- في ب ، م : الأعمال *.

٤- يُزوى : يُقبض ويجمع .

٥- تشوي : تصيب جلدة الرأس ، ويستعمل في كلّ ما أخطأ غرضاً .

٦- في د : الأحوال * .

٧- تنكدر : تتناثر .

٨- من المثل العربي :" عند الصباح يحمد القوم السرى"

مجمع الأمثال : ٣/٢ ، المستقصى في الأمثال : ١٦٨/٢

جمهرة الأمثال : ٤٢/٢ ، فصل المقال : ٣٩١ .

٩- حطّ : وضع .

١٠- غطّ النائم : شخر وسمع له غطيط .

[٣٢]

فصل:

وَهَا هُوَ رَهِيْنُ قَيْدِ القَبْرِ، سَلِيْبُ ثَوْبِ اليُسْرِ، قَدْ زَحْزَحَهُ الدَّهْرُ عَنْ بَلَدِهِ وَوَلَدِهِ، وَأَبَانَهُ مُرْتَفِعاً عَلَى يَدِهِ ، مَطْوِيّاً عَلَى كَمَدِهِ، يَطُوْلُ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَهُوَ قَصِيْرٌ، وَيُظْلِمُ عَلَيْهِ الصُّبْحُ وَهُوَ بَصِيْرٌ، وَالأَجْرُ نِعْمَ مَا لَزَّهُ قَرَنُ[١]، وَخَيْرُ الأَطْوَاقِ فِي الأَعْنَاقِ بِيْضُ الأَيَادِي وَالمِنَن.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٧

لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- لزّ الشيء بالشيء : ألزمه إيّاه وشدّه وألصقه.

والقَرَن : الحبل يجمع بين البعيرين ، ويقال للبعيرين إذا قرنا في حبل واحد قد لزّا . وقال جرير :

وابن اللَّبون إذا ما لُزّ في قرن ... لم يستطع صولة البُزْل القناعيس

شرح ديوان جرير :٣٢٣

[٣٣]

وفي فصل من تعزية[١] :

وَعِنْـدَ اللهِ يُحْتَسَـبُ ذَلِـكَ الفَقِيـدُ، الشَّـهِيدُ. قَمَـرُ فَضْـلٍ سَـارَ إِلَى سَـرَارِهِ[٢]، وَوُسْـطَى عِقْـدِ إِخْـوَانٍ[٣] أَخَـذَ فِي انْتِشَـارِهِ، وَمِصْـبَاحُ أَمَـلٍ عُجِّـلَ بِانْطِفَائِهِ، وَصَبَاحُ جَذَلٍ أَسْرَعَ فِي انْطِوَائِهِ. فَقُبْحاً لِدُنْيَا قَصَفَتْهُ أَنْضَرَ مَا كَانَ غُصْناً، وَكَسَفَتْهُ أَقْمَرَ مَا كَانَ حُسْناً، وَمَا كَادَ أَنْ تَسْتَنِيرَ لِسَارِيهِ مَطَالِعُهُ، وَتَمْتَدَّ لِرَاجِيهِ مَطَامِعُهُ، حَتَّى مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ البِدَارِ[٤]، وَكَسَفَتْهُ عِنْدَ الإِبْدَارِ[٥].

فَـإِذَا تَصَـوَّرْتُ مَـا أَتَـاهُ الـدَّهْرُ مِـنِ اجْتِرَامِـهِ فِي اخْتِرَامِـهِ، وَأَذْهَبَـهُ بِاعْتِبَاطِـهِ[٦]، مِـنِ اغْتِبَاطِـهِ، وَتَأَمَّلْـتُ كَيْـفَ التَقَمَـهُ[٧] الحِمَـامُ، وَاخْتَطَفَتْـهُ الأَيَّـامُ، وَصَـارَ مَفْقُـوداً، كَـأَنْ لَمْ يَكُـنْ مَشْـهُوداً، وَمَنْشُـوداً، كَـأَنْ لَمْ يَكُـنْ مَوْجُوداً، وَجَدْتُ لِذَلِكَ وَجْداً لَا يَسَعُهُ الصَّدْرُ[٨]، وَلَا يُقَاوِمُهُ الصَّبْرُ، وَأُوَاراً لَا تَطْوِيهِ أَحْنَاءُ الضُّلُوعِ، وَلَا تُطْفِيهِ أَحْسَاءُ[٩] الدُّمُوعِ.

فَكَأَنَّـا وَقَـدْ صَـارَ حَبْـلُ حَيَاتِـهِ إِلَى بَتَـاتٍ[١٠]، وَسِـلْكُ مُؤَاخَاتِـهِ إِلَى شَتَاتٍ ، لَمْ نَسْتَبِقْ يَوْماً فِي مَيْدَانِ الصِّبَا، وَلَمْ تَهُـبَّ بِنَا جَنُوبٌ وَصَبَا[١١]، وَكَـأَنَّ كُـلَّ ذَلِـكَ لَمَّـا انْقَضَـى، فَمَضَـى خَيَـالٌ أَلـمَّ ثُمَّ تَـوَلَّى، وَغَمَـامٌ أَظَـلَّ ثُمَّ تَجَلَّى.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٧ — ٥٥٨

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٢٣ - ٣٢٤

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :وكتب في تعزية.

٢- سرار الشهر آخر ليلة منه .

٣- في ب ، م : إحسان* .

٤- البدار : الإسراع والاستعجال .

٥- الإبدار : أبدر القوم : طلع لهم البدر .

وفي : م ، ب : يد الأقدار *.

٦- اعتبطه الموت : أخذه شابّاً صحيحاً ليس به علّة .

٧- في ب ، م : التهمه *.

٨- في ب ، م : الدهر *.

٩- الأحساء : الماء تحت الأرض ، فإذا حفر عنه ذراع جاش الماء

١٠- بتّ الشيء : قطعه أصلاً .

١١- الجنوب : ريح تأتي عن جنوب القبلة . والصّبا: ريح القَبُول.

[٣٤]

وكتب إلى الوزير الفقيه، أَبِي مَرْوَانَ ابْنِ أَبِي الخِصَالِ، بعقب التقائهما بحضرة شَاطِبَة:

يَا سَيِّدِي الأَعْلَى، وَقِدْحِي المُعَلَّى، وَعِلْقِي الأخْطَرَ الأَغْلَى- لَا زِلْتَ بَيْنَ شَفَاعَةٍ مَقْبُولَةٍ، وَطَاعَةٍ للهِ مَوْصُولَةٍ- كَتَبْتُهُ وَالنَّفْسُ تُفَدِّيكَ، وَتَتَمَنَّى فَلَا تَعْتَدِيكَ، وَتَتَشَكَّرُ مَا اسْتَشْعَرَتْهُ مِنْ تَحَفِّيكَ، وَتَهِيمُ بِالجَانِبِ الغَرْبِيِّ فِيكَ، كَلَفاً بِمَا تَتَنَشَّقُهُ مِنْ رَوْحِ شِيَمِكَ ، وَتَتَشَوَّقُهُ مِنْ مَرَاقِي هِمَمِكَ .لا زِلْتَ تَبْقَى،وَتَرْقَى وَالسَّعْدُ مِنْ خَدَمِكَ،وَالنَّجْمُ مِنْ مَوَاطِئِ قَدَمِكَ،بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى.

وَبَعْدُ، فَقَدْ كَانَ انْفِصَالُنَا عَمَّا لَمْ يُتَحَصَّلْ فَهْماً، وَلَمْ يُعْطِ عِلْماً، ثُمَّ تَلاهُ، مَا كَشَفَهُ وَجَلاهُ، فَشَكَرْتُ اليَدَ الجسِيمَةَ، والمَبَرَّةَ الوَسِيْمَة، تَشَكُّرَ مَلِيءٍ بِالثَّنَاءِ، عَلَى ذَلِكَ السَّرْوِ وَالسَّنَاءِ، وَتَمَلَّكَنِي صُنْعٌ أَبَاتَنِي بِلَيْلَةِ السَّرَّاءِ، وَهَزَّنِي هَزَّ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ.

وَكُنْتُ قَلِقَ الحَشَايَا خَفَّاقَ الأَحْشَاءِ، أَتَأَلَّمُ لِإلحَاحِي وَإِلحَافِي، وَأَتَمَلْمَلُ لِتَوَقُّفِ الدَّهْرِ عَنْ إِسْعَادِي وَإِسْعَافِي، مَعَ مُوَاتَاتِهِ فِي بَعْضِ الأَزْمِنَةِ، وَأَكْثَرِ الأَمْكِنَةِ، لِنَفَرٍ لَا يُوَافِقُ هَذَا الاسْمُ هُنَالِكَ مُسَمَّاهُ، وَلَا يَنْطَبِقُ لَفْظُهُ عَلَى مَعْنَاهُ، فَمَا عَلَيْكَ مِنْ بَأْسٍ أَنْ تَعْدِلَ عَنْ قِرَاءَتِهِ «نَفَراً»، إِلَى قِرَاءَتِهِ

«بَقَراً»، فَالتَّهَمُّمُ بِذَاتِ الـمَعْنَى، آكَدُ مِنَ التَّهَمُّمِ بِاللَّفْظِ وَأَوْلَى. وأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ خَطَلِ القَوْلِ، وَأَسْتَمْنِحُهُ الـمَعْهُودَ مِنَ الطَّوْلِ، فَهُوَ الـمَلِيءُ بِهِ، عَزَّ وَجْهُهُ.

وَمِنْ بَدِيعِ البَدِيعِ، الكَلَامُ مَعْجُونٌ، وَالحَدِيْثُ شُجُونٌ.[وَإِنَّهُ اتَّفَقَ[1] أَنْ فَصَلْتُ تِلْكَ العَشِيَّةَ، وَالأُفُقُ قَدْ أَضْحَى، وَأَبَلَّ مِنْ ثَمَلِهِ[2] وَصَحَا، وَصَفْحَةُ الشَّمْسِ مَخْطُوطَةُ القِنَاعِ، مَصْقُولَةٌ كَمِرْآةِ الصَّنَاعِ. فَمَا هَمَمْتُ[3] أَجْزَعُ وَادِي الحَضْرَةِ، حَتَّى طَفِقَ جَفْنُ الجَوِّ يَنْدَى، وَمِطْرَفُ الغَمَامِ يُنَارُ وَيُسْدَى، فَسُمْتُ الـمَطِيَّ أَنْ تَجِفَ[4]، وَتَسْبِقَ[5] السَّمَاءَ أَنْ تَكِفَ. فَمَا لَبَّى فَأَهْطَعَ[6]، وَتَسَنَّمَ بِي الـمَقْطَعَ ، حَتَّى آلَ حِلْمُ ذَلِكَ الهَوَاءِ طَيْشاً ، وَرَذَاذُ ذَلِكَ الرَّبَابِ طَشّاً. فَقُلْتُ : "اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا"[7] ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ

---

١ – في خريدة القصر: واتفق لي .

٢ – في خريدة القصر: مرضه .

٣ – في خريدة القصر: بأن .

٤ – في خريدة القصر: أقسمت المطيّ أن تخفّ .

٥ – في خريدة القصر: بسقت .

٦ – في خريدة القصر :فمال بي وأقلع .

٧ – من حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، صحيح البخاري: باب الاستسقاء رقم :٩٦٨، ٣٤٤/١ ، صحيح مسلم : باب الدعاء في الاستسقاء رقم :٨٩٧ ، ٦١٣/٢-٦١٤ .

عَدَلَ عَنَّا، وَضَرَبَ بِكَلْكَلِه[١] غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَّا، وَأَرْعَدَ فَنَفَثَ وَرَقَى، ثُمَّ غَنَّى مَا شَاءَ وَسَقَى. وَأَفْضى بِنَا الرَّكْضُ إِلَى مَصَابِ سَمَائِهِ، وَمُهْرَاقِ عَزَالَى مَائِهِ، وَقَدْ صَبَحَهُ[٢] لَثَقٌ، وَغَبَقَهُ[٣] غَدَقٌ، فَصُعُودُهُ زَلَقٌ، وَهُبُوطُهُ غَرَقٌ. وَحَسْبُكَ مِنْ وَحْلٍ يُقَيِّدُ مَطَايَا الرَّكْبَانِ، وَيَكُبُّ[٤] آونَةً عَلَى الأَذْقَانِ، فَلَا تَرَى إِلَّا خُدُوداً، تُعَفَّرُ سُجُوداً، وَبُرُوداً، تُصْبَغُ حُمْراً وَسُوداً، فَمَا شِئْتَ مِنْ مُمَسَّكٍ[٥] وَمُعَنْبَرٍ، وَمُصَنْدَلٍ وَمُعَصْفَرٍ:

وَسَوَاءٌ نَجْدٌ هُنَاكَ وَوَهْدٌ ... وَسَبِيلٌ خَبَطْتَهُ[٦] وَمَسِيلُ
وَقَدِ اعْتَلَّ بَيْنَ طَلٍّ[٧] وَصَحْوٍ ... نَشْرُ تِلْكَ الصَّبَا وَذَاكَ الأَصِيلُ
وَانْتَشَى رَيّاً [٨]كُلُّ قُطْرٍ فَلَوْلا ... هُضْبُ تِلْكَ العُلَا لَكَانَ يَمِيلُ[٩]

---

١ – في خريدة القصر: بجرانه.

٢ – في خريدة القصر: عمّه .

٣ – في خريدة القصر : وعمره.

٤ – في خريدة القصر: الرجالة .

٥ – في خريدة القصر: ومزعفر ومعنبر .

٦ – في خريدة القصر: قصدته .

٧ – في خريدة القصر: ظلّ .

٨ – في خريدة القصر: وانتشى منه .

٩ – القطعة ليست في الديوان ، وهي في قسم النثر من خريدة القصر :٥٥٢/٢

فَسِرْنَا، وَمَا كِدْنَا، بَيْنَ سِبَاحَةٍ[1]، وَمِسَاحَةٍ حَتَّى شَارَفْنَا الدِّيَارَ وَقَدْ عَبَسَ وَجْهُ السَّمَاءِ، وَأَدْرَكَ بِنَا كُمَيْتُ المَسَاءِ، يَسْمُو النَّشَاطُ بِطَرْفِهِ، وَيَسِيلُ غَدَقُ النَّدَى عَلَى عِطْفِهِ، وَأَشْقَرُ الشَّفَقِ قَدْ نَبَذَ المَعْمُورَةَ خَلْفَهُ[2]، وَنَفَضَ عَلَى مَسْقَطِ الشَّمْسِ عَرْفَهُ، يَمْرحُ عِزَّةً بِسَبْقِهِ، وَيَجُرُّ مِنْ نَخْوَةٍ[3] عِنَانَ بَرْقِهِ، وَذِكْرُ اللهِ- تَعَالَى- مِلْءُ الصُّدُورِ وَالأَفْوَاهِ وَشِعَارُ[4] الألسِنَةِ وَالشِّفَاهِ. وَمَا كُنَّا لِنَعْبُرَ مَسَافَةَ تِلْكَ المَجَابَةِ، إِلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ]، وَعَطْفَةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ، وَنَظْرَةٍ مِنْ رَحِيمٍ كَرِيمٍ. وَتَلافَانَا اللهُ بِحَافِلِ نُعْمَاهُ، وَشَامِلِ رُحْمَاهُ، فَأَدْرَكَنَا عَلَى سَيْرٍ بَطِيٍّ، وَإِعْيَاءِ مطِيٍّ، وَخُلُقٍ غَيْرِ وَطِيٍّ.

[وَلَحِقَ بِلَحَاقِنَا أَدْهَمُ الظَّلْمَاءِ[5] يَخُبُّ، وَيَتَنَفَّسُ عَنْ شَمَالٍ تَهُبُّ، فَمَا اجْتَلَيْتُ[6] وَجْهَ الأُنْسِ إِلَّا بِشُعْلَةِ مِصْبَاحٍ، أَزْهَرَ لَيَّاحٍ، طَلْقِ الأَسِرَّةِ وَضَّاحٍ، يَنُوبُ عَنْ غُرَّةِ صَبَاحٍ وَيَخْفِقُ خُفُوقَ ارْتِيَاحٍ، فَكَأَنَّمَا كَرَعَ فِي مُجَاجَةِ رَاحٍ، أَوْ

---

١ – في خريدة القصر: ساحة .

وفي ل : سياحة * .

٢ – في خريدة القصر: قد جاء خلفه .

٣ – في خريدة القصر: نحره .

٤ – في خريدة القصر: شفاء .

٥ – في خريدة القصر: ولحقنا أدهم الإظلام .

٦ – في خريدة القصر: اجتلينا .

تَطَلَّعَ [1]إِلَى بَارِقَةِ سَمَاحٍ]:

تَحَلَّت بِهِ مِن كَوكَبٍ لَبَّةُ الدُّجى فَأَوْجَفَ بِي طِرْفٌ مِنَ اللَّيْلِ أَبلَقُ
وَبِـتُّ وَعِنـدِي لِلصَّبَاحِ مُـلاءَةٌ تَـرُوقُ وَجَيـبٌ لِلظَّـلامِ يُمَـزَّقُ
يُشـافِهُني مِنـهُ لِسـانُ اِبـنِ رَملَـةٍ يَبـوحُ بِسِـرِّ اللَّيـلِ وَاللَّيـلُ مُطـرِقُ
وَيَنحَـرُ دوني جُـنْحَ كُـلِّ دُجُنَّـةٍ سِـنانٌ صَـقيلٌ لِلذُّبالَـةِ أَزْرَقُ[2]

وَاقْتَضَى فَصْلُ الشِّتَاءِ، وَبَرْدُ الهَوَاءِ، أَنْ أَسْتَظْهِرَ إِلَى ضِيَاءٍ، بِصِلَاءٍ، فَشَفَعْتُ نُوْرَ السِّرَاجِ، بِأَبْيَضَ وَهَّاجٍ، فِي أَسْوَدَ دَاجٍ، كَأَنَّمَا رُكِّبَ مِنْ عَاجٍ وَسَاجٍ، فَلَمْ ألبَثْ أَنْ جَمَعْتُ إِلَى بَصَرٍ سَمْعاً، وَأَطْلَعْتُ وِتْرَ الأُنسِ شَفْعاً :

بِـأَحَمَّ مُسْـوَدِّ الأَدِيمِ كَأَنَّمَـا خُلِعَتْ عَلَى عِطْفَيْهِ جِلْدَةُ حَامِ
ذَاكِي لِسَانِ النَّارِ تَحْسَبُ أَنَّـهُ بَـرْقٌ تَمَـزَّقَ عَنْـهُ جَيْـبُ غَمَـامِ
وَكَـأَنَّ بَـدْءَ النَّـارِ فِي أَطْرَافِـهِ شَـفَقٌ لَـوَى يَـدَهُ بِـذَيْلِ ظَـلَامِ[3]

وَلَمَّـا قُمْـتُ لأَدَاءِ الـمَكْتُوبَةِ، فَتَلَقَّيْـتُ بِـوَجْهِي الأَرْضَ، وَقَضَـيْتُ الفَرْضَ، ثُمَّ نِلْتُ مِنَ الزَّادِ ، وَمِلْتُ إِلَى الرُّقَاد ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ جَنْبِي وَالفِرَاشِ،

---

١ – في خريدة القصر: وأطلع .

٢ – القطعة ليست في الديوان.

٣ – القطعة : ٤٤ ، الديوان : ٨٤ .

وَدَبَّ فِيَّ رُوْحُ الانْتِعَاشِ، مَسَحْتُ جَفْنِي مِنْ ذَلِكَ الوَسَنِ، وَتَفَرَّغْتُ لِملامَةِ الزَّمَنِ، فَجَعَلْتُ أَتَكَلَّمُ عَنْ إِحَنِهِ، وَأَتَالَّمُ مِنْ مِحَنِهِ، فَرَاطَلَ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْنَ مُنَّتِهِ وَهَنَتِهِ، وَعَادَلَ بَيْنَ سَيِّئَتِهِ وَحَسَنَتِهِ، وَأَشَارَ إِلَى مَا أَتَاحَ مِنْ لُقْيَاكَ، ثُمَّ قَالَ لِي: هَذَا بِذَاكَ، وَهَلْ يُؤْكَلُ الشُّهْدُ إِلَّا بِسُمٍّ؟ فَاسْتَسَغْتُ هُنَالِكَ خُطْبَانَ خُطُوبِهِ، وَكَفَأْتُ عِنْدَ ذَلِكَ ذَنُوبَ ذُنُوبِهِ، وَأَلقَيْتُ بِيَدِ السِّلْمِ وَكُنْتُ لَهُ حَرْباً، وَعَلَيْهِ إِلْباً.

وَحَاوَلْتُ أَنْ نَلْتَقِيَ فَنَتَحَدَّثَ، وَنَتَجَاذَبَ ذِكْرَ مَا حَدَثَ، وَمِنْ مُنَى المَصْدُورِ لَوْ نَفَثَ[1]، فَعَاقَ عَنِ اللِّقَاءِ وَقْتٌ، أَكْثَرُهُ مَقْتٌ[2]، وَبَخْتٌ، أَوْفَرُهُ شَخْتٌ[3]، مَعَ مَا اتَّفَقَ مِنْ غَيْثٍ مُتَوَاصِلٍ[4]، وَعَيْثٍ[5] مُسْتَأْصِلٍ، وَاسْتِشْرَافِ أَعْنَاقِ سُيُولٍ ، تُلْحِقُ الحُزُونَ بِالسُّهُولِ ، وَتَلْتَطِمُ[6] فِي أَعَالِي[7]

---

١ – في أ : أن ينفث * .

٢ – المقت: أشدّ البغض .

٣ – البخت : الحظ "مولّد أو معرّب قديم " .

الشخت : القليل والدقيق الضامر من الأصل لا من هزال .

٤ – في أ : مواصل *.

٥ – العيث : الإسراع في الفساد .

٦ – في ب : تلطم * .

٧ – في ل ، ب : أعلى *.

مَرَاقِي الوُعُولِ، وَتُنْفَضُ[1] بِهَا أَعْرَافُ شُقْرِ الخُيُوْلِ:

فَسُـمْتُ البَرَاعَـةَ أَنْ تَنْكَفِـي ... وَذَلْـقَ اليَرَاعَـةِ أَنْ يَكْتُبَـا
وَأَجْرَيْـتُ مِـنْ مَـدَّةٍ[2] أَدْهَمـاً ... وَحَلَّيْـتُ مِـنْ مُهْـرَقٍ أَشْهَبَـا
تَرَكْـتُ القُلُـوْبَ لَـهُ[3] مَرْبِطـاً ... وَصَـدْرَ النَّـدِيِّ بِـهِ[4] مَلْعَبَـا[5]

لَا بَرِحْـتَ فِي دَعَـةٍ وَسَـعَةٍ، وَلا زَالَ مَكَانُـكَ مِـنَ[6] الـمَعَالِي مُمَهَّـداً، وَسُلْطَانُكَ مِنَ[7] اللَّيَالِي مُؤَيَّداً، تَحْمِلُ كَمَالَ البَدْرِ، وَجَلَالَ لَيْلَةِ القَدْرِ، بِمَشِيئَةِ اللهِ، تَعَالَى، وَالسَّلَامُ.

التخريج

الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٠٢-٣٠٧.

خريدة القصر :٣/٥٥١-٥٥٢ (ما بين قوسين فحسب) .

---

١ - في ب : تنغض * .

٢ - في ب : مده * .

٣ - في ل ، ب ، س : لها * .

٤ - في ل ، ب ، س : بها * .

٥ - القطعة ٦٩ ، الديوان : ١١٩ .

٦ - في ب : في * .

٧ - في ل ، ب : مع *.

[٣٥]

فصل[١] :

فَمَا انْبَـرَتِ النَّوائِـبُ إِلَّا أَرْسَـلَ زِمَامَهَـا، وَلَا بَـرَتِ الحَـوَادِثُ إِلَّا أَنْصَـلَ سِهَامَهَا، وَلَا احْتَشَدَتِ الدَّوَاهِي إِلَّا كَانَ مِنْ أَعْيَانِهَا، وَلَا اسْتَنْجَدَتِ اللَّيَالِي إِلَّا كَـانَ مِـنْ أَعْوَانِهَـا. وَهَيْهَـاتَ أَنْ يُظْفَـرَ بِـالحُرّ[٢] الشَّـرِيفِ جَـوْهَرُهُ، الكَـرِيمِ عُنْصُـرُهُ، فَالنَّـاسُ "أُخْبُـرْ تَقْلَـهْ"[٣]، وَبِالاخْتِبَـارِ، يَتَبَـيَّنُ الأَوْغَـادُ مِـنَ الأَحْـرَارِ، وَعَلَى النَّارِ، يَتَمَيَّزُ الخَبِيْثُ مِنَ النُّضَارِ. وَإِنَّ الـدَّهْرَ لمَاشٍ بِأَهْلِهِ القَهْقَرَى فِي سَمَاءِ الفَضْلِ وَالكَرَمِ، وَمَنَازِلِ النُّبْلِ وَمَرَاقِي الهِمَم.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٣

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٣١

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب.

٢- في م ، ب : بالخلق .

٣- اقتباس من الحديث الضعيف:"وجدت الناس اخبرْ تقله".
كشف الخفاء والإلباس :٢/ ٣٣٥ ، فصل المقال:٣٩١.

[٣٦]

فصل[١] :

فَهَا أَنَا بَيْنَ عَيْشٍ قَدْ ذَهَبَ حُلْوُهُ، وَنَضَبَ صَفْوُهُ، وَأَمَلٍ أَخْلَقَتْ[٢] جِدَّتُهُ، وَذَبُلَتْ نَضْرَتُهُ، مُتَلَدِّدٌ[٣] بَيْنَ عَبْرَةٍ أُبَدِّدُهَا، وَزَفْرَةٍ أُرَدِّدُهَا، وَحَسْرَةٍ أُجَدِّدُهَا، وَطَرْفٍ أُقَلِّبُهُ[٤] فِي الكَوَاكِبِ كَأَنِّي[٥] أَلتَمِسُهُ فِيْهَا وَأَطْلُبُهُ، وَآمُلُ طُلُوعَهُ مَعَهَا فَأَرْقُبُهُ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٣ – ٥٥٤

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٣٢

الشروح وفروق الروايات :

١- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- أخلقت : بليت .

٣- تلدّد : تحيّر متبلّداً ، والتفت يميناً ويساراً .

٤- قال ابن خفاجة :(الديوان :١٢٨)

" أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ لَعَلَّنِي أَشِيْمُ سَنا بَرْقٍ هُناكَ تَطَلَّعا "

٥- وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : كأنّي .

[٣٧]

وفي فصل[١] :

وَمَا تَذَكَّرْتُ عَطَلَ[٢] نَحْرِ الزَّمَانِ، مِنْ قَلائِدِ الإِخْوَانِ، وَكَيْفَ كَرَّ الدَّهْرُ فَمَحَا مَحَاسِنَ تِلْكَ الصَّحِيْفَةِ، وَطَوَى طَوَامِيْرَ[٣] تِلْكَ الشَّبِيْبَةِ، إِلَّا انْقَدَحَتْ بِصَدْرِي لَوْعَةٌ، لَوْ أَنَّهَا بِالحَجَرِ لانْفَطَرَ فَانْفَجَرَ، أَوْ بِالنَّجْمِ لانْكَدَرَ فَانْتَثَرَ:

وَمَـا وَجْـدُ أَعْرَابِيَّـةٍ قَـذَفَتْ بِهَـا ... صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ

تَمَنَّـتْ أَحَالِيْـبَ الرِّعَـاءِ وَخَيْمَـةً ... بِنَجْـدٍ فَلَـمْ يُقْـدَرْ لَهَـا مَـا تَمَنَّـتِ[٤]

بِأَعْظَمَ وَجْداً مِنِّي بِذَلِكَ القَصْرِ[٥]، وَقَدْ انْتَثَرَ عِقْدُ أَحْبَابِهِ، وَأَقْفَرَ عَامِرُ جَنَابِهِ، وَانْسَلَخَ لَيْلُ شَبَابِهِ، وَطَارَ وَاقِعُ غُرَابِهِ، وَانْطَوَتْ لَهُ صَحَائِفُ أَيَّامٍ لا تُنْشَرُ، عَلَى سُطُورِ آثَامٍ لا تُبْشَرُ[٦]، فَكَأَنَّمَا تَقَشَّعَ مِنْهُ سَحَابٌ، وَاضْمَحَلَّ بِقِيْعَتِهِ[٧] سَرَابٌ، فَصِرْنَا لَا نَتَلاقَى إِلَّا بِالذِّكْرِ، وَلَا نَتَرَاءَى[٨] إِلَّا بِالفِكْرِ.

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥٤ — ٥٥٥

مسالك الأبصار :٩٢

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :٣٣٣ -٣٣٤

الشروح وفروق الروايات :

١- في مسالك الأبصار : ومنه قوله، وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : وكتب .

٢- العطل :الخلوّ من الشيء ، وعطلت المرأة : لم يكن عليها حليّ .

٣- الطوامير : الصحائف .

٤- البيتان مجهولا النسبة أو منسوبان لبعض الأعراب في عدد من كتب الأدب ، وهما في قطعة منسوبة إلى طارق بن نابي وبعض أبياتها لابن الدمينة في الحماسة البصريّة : ١٤٣/٢ ، وهما في ملحق ديوان ابن الدمينة :٢٠٢ -٢٠٣ ، وانظر تخريجهما فيه :٢٦١.

٥- في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ومسالك الأبصار : لذلك العصر .وآثرنا رواية ذيل الديوان لمناسبتها للسياق.

٦- تبشر : تقشر وتمسح .

٧- القيعة : جمع قاع ، وهي ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب نصف النهار .

٨- تراءى القوم : رأى بعضهم بعضاً .

[٣٨]

كتب أَبُو إِسْحَاقَ الخَفاَجِيُّ إلى أَبِي عَبدِ اللهِ ابنِ أَبِي الخِصَالِ، أعزّهما الله:

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُنَاجِي الشَّوْقَ نَاجِيَةٌ[١] هَلَّا وَنَحْنُ عَلَى عَشْرٍ مِنَ العُشَرِ[٢]

وَرَدَتْنِي -أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ رَئِيْسِي المُعَظَّمِ قَدْرُهُ، المُقَدَّمِ أَمْرُهُ، المُعْتَرَفِ بِحَقِّهِ، المُخْتَلَفِ إِلَّا فِي سَبْقِهِ- رُقْعَتُهُ المَبْرُورَةُ، عَلَى حِيْنَ لَا عَهْدَ لِي بِظلِّ ذَلِكَ الغَمَامِ، وَلَا ذِمَّةَ بِيَدِي مِنْ حَبْلِ ذَلِكَ الزِّمَامِ، إِلَى اللهِ أَشْكُو غِيَرَ الأَيَّامِ، وَانْتِقَالَ تِلْكَ السَّجَايَا الكِرَامِ. وَمَا تَطَلَّعَتْ رُقْعَتُهُ الخَطِيْرَةُ تَبْهَرُ النُّبَهَاءَ، وَتَنْظُرُ فِي أَعْطَافِهَا خُيَلَاءَ، حَتَّى مَسَحْتُ لَهَا جَفْنِي أَحْسَبُنِي فِي المَنَامِ، وَأَنْشَدْتُهَا إِخَالُهَا مِنْ أَضْغَاثِ الأَحْلَامِ:

إِنِّي شَرِبْتُ وَكُنْتُ غَيْرَ شَرُوْبِ وَتُقَرِّبُ الأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيْبِ[٣]

وَقَدْ كُنْتُ خِلْتُ أَنَّ وُدَّ ذَلِكَ السَّيِّدِ -أَمْتَعَ اللهُ السِّيَادَةَ بِمَكَانِهِ- قَدْ خَيَّمَ فَمَا يَرْحَلُ، وَرَسَخَ فَمَا يَزْحَلُ، وَصَفَا شِرْبُهُ فَمَا يَطْحَلُ. وَهَلّا نَشِطَ لِلمُطَالَعَةِ - أَعَزَّهُ اللهُ- فَقَامَ حِيْنَ قَعَدْتُ، وَاقْتَرَبَ إِنْ كُنْتُ بَعُدْتُ؟ فَمَا

---

١ - الناجية : الناقة السريعة تنجو براكبها .

٢ - البيت لأبي العلاء المعرّي : سقط الزند : ٥٦ .

٣ - البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ٥٥ . وفيه :أنّي سربت وكنت غير سروب

شِمْـتُ لِخَطَابِـهِ بَارِقَـةً، وَلَا التَمَحْـتُ لِصَـحِيْفَةٍ لَـهُ شَـارِقَةً، إِلَّا بَعْـدَ أَحْـوَالٍ تَجَاوَزَتِ العَقْدَ عَدَداً، وَحَسْبُكَ بُعْدَ عَهْدٍ وَنَاهِيْكَ أَمَداً.

وَبَعْدُ، فَجَزَى اللهُ المَرْيَةَ خَيْراً، فَإِنَّهَا أَذْكَرَتْنِي قَوْلَ الأَوَّلِ وَكُنْتُ أُنْسِيتُهُ:

لَـئِنْ سَـاءَنِي أَنْ نِلْتِـنِي بِمَسَـاءَةٍ   لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ[1]

وَلَا –وَأَبِيْكَ– مَا لأَمْتَ فِيْمَا حَكَمْتَ، وَلَا جُرْتَ حَتَّى اسْتَشَطْتَ فَثُرْتَ. إِنَّ النَّصَفَةَ لَفِي خُلُقِكَ، وَإِنَّ العَدَالَةَ لَمِنْ طُرُقِكَ، وَمَا عَبْدُ الحَمِيْدِ، وَلَا الصَّابِئَانِ وَلَا ابْنُ العَمِيْدِ، بِأَعْدَلَ مِنْكَ فِيْهَا حُكْماً، وَأَسَدَّ سَهْماً.

وَبَعْدُ، فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ تُهْمَةِ المُشَارِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ –وَحَقِّكَ– لَبَرِيءُ السَّاحَةِ مِمَّا بِهِ وَسَمْتَهُ وَرَسَمْتَهُ، طَائِشٌ سَهْمُكَ فِيْمَا قَذَفْتَهُ بِهِ وَاقْتَرَفْتَهُ[2].وَأَمَّا حَالُ مَنْ يَعْتَقِدُكَ قَسِيْمَهُ، وَيَجِدُ بِذِكْرِكَ بَرْدَ الأُنْسِ وَنَسِيمَهُ،فَحَالُ مَنْ خَلَّفَ السَّبْعِينَ وَرَاءَهُ، فَهُوَ يَرْتَقِبُ يَوْمَهُ وَيَنْدُبُ أَمْسَهُ، وَيُوَدِّعُ دُنْيَاهُ وَيُنْشِدُ نَفْسَهُ:

هَلْ فَاتَ صَرْفَ الرَّدَى لَبِيدُ   وَطَـاوَلَ الـدَّهْرَ لَا يَبِيـدُ
أَمْ خَـارَ عُـوْدٌ بِـهِ صَـلِيْبٌ   وَخَـرَّ بَيْـتٌ لَـهُ مَشِـيدُ
وَكَيْـفَ نَبْقَـى وَلَـيْسَ يَبْلَـى   دَهْـرٌ تَـوَلَّى بِـهِ حَدِيـدُ
نَطْـوِي زَمَـانَ الحَيَـاةِ كَـدّاً   كَمَـا طَـوَى رَكْضَـهُ البَرِيـدُ

١ – البيت لابن الدمينة ، ديوانه : ١٧ .

٢ – في أ : واقترفته معه *.

وَكَمْ عَسَى يَا أَخَا الشَّكَايَا | تُرْمَى فَتُخْطَى وَكَمْ تَحِيدُ

فَوِّضْ وَسَلِّمْ إِلَى قَدِيرٍ | تَجْرِي اللَّيَالِي بِمَا يُرِيْدُ

فَهْوَ الكَرِيمُ الحَكِيمُ فِيمَا | يَفْعَلُ وَالمُبْدِئُ المُعِيدُ

وَارْضَ بِدَارِ البِلَى مَحَلّاً | لَعَلَّهُ مَنْزِلٌ سَعِيْدُ

فَرُبَّمَا فُزْتَ بالأَمَانِي | إِذَا طَوَى شِلْوَكَ الصَّعِيدُ

وَخَيْرُ مَا تَسْتَنِيلُ رُحْمَى | مِنْ مَلِكٍ بَطْشُهُ شَدِيدُ

يَأْنَسُ فِي قَبْرِهِ المُوَارَى | بِهِ وَفِي لَيْلِهِ الوَحِيْدُ

فَيَا مَلاذِي وَيَا مَعَاذِي | إِذَا طَوَى شَخْصِيَ الكَدِيْدُ

وَعُدْتُ تُرْباً فَلا قَرِيبٌ | يَغْشَى فِنَائِي وَلا بَعِيدُ

امْنُنْ بِحُسْنَاكَ مِنْ جَوَادٍ | فَبَعْضُ أَسْمَائِكَ الحَمِيدُ

وَأَنْجِزِ الوَعْدَ مِنْ كَرِيْمٍ | إِنْ لَمْ يَكُنْ أَنْجَحَ الوَعِيدُ

فَنِعْمَ مَا تَفْعَلُ المَوَالِي | وَبِئْسَ مَا تَفْعَلُ العَبِيدُ[1]

---

١ – وقد بدأ ابن أبي الخصال بالردّ عليه ، ثمّ أبعده المرض من ذلك، ففي إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة ما نصّه:« وابتدأ أبو عبد الله معارضته في هذه القطعة البدعة فقال :

أصخرة أنت أم حديد | يخطئك الوعد والوعيد

أم كوكب يخلق الليالي | وهو على مرّها جديد

ثمّ عرض له – أزاح الله علّته – ما سدّ طريق عارضه الهطل ، وأصلد زند خاطره المشتعل ، على حين شيمت منه هذه البارقة الرائقة، واقتطفت منه هذه الزهرة النضرة،(*ثمّ عبارة مطموسة في ذيل الورقة*)».

وَعِنْدَ فُلاَنٍ مُؤَدِّيهِ، مَا يُوَفِّيهِ، فِيْمَا أَوْمَأْتُ إِلَيْهِ مُفَاوَضَةً، وَيَخْرُجُ عَنْهُ بِطَوْلِهِ مُشَافَهَةً. وَهُوَ وُدٌّ يُغْنِي لَدَيْكَ، وَأَمَانَتِي فِي يُمْنَى يَدَيْكَ. وَمَا فَاءَ[1] عَلَيْهِ مِنْ جَاهِكَ، وَعَادَ إِلَيْهِ مِنْ تُجَاهِكَ، فَأَنَا الشَّاكِرُ عَلَيْهِ شُكْرَ حَسَّانٍ[2]، لِآلِ غَسَّانَ. لاَزِلْتَ عِمَاداً وَعَتَاداً، وَمَراداً يُحْمَدُ وَمَصَاداً [3]، وَلا بَرِحْتَ تُغْشَى، وَتُرْجَى تَارَةً وَتُخْشَى[4].

وَأُبْلِغُكَ تَحِيَّةً، تَتْبَعُهَا تَحِيَّةٌ، عَدَدَ العُشْبِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ[5]، وَالسَّلامُ يَتَعَاقَبُ وَيَتَوَالَى عَلَيْكَ، وَعَلَى مَنْ لَدَيْكَ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى، وَبِمِثْلِهِ تَخُصُّكَ جُمْلَةُ الإِخْوَانِ وَالأَعْيَانِ.

التخريج:

الديوان (طبعة د.غازي):٣١٣-٣١٦

---

١ - فاء : رجع .

٢ - هو حسّان بن ثابت .

٣ - المصاد : أعلى الجبل .

٤ - في الدعاء تعريض بابن أبي الخصال .

٥ - من قول عمر بن أبي ربيعة :

ثمّ قالوا تحبّها قلت بهراً ... عدد النجم والحصى والتراب

شرح ديوانه : ٤٣١ .

[٣٩]

فصل في العتاب[١]:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الشَّيْخِ القَاضِي، عَلَمِ عَصْرِهِ، وَإِنْسَانِ عَيْنِ[٢] مِصْرِهِ، فِي رُتْبَةٍ شَمَخَتْ فَكَأَنَّهَا كَوْكَبٌ، وَرَسَخَتْ فَكَأَنَّهَا كَبْكَبٌ[٣] .

الفَضْلُ- مَا قَدْ عَلِمَهُ الشَّيْخُ القَاضِي[وَفَّقَهُ اللهُ][٤]- جَبَلٌ وَعْرُ المُرْتَقَى، وَجَمَلٌ صَعْبُ المُمْتَطَى، لَا يَتَسَنَّمُ كُلُّ فَارِعٍ[٥] ذِرْوَتَهُ، وَلَا يَمْتَطِي كُلُّ رَاكِبٍ صَهْوَتَهُ، وَشَجَرَةٌ بَاسِقَةُ الأَفْنَانِ مُمْتَدَّةُ الأَفْيَاءِ، ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[٦]، لَا يَطْمَئِنُّ كُلُّ جَنْبٍ فِي ظِلِّهَا، وَلَا تَجْتَنِي كُلُّ يَدٍ مِنْ أُكُلِهَا. وَإِنِّي مَسَحْتُ الأَرْضَ غَرْباً وَشَرْقاً، وَلَقِيتُ الدَّهْرَ جُهْماً وَطَلْقاً، وَشَرِبْتُ العُمْرَ صَفْواً[٧] وَرَنْقاً[٨]، وَحَلَلْتُ أَنْدِيَةَ القُضَاةِ وَالقَضَاءِ، وَحَطَطْتُ[٩] بِأَوْدِيَةِ الفَضْلِ وَالفُضَلاءِ، فَمَا وَطِئْتُ لِأَحَدِهِمْ[١٠] سَاحَةً إِلَّا رَاقَ نَشْرُهُ[١١]، وَرَقَّ قِشْرُهُ، فَمَا الفَضْلُ كُلُّهُ فِي الصَّمْتِ وَالجُمُودِ، حَتَّى يَلْتَبِسَ الإِنْسَانُ بِالجُلْمُودِ[١٢].

ومنها:

وَلَوْلَا أَنِّي[١٣] نَزَّهْتُ سَمْعَهُ عَنِ الشِّعْرِ، لأَرَيْتُهُ كَيْفَ حَوْكُ[١٤] الطَّبْعِ الـمُهَذَّبِ، لِلْوَشْيِ الـمُذَهَّبِ، وَكَيْفَ لَفْظُ بَحْرِ الفِكْرِ، لِلْجَوْهَرِ البِكْرِ، وَلأَطْلَعْتُ مِنْهُ فِي سَمَاءِ مَعَالِيْهِ نُجُومَاً تُنِيرُ، وَرُجُوماً تُبِيْرُ[١٥].

وَآخِرُ مَا أَقُولُهُ، بَعْدَ دُعَاءٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَرْفَعُهُ فِي إِطَالَةِ بَقَائِهِ، وَتَمْكِينِ بَهْجَتِي بِوَفَائِهِ:

أَنْتَ الحَبِيْبُ وَلَكِنِّي أَعُوْذُ بِهِ … مِنْ أَنْ أَكُوْنَ مُحِبّاً غَيْرَ مَحْبُوبِ[١٦]

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥١ — ٥٥٢

مسالك الأبصار: ٩٢-٩٣

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٩-٣٣٠

الشروح وفروق الروايات :

١- في مسالك الأبصار :"ومنه قوله"، وقد وضع القسم الأوّل من الرسالة قبل الثاني .

وفي ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : "وكتب في عتاب".

٢- إنسان العين : البؤبؤ . أي هو أهمّ رجل في مصره أي في بلده .

٣- كَبْكَب : اسم جبل لهذيل بمكّة مشرف على موقف عرفة. وقال ياقوت الحموي : اسم لجبل خلف عرفات

مشرف عليها ، قيل هو الجبل الأحمر الذي تجعله بظهرك إذا وقفت بعرفة ، وهما كبكبان ؛ فكبكب هو نقب يطلعك على بدر ، وكبكب يطلعك على العرج وهو نقب لهذيل .

معجم البلدان : ٤/٤٣٤ .

٤- زيادة من ذيل الديوان (طبعة د.غازي) .

٥- الفارع : الطويل .

٦- سورة إبراهيم :٢٤.

٧- في ب ، م : صرفاً .

٨- الرنق : الكدر .

٩- في مسالك الأبصار :حظيت .

١٠- في مسالك الأبصار :لأحد منهم .

١١- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :نشره .

١٢- الجلمود : الصخر وأصغر الجندل .

١٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : أنّي .

١٤- الحوك : النسج .

١٥- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : تثير .

وتبير : تهلك .

١٦- البيت للمتنبّي ، ديوانه شرح العكبري: ١/ ١٧٦.

[٤٠]

وكانت بينه وبين بعض إخوانه مقاطعة، فاتّفق أن ولي ذلك الصديق حصناً، فخاطبه أبُو إِسْحَاقَ برقعة منها[١]:

أَطَالَ اللّٰهُ بَقَاءَ سَيِّدِي، النَّبِيهَةِ أَوْصَافُهُ النَّزِيْهَةِ عَنِ الاسْتِثْنَاءِ[٢]، المَرْفُوعَةِ قِيَادَتُهُ[٣] الكَرِيمَةِ بِالابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمِّ.

كَتَبْتُ – أَعَزَّكَ اللّٰهُ–[٤] عَنْ وُدٍّ قَدُمَ[٥] هُوَ الحَالُ لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرُمَ[٦] هُوَ الفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ اعْتِلالٌ. وَاللّٰهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الحُرُوفِ الجَازِمَةِ.

وَأَنَا[٧] أَسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ، إِلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ، بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الوَصْلِ وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الفَصْلِ، وَإِلَى عُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ القَطْعِ، إِلَى بَابِ أَلِفِ الوَصْلِ وَالجَمْعِ، حَتَّى تَسْقُطَ[٨] لِدَرْجِ الكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ، وَيَدْخُلَ الانْتِقَالَ حَالُ الصَّمْتِ.

فَلا تَتَخَيَّلْ– أَعَزَّكَ اللّٰهُ– أَنَّ رَسْمَ إِخَائِكَ عِنْدِي ذُوْ حُسىً[٩] قَدْ دَرَسَ عَفَاءً[١٠]، وَلَا أَنَّ صَدْرِي "دَارُ مَيَّةَ" أَمْسَى مِنْ وُدِّكَ خَلاءً[١١]، وَإِنَّمَا

أَنَا فِعْلٌ إِذَا ثُنِّيَ [بِوُدِّكَ][١٢] ظَهَرَ مِنْ ضَمِيْرِ وُدِّهِ مَا بَطَنَ، وَبَدَا مِنْهُ مَا كَانَ[١٣] كَمَنَ.

وَهَنِيئاً [١٤] - أَعَزَّكَ اللهُ- أَنَّ فِعْلَ وِزَارَتِكَ حَاضِرٌ[١٥] لَا يَلْحَقُ رَفْعَهُ تَغْيِيرٌ، وَأَنَّ فِعْلَ سَيْفِكَ[١٦] مَاضٍ مَا بِهِ لِلعَوَامِلِ تَأْثِيرٌ، وَأَنْتَ بِمَجْدِكَ جِمَاعُ أَبْوَابِ الظَّرْفِ[١٧]، تَأْخُذُ نَفْسَكَ العَلِيَّةَ بِمُطَالَعَةِ بَابِ الصَّرْفِ، وَدَرْسِ حُرُوفِ العَطْفِ، وَتُدْخِلُ لَامَ التَّبْرِئَةِ عَلَى مَا حَدَثَ مِنْ عَتْبِكَ، وَتُوجِبُ بَعْدَ النَّفْيِ مَا سَلَفَ مِنْ قُرْبِكَ[١٨]، وَتَدَعُ أَلِفَ الأُلْفَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدُ مِنْ حُرُوفِ اللِّيْنِ، وَتَرْفَعُ للإِضَافَةِ[١٩] بَيْنَنَا وُجُودَ التَّنْوِينِ، وَتَسُومُ سَاكِنَ الوُدِّ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَمُعْتَلَّ الإِخَاءِ أَنْ يَصِحَّ.

وَكِتَابِي هَذَا حَرْفُ صِلَةٍ فَلا تَحْذِفْهُ، وَلَا تَدُلَّ[٢٠] فِي اسْمِ الجَوَابِ عَلَى سَرْوِكَ فَاصْرِفْهُ. فِيْهِ[٢١] الأُنْسُ- وَالأُنْسُ ثُلاثِيٌّ- فَلا تُرَخِّمْهُ، وَفِعْلٌ مَاضٍ فَلا تَجْزِمْهُ، حَتَّى تَعُودَ الحَالُ الأُوْلَى[٢٢] صِفَةً، وَتَصِيرَ هَذِهِ النَّكِرَةُ مَعْرِفَةً، فَأَنْتَ- أَعَزَّكَ اللهُ- مَصْدَرُ فِعْلِ السَّرْوِ[٢٣] وَالنُّبْلِ، وَمِنْكَ اشْتِقَاقُ اسْمِ السُّؤْدُدِ وَالفَضْلِ.

وَإِنَّكَ- وَإِنْ تَأَخَّرَ العَصْرُ بِكَ- كَالفَاعِلِ وَقَعَ مُؤَخَّراً[٢٤]، وَعَدُوُّكَ- وَإِنْ تَكَبَّرَ- كَالكُمَيْتِ[٢٥] لَمْ يَقَعْ إِلَّا مُصَغَّراً.

وللأَيَّامِ[٢٦] عِلَلٌ[٢٧] تَبْسُطُ وَتَقْبِضُ[٢٨]، وَعَوَامِلُ تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ، فَلا دَخَلَ عَرُوضَكَ[٢٩] قَبْضٌ، وَلَا عَاقَبَ رَفْعَكَ خَفْضٌ، وَلازِلْتَ مُرْتَبِطاً بِالفَضْلِ شَرْطُكَ وَجَزَاؤُكَ ، جَارِياً عَلَى الرَّفْعِ سَرْوُكَ الكَرِيمُ وَسَنَاؤُكَ[٣٠]، حَتَّى يُخْفَضَ[٣١] الفِعْلُ، وَتُبْنَى[٣٢] عَلَى الكَسْرِ [بَعْدُ وَ][٣٣] قَبْلُ[٣٤]، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ .

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٦-٥٤٨

إحكام صنعة الكلام : ١٣٧ -١٤٠

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ٥٣٧/١

ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٢٦ -٣٢٧-٣٢٨

الشروح وفروق الروايات :

١- في إحكام صنعة الكلام :"فمن ذلك رسالة كتب بها إلى فتى من أهل الأدب وقد ولي حصناً ، وكانت بينهما مقاطعة أوّلها".

٢- يستخدم ابن خفاجة في هذه الرسالة المصطلحات النحويّة المعروفة، وبعض المصطلحات العروضيّة، وحلّ أبيات الشعر ممّا يسمّى بالمرصّع في نقد النثر .

انظر إحكام صنعة الكلام :١٣٤

٣- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) :إمارته

٤- زيادة من إحكام صنعة الكلام .

٥- في نفح الطيب :قديم .

٦- في نفح الطيب :كريم .

٧- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : إنّما .

٨- في نفح الطيب :يسقط .

٩- إشارة إلى قول النابغة الذبياني:

عفا ذو حسى من فرتنا فالفوارع   فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

ديوانه :٣٠.

١٠- في إحكام صنعة الكلام :وعفا ...خلا

١١- إشارة إلى قول النابغة أيضاً :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأبد

...

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

ديوانه :١٤ ، ١٦.

١٢- زيادة من ذيل الديوان (طبعة د.غازي)

١٣- سقط من إحكام صنعة الكلام ونفح الطيب .

١٤- في ذ (ق) : ومكيناً *.

١٥- في ذ (ق) ، وذ (م) : سالم *.

١٦- في ذ(ق) : سيف فعلك *

١٧- في الكلام تورية ، فالظرف من المصطلحات النحويّة المعروفة (ظرف مكان وظرف زمان) ، والظَّرف :الكياسة وذكاء القلب ، وحسن العبارة والبلاغة .

١٨- في الذخيرة : عتباك ،والمثبت من نفح الطيب وذيل الديوان (طبعة د.غازي) .

١٩- في ذيل الديوان (طبعة د.غازي) : بالإضافة.

٢٠- في إحكام صنعة الكلام : فلا تقل .

٢١- في إحكام صنعة الكلام : ففيه .

وفي ذ (ق) : فبه *.

٢٢- في ذ (ق) : الأول *.

٢٣- في نفح الطيب :السرور .

والسرو : المروءة في الشرف ، أو السخاء في مروءة .

٢٤- في ذ (ق) : متأخراً *.

٢٥- الكُميت : لون بين السواد والحمرة ، وغلب على صاحب هذا اللون من الخيل ، ولم يلفظوا مكبّره .

٢٦- في إحكام صنعة الكلام : والأيّام .

٢٧- العلل : من المصطلحات العروضيّة ، جمع علّة ، وهي تغيير لازم لجميع أبيات القصيدة ؛ زيادةً وحذفاً .

٢٨- القبض في العروض : هو حذف الخامس الساكن ، (فعولن – فعولُ) .

٢٩- في ذ (م) : بعروضك *.

٣٠- السناء : المجد والرفعة .

٣١- الخفض : الجرّ ، وهو للأسماء لا للأفعال .

٣٢- في إحكام صنعة الكلام :يبنى .

٣٣- زيادة من إحكام صنعة الكلام .

٣٤- أي دائماً لأنّ الفعل لا يخفض مطلقاً ، وقبلُ وبعدُ ظرفان لا يبنيان على الكسر مطلقاً بل يبنيان على الضمّ فقط عندما يكونان مقطوعين عن الإضافة .

[٤١]

فصل[١] :

يُقَــاسُ الــمَرْءُ بِالــمَرْءِ   إِذَا مَــا الــمَرْءُ مَاشَــاهُ

وفي الشَّــيْءِ مِــنَ الشَّــيْءِ   عَلَامَــاتٌ وَأَشْــبَاهُ[٢]

مَا أَنْتَ وَالعِتْرَةُ الفُلَانِيَّةُ، إِنَّمَا هُمْ أَجْنَاسٌ ، كُلُّهُمْ أَنْجَاسٌ ، إِلَّا الشَّاذَّ فِيْهِمْ ، والنَّادِرَ مِنْهُمْ ، وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ ، وَأَمَّا فُلَانٌ مِنْهُمْ :

فَهْــوَ الخَبِيْــثُ عَيْنُــهُ فِــرَارُهُ

أَطْلَــسُ يُخْفِــي شَخْصَــهُ غُبَــارُهُ

فِي شِــدْقِهِ شَفْــرَتُهُ وَنَــارُهُ [٣]

مَا شَبَّ حَتَّى سَبَّ ،وَلَا نَفَثَ حَتَّى رَفَثَ ،وَلَا زُرَّ لَهُ جَيْبٌ ،إِلَّا عَلَى عَيْبٍ ، وَلَا نِيْطَتْ بِهِ تَمِيْمَةٌ ، إِلَّا عَلَى نَمِيْمَةٍ ، فَهُوَ إِذَا حَضَرَ أُذُنُ وَعْيٍ ، وَعَيْنُ رَعْيٍ ، وَبِظَهْرِ الغَيْبِ إِنْسَانُ ظَنَّةٍ ، ولسانُ غِيبةٍ[٤] ، لَا يَشْتَمِلُ ثَوْبُهُ إِلَّا عَلَى شَخْصِ نَقْصٍ ، وجَسَدِ حَسَدٍ ، لَا يَهْدَأُ شَرُّهُ وَلَا يُطْفَأُ شَرَارُهُ ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ لِيْنُ أَعْطَافِهِ ، وَلُدُوْنَةُ كَلِمَتِهِ ، فَإِنَّ الحَيَّةَ لَيِّنَةُ المَلْمَسِ ، لَدْنَةُ المَجَسِّ فَإِنْ لَحِظْتَهُ – عَافَاكَ اللهُ – فَلَحْظاً شَزْراً ، أَوْ جَاذَبْتَهُ الحَدِيْثَ فَقَلِيْلاً نَزْراً ،

كَمَـا يَمَـسُّ بِظَهْـرِ الحَيَّـةِ الفَـرِقُ[٥]

وَإِنَّهُ لَيَحْضُرُ النَّدِيَّ ، فَيَحْفَظُ مَا يُلْفَظُ ، وَيَلْتَقِطُ مَا يَسْقُطُ ، فَهُوَ كَاتِبُ الشِّمَالِ، غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ مَرَّتْ بِهِ(٦) فِي صَحِيْفَةِ ذِكْرِكَ حَسَنَةٌ سَامَهَا بَشْراً ، أَوْ عَثَرَ بِسيِّئَةٍ كَتَبَهَا عَشْراً ، لَا يُعْنَى إِلَّا بِعَرَضِ غَرَضٍ ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَيْطَانِهِ ، وَتَوَقَّ مِنْ مُوْبِقَاتِ أَشْطَانِهِ .

التخريج :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٦١ — ٥٦٢

مسالك الأبصار : ٩٢ ولم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

الشروح وفروق الروايات :

١- في مسالك الأبصار : وقوله .

٢- ممّا ينسب لعليّ بن أبي طالب(كرم الله وجهه)، ديوانه : ١٥١.

٣- الرجز لمجهول في وصف الذئب ، انظر ذيل الأمالي :١٢٩/٣ البيان والتبيين : ١٥٠/١ ، جمهرة الأمثال : ٧٨/١ ، ديوان المعاني : ١٣٤/٢ ، المصون في الأدب : ٧٣.

٤- في مسالك الأبصار : ريب .

٥- عجز بيت للحارث بن خالد المخزومي ، وصدره :

تعطيك شيئاً قليلاً وهي خائفة

انظر : نسب قريش : ١٩٢ ، زهر الآداب : ٢٨٨/١

تاريخ دمشق : ٤١٨/١١.

٦- في مسالك الأبصار : بيمينه .



رابعاً

النثر النقدي

[١]

قال ابن خفاجة :

...

فَلَوَيتُ أَعناقَ المَطِيِّ مُعَرِّجاً وَنَزَلتُ أَعتَنِقُ الأَراكَ مُسَلِّما
مُتَنَسِّماً نَفَسَ القُبولِ وَرُبَّما أَورى زِنادَ الشَّوقِ أَن أَتَنَسَّما
فَأَسَلتُ أَحساءَ الدُّموعِ عَلاقَةً وَلَوَيتُ أَحناءَ الضُّلوعِ تَأَلُّما
في مَنزِلٍ ما أَوطَأَتْهُ حَافِراً عُرْبُ الجِيادِ وَلا المَطَايَا مَنسِما
أَكرَمتُهُ عَن أَن يُذَالَ بِوَطْأَةٍ وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما
دَمَعَتْ بِهِ عَينُ الغَمَامِ صَبابَةً وَلَرُبَّما طَرِبَ الجَوَادُ فَحَمْحَما
ما أَذكَرَتْنِي العَهْدَ فِيهِ أَيكَةٌ إِلَّا بَكَيْتُ فَسالَ واديها دَما
وَسَجَعتُ أَندُبُ لَوْعَةً وَلَرُبَّما صَدَحَ الحَمَامُ يُجيبُني فَتَعَلَّما

قوله في هذه القصيدة:

« وَنَزَلتُ أَعتَنِقُ الأَراكَ مُسَلِّما »

ينظر إلى قول أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

نَزَلْنا عَنِ الأَكْوارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً لِمَنْ بانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبا[١]

١ – ديوان المتنبّي بشرح العكبري : ١/٥٦ .

والقسم الآخر من هذا البيت من الكلام الموجز - وهو تضمين جميع معنى قول أبي الطَّيِّبِ في بيان المعنى بقوله «نزلتُ مُسَلِّمَا» - غنيّ بالإشارة عن العبارة. وهلْ نزل مسلِّماً إلَّا إجلالاً للديار، وتكرمةً للرسوم والآثار؟ ثمّ إنّه لمّا مشى في قصيدته شيئاً، عطف بنحوه، وأتى ببيتين مع زيادة وإفادة، وهما قوله:

فِي مَنــزِلٍ مــا أَوطَأْتُــهُ حَــافِراً　　　عُرْبُ الجِيادِ وَلا الـمَطَايَا مَنْسِما

أَكرَمتُــهُ عَــن أَن يُــذَالَ بِوَطْــأَةٍ　　　وَلِمِثلِــهِ مِــنْ مَنــزِلٍ أَن يُكْرَمــا

فجمع بين المراكب من خيل وإبل. ولما فرغ من المعنى في صدر البيت الثاني، تمّمه بقوله:

« وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما »

فإنّه قد يكرم غير كريم، ويجلّ غير جليل.

وفي بيت الـمُتَنَبِّي لفظة تغضّ من شرفه، وهي لفظة «من». وهي ها هنا مستجفاة، لا مستحلاة. ولو أنّه قال:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً　　　لِأَهْلِيْهِ أَنْ نَغْشَى رُسُوْمَهُمُ رَكْبَا

لجاء البيت أتمّ جلالة وجزالة، لكنّ أبَا الطَّيِّبِ إنّما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالألفاظ. وربّما قال قائل: للفظة «بان» معنى في البيت. فيقال

له: إنّ لفظة الرسوم تعطي ما تعطيه لفظة «بان» من إقواء المنزل، فاللفظان متساويان هنا.

وربّما أنكر علينا منكر ما أوردناه في لفظة «من»، إمّا لاعتياده إنشاد البيت حسب ما وقع حتّى ألفته نفسه وطبعه، واستساغه لسانه وسمعه، وإمّا لجساوة في حسه، وغباوة في نفسه، وذلك ما ليس في رفع أَوَدِه من أمل، ولا عمل.

والدليل على ما ذكرناه في لفظة «من»، أنّك تجد قولك « لقيت من ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت الذي ضرب زيداً»، وقولك «لقيت الذي ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت ضارب زيد». وكلّ ذلك إنّما ينزل في النفس عن مرتبة الجلالة لا عن المعنى.

وربّما حمل علينا حامل فقال: إنّ هذا الرجل يتعاطى رتبة في الشعر فوق رتبة المُتَنَبِّي. وليس الأمر كذلك، لأنّه لم يعترضه في جملة شعره، وإنّما اعترضه في لفظة، وهذا ليس بمستنكَر ولا بمستكبر.

التخريج:

الديوان (طبعة د.غازي): ٢٨٢- ٢٨٥ .

[٢]

ومنه قوله[١]:

وَمُهَفْهَفٍ طَاوِي الحَشَا خَنِثِ المَعَاطِفِ وَالنَّظَرْ

بَهَرَ[٢] العُيُونَ بِصُورَةٍ تُلِيَتْ مَحَاسِنُهَا سُوَرْ

فَإِذَا رَنَا وَإِذَا شَدَا[٣] وَإِذَا سَعَى[٤] وَإِذَا سَفَرْ

فَضَحَ المُدَامَةَ وَالحَمَامَةَ وَالغَمَامَةَ[٥] وَالقَمَرْ

قال الوزير أبو إسحاق :« سبب هذه القطعة أنّي ذهبت يوماً أريد باب السَّمَّارين[٦] بِشَاطِبَةَ، ابتغاء الفرجة على جرية[٧] ذلك الماء بتلك

---

١ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :قال .

٢ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :ملأ .

٣ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :مشى .

٤ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :شدا .

٥ – في بدائع البدائه : الغزالة والنعامة والحمامة . وفي النفح : الغزالة والغمامة والحمامة.

٦ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :خرجت يوماً بشاطبة إلى باب السمّارين .

٧ – في بدائع البدائه :خرير الماء . وفي النفح :خرير ذلك الماء.

الساقية، وذلك سنة ثمانين وأربعمئة. وإذا الفقيه أبُو عِمْرَانَ ابنُ أَبِي تَلِيد– رحمه الله– قد سبقني إلى ذلك، فألفيته جالساً على مصطبة[1] كانت هنالك مبنية لهذا الشأن. فسلّمت عليه، وجلست إليه متأنّساً به وبتلك الحال. فأنشد[2] أثناء ما تناشدناه قول ابْنِ رَشِيق، رحمه الله:

يَا مَنْ يَمُرُّ وَلا تَمُرْ … رُ بِهِ القُلُوبُ مِنَ الفَرَقْ[3]

بِعِمَامَةٍ مِنْ خَدِّهِ … أَوْ خَدُّهُ مِنْهَا اسْتَرَقْ

فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا … قَمَرٌ تَعَمَّمَ بِالشَّفَقْ

فَإِذَا بَدَا وَإِذَا مَشَى … وَإِذَا رَنَا[4] وَإِذَا نَطَقْ

شَغَلَ الجَوَانِحَ وَالجَوَا … رِحَ وَالخَوَاطِرَ[5] وَالحَدَقْ

فقال[6]، وقد أعجب بها جدّاً، [وأثنى عليها كثيراً][7]: أحسن ما في القطعة حسن سياقة الأعداد[8]. فقلت له: هي حسنة، ولكنّها دون

١ – في بدائع البدائه ونفح الطيب : دكان .

٢ – في ونفح الطيب : فجرى .

٣ – في بدائع البدائه :الحرق .

٤ – في نفح الطيب :وإذا انثنى وإذا شدا .

٥ – في بدائع البدائه :شغل الخواطر والجوارح والمسامع .

٦ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :فقلت .

٧ – زيادة من البدائع ونفح الطيب .

٨ – في بدائع البدائه : والاستنزال لكنه قد استرسل .

موقعها منك. وإلّا، ألست تراه قد استرسل، فلم يقابل بين ألفاظ[١] البيت الأخير والبيت الذي قبله، فيُنزل بإزاء كلّ واحد منها ما يلائمها[٢]؟ وهل يحسن أن يُنزِل بإزاء قوله «وَإِذَا نَطَقْ»، قوله «شَغَلَ الحَدَقْ»؟ وكأنّه نازعني القول في هذا[٣]، فقلت [٤]هذه القطعة المتقدّمة أنسج على ذلك المنوال.

فاستحسنها ابنُ أَبِي تَلِيد [٥].

التخريج :

- المطرب :١١١-١١٣
- بدائع البدائه :٣٧٧-٣٧٨
- نفح الطيب : ٣٢٠/٣ (نقلاً عن بدائع البدائه).

---

١ – في بدائع البدائه :أطراف .

٢ – في بدائع البدائه :يلائمه .

٣ – في بدائع البدائه :غاية الجهل . وفي ونفح الطيب: الجهد .

٤ – في بدائع البدائه ونفح الطيب :"فقلت بديهاً " وأوردا المقطّعة في هذا الموضع .

٥ – في بدائع البدائه :فجنّ بها . وفي نفح الطيب : فجنّ بها استحساناً.

وعلّق ابن ظافر عليها :"قال علي بن ظافر : والقطعة الأولى ليست لابن رشيق بل هي لأبي الحسين علي بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة" . والشاعر في يتيمة الدهر :٤٠٤/١ . والشعر ليس فيها ، وهو في ديوان ابن رشيق :١٠١ .

وقال ابن دحية :"هذا تعسّف ولم يرد ابن رشيق مقابلة الأعداد بعضها ببعض، وإنّما أراد أنّ جملة محاسن هذا النيّر الزاهر شغلت جملة هذا المتأمّل الناظر ".

[٣]

إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماءٍ، ورنَّة طائر، ما هو إلّا لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِر عليها وجِبلَّة، وإمَّا لأنّ الجزيرة كانت داره، ومنشأَه وقراره، وحسبك من ماءٍ سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة، وأرض أرِيضة.

فلم يعدمْ هنالك، من ذلك، ما يبعث مع الساعات أُنْسَه، ويحرّك إلى القول نفسَه، حتّى غلب عليه حبُّ ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ، لا تكلّفٍ، مع اقتناع، قام مقامَ اتساع، فأَغناه عن تبذُّل وانتجاع.

فمن قوله في ذلك يصف مكاناً صابته سماء، وطلَّته أنداءٌ، فتَبَيَّض بنُوّاره، وتفضَّض، وتذهَّب بأزهاره وتلهَّب، ويندب إلى راح وارتياح، وينعت طائراً يولْوِل هناك ويهدر، وشجرة يتساقط نُوَّارها عليه وينتثر:

أَذِنَ الغَمَـــــامُ بِديمَــــةٍ وَعُقَـــــارِ
فَــــامْزُجْ لُجَينـــاً مِنْهُمـــا بِنُضَـــارِ

...

التخريج:

الديوان (طبعة د.غازي): ٢٩٠-٢٩١ .

[٤]

شرح ابن خفاجة آخر أبيات قصيدته :

...

مَـــا غَـــصَّ بِالدَّمْعَـــةِ إِلَّا هَفَـــا　　　فَـانظُرْ تَجِـدْ ثَمَّ السِّـوَارَ وَالوِشَـاحْ

شأن حلية الأذرع والأسوُق أنْ توصف بالغَصَص والشَّرَق، كما أنّ حلية الآذان والخصور توصف بالجَولان والقَلَق.

فالمعنى أنَّ هذا الحاسد قد جمع بين الشَّرَق والقَلَق، فهو كلّ واحد من هذين الموصوفين في حالة واحدة.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي): ١٦٧ .

[٥]

وعلّق ابن خفاجة على آخر أبيات قصيدته :

...

فَرَغِبْتُ عَنْ نَوْرِ الصَّباحِ لِزَوْرَةٍ   أُغْرَى لَهَا بِبَنفْسَجِ الظَّلْمَاءِ

نَوْر الصباح في البيت الأخير من القطعة المهموزة ثبت فيها مفتوح النون، وسيغيّر فينشد لا محالة مضموم النون فينقص رونق البيت.

التخريج :

الديوان (طبعة د.غازي): ١٥٤ .



الفهارس الفنّيّة

فهرس المصادر والمراجع

ـ **أبجد العلوم؛ الرحيق المختوم من تراجم أئمة العلوم**، صدّيق القنّوجي تحقيق عبد الجبّار زكّار ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٩.

ـ **إحكام صنعة الكلام** ، ابن عبد الغفور الإشبيلي، تحقيق د. محمّد رضوان الداية ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥.

ـ **أخبار أبي نواس** ، أبو هفّان المهزمي، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د.ت .

ـ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام** ، لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق إ.ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، ط٢، ١٩٥٦.

ـ **الأغاني** ، أبو الفرج الأصفهاني ، ج١٨، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة جمال للطباعة ، بيروت ، د.ت.

ـ **برنامج شيوخ الرعيني** ، علي بن محمّد الرعيني الإشبيلي ، تحقيق إبراهيم شبّوح ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٢.

ـ **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** ، ابن عميرة الضبّي ، تحقيق

د. صلاح الدين الهوّاري ، المكتبة العصريّة ، صيدا، ط١، ٢٠٠٥.

ـــ **بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة** ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة ، صيدا – بيروت، د.ت.

ـــ **البيان والتبيين** ، أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت .

ـــ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، ابن عذاري المراكشي، الجزء الرابع ، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧.

ـــ **تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين** ، د.إحسان عبّاس ، الطبعة السابعة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٥.

ـــ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** ،شمس الدين الذهبي ، تحقيق عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١،١٩٨٧.

ـــ **تاريخ ابن خلدون** ، ابن خلدون ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، ٢٠٠١ .

ـــ **تاريخ دمشق** ، ابن عساكر ، تحقيق عمر بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥.

ـــ **تحفة القادم**، ابن الأبّار، تحقيق د.إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي

بيروت ، ط١، ١٩٨٦.

ـ **التكملة** ، ابن الأبّار، تحقيق الفريد بل وابن أبي شنب ،المطبعة الشرقيّة الجزائر ، ١٩١٩.

ـ **التمثيل والمحاضرة** ، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق د.عبد الفتّاح الحلو، الدار العربيّة للكتاب، د.م ، ١٩٨٣.

ـ **جمع الجواهر في الملح والنوادر** ، أبو إسحاق الحصري القيرواني ، تحقيق علي محمّد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٧.

ـ **جمهرة الأمثال** ، أبو هلال العسكري ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨.

ـ **الحلّة السيراء** ، ابن الأبّار، تحقيق د.حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٥.

ـ **الحماسة** ،لأبي تمّام برواية ابن الجواليقي، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح ، منشورات وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٨٠.

ـ **الحماسة** ،لأبي تمّام ترتيب الأعلم الشنتمري، تحقيق د.مصطفى عليّان،

معهد البحوث الإسلاميّة ، جامعة أمّ القرى ، مكّة المكرّمة ، ط١، ١٤٢٣هـ .

ــ **الحماسة البصريّة** ، صدر الدين البصري، تحقيق مختار الدين البصري ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣.

ــ **خريدة القصر وجريدة العصر** ، العماد الأصبهاني ، تحقيق آذرتاش آذرنوش ومحمّد المرزوقي ومحمّد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى ، الدار التونسيّة للنشر ، تونس ، ط١، ١٩٧١.

ــ **خزانة الأدب وغاية الأرب** ، ابن حجّة الحموي ، المطبعة الخيريّة ، القاهرة ، ١٣٠٤ هـ.

ــ **ابن خفاجة** ، د. محمّد رضوان الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٢.

ــ **ابن خفاجة الأندلسي** ، عبدالرحمن جبير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢ ، ١٩٨١.

ــ **ابن خفاجة الأندلسي؛ شاعر شرق الأندلس**،د.حسن محمّد نور الدين دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٩٩٠.

_ **دولة الإسلام في الأندلس؛ عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس** ، محمّد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣، ١٩٨٨.

_ **ديوان الأعشى الكبير**، شرح د. محمّد محمّد حسين، مؤسّسة الرسالة ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨٣ .

_ **ديوان البحتري** ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف، القاهرة ، ط٣، ١٩٧٧.

_ **ديوان ابن خفاجة** ، تحقيق د.السيّد مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندريّة ، ١٩٦٠.

_ **ديوان دريد بن الصمّة** ، تحقيق عمر عبد الرسول ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٥.

_ **ديوان ابن الدمينة** ، تحقيق أحمد راتب النفّاخ ، دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٥٩.

_ **ديوان ابن رشيق القيرواني** ، جمع محيي الدين ديب ، المكتبة العصريّة ، صيدا ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨.

_ **ديوان ابن الرومي** ،تحقيق د. حسين نصّار وجماعة ، د.ن ، القاهرة ١٩٣٣.

ـ **ديوان شعر بشّار بن برد** ، جمع بدر الدين العلوي ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

ـ **ديوان ابن عبد ربّه** ، تحقيق د. محمّد رضوان الداية ، مؤسّسة الرسالة ، بيروت ، ط ١، ١٩٧٩ .

ـ **ديوان قيس بن الخطيم** ، تحقيق وجمع د. ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧.

ـ **ديوان المتنبّي** ، بشرح أبي البقاء العكبري ، تحقيق مصطفى السقّا ، إبراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، (د.ت) .

ـ **ديوان مجنون ليلى** ، جمع عبد الستّار أحمد فرّاج ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٩.

ـ **ديوان المعاني** ، أبو هلال العسكري ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، د.ت.

ـ **ديوان النابغة الذبياني** ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧.

ـ **ديوان أبي نواس** ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٤.

ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، ابن بسّام الشنتريني ،تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الثقافة، بيروت ،١٩٧٩.

ـ **ذيل الأمالي والنوادر**، أبو علي القالي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠ .

ـ **الذيل والتكملة** ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر الخامس ، الجزء الأوّل ، تحقيق د.إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥.

ـ **رسائل ابن أبي الخصال** ، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت ،ط١ ، ١٩٨٨ .

ـ **رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة** ، الشريف السبتي ، مطبعة دار السعادة ، مصر ، ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م .

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، محمّد بن عبد المنعم الحميري ، تح د.إحسان عبّاس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٠.

ـ **ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا** ، شهاب الدين الخفاجي ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، مكتبة محمد عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٧ .

ـ **زهر الآداب وثمر الألباب** ، أبو إسحاق الحصري القيرواني ،ضبط زكي مبارك ،تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢ .

ـ **سقط الزند** ، أبو العلاء المعرّي ، دار صادر، دار بيروت ، بيروت ، ط١ ،١٩٥٧.

ـ **سير أعلام النبلاء** ، الحافظ الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، محمّد نعيم عرقسوسي ، مؤسّسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥ .

ـ **شرح ديوان الحماسة** ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت ، ط١، ١٩٩١.

ـ **شرح ديوان الفرزدق**، ايليا حاوي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣.

ـ **شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة** ،تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ، دار الأندلس ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣.

ـ **شعر ابن ميّادة** ، جمع د. حنّا جميل ، مجمع اللغة العربيّة ، دمشق . ١٩٨٢ .

ـ **شعر نصيب بن رباح** ، جمع وتقديم د.داود سلّوم ، مطبعة الإرشاد بغداد ، ١٩٦٧.

ـ **الشعر والشعراء** ، ابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمّد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

ـ **شعر يزيد بن الطثريّة** ، جمع د.ناصر الرشيد، دار الوثبة، دمشق، د،ت.

ـ **الصلة** ، ابن بشكوال ، الدار المصريّة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

ـ **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال** ، أبو عبيد البكري ، تحقيق د. إحسان عبّاس وعبد المجيد عابدين ،مؤسّسة الرسالة ، ط٣ ، ١٩٨٣ .

ـ **فهرسة ما رواه عن شيوخه** ، ابن خير الإشبيلي، تحقيق كوديرا ، تراجو، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .

ـ **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان** ، ابن خاقان ، تحقيق د. حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار ، عمّان ، ١٩٨٥.

ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** ، العجلوني الجراحي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٥١هـ.

ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، حاجي خليفة ، دار إحياءِ التراث العربي ، بيروت ، د.ت.

ـ **لسان الميزان** ،ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت ،د.ت.

ـ **مجمع الأمثال** ،أبو الفضل الميداني تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار النصر ، دمشق ، بيروت ، د،ت .

ـ **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، الراغب الأصبهاني، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د. ت .

ـ **المستقصى في الأمثال** ، جار الله الزمخشري ، دار الكتب العلميّة ، بيروت، ط٢، ١٩٧٧ .

ـ **المصون في الأدب** ، أبو هلال العسكري، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، الرياض ،ط٢ ، ١٩٨٢.

ـ **المطرب من أشعار أهل المغرب** ، ابن دحية الكلبي ، تحقيق إبراهيم الأبياري ورفاقه ، المطبعة الأميريّة، القاهرة، ١٩٥٤.

ـ **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، عبد الرحيم العبّاسي ، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٧.

_ **معجم البلدان** ، ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١، ١٩٧٩.

_ **معجم السفر** ، الحافظ السلفي ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٣.

_ **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي** ، ابن الأبّار، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧.

_ **المغرب في حلى المغرب** ، ابن سعيد الأندلسي ، تحقيق د. شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨.

_ **مناهج الفكر ومباهج العبر** ،جمال الدين الوطواط، إصدار د.فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربيّة الإسلاميّة، فرانكفورت، ألمانية الاتحاديّة، ط١، ١٩٩٠.

_ **من الشعر المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب**، تحقيق عبد العزيز سيّد الأهل ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠ .

_ **من مطالع البدور في منازل السرور** ، علاء الدين البهائي الغزولي ، مطبعة إدارة الوطن ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ.

_ **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، حازم القرطاجنّي ، تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٦.

ـ **نسب قريش** ، المصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٢.

ـ **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة** ، محمّد أمين المحبّي ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٨ .

ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، شهاب الدين النويري ، السفر العاشر، دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، ١٩٣٣.

ـ **هديّة العارفين أسماء المؤلّفين آثار المصنّفين** ، إسماعيل البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت.

ـ **الوافي بالوفيات** ، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق أحمد الأرنؤوط ، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٠.

ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، ابن خلّكان ، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ط١، ١٩٨٦.

ـ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، د. ت .

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس مجموع نثره

• مع الأصدقاء والإخوان

٦- التقريظ

٧- التهنئة

٨- التعزية

٩- الشكوى

الفهرس

كتب المؤلّف المطبوعة

١-كشف الأسرار عن حِكَم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي ، دراسة وتحقيق (بالمشاركة) دمشق (١٩٨٩) .

٢- شعر ابن شُخيص الأندلسي ، دراسة وجمع ، دمشق (١٩٩٢).

٣- غريب القرآن على حروف المعجم لابن عُزيز السجستاني ، دراسة وتحقيق ، دمشق (١٩٩٣).

٤- وصف البحر في الشعر الأندلسي ، دراسة فنّيّة ، دمشق (١٩٩٤) .

٥- الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية والأندلسية ، دراسة فنّيّة ، دمشق (١٩٩٦) .

٦- شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي ، دراسة وجمع وتحقيق دمشق (١٩٩٧) .

٧- عَلَم الدين اللّورَقي الأندلسي ؛ حياته وقصيدته الميميّة ، دراسة وتحقيق ، دمشق (١٩٩٨) .

٨- معدِّل الصلاة للإمام البركوي ، دراسة وتحقيق (بالمشاركة) ، دمشق (١٩٩٩).

٩- **شراع** ، مجموعة شعريّة ، دمشق (٢٠٠٠) .

١٠- الروض الأنيق والوعظ الرشيق ، لابن غانم المقدسي ، دراسة وتحقيق ، دمشق (٢٠٠١) .

١١ – في تحليل الأسلوب الأدبي لابن غانم المقدسي ، دراسة فنّيّة ، دمشق (٢٠٠٤) .

١٢ – شعر ابن هذيل القرطبي الأندلسي ، دراسة وجمع ، دمشق ، (٢٠٠٥) .

١٣– شعر إدريس بن اليمان اليابسي الأندلسي ، دراسة وجمع، دمشق (٢٠٠٦) .

١٤– الفتوحات الغيبية في الأسرار القلبية ، لابن غانم المقدسي ، دراسة وتحقيق ، دمشق (٢٠٠٧) .

١٥ – محمّد بن الحسين الطبني الأندلسي ؛ حياته ومجموع شعره ، دراسة وجمع ، حلب (٢٠١٢) .

١٦– المهند البغدادي الأندلسي ؛ حياته ومجموع شعره ، دراسة وجمع ، حلب (٢٠١٢) .

١٧ – الشاعر الوزير المؤذّن عبيد الله بن يحيى بن إدريس الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره، دراسة وجمع ، حلب (٢٠١٢) .

١٨ – صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي ؛ حياته ومجموع شعره، دراسة وجمع ، حلب (٢٠١٢) .

١٩ – تحليل أسلوبي لقصيدة أبي تمّام في الصداقة ، دراسة فنّيّة ، حلب (٢٠١٣) .

٢٠ – ابن خفاجة الأندلسي ؛ حياته وروائع أدبه ، دراسة ، حلب (٢٠١٤) .


ولا غالب الا الله